

الأكثر مبيعا في قائمة نيويورك تايمز

جين هاربر

لكاتبة
الجريمة
الأكثر
شهرة

الرجل

المفقود

THE LOST
MAN

مكتبة 1277

ترجمة: ميسرة صلاح الدين

عصير
الكتب

الرُّجُلُ المَفْقُود

مكتبة | 1277



لتجارة الكتب

إدارة التوزيع

© 00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

- ترجمة: ميسرة صلاح الدين
- تدقيق لغوي: محمود عاطف
- تنسيق داخلي: معتر حسنين علي
- الطبعة الأولى: يناير / 2023م
- رقم الإيداع: 2021/25341
- الترقيم الدولي: 3-76-6902-977-978

- العنوان الأصلي: The lost man
- العنوان العربي: الرّجل المفقود
- طبع بواسطة: Little, Brown
- حقوق النشر: Copyright © Jane Harper, 2018
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

مكتبة

t.me/soramnqraa

26 7 23

الأكثر مبيعًا في قائمة نيويورك تايمز

جين هاربر

لكاتبة
الجريمة
الأكثر
شهرة

الرَّجُلُ

المفقود

THE LOST
MAN

ترجمة: ميسرة صلاح الدين



مكتبة | 1277

إلى بيت وشارلوت.. مع حبي

مقدمة ملته

t.me/soramnqraa

في الأعلى على مسافة بعيدة، شكَّلت العلامات الموجودة فوق التراب دائرة صغيرة. كانت الدائرة أبعد ما يمكن عن الكمال، إذ شوَّه حافتها اتِّسامها بالسّمك الشديد في بعض المواضع وبالرّهافة في مواضع أخرى، إضافةً إلى كونها مكتملة الرسم في جميع الأجزاء وليست ممسوحة تمامًا.

في منتصف الدائرة شاهدُ قبرٍ ذبل بهدوءٍ بفعل الشمس والرياح والغبار عبر مئة عام. يقف شاهد القبر مستقيمًا بارتفاع متر واحد ينظر إلى الصحراء باتجاه الغرب. وهو ما لم يكن معتادًا في هذه الأثناء، فلم يكن الغرب هو الاختيار الأول لأحد إلا نادرًا.

اختفى اسم الرجل المدفون في الأسفل من فوق الشاهد منذ فترة طويلة ولكنه ما زال معروفًا بالنسبة إلى جميع السكان المحليين -خمسة وستون شخصًا، إلى جانب مئة ألف رأس من الماشية- حيث يطلقون عليه ببساطة مقبرة مربّي الماشية.

لم تكن تلك القطعة من الأرض تستخدم كونها مقابر على الإطلاق، حيث دفن مربّي الماشية ببساطة في نفس المكان الذي لَقِيَ فيه حتفه، وعلى الرغم من مرور قرن من الزمن لم يُدفن أحد بجواره.

لو قرر أحد العابرين أن يمرَّ يده على شاهد القبر الحجري البالي لاستطاع أن يشعر بوجود جزء من تاريخ قديم محفور في أعلى الحجر، يوجد رقم واحد ورقم ثمانية ورقم تسعة، ربما كان التاريخ ألفًا وثمانمئة وتسعين أو شيئًا من هذا القبيل.

لم يتبقَّ إلا ثلاث كلمات فقط، يمكن رؤيتها منحوتة في الأسفل حيث موضع أكثر أمانًا من عوامل التعرية، وربما حُفظت لأنها كانت محفورة بشكل

أعمق كالحروف الافتتاحية لكلمات ما، وربما كانت تلك الرسالة التي تحملها الكلمات أكثر أهمية من الرجل المدفون داخل القبر.

تقول الرسالة:

«الذين ضلوا الطريق...».

تمر شهور وربما عام كامل دون أن يمر شخص واحد بجوار القبر، ولا يتوقف أحد لقراءة النقش الباهت الموجود على شاهده اللامع تحت شمس الظهيرة ينظر غربًا، كان المكان مهجورًا لدرجة أن الماشية لم تكن تتسكع في تلك البقعة.

كانت طبيعة الأرض رملية في هذه المنطقة، أجزاؤها متناثرة، وتصبح ضحلة وممزوجة بمياه الفيضانات العكرة لمدة أحد عشر شهرًا كل عام. وكانت الأبقار تفضل الاتجاه شمالًا حيث يتوفر ظل الأشجار ويتوفر الغذاء.

لذلك كان القبر يقف بمفرده وحيدًا معظم الوقت بجوار سياج رفيع يتكون من ثلاثة حبال معدنية مخصصة لإبعاد الماشية، يمتد السياج عدة كيلومترات شرقًا في اتجاه الطريق الرئيسي العام ومئات قليلة من الأمتار في اتجاه الغرب حيث توجد الصحراء، ويظهر الأفق ممتدًا بشكل مسطح يمكن من خلاله رؤية انحناءات الأرض بالعين المجردة. كانت الأرض مناسبة لتكوين السراب، حيث تظهر أشجار صغيرة تلمع وتطفو على مسافة بعيدة فوق بحيرات غير موجودة، ومنزلٌ واحدٌ صغيرٌ في مكان ما شمال السياج ومنزل آخر في جنوبه.

يفصل بين هؤلاء الجيران ثلاث ساعات كاملة، الطريق إلى الشرق لا يمكن رؤيته عند الوقوف على حافة القبر ولكنه كان مكتنظًا بالتفاصيل. كان عبارة عن مسار ترابي واسع يمكن أن يظل صامتًا لعدة أيام دون أن يزعجه مرور سيارة ويؤدي الطريق في نهايته إلى مدينة بالامارا، وهي مدينة تتكون حرفيًا من شارع واحد ولكنه يلبي احتياجات السكان المتناثرين في الأنحاء، عدد السكان صغير لدرجة أنه يمكن جمعهم في غرفة واحدة كبيرة.

تقع بريسيبان⁽¹⁾ في اتجاه الشرق على بعد ألف وخمسمئة كيلومتر بالقرب من الساحل.

خلال أوقات محددة من العام يهتز الهواء فوق قبر راعي الماشية بسبب أزيز طائرة هليكوبتر. يستغل الطيار الحركة والضوضاء العالية التي تنتشر لمسافات واسعة -تصل إلى حجم مدن أوروبية صغيرة الحجم- لإخافة قطعان الماشية وتوجيهها. لكن السماء في هذه اللحظة تبدو فارغة وصامتة ولكنها ممتدة وواسعة.

في وقت لاحق -بعد مرور فترة طويلة من الآن- يهبط الطيار لمسافة قريبة من الأرض ويحلق عمدًا ببطء شديد. يمكن للطيار الاقتراب لدرجة أنه يستطيع أن يشعر بدرجة حرارة أي سيارة تسير على الطريق ويلمّحُ بريقها المعدني. ربما يقترب الطيار من موضع القبر عن طريق الصدفة وربما يجذب شيءً انتباهه فيدور حوله، قبل أن يبتعد باحثًا عن موقع مناسب للهبوط.

لن يستطيع الطيار أن يرى الدائرة الرمادية غير المكتملة، ولكن يلفت نظره بالتأكيد الوميض الأزرق اللامع فوق الأرضية الحمراء، لقميص عامل ذي أزرار مفكوكة وممزقة.

وصلت درجة الحرارة خلال الأيام الماضية في أوقات ما بعد الظهيرة إلى خمس وأربعين درجة مئوية عند ذروتها، فتشقق الجلد المكشوف بفعل أشعة الشمس الحارقة.

لاحقًا سيشاهد الموجودون على الأرض العلامات السمكية والرفيعة فوق الغبار وسيشيحون برؤوسهم ناظرين ناحية الأفق محاولين صرف أفكارهم عن الطريقة التي تكونت بها تلك العلامات.

يلقي شاهد القبر بظل أسود صغير، هو الظل الوحيد في الأفق. ظل غامض وكئيب، يزداد طوله ويقصر بينما يدور حول شاهد القبر مثل عقارب الساعة. زحف الرجل وجرَّ جسده متبعًا حركة الظل وضَمَّ أطرافه بشكل بائس ليتقلص بداخل الظل وهو ينبش الأرض ويخدشها بقدميه بينما تمكن منه

(1) إحدى أقدم المدن في أستراليا، وتقع فوق نهر بريسيبان، وتعتبر حاليًا من أكبر المدن الأسترالية وأكثرها من حيث عدد السكان. (المترجم).

الخوف والعطش. لديه فترة قصيرة من الراحة خلال الليل قبل أن تشرق الشمس مرة أخرى ويبدأ زحفه الرهيب خلف الظل مجددًا.

لم يَدُم وجود الظل طويلًا في اليوم الثاني حيث ارتفعت الشمس في منتصف السماء، حاول الرجل مطاردة الظل، واستمر في مطاردته للحد الذي لم يعد فيه قادرًا على المواصلة. لم يستطع أن يدور دورة كاملة حول دائرة الغبار المرسومة على الأرض، وفي خلال أقل من أربع وعشرين ساعة حصل مربّي الماشية أخيرًا على من يرقد بجانبه. دارت الأرض وتحركَ الظل في طريقه مرة أخرى، بينما ظل الرجل في مكانه ممددًا في منتصف قبر ترابي وتحت سماء وحشية.

الفصل الأول

لم يستطع ناثنان برايت رؤية شيء على الإطلاق، ثم رأى كل شيء دفعة واحدة بعد ذلك. كان قد تجاوز المرتفع وهو ممسك بموقد القيادة بكلتا يديه حتى لا تنتزع التضاريس الوعرة السيطرة من قبضته. وبمجرد المرور من فوق المرتفع أصبح كل شيء ظاهرًا أمامه، ولكن ما زالت أمامه عدة كيلومترات حتى يصل إلى وجهته مما منحه عدة دقائق حتى يستطيع التدقيق في المشهد الذي كان يزداد كبيرًا ووضوحًا كلما اقترب.

ألقي نظرة خاطفة على المقعد المجاور له.

«لا تنظر».

كان يشعر بالرغبة في أن يقول تلك الكلمات، ولكنه تراجع عن ذلك، فلم تكن هناك فائدة من قول شيء، بينما المنظر أمامه يجذب الأنظار بقوة، وعلى الرغم من ذلك أوقفَ السيارة على مسافة قريبة من السياج، أقرب مما ينبغي وشدَّ فرامل اليد تاركًا المحرك وتكييف الهواء يعملان.

كلاهما كان يشعر بالغضب بسبب حرارة كوينزلاند⁽¹⁾ التي ترتفع في شهر ديسمبر ولا تجدي معها كل سبل المقاومة.

قال: «إبق في السيارة».

- ولكن...

(1) ثاني أكبر ولايات أستراليا مساحة، وثالثها من حيث عدد السكان. عاصمتها بريسيبان. (المترجم).

أغلق ناثنان الباب بقوة قبل أن يسمع بقية الحديث، ومشى حتى وصل إلى حافة السياج ساحبًا السلك العلوي إلى الأعلى ليباعد بين الأسلاك حتى يستطيع التسلسل بينها.

تقف على بعد أمتار من مقبرة راعي الماشية سيارة دفع رباعي بينما يعمل محركها وجهاز التكيف الخاص بها بكامل طاقتها.

بلا تردد أمسك ناثنان بالسياج بينما كان أخوه الأصغر يخرج من السيارة الأخرى ويغلق الباب خلفه.

نادى بوب عندما اقترب من ناثنان بالدرجة الكافية: «جيداي⁽¹⁾».

- جيداي.

تجمعًا بالقرب من شاهد القبر، علم ناثنان أنه سيضطر إلى أن ينظر إلى الأسفل في وقتٍ ما ولكنه حاول أن يتجنب ذلك بأن فتح فمه قائلاً: «منذ متى وأنت هنا؟».

ثم سمع حركة تأتي من خلفه فصاح: «أوه، إبق في السيارة اللعينة». كان عليه أن يصرخ حتى يصل صوته إلى مسافة بعيدة، ولكن صيحته كانت أقوى مما كان يخطط فقال مرة أخرى: «إبق في السيارة». لم يكن الحال أفضل تلك المرة ولكن على الأقل أنصت ابنه إلى حديثه وأطاع الأمر.

قال بوب: «لقد نسيت أن زاندار⁽²⁾ بصحبتك».

- نعم.

انتظر ناثنان حتى سمع صوت إغلاق باب السيارة، كان يمكنه أن يرى جسد زاندار عبر الزجاج الأمامي للسيارة. منذ أن أصبح في السادس عشر مؤخرًا تحوّل إلى رجل ولم يعد مجرد فتى صغير.

عاد ينظر إلى أخيه، الرجل الموجود أمامه، الأخ الثالث، والثاني في ترتيب الولادة. ذلك الأخ المستلقي تحت أقدامهم عند قاعدة شاهد القبر «كاميرون برايت»، المغطى بفضل الرب بقطعة باهتة من قماش القنب.

(1) G'day، مصطلح يستخدم في أستراليا للتعبير أو إلقاء التحية. (المترجم).

(2) اسم لاتيني وهو تحريف للكلمة اليونانية ألكسندر. (المترجم).

كَّرَّرَ ناثان السؤال مرة أخرى: «منذ متى وأنت هنا؟».

فكَّرَ بوب لعدة لحظات كما يفعل دائمًا، قبل أن يجيب، كانت عيناه مختبئتين على نحوٍ ما بسبب القبعة المدببة التي يعتمرها، وكانت كلماته بطيئة بشكل واضح بالنسبة إلى السرعة العادية التي يتحدث بها الأشخاص.

- منذ الليلة الماضية، مباشرة قبل أن يحل الليل.

- ألن يأتي العم هاري؟

ضربه مرة أخرى وهزَّ رأسه وصاح: «أين هو؟ هل هو في المنزل بصحبة أُمِّي؟».

- مع إلسي والفتاتين.

قال بوب: «لقد عرض أن يأتي بصحبتنا، ولكنني أخبرته أنك بالفعل خرجت وفي الطريق إلى هنا».

- ربما كان من الأفضل أن يظل شخصٌ ما مع أُمِّي، أليس كذلك؟

نظر ناثان مرة أخرى إلى الجسد الملقى تحت قدميه، وقال: «ربما يجذب هذا اللحم نابشي الفضلات».

- هل تقصد الدينغو⁽¹⁾؟

- نعم يا صديقي، ومن أقصد غير ذلك، لا يوجد الكثير من المخلوقات الحية في هذه الأنحاء.

- اضطررت إلى أن أتناول كأسين من الشراب.

بدأ بوب بحكِّ عظمة الترقوة فاستطاع ناثان أن يرى بوضوح حافة النجم الغربي المرسوم فوق وشم الصليب الجنوبي⁽²⁾ على جسد أخيه.

- لكنني على ما يرام.

- حسنًا، لا عليك، كل شيء سيكون بخير.

(1) الكلاب البرية الأسترالية. (المترجم).

(2) مجموعة من الكواكب تشكل صليبًا اكتشفها الأوروبيون في أواخر القرن الخامس عشر واعتبروها علامة على رضا الرب عن حملاتهم العسكرية، وهي تظهر على هيئة مجموعة من النجوم في العلم الأسترالي منذ عام 1832. (المترجم).

شعر ناثن بحالة إحباط مألوفة تصيبه عند التحدث مع بوب، تمنى لو كان كامرون موجودًا لتلطيف الأجواء، أصابته في هذه اللحظة حالة مفاجئة من الإدراك وألم أسفل ضلوعه فأخذ نفسًا عميقًا. وشعر بحرارة الهواء في رئتيه وقلبه. كانت ليلة صعبة على الجميع. كانت عينا بوب حمراوين وذقنه غير حليق وملامحه ثقيلة بفعل الصدمة، تمامًا كملامح ناثن.

نظرًا إلى بعضهما بعضًا لفترة صغيرة من الوقت ثم بدأ يتجنبان النظر إلى بعضهما بعضًا. كانت علاقتهما كونهما شقيقين أكثر صفاء بسبب وجود كامرون بينهما، إذ كان كامرون يستطيع سد الفجوات بينهما بطرق كثيرة ومتنوعة.

يبدو بوب مرهقًا وكذلك يبدو -كعادته في الفترة الأخيرة- أكبر من سنه كثيرًا، على الرغم من أن الفرق بينهما في العمر اثنا عشر عامًا، فما زال ناثن يشعر بالدهشة لرؤية شقيقه قد اقترب من سن الثلاثين بعد أن كان في الأمس القريب يرتدي الحفاضات.

انحنى ناثن فوق قطعة القماش التي تغطي الجثة، كانت باهتة بفعل أشعة الشمس ومحشورة أسفل الجسد الممدد في عدة أماكن مثل ملاء السرير.

- هل ألقى نظرة عليه؟

- لا، طلبوا مني ألا ألمس أي شيء.

لم يصدقه ناثن على الإطلاق ربما كانت طريقتة في الحديث ونبرة صوته، وربما كانت الطريقة التي وضعت بها قطعة القماش تحت الطرف العلوي من الجسد الممدد أمامهما. مد يديه إلى الأمام وبمجرد أن لمس الجثة، أصدر بوب صوتًا خرج مندفعًا من حلقه: «لا يا ناثن، لا تفعل ذلك، إنه أمر غير جيد».

لم يكن بوب بارعًا في الكذب على الإطلاق، رفع ناثن يده وترك الجثة وشأنها ووقف مرة أخرى.

- ماذا حدث له؟

- لا أعرف شيئًا.. سوى ما قلت لك عبر موجات الراديو.

- لقد فاتني الكثير مما قيل عبر موجات الراديو.

لم تتقابل عينا بوب وناثن في أثناء الحديث مطلقًا، تحرك بوب من مكانه وكأنه يهْمُ بالرحيل.

- أعتقد أنك وعدت أمي أن تحافظ على جسد أخيك؟

لم يُجب ناثان عن سؤال أخيه، ولم يكرر بوب الحديث مرة أخرى، بدأ ناثان ينظر خلفه عبر السياج في اتجاه سيارته، كان في إمكانه رؤية زاندار يجلس في قلق على مقعد الراكب الأمامي. لقد أمضوا طوال الأسبوع الماضي في التنقل على طول الحدود الجنوبية يعملون نهارًا ويخيمون ليلاً.

كانوا على وشك جمع أدواتهم في الليلة السابقة عندما اهتز الهواء حولهم، بينما حلقت طائرة هليكوبتر فوق رؤوسهم. الطائر الأسود ذو الخطوط الزرقاء جاء حاملاً إليهم أخبار الموت.

قال زاندار وهو يحدّق إلى الأعلى: «لماذا يخلقون في هذا الوقت المتأخر؟». لم يُجب ناثان فهو يعرف أن الطيران الليلي أمر خطير وعلامة مشؤومة، أدرك ناثان على الفور أن هنالك شيئاً خاطئاً فيما يحدث، شغل ناثان الراديو ليتابع الأخبار ولكن بحلول ذلك الوقت كان قد فات الأوان.

عاد ناثان ينظر إلى بوب: «اسمع، لقد سمعت بعض الأخبار ولكنها لم تكن كافية لفهم ما حدث».

ارتعش فم بوب غير المحلوق وهو يقول: «انضم إليّ يا صديقي، فقد سمعت كل شيء، ولكنني لم أفهم حقيقة الأمر».

رد ناثان: «لا بأس، أخبرني بما تعرفه».

حاول ناثان أن يخفف حدة لهجته بعد نفاذ صبره، لقد تحدث إليه بوب لفترة وجيزة عبر جهاز اللاسلكي في المساء الماضي. وعندما حلّ الظلام أخبره أنه سوف يعود مع أول ضوء للنهار، كان لديه في هذا الوقت ما يزيد على مئة سؤال، ولكنه لم يستطع أن يطلق لها العنان على تردد مفتوح حيث يمكن لأي شخص التصنت عليهما لو رغب في ذلك.

سأل ناثان: «متى خرج كام من المنزل؟».

شعر بوب بالحيرة ولم يكن يعرف من أين يبدأ.

- أخبرني هاري أنه خرج في صباح أول أمس، في قرابة الثامنة.

- إذًا، كان يوم الأربعاء.

- نعم، لكنني لم أره بنفسه، فقد غادرتُ المنزل يوم الثلاثاء.

- إلى أين ذهبت؟

- ذهبت إلى التحقق من اثنين من المجاري المائية على الطريق في اتجاه المراعي الشمالية، كانت خطتي هي التخميم هناك، ثم القيادة عبر تل ليमान لمقابلة كام يوم الأربعاء.

- لماذا؟

- لإصلاح برج تقوية شبكة الراديو.

فكّر ناثنان في الأمر، كان يعرف أن بإمكان كام إصلاحها بمفرده، ربما كان في حاجة إلى بوب ليمرر إليه المفكات والبراغي وللبقاء بصحبته من أجل الحفاظ على سلامته في أثناء تأدية المهمة.

كان تل ليمان على الحافة الغربية لمزرعة العائلة، وتستغرق المسافة بالسيارة للوصول إليه من المنزل قرابة أربع ساعات، لذلك كان يجب إصلاح برج التقوية حتى تصل إليه موجات الراديو عند إجراء اتصال بعيد المدى.

قال ناثنان: «وهل حدث خطأ ما؟».

قال بوب وهو يحدّق إلى قطعة قماش القنب: «لقد وصلت متأخرًا إلى المكان المحدد، كان من المفترض أن أقابله في قرابة الساعة الواحدة، ولكنني تعطلت في الطريق، ولم أصل إلى تل ليمان إلا بعد ساعتين من الميعاد المحدد».

سكت ناثنان، فأكمل بوب الحديث: «لم أجد كام، تساءلت إن كان قد وصل إلى المكان المحدد قبل وصولي، ولكن برج التقوية كان خارج الخدمة لذلك انتظرت قليلاً ثم تحركت في المسار المتفق عليه بيننا متوقعًا أن ألتقيه».

- ولكن ذلك لم يحدث؟

- لا، ظللت أحاول الاتصال به عن طريق اللاسلكي ولكنني لم أجد له أثرًا. (ظهر العبوس على وجه بوب) ظللت أحاول البحث عنه بالسيارة لمدة تقترب من ساعة، ولم أجدّه في أي مكان فاضطررت إلى التوقف بسبب حلول الظلام كما تعلم.

ظهر القلق في عينيه اللتين تخبئهما حافة القبعة، فأومأ ناثنان برأسه ليطمئنه: «لم يكن هناك الكثير لتفعله في ذلك الوقت، فالظلام حالك في تل ليमान ولا يمكن قيادة السيارة في تلك الظلمة».

كان الأمر صحيحًا فالقيادة الليلية على تل ليمان ما هي إلا فحٌ، مسألة وقت قبل أن يجد الشخص نفسه مصطدمًا بصخرة أو بشجرة، أو بإحدى

الأبقار أو يسقط من فوق التل، وفي هذه الحالة كان ناثنان سيجد شقيقه مغطيين بقماش القنب.

قال ناثنان: «لكنك كنت قلقًا؟».

وكان يستطيع أن يخمن الإجابة عن سؤاله.

هَزَّ بوب كتفه: «نعم، ولكن ليس بدرجة كبيرة، فأنت تعرف طبيعة الحياة هنا».

قال ناثنان: «نعم، أعرف».

لقد كانوا يعيشون في أرض ذات طبيعة صعبة من نواحٍ عديدة، وكان الناس إما بخير بشكل كامل، وإما على النقيض التام.

كانت هناك مساحة قليلة من الأراضي الممهدة، وكام ليس سائًا قريبًا ويمكنه أن يتعامل مع الظروف المحيطة، يمكنه خلال نصف ساعة أن يصل إلى الطريق الرئيسي، ليصبح في المنزل بمجرد حلول الظلام، ربما كان خارج تغطية موجات اللاسلكي، ولكنه من الممكن أن يكون بالفعل جالسًا بسلام في المنزل بعد أن خَلَع حذاءه ويشرب البيرة الباردة، وربما لن يكون كذلك.

قال بوب: «لم يستطيع أحد أن يلتقط موجات اللاسلكي، لا أحد يستطيع أن يستقبل موجات الراديو خلال ذلك الوقت اللعين من العام، وخصوصًا أن محطة التقوية خارج الخدمة».

ظهرت على وجهه علامات الإحباط.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- بدأت قيادة السيارة مع أول خيوط الفجر، ولكن استغرق الأمر فترة طويلة قبل أن يجيب أحد عن اللاسلكي.

- لِكَم من الوقت؟

تردد بوب: «لا أعرف بدقة، ربما نصف ساعة، حتى التقط موجة الراديو، وساعة أخرى بعد ذلك، ولم يُجِب سوى زوجين من رعاة الأغنام الحمقى في أثرتون⁽¹⁾، أهدرا الكثير من الوقت اللعين قبل إمساك جهاز الإرسال».

قال ناثنان: «إنهم دائمًا ما يوظفون الحمقى في أثرتون».

(1) مدينة صغيرة في أستراليا، تقع في كوينزلاند. (المترجم).

كان يفكر في المزارع الموجودة في اتجاه الشمال الشرقي من حدود ممتلكاتهم، على الرغم من مساحتها الواسعة التي تكاد تبلغ مساحة سيدني، يشغلون فيها الحمقى، ولكنها كانت أفضل فرصهم للتواصل مع أي شخص طلبًا للمساعدة.

- لذلك أطلقوا ناقوس الخطر؟

- نعم، ولكن بحلول ذلك الوقت.

توقف بوب عن الحديث. بحلول ذلك الوقت لم يكن أحد رأى أو سمع أي شيء عن أخيهام لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة وفقًا لحسابات ناثنان. كان البحث سيسير وفقًا للبروتوكول المحدد قبل أن يصل إلى المرحلة الحاسمة، حيث يجب في البداية أن تُبَلَّغ كل المزارع المجاورة وتستمر محاولات جمع كل المعلومات والأشخاص المتوفرة للمساعدة في البحث، عدد الأشخاص المتوفر قليل وهم منتشرون في مساحات واسعة، وسوف يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى يبدأ البحث بشكل جدي.

- هل استطاع الطيار العثور عليه؟

قال بوب: «نعم، استطاع في النهاية أن يجده».

- هل هو شخص تعرفه؟

- لا إنه مجرد مقاول، مقر عمله الأساسي بالقرب من أدليد⁽¹⁾، ولكنه كان يعمل هذا الموسم في أترتون وطلب منه أحد رجال الشرطة أن يصعد على متن الطائرة ويحلق في الأنحاء للبحث في الصحراء.

- هل هو جلين؟

- لا، ليس جلين، إنه شخص آخر، إنه أحد معارف رجال الشرطة أو شيء من هذا القبيل.

قال ناثنان: «حسنًا، من حسن الحظ أن الطيار استطاع أن يرى كامبيرون على كل حال، فقبر راعي الماشية على بُعد مئتي كيلومتر من تل ليمان ومن طرق البحث الرئيسية».

- متى أعلن عن العثور عليه؟

(1) عاصمة ولاية جنوب أستراليا والمدينة الخامسة في الترتيب من حيث عدد السكان. (المترجم).

- في قرابة الساعة الثالثة مساءً، لم يكن معظم الناس قد وصلوا إلى تل ليमान في هذا التوقيت بعد، وأنا كنت على بُعد ساعة بالسيارة، وكان هاري بصحبتى، لذلك قررت القيادة إلى هناك.

- هل أنت متأكد إن كام كان مبيتاً في ذلك الوقت؟

- هذا ما قاله الطيار، وقد هبط إلى جواره وطلب منه رجال الشرطة عبر جهاز اللاسلكي إجراء بعض الفحوصات للتأكد مما حدث، وأعلنوا أنه ربما يكون مبيتاً منذ عدة ساعات.

أضاف بوب بصوت متجهم: «وصلت إلى هنا قرب غروب الشمس، كان الرجل قد غطى كام بالكامل متبعاً الإرشادات التي قدموها له، ولكنه كان حريصاً بشكل كبير على أن ينصرف بسرعة، حتى لا يفقد ضوء الشمس ويجد نفسه محاصراً في هذا المكان».

أدرك ناثن أن هذا شيءٌ منطقيٌّ، وأنه كان سيفعل نفس الشيء لو حَلَّ محل ذلك الشخص، ولكنه شعر بالسوء لأن بوب هو الذي كان موجوداً في هذا الموقف بدلاً منه.

- إن كان من المفترض أن يقابلك كام عند تل ليمان، فما الذي كان يفعله في هذه المنطقة؟

- لا أعرف، لقد قال لي هاري إنه كتب في دفتر اليوميات أنه متوجه إلى تل ليمان.

- ولم يكتب شيئاً آخر؟

- لا، وفقاً لكلام هاري.

فكَّر ناثن في دفتر اليوميات، كان يعرف المكان الذي حُفظت به اليوميات، بجانب الهاتف بالقرب من الباب الخلفي للمنزل الذي فتح خصيصاً ليكون بوابة مستقلة تفضي إلى الجزء الذي كان مخصصاً في الماضي لأبيهم ثم أصبح مخصصاً لكامبيرون بعد ذلك.

يعرف ناثن جيداً هذا الدفتر، لقد كتب فيه بنفسه مرات عديدة، خاصةً في مراحل سابقة بينما يكبر، وفوّت الكتابة فيه مرات عديدة أيضاً عندما كان ينسى وعندما كان لا يرغب في أن يعرف أحد مكانه ويضايقه وعندما كان لا يجد قلمًا للكتابة.

يشعر ناثنان بآثار الحرارة الحارقة فوق رقبتيه وعندما نظر إلى ساعته الرقمية وجد أرقامها مغطاة بالغبار الأحمر بالكامل فمسحها مستخدمًا إبهامه.

- ما هو الوقت المتوقع لوصولهم؟

كان يعني رجال الشرطة والطب الشرعي، وربما يعني رجل شرطة واحدًا وطبيبًا واحدًا، واحدًا فقط من كل صنف وليس فريقًا كاملًا، لن يأتي فريق بحث كامل في هذا المكان.

- لست متأكدًا، إنهم في الطريق.

ربما لا يعني هذا أنهم سيصلون في وقت قريب، نظر ناثنان مجددًا في اتجاه قطعة قماش القنب، وإلى الآثار الموجودة فوق الأرض وسأل أخاه: «هل تبدو عليه آثار جروح؟».

- لا أعرف ذلك، لم أستطع أن أحدد، كانت تبدو عليه آثار الحرارة والعطش. كان بوب يميل برأسه إلى الأسفل وهو يلمس حافة دائرة الغبار بأطراف حذائه، لم يتحدث أحد الأخوين عن هذه الدائرة، على الرغم من أنهما يعرفان معناها جيدًا فقد شاهدا أنماطًا مماثلة من صنع الحيوانات عند احتضارها. جاء خاطر على بال ناثنان فتلفَّت حوله ثم قال: «أين ذهبت متعلقاته؟».

- قبعته موجودة أسفل قطعة القماش، ولا يوجد شيء آخر.

- ماذا تقصد بقولك: لا يوجد شيء آخر؟

- هذا ما قاله الطيار، لقد طلبوا منه أن يتحقق من كل شيء ويلتقط الصور وقد تحقَّق بالفعل ولم يستطع إيجاد أي شيء.

أخذ ناثنان يمسح الأرض مرة أخرى بعينيه وهو يقول: «لا شيء، ولا حتى زجاجة مياه خالية؟».

- لا أعتقد.

- هل فحصت المكان جيدًا؟

- يمكنك أن تبحث بنفسك يا صديقي، لديك عينان مثلي تمامًا.

- ولكن.

- لا أعرف، حسنًا، أنا لا أعرف شيئًا، ليس لدي إجابات عن أسئلتك، فتوقَّف عن سؤالي.

- نعم، حسنًا.

ثم أخذ ناثان نفسًا عميقًا وقال: «ولكنني أعتقد أن الطيار وجد السيارة».

- لقد فعل.

- وأين هي إذًا؟

لم يكلف نفسه عناء إخفاء مشاعر الإحباط التي تنتابه في هذه اللحظة، إنه لم يحصل على معلومة مفيدة من بوب اللعين، وتذكَّر مقولة والده التي كان يرددتها كثيرًا: «يمكن الحصول على معلومات قيمة من الأبقار، ولا يمكن الحصول على شيء من بوب».

أجاب بوب: «بالقرب من الطريق».

حدق ناثان إلى وجهه: «أي طريق؟».

- كم طريقًا موجودًا في هذه الأنحاء؟! لا يوجد إلا طريق واحد في اتجاه الشمال على بُعد قليل من مرعى الماشية الخاص بك، بحق المسيح، لقد أخبرتك كل ذلك عبر موجات الراديو يا صديقي.

- لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا، هذا الطريق على بُعد عشرة كيلومترات من هنا.

- أعتقد أنها ثمانية فقط، لكنك محق.

سادت فترة من الصمت الطويل، بينما كانت الشمس عالية في السماء، وقد اختفت قطعة الظل الصغيرة التي يلقيها الشاهد الحجري على الأرض القاحلة.

قال ناثان لأخيه الأصغر وهو ينظر إلى الأرض التي كان يشعر بأنها تميل تحت قدميه: «أعتذر إليك، أعرف أنك لا تملك شيئًا ولكن...».

هَزَّ ناثان رأسه، ونظر إلى الأفق خلف أخيه، كان الأفق طويلًا وممتدًا ولكن الشيء الوحيد الذي استطاع رؤيته يتحرك في كل تلك المساحة الشاسعة، هو صدر بوب وهو يرتفع وينخفض بينما يلتقط أنفاسه، سأله ناثان: «هل ذهبت إلى السيارة؟».

أجاب بوب بعد فترة: «لا».

أدرك ناثان أنه يقول الحقيقة هذه المرة. ثم نظر في اتجاه سيارته حيث كان زاندار يجلس على هيئة كتلة داكنة تنحني على وجهها إلى الأمام.

الفصل الثاني

اتضح أن المسافة في النهاية تسعة كيلومترات. أوقفَ ناثنَ سيارته ذات الدفع الرباعي على الجانب الآخر من السياج، ما اضطره إلى أن يتسلق السياج مرة أخرى ويفتح الباب الأمامي الجانبي بجوار مقعد الراكب.

رفع زاندار بصره إلى الأعلى متسائلًا عما يحدث، وبدأت الأسئلة تتشكل فوق شفثيه ولكن ناثن رفع يده وقال: «سوف أخبرك بكل شيء لاحقًا، هيا سوف ننتقل للعثور على سيارة العم كام».

عبس زاندار: «نعثر على سيارته! أين هي السيارة؟».

كانت قصة شعره المشعثة الصببانية -التي قصَّها في الأسبوع الماضي- الرائجة بين طلبة المدارس، وپروز قصبته الهوائية للخارج قليلًا أسفل ذقنه، قد أكسباه مظهرًا أكبر من سنِّه الحقيقية.

- في مكان ما بالقرب من مقدمة الطريق، سوف نذهب برفقة عمك بوب.
- حسنًا، ولكن...

- لا، لا أعرف شيئًا يا صديقي، سوف نرى عندما نصل إلى هناك.

فتح زاندار فمه ولكنه أغلقه مرة أخرى. ثم خرج من سيارة الدفع الرباعي دون أن ينطق كلمة واحدة. انطلق الطفل عبر السياج خلف ناثن، وسار في اتجاه القبر ناظرًا إليه نظرة خاطفة ملأى بالاحترام وأطلق زفرة طويلة، ثم نظر إلى قطعة قماش القنب وهو يسير في اتجاه سيارة بوب.

- مرحبًا بوب.

- جيداي، لقد كبرت يا صغيري وأصبحت رجلًا، أليس كذلك؟

- نعم، لقد أصبحت كبيرًا.

- وكيف حال بريسبان؟

رأى ناثن ابنه واقفاً واستمع إلى الحديث الدائر بينه وبين بوب.
قال زاندار: «لا بأس بها، أشكرك على السؤال».

- أنا آسف بشأن العم كامرون.

- حسنًا، إنها ليست غلطتك على كل حال.

فتح بوب باب السيارة وقال: «هيا اقفز إلى الداخل».

نظر زاندار إلى المقبرة مرة أخرى: «هل نحن فقط...؟».

كان بوب بالفعل جالسًا خلف عجلة القيادة.

- ماذا تريد أن تقول؟

- هل سنتركه هنا.

- لقد طلبوا ألا نلمس شيئًا.

بدا الذعر على وجه زاندار.

- أنا لم أكن لألمسه، لم أكن لألمس شيئًا، ولكن.. كنت فقط أتساءل إن
كان على أحدهم أن...

قال بوب بنظرة فارغة من التعبير: «لا عليك...».

يستطيع ناثن أن يميز آثار النعومة التي اكتسبها زاندار من نشأته في
المدنية كطبقة رقيقة من الجلد الناعم المكشوف، من خلال طريقته في
الحديث، قهوته الأجنبية، وقراءته لجريدة الصباح، يظهر كل شيء بوضوح
على الفتى الصغير. لم يكن صلبًا ومعتادًا على هذه الحياة مثلهم، كان زاندار
يختار كلماته بعناية ويفكر في عواقبها، كان يقيم العواقب قبل أن يفعل كل
شيء تقريبًا. يعتقد ناثن أن هذه ليست صفة سيئة، ولكنها تعتمد في النهاية
على المكان الذي يوجد به الشخص.

فتح ناثن باب السيارة.

- أعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام، يا صديقي. (ثم ألقى جسده
للداخل قائلًا) هيا بنا.

لم يكن زاندار مقتنعًا ولكنه جلس في المقعد الخلفي دون أن يكثر في
الجدال، كانت السيارة باردة ومظلمة وجهاز اللاسلكي يرقد صامتًا فوق
حامله.

نظر ناتان إلى أخيه قائلاً: «سوف تسير متبعًا السياج؟».

- نعم، أعتقد أن ذلك سوف يكون أسرع.

نظر بوب في المرأة الخلفية، ووجّه حديثه إلى زاندار: «تمسك بمكانك جيدًا، سوف أبدأ قصارى وسعي ولكن الطريق وعر ومملوء بالمطبات».

- حسنًا.

ساروا بالسيارة دون تبادل الحديث، وركّز بوب في الطريق أمامه أسفل عجلات السيارة حتى يتجنب الحفر والمنخفضات المختلفة على طول الطريق الناعم. اختفى القبر بسرعة بينما السيارة تبتعد واستطاع ناتان من خلال المرأة الخلفية أن يرى قبضة زاندار تمسك مقعده بقوة وبأصابع مشدودة.

استدار ناتان ليحدّق إلى السياج الممتد الذي يفصل ممتلكاته عن ممتلكات أخويه. اختفت حواف السلك على طول المسافة في كلا الاتجاهين، ولم يستطع بنظره أن يحدد أين سينتهي، بينما عبروا من منطقة بدت فيها المسافة بين أعمدة السياج أكثر اتساعًا، بدأ ناتان بتدوين بعض الملاحظات داخل عقله ربما يمكنه أن يخبر بها كام في وقت آخر. ولكنه أدرك في هذه اللحظة أن الأفكار قد جعلته يغفل الحقيقة البسيطة، وأنه لن يتمكن من إخبار كام شيئًا بعد الآن.

بدأ بوب بالتباطؤ عندما وصلوا إلى حافة الأرض التي يملكها كاميرون، كان الطريق الرئيسي الممتد أمامهم يتهدى مختلفًا خلف تلة عالية على طول الحدود الشرقية الفاصلة بين ممتلكات كاميرون وممتلكات ناتان.

كان الطريق على الجانب الخاص بكاميرون ترابيًا كثيفًا، وعلى الجانب الخاص بناتان يحتوي على نتوء صخري صمد أمام عوامل الطبيعة والشمس الحارقة لما يزيد على ألف سنة. كانت الصخرة تتوهج باللون الأحمر وقت غروب الشمس، وكأن الضوء يخرج من داخلها، ولكنها في تلك اللحظة كانت بنية باهتة بلا آثار للضوء.

سأل ناتان: «أين السيارة؟».

كان بوب قد أوقف السيارة وبدأ بالنظر في الأرجاء من أسفل حاجب الرياح بينما التفت زاندار إلى الخلف حيث نفس الطريق الذي قطعوه للتو.

- لا شيء في الخارج من حيث أتينا.

حدَّق ناثنان محاولاً أن يخترق ببصره الغبار. وقال: «أين المكان الذي قال عنه الطيار؟».

- لقد كان خارج تغطية نظام تحديد المواقع GPS. لذلك... (هَزَّ بوب كتفه) لن يساعدنا كثيرًا بمعلوماته، لكنه قال إنها في مكان ما بين الصخور في اتجاه الشمال بالنسبة إلى السياج. (ثم غَيَّرَ موضعَ مُحوِّلِ التروس وهو يضيف) سأستمر في القيادة على الطريق، حتى نعرف ماذا سنجد.

بقي بوب محافظاً على مساره بالقرب من السياج على طريق متعرج يربط بين المزرعة والطريق الرئيسي الممهّد. ثم عبر من خلال فجوة بين الصخور المرتفعة، فأصدر المحرك صريراً مرتفعاً صاحبه صوت اصطدام عالياً من عجلات السيارة، حتى وجدوا أنفسهم في النهاية على الجانب الآخر من البروز الصخري في طريق مهجور غير ممهّد.

قال ناثنان: «أعتقد أننا في اتجاه الشمال».

أوماً بوب برأسه، بينما أثارت عجلات السيارة حلقة عالية من الغبار استطاع من خلالها ناثنان أن يميز أصوات اصطدام قطع الحجارة الصغيرة بهيكل السيارة التي تسير مسرعة. يمتد الطريق إلى الأمام كشریط طويل متسع، وعلى يسارهم يمتد النتوء الصخري المرتفع يسد الأفق.

قاد بوب السيارة لمدة لا تزيد على دقيقة واحدة، قبل أن يبطئ سرعتها أمام فجوة غير مرئية في النتوء الصخري. لم يكن هناك علامات استرشادية على طول الطريق، ولكن القليل من السكان المحليين يعرفون معظم المسارات الوعرة على هذه الطرق، ولم يُشجَّع السياح والغرباء على اكتشافها والسير عليها. أدار بوب السيارة متجهًا إلى هذه الفجوة بين الصخور العالية ونفذ من خلالها إلى الجانب الآخر.

ظهر من هذه الزاوية أن هذا الطريق المختصر هو المسار الوحيد الذي يمكن السير من خلاله دون الوقوع من فوق منحدر حادّ يمتد إلى أسفل الطريق. توقَّفَ بوب بالسيارة ولكنه ترك المحرك دائرًا ففتح ناثنان الباب الموجود بجانبه وخرج، كانت الرياح شديدة فشعر باصطدام ذرات الغبار فوق جلده وتكومها بين رموش عينيه، استدار ببطء في دورة كاملة حتى أصبح بإمكانه رؤية الصخور والسياج الذي يبدو صغيرًا بسبب بُعد المسافة، لم يرَ شيئاً آخر فاتجه في طريق العودة إلى السيارة.

- حاول أن تتقدم إلى الأمام قليلاً.

انطلقوا مرة أخرى في طريقهم، ثم توقفوا بعد عدة دقائق من المسير، عاد بوب للدخول بالسيارة مرة أخرى عبر تجويف مختلف. تكررت نفس الخطوات مرة أخرى، ثم توقفت السيارة، استدار ناثن وحاول البحث عن شيء ولكنه لم يجد شيئاً مجدداً. شعر ناثن بحالة من فقدان الأمل واستدار عائداً إلى السيارة ليفتح الباب المجاور للسائق ويركب مرة أخرى، عندما سمع صوت نقرات خفيفة على زجاج النافذة، كان زاندار يشير إلى شيء ما ويتكلم.

قال ناثن وهو ينحني ناحيته: «ماذا هناك؟».

قال زاندار وهو يشير إلى أعلى المنحدر، في اتجاه بداية الطريق: «هناك ناحية الضوء».

لم يستطع ناثن أن يميز شيئاً بينما كان وجهه في مواجهة الشمس، فانحنى إلى الأمام، ليحاذي بنظره الزاوية التي ينظر إليها ابنه، واتبع خط بصره حتى تمكن أخيراً من رؤية ما يشير إليه. كانت هناك قطعة معدنية متسخة تصدر بريقاً مملوئاً بالشوائب فوق قمة نتوء صخري بعيد.

كان الباب المجاور للسائق مفتوحاً في تلك السيارة البعيدة، لم يكن مفتوحاً على مصراعيه، ولم يكن مفتوحاً فتحة صغيرة، كان الباب مفتوحاً بالشكل المثالي ليخرج منه رجلٌ بسهولة وبساطة.

بعد أن اكتشف زاندار موضع السيارة عن طريق لمعانها المعدني الظاهر من بعيد، عاد بوب لقيادة سيارته مرة أخرى ودلف بهم في الشق الخفي التالي، ثم سار على الطريق الذي مروا به مجدداً حتى وصل إلى السيارة اللاند كروزر. كان من المستحيل تفويتها هذه المرة وهي واقفة على قمة مسطحة لمنحدر صخري ومقدمتها تميل ناحية المنحدر أسفل الطريق.

باتفاق غير معلن توقّف بوب بالسيارة أسفل المنحدر الصخري وصعد الجميع إلى قمته، وقف ثلاثتهم بجوار سيارة كاميرون والهواء الساخن يلفح ملابسهم.

دار ناثن حول السيارة ذات الدفع الرباعي وخلال دورته شعر للمرة الثانية خلال ذلك اليوم بأن هناك شيئاً خاطئاً ولكن لم يستطع تحديد طبيعته. كان هيكل السيارة الخارجي لا يمكن تمييزه على الإطلاق فقد كانت متسخة

للغاية ومكسوة بالحجارة ولكن ذلك أمر معتاد في هذه الأجواء، شعر ناثنان بوخز بارد غير منتظم في أسفل رقبته. لم يكن هناك شيء غير طبيعي فيما يحدث، سوى الألم البسيط في مؤخرة رقبته، ولكن عدم وجود شيء غير طبيعي هو أمر غير طبيعي في حد ذاته.

كان ناثنان يتوقع أن السيارة تعثرت أو تحطمت أو سقطت من فوق منحدر أو حطمتها صخرة في منتصفها وحولتها إلى كرة من المعدن. كان يتوقع أن يجد تسربًا في الزيت أو تصاعدًا للبخار أو تصاعد أعمدة من اللهب، أو على الأقل توقع أن يجد غطاء المحرك مرفوعًا أو أن يجد حتى الإطارات المطاطية الأربعة مفرغة من الهواء. لم يكن ناثنان واثقًا بطبيعة المشكلة التي توقع حدوثها، ولكنه كان واثقًا بأنه سيجد مشكلة ما، كان يتوقع شيئًا ما، شيئًا أكثر من هذا، شيئًا قابلاً للتفسير.

ارتكز على ركبتيه وبدأ بفحص الإطارات، كانت الإطارات الأربعة تقف سليمة ومشدودة فوق الجرف الصخري، فتح إطار المحرك ومد يده فاحصًا المكونات الرئيسية دون أن يجد شيئًا في غير مكانه الصحيح على حسب ما يراه أمامه. نظر من خلال النافذة فوجد كل المؤشرات على لوحة القيادة الخاصة بالوقود -المؤشر الرئيسي والثانوي- تشير إلى أنها ممتلئة أو قريبة من الامتلاء.

سمع ناثنان صوتًا فرفع بصره إلى الأعلى، استطاع أن يرى بوب يفتح الأبواب الخلفية للسيارة اللاند كروزر، ورأى بوب وزاندار وأعينهما تتسع في دهشة وهي تركز على المنطقة الخلفية من السيارة. تحرك ناثنان من مكانه وانضمَّ إليهما.

كانت السيارة ممتلئة عن آخرها بالمعدات والمؤن، مجموعة من الزجاجات التي يحتوي كلُّ منها على لتر من المياه العذبة ومرصوصة بنظام بجوار معلبات ملأى بسمك التونة والفاصوليا، كمية كافية لإبقاء رجل على قيد الحياة لمدة أسبوع أو يزيد.

استخدم ناثنان إصبعًا واحدة لفتح ثلاجة السيارة الصغيرة التي تستمد طاقتها اعتمادًا على بطارية السيارة، فوجد المزيد من زجاجات المياه العذبة ملأى لآخرها ومكدسة بالداخل، بجانب ست قطع من الشطائر الملفوفة جيدًا ومجعدة عند الحواف، وست زجاجات من البيرة متوسطة في نسبة الكحول.

يوجد في مؤخرة السيارة أشياء أخرى، فهناك وعاءٌ إضافيٌّ من الوقود وإطاران احتياطيان مربوطان في جسم السيارة، مجرفة وحقيبة إسعافات أولية. باختصار كانت توجد كل الأشياء الأساسية التي يحتاجها الإنسان للبقاء حياً، كان ناثنان يملك في مؤخرة سيارته نفس الأشياء بشكل تقريبي وكذلك بوب، فلا يمكن للرجل أن ينجو في صحراء أستراليا ومناخها الحار دون هذه الأشياء التي تعتبر المفاتيح الأساسية للبقاء على قيد الحياة، ولذلك لا يغادر أحدهم المنزل دون تلك الأشياء.

- ما زالت مفاتيحه هنا.

وقف زاندار يحدِّق إلى باب السائق المفتوح فتحرَّك ناثنان ووقف بجواره، كانت كتفا زاندار بمحاذاة كتفي ناثنان، لاحظ ناثنان بطريقة غير متوقعة في تلك اللحظة أن ابنه قد أصبح في نفس طوله.

يغطي الغبار الأحمر كل أنحاء السيارة كمعطف رقيق، وتحت طبقة الغبار استطاع ناثنان أن يرى سلسلة المفاتيح السوداء مقطوعة، المفاتيح مرصوفة في حلقة دائرية فوق المقعد الأمامي. فاعتبر هذا شيئاً غير عادي إلى حد ما، وهمس بداخله صوت خافت يخبره بأنه من غير المنطقي ترك المفاتيح بذلك الشكل في السيارة.

لم يكن ناثنان يعرف أحدًا في هذه الأنحاء فعل شيئاً مماثلاً من قبل. يمكنه أن يتصور مفاتيح سيارته في مكانها المعتاد ولا يتصور أن يجدها ملقاة على أرضية السيارة أو على المقعد الأمامي لأي سبب على الإطلاق، وكانت مفاتيح سيارة بوب تتدلى في مكانها المعتاد في فتحة التشغيل بالقرب من ذراع الإشارات بينما السيارة تقف أسفل المنحدر. لم يكن ناثنان يستطيع أن يتذكر إن أزال كاميرون المفاتيح من السيارة أو ألقاها في غير مكانها المعتاد على هذا النحو.

قال بوب بصوت غير مقنع: «ربما أصيب بانهييار».

لم يرد ناثنان وواصل النظر إلى المفاتيح ثم مد يده إليها. فصاح زاندار: «أبي، لا تفعل، يجب علينا ألا نلمس أي شيء».

تجاهل زاندار واستمر في تحريك يديه لتثيرا موجات رقيقة من الغبار في الهواء بينما جمع كل المفاتيح وأمسكها بقوة في يده. عرف ناثنان بشكل يقيني، الخطوة التالية التي يجب عليه فعلها، جلس على المقعد الأمامي

ووضع المفتاح في فتحة التشغيل وأداره، كانت حركة المفتاح سهلة وانزلق في مكانه بسهولة، وبدأ المحرك يزأر فشعر ناثان باهتزاز السيارة ثم هدأ صوت المحرك وأصبح منتظمًا.

ألقي ناثان نظرة على زاندار، ولكن ابنه لم يكن يتابع ما يفعله بعد الآن، فقد كان يحدّق بدلاً من ذلك إلى الأفق على مسافة واسعة. لقد رفع كفه فوق جبينه العابس ليحمي عينيه من أشعة الشمس. استدار ناثان في نفس الاتجاه لمعرفة الذي يحدث، كان هناك على مسافة بعيدة سحابة واحدة من الغبار تتحرك نحوهم من ناحية الجنوب، أحدهم قادمٌ في الطريق إليهم.

الفصل الثالث

وقف ناثنان بجوار قبر مربى الماشية للمرة الثانية خلال نفس اليوم، وشاهد السيارة التي تقترب، كانت السيارة تخفض من سرعتها كلما اقتربت من مكانهم. سيارة دفع رباعي ذات إطارات لشركة معروفة ومثبت في مقدمتها قضيب معدني يستخدم كحاجز للتصادم تقريباً مثل كل السيارات الأخرى الموجودة في هذه الأنحاء. كانت أشعة الشمس المنعكسة على جسم السيارة تبرز شعار الإسعاف المثبت في مقدمتها وعلى جوانبها.

ظل ناثنان وبوب وزاندار بجوار سيارة كاميرون اللاند كروزر حتى انقشع الغبار القادم من جهة الجنوب، ثم تحركوا إلى الأسفل دون تبادل كلمة واحدة، ركبوا السيارة وقادوا إلى قبر مربى المواشي، ثم انتظروا بجوار الجثة.

شعر ناثنان للمرة الأولى بالارتياح الشديد عندما توقفت سيارة الإسعاف أخيراً ومد الممرض يده لتقديم المساعدة إليهم. كان ستيف فيتزجيرالد رجلاً نحيلًا في أوائل الخمسينيات، يقص في بعض الأحيان حكايات عن عمله في منظمة الصليب الأحمر. لقد أمضى نصف حياته في أفغانستان، سوريا وغيرها من الأماكن، وأمضى النصف الآخر في عيادة طبية صغيرة في منطقة بالامارا النائبة، قال لناثنان ذات مرة إنه استمتع بذلك التحدي، وهو ما لم يفهمه ناثنان على الرغم من بساطته.

خرج ستيف من سيارة الإسعاف مع ضابط شرطة لم يره ناثنان من قبل. سأل ناثنان دون تردد: «أين جلين؟».

فظهر العبوس على وجه الشرطي. لم يرد ستيف على الفور، ولكنه نظر في اتجاه القبر وقطعة القماش المصنوعة من القنب وقال: «بحق المسيح! ماذا حدث لكاميرون المسكين؟».

ثم اتكأ على رقبته ومال بجسده ناحية الجثة ولم يلمس أي شيء. وتابع: «جلين، عالق بالقرب من مدينة هادون منذ أمس، فقد علقت سيارة استأجرتها أسرته في الرمال ومعهم عدد كبير من الأطفال، لم يستطع العثور عليهم في البداية، ولكنه نجح في ذلك فيما بعد، يستطيع تحريرهم من الرمال بحلول الغد».

- الغد؟

- نعم، لديه زوج واحد من الأيدي يا صديقي.

- اللعنة.

ما يقوله صحيحٌ فالرقيب جلين ماكيننا يحرس بمفرده منطقة كبيرة بحجم فيكتوريا، لذلك يكون متاحًا في الجوار في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى لا يكون كذلك، لكنه على الأقل يعرف كل خبايا المنطقة وخدعها.

تفحص ناثان الشرطي الجديد، الذي تبدو عليه بالفعل آثار الاحتراق بفعل أشعة الشمس ولا يزيد في العمر على زاندار.

- من أين أتوا بك؟

- سانت هيلين، جئت في الصباح، أنا الرقيب لودلو.

- هل دُرِّبْتَ هناك؟

- تردد الرقيب لودلو قبل أن يجيب: «لا، بل دُرِّبْتُ في بريسبان».

- بحق المسيح! في المدينة؟

- كان ناثان يدرك أن حديثه وقحٌ، لكنه لم يهتم.

- كم قضيت من الوقت في سانت هيلين؟

- شهرًا.

- عظيم.

سمع ناثان في هذه اللحظة ستيف يطلق زفرة عميقة. نظر إلى ستيف الذي كان يفرغ محتويات حقيبته الطبية قائلًا: «ربما علينا الانتظار حتى عودة جلين؟».

فأجاب ستيف دون إظهار قسوة مفرطة: «يمكنك الانتظار هنا كما تشاء يا صديقي، ولكنني سأنتهي من عملي هنا مع الرقيب لودلو في الحال».

نظر ناثان في عيني بوب فلم يجد أي رد فعل.

- حسنًا، أنا آسف يا صديقي، أنا لا أقصد شيئًا ولكنه فقط...

قال لودلو: «أنا أفهم ما تمرُّ به، ولكنني أخشى إن لم أؤد ذلك العمل فلن يؤديه أحد غيري».

سادت لحظات من الصمت المحرج، والكل يفكر في اختياراته المتاحة.

فأضاف الرقيب لودلو: «ولكنني سأبذل قصارى جهدي من أجل أخيك».

شعر نااثان فجأة بحماقة ما يفعله فقال: «نعم، أنت محق، أشكرك على أنك قطعت كل هذا الطريق لتأتي إلى هنا».

لمح نااثان نظرة من الارتياح تظهر على وجه الرجل فزاد شعوره بالسوء تجاه نفسه، قدّم الحاضرين من عائلته للشرطي بشكل لائق، ثم انتظر حتى أخرج الشرطي كاميرا من حقيبته.

- أنا ذاهبٌ إلى هناك...

أشار لودلو إلى عدسته ثم إلى القبر.

تراجَعَ الجميع في صمت بينما بدأ بالدوران، التقطَ الصور من كل الزوايا لقماش القنب والجهة الموجودة تحتها، وأخيرًا بعد أن انتهى من التصوير بدأ بنفض التراب عن ركبتيه وقميصه، ثم وجه حديثه إلى الممرض قائلاً: «يمكنك أن تباشر عملك الآن».

رَكَع ستيف على ركبتيه ورفع قطعة القماش بطريقة لا تسمح لنااثان برؤية ما يوجد تحتها، فشعر نااثان ببعض الامتنان، بينما تحركَ بوب مبتعدًا حتى وقف متكئًا في الظل بجوار سيارته وهو ينظر إلى الأرض في الاتجاه الآخر. ووقف الرقيب ينظر في الصور الرقمية التي التقطها.

كان نااثان وزاندار يقفان على مسافة قصيرة من الممرض يراقبانه في أثناء أداء وظيفته، استغرق نااثان في التفكير قبل أن يدرك ذلك، ربما لن يكون كاميرون سعيدًا بما يحدث، فلم يلتقِ كاميرون وستيف فيتزجيرالد وجهاً لوجه منذ فترة طويلة.

وبينما هو غارق في أفكاره بدأت آثار الحرارة تظهر على أذنيه، فسأله ستيف: «هل أنت بخير يا صديقي؟».

- نعم، أنا بخير، وتسير جميع أموري على نحو جيد، ما عدا هذا كما هو واضح لك.

كان ستيف يتحدث بصوت هادئ وودود، ولكن نبرته كانت ذات طبيعة احترافية متمرسّة وليست من باب المجاملات الاجتماعية.

- أنا بخير، ولكن بوب... كان بوب هنا طوال الليل.

قال ستيف بلهجة مداعبة: «أعرف هذا، ولكنني لم أرك منذ فترة طويلة، كما أنك فوّتّ ميعاد الكشف الخاص بك في العيادة».

- لقد اتصلت.

- نعم، لكنك لم تحضر بعد ذلك؟

قال ناثان بصوت متقطع: «أعتذر»، وهزّ كتفه وهو يضيف: «لقد كنت مشغولاً».

- لكن، هل أنت بحالة جيدة؟

قال ناثان: «نعم».

ورمق ستيف بنظرة تعني أنه لا داعي لخوض هذا الحديث في وجود الفتى. لكن الوقت قد فات، إذ لمح بطرف عينيه زاندار ينظر إليه ثم يصرف نظره بعيداً.

بعد مرور وقت يبدو طويلاً، نفّض ستيف يديه وجلس متكئاً على كعبيه. ثم قال: «حسناً»، وأشار إلى بوب ورقيب الشرطة بالاقتراب، «لقد تحدثت مع الطيار بالأمس، ولم أجد اليوم مفاجأة غير متوقعة، لقد مات بسبب الجفاف. سوف نضطر إلى إرساله إلى سانت هيلين من أجل تشريح الجثة، سيرغبون في التأكد من الأمر، فقد كان شاباً قوياً ومُعافى ووفاته غير متوقعة، ولكن مبدئياً يظهر عليه كل علامات الجفاف»، نظر إليهم ستيف متسائلاً: «ما الذي كان يفعله هنا؟».

رد ناثان: «لسنا متأكدين».

كان الرقيب لودلو يقلب في دفتر ملاحظاته، ثم قال وهو ينظر إلى بوب: «حسناً، لقد كان من المفترض أن تقابله يوم الأربعاء، أليس كذلك؟».

سكت الرقيب بعض الوقت وكأنه ينتظر شيئاً، بينما بدأت آثار حروق الشمس على وجهه تزداد احمراراً وعمقاً.

بدا على بوب الذهول عندما سأله الرقيب: «هل يمكنك أن تخبرني بالمزيد عن هذا؟».

بعد تردد وبطريقة توحى بأنه تلقنَ الإجابة، روى بوب نفس القصة التي حكاها لناثان، ولكنها كانت مفككة وغير منطقية لدرجة أن ناثن شعر بأنه كان مرتبًا في بعض المواضع.

خربش الرقيب لودلو بحدة فوق الصفحة التي أمامه ثم قلبها إلى الخلف وفتح صفحة أخرى، ودارت عيناه في عبوس فوق الكلمات المكتوبة، وسأل: «لماذا تأخرت عن الميعاد؟».

كان الرقيب يتحدث باستخفاف وكأن السؤال وليد اللحظة، ولكن ناثن كان متأكدًا من أنه قد جهَّز السؤال منذ عدة دقائق، ولكنه انتظر الوقت المناسب لطرحه. نظر ناثن إلى الشرطي ذي الجلد المحترق والعينين الواسعتين وتساءل إن كان أخطأ في الحكم عليه.

ارتعش بوب: «ماذا؟».

- لماذا تأخرت عن الميعاد المتفق عليه عند مقابلة أخيك في تل ليمان؟

- أوه، لقد نُقِبَ إطارا السيارة.

- الإطارات؟

- نعم.

- نُقِبَ إطاران في سيارتك؟

- نعم.

- هذا حظٌ سيئٌ بالتأكيد.

كان الرقيب يبتسم ولكن في لهجته شيئًا جديدًا قد ظهر.

قال ناثن بسرعة: «يمكن أن يحدث ذلك».

وشعر بالارتياح عندما أوماً ستيف بالموافقة.

- إنه أمر مألوف وخصوصًا في هذا الوقت من العام مع ارتفاع درجة

الحرارة وكثرة الصخور، غالبًا لا يُنْقَبُ إطارٌ واحدٌ، ويُنْقَبُ إطاران معًا

في نفس الوقت، وسوف يستهلك ذلك من الوقت خمسًا وأربعين دقيقة

في تغيير كل إطار وربما يصل الأمر إلى ساعة كاملة.

استمر الرقيب لودلو في النظر إلى بوب: «هل هذا ما حدث؟».

شعر ناثن بالارتياح عندما أبقى بوب فمه مغلقًا واكتفى بهزُّ رأسه، نظر

الرقيب مرة أخرى في دفتر ملاحظاته ثم خربش بعض الكلمات الإضافية.

كانت تعبيراته محايدة ولكن ناثن كان يشعر لسبب ما بأنه يخبئ شيئاً ما أسفل هذا المظهر المخادع. حرّك ناثن عينيه ناحية سيارة بوب ونظر إلى الإطارين الأماميين فوجد أنهما أحدث من الإطارين الخلفيين، ولاحظ أن زاندار يفعل الشيء نفسه، فارتبكا ونظر كلاهما بعيداً على الفور.

أخيراً حوّل الرقيب انتباهه ناحية ستيف وانصرف عن بوب.

- هل لديك أي معلومات أخرى عن وقت الوفاة؟

- ربما في وقت ما من صباح أمس، بالنظر إلى درجة الحرارة وقلة الظل والماء فلا يمكن لشخص أن يستمر على قيد الحياة أكثر من أربع وعشرين ساعة، هذا ما يمكنني تخمينه، ربما يخبرنا التشريح بمعلومات أكثر عما حدث.

عبس الرقيب لودلو: «هذا لا يبدو وقتاً طويلاً كفاية لحدوث الوفاة».

ثم أضاف: «كم كان عمره؟ في أواخر الثلاثينيات؟».

قال ناثن: «أربعين عاماً».

قال ستيف: «إن هذا وقت أطول بكثير مما يتحمل الآخرون، إن أربعاً وعشرين ساعة تقديرٌ متفائلٌ إلى حد كبير».

نظر لودلو إلى الأخوين مرة أخرى، وقال: «كم يبعد منزل كاميرون عن هنا؟».

قال ناثن: «يقع على بُعد خمسة عشر كيلومتراً، في خط مستقيم في اتجاه الشمال الغربي سيراً على الأقدام».

ثم أضاف: «يمكن الوصول إلى هناك بالسيارة عن طريق اتباع الطريق الترابي غرباً ثم شمالاً، حتى لا تعلق في الرمال الضحلة، ربما تصل المسافة إلى ثلاثين كيلومتراً عبر ذلك الطريق وربما تزيد عشرة كيلومترات إضافية إذا اتخذت طريقاً أكثر أماناً في الاتجاه الشرقي حتى تصل إلى هذه الصخور ثم تسلك الطريق الشمالي في خط مستقيم».

كان يقصد الصخور التي عثروا فوقها على سيارة كاميرون، تبادل ناثن وبوب نظرة خاطفة ولكن لودلو استطاع أن يلمحها.

قال لودلو: «إذاً فإن أقصر الطرق إلى المنزل سوف تستغرق بضع ساعات، حسب قولكما».

قال ستيف بصوت مكتوم: «لا يمكن السير على هذا الطريق، وخصوصاً في هذا الطقس».

ثم نظر مرة أخرى تحت قماش القنب قبل أن يقول: «لقد كان هذا هو الخطأ الذي ارتكبه هؤلاء الثلاثة الذين يعملون في البناء في أثرتون منذ بضع سنوات، لقد علقوا في الرمال. يجب أن تتذكر ذلك يا بوب، لقد كنت ضمن فريق البحث عنهم، أليس كذلك؟».

أكمل ستيف حديثه: «كم كان عمرهم؟ في منتصف العشرينيات؟ حاولوا أن يعودوا من هذا الطريق مرة أخرى، قطعوا ما يوازي سبعة كيلومترات قبل أن يموت اثنان منهم، كم استغرق ذلك من الوقت؟ ست ساعات على الأكثر». مشى لودلو إلى السياج واستند بيديه إلى السلك الشائك: «ماذا يوجد في هذه الأنحاء غير ذلك؟ هذه أرضك على الناحية الأخرى؟».

أجاب ناثنان: «نعم».

- هل كان أخوك يأمل في أن يصل إليك؟

رأى ناثنان بوب وستيف يهزان رأسيهما في وقت واحد.

- لا.

- يبدو أنك متأكد؟

- نعم، ولكن...

فتح لودلو دفتر ملاحظاته مرة أخرى.

- هل كان كامبيرون يعلم أنك في الخارج بصحبة ابنتك لفحص وإصلاح السياج؟

- نعم، فأنا أفعل ذلك في مثل هذا الوقت من كل عام، ولكننا لم نكن بجوار تلك البقعة في ذلك الوقت.

- هل كان كامبيرون يعلم ذلك على وجه اليقين؟

سادت فترة من الصمت الطويل.

- لا.

مسح لودلو براحة يده على السلك الجانبي، ثم رفع راحة يده ونظر إلى الغبار العالق بها.

- هل يمكنك التفكير في سبب يدفع أخاك إلى المجيء إلى هذا المكان؟

قال ناثنان: «لا أعرف سببًا يدفعه إلى المجيء إلى هنا»، ثم أضاف: «ولكنه يعرف هذا المكان جيدًا».

- هل كان يأتي كثيرًا إلى هنا؟

- لا أعتقد أنه ما زال يفعل ذلك.

نظر ناثان إلى بوب، الذي شهق قائلاً: «ولكنه كان معتادًا على القدوم إلى هنا في الماضي».

أضاف ستيف: «كما أن هذه هي مساحة الظل الوحيدة الممتدة على مسافة أميال، ربما كانت غريزة البقاء ما دفعته إلى القدوم إلى هنا».

فكَّر الرقيب لودلو في هذا وهو ينظر في الجسد الملقى فوق الأرض، كان يبدو أنها جثة إنسان حتى وهو مغطى بقماش القنب.

- كيف كانت الحالة العقلية لأخيك في الأسابيع القليلة الماضية؟

طرح السؤال برفق واستغرق الأمر بعض الوقت من ناثان حتى يدرك أن السؤال موجه إليه.

- أنا لا أعرف، فأنا لم أره منذ عدة أشهر.

- كم عددها؟

- ربما أربعة أشهر، عندما تجمَّعنا لعمل تلك الطريق، أليس كذلك يا بوب؟

ثم نظر إلى بوب، وأدرك أن تلك كانت المرة الأخيرة التي رأى فيها أيًا من أخويه قبل ذلك الحادث، ولكن بوب كان شاردًا.

- أربعة أشهر، ربما كان أغسطس أو سبتمبر. ربما قبل ذلك بفترة بسيطة،

انتظر.. كان ذلك بالتحديد قبل بداية مباريات موسم الرجبي⁽¹⁾ الجديد، لقد تحدثنا في ذلك الأمر.

قال لودلو وبوب في صوت واحد: «يونيو؟».

- نعم، أفترض ذلك.

قال لودلو: «إذًا مرَّ ستة أشهر على ذلك».

- نعم، لكننا كنا غالبًا ما نتحدث من خلال جهاز اللاسلكي.

- غالبًا؟

- بما يكفي، في كثير من الأحيان.

- هل كان هناك سبب لعدم مقابلتكم وجهًا لوجه؟

- لا، لا يوجد سبب فأنا أعيش على بُعد ثلاث ساعات من منزله وكلنا مشغولون.

(1) رياضة جماعية تستخدم في أدائها كرة مديبة وتنتشر في إنجلترا ونيوزيلندا والمستعمرات الإنجليزية القديمة كأستراليا وغينيا الجديدة. (المترجم).

ثم نظر إلى بوب طالبًا المساعدة ولكنه لم يحصل منه على شيء.

- أنت تراه يوميًا في المنزل، ما رأيك؟

توقَّع ناثان أن يهز بوب كتفه أو يصمت كعادته، ولكن بدلًا من ذلك بدت عليه علامات التفكير ثم قال: «لقد كان كام محطماً بعض الشيء في الفترة الأخيرة».

حدَّقَ إليه ناثان في ذهول، هل كان كام في حالة سيئة إلى هذا القدر الذي جعل بوب يلاحظها.

سأل لودلو: «محطماً، وكيف ذلك؟».

لم يهز بوب كتفه هذه المرة أيضًا، وبدا عليه الانفعال بعض الشيء.

- لا أعرف، محطماً بالطريقة المعتادة.

انتظر الجميع، ولكن يبدو أنه لم يكن ليكمل حديثه بمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع.

عاد لودلو إلى قراءة دفتر ملاحظاته، ثم سألهما: «من كان يعيش مع كامرون؟».

قال بوب وهو يعدُّ على أصابعه: «أنا، أمي، إلسي، إلسي هي زوجة كام، وكذلك ابنتاه، والعم هاري».

قاطعه ناثان: «هاري بليدسو، إنه ليس عمنا في الحقيقة، إنه صديق للعائلة، لقد كان يعمل في المزرعة من قبل أن نولد».

سأله لودلو: «إذًا هو موظف لديكم؟».

قال ناثان: «نعم، هو موظف، ولكن لا أحد يعامله على هذا النحو».

أومأ بوب برأسه قائلاً: «يوجد اثنان من العمال الرحالة كذلك».

سأله لودلو: «ماذا يفعلان؟».

- المعتاد، يؤديان أعمالاً متفرقة في أرجاء المنزل، كل ما يطلبه منهما كام، لقد وظفهما منذ عدة شهور.

- هل هو معتاد على توظيف الناس؟

قال ناثان: «كلما احتاج إلى ذلك»، ثم أضاف: «إنه يوظف العديد من الأشخاص ويأتي العمال ويرحلون طوال العام، حسب حاجة المزرعة، جلين ماكيننا الرقيب كان يعرف كل هذه التفاصيل».

كتب لودلو شيئاً في دفتر ملاحظاته في نفس اللحظة.

وقف ستيف ونفض الغبار عن ركبتيه ثم قال: «حسنًا، الآن سوف ننقله إلى سيارة الإسعاف. يمكنني بمساعدة الرقيب تدبُّر الأمر ووضعه فوق النقالة، في حالة عدم رغبة أيٍّ منكما في منحنا المساعدة وذلك يعود إليكما، أنا أتفهم طبيعة مشاعركما في ذلك الوقت».

هَزَّ كُلُّ مَنْ بَوَّبَ وَنَاثَانَ رَأْسَيْهِمَا، شَعْرَ نَاثَانَ بِبَعْضِ الْإِرْتِيَاكِ بَعْدَ أَنْ بَدَأَ بِالشُّكِّ بِأَنَّهُ سَيَسْتَمِرُّ فِي تَحْمَلِ ثِقَلِ هَذِهِ التَّحْقِيقَاتِ لِمَا تَبَقِيَ مِنْ حَيَاتِهِ. مَالِ سَتِيفَ إِلَى الْأَسْفَلِ مَرَّةً أُخْرَى: «الآن، سوف أرفع قطعة القماش بالكامل، ربما يريد أحدكم أن يشيخَ بنظره بعيدًا».

هَمَّ نَاثَانَ فِي قَوْلِ شَيْءٍ مَا إِلَى زَانْدَارٍ وَلَكِنَّهُ رَأَى الْفَتَى يَبْتَعِدُ بِالْفِعْلِ، كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الْمَدِينَةَ جَعَلَتْهُ أَكْثَرَ رِقَّةً وَلَكِنَّهُ شَعَرَ بِالسَّعَادَةِ لِمَا أَصْبَحَ عَلَيْهِ، فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ كَانَ بَوَّبَ يَنْظُرُ نَاحِيَةَ الْأَفْقِ فِي صَمْتٍ. تَرَدَّدَ نَاثَانَ طَوِيلًا فِيمَا يَفْعَلُ فَاتَّخَذَ الْقَرَارَ بِالنِّيَابَةِ عَنْهُ دُونَ انْتِظَارِهِ، وَأُزِيلَتِ قِطْعَةُ الْقِمَاشِ وَرُفِعَ جَسَدُ كَامِيرُونَ الْمَيِّتِ فَوْقَ النَّقَالَةِ.

كَانَ بَوَّبٌ مُحَقَّقًا عِنْدَمَا قَرَّرَ عَدَمَ النَّظَرِ إِلَى شَقِيْقِهِ الْمَيِّتِ، لَمْ يَكُنْ جَرِيحًا بِالْمَعْنَى الْمَتَعَارَفِ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الْحَرَارَةَ وَالْعَطَشَ فَعَلَا الْعَدِيدَ مِنَ الْفِطَائِعِ بِجَسَدِهِ.

كَانَتْ مَلَابِسُهُ مَمْرُقَةً وَيَبْدُو أَنَّهُ فَقَدَ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّفْكِيرِ بِشَكْلِ عَقْلَانِي فِي اللَّحْظَاتِ الْأَخِيرَةِ، كَمَا أَنَّ بَشْرَتَهُ تَشَقَّقَتْ. يَبْدُو أَنَّ كُلَّ الْأَفْكَارِ الَّتِي كَانَتْ تَخْطُرُ بِبَالِ كَامِيرُونَ طَوَالَ حَيَاتِهِ لَمْ تَتْرَكْهُ يَشْعُرُ بِالسَّلَامِ فِي لَحْظَةِ الْمَوْتِ. ظَلَّ نَاثَانَ يَحْدِّقُ إِلَى النَّقَالَةِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، حَتَّى بَعْدَ وَضْعِهَا فِي سَيَارَةِ الْإِسْعَافِ.

عَادَ الرَّقِيبُ لَوَدَلُو مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الْقَبْرِ وَمَسَحَ يَدَيْهِ فِي حَرَكَةٍ لَا إِرَادِيَّةَ فِي جَانِبِ سُرْوَالِهِ، وَتَوَقَّفَ فَجَاءَ فِي مَنْتَصَفِ حَرَكَتِهِ، ثُمَّ اتَّجَهَ خَطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِفَحْصِ الرَّقْعَةِ الَّتِي كَانَ كَامِيرُونَ يَرْقُدُ عَلَيْهَا. كَانَتْ قِطْعَةً مَكشُوفَةً مِنَ الْأَرْضِ يَغْطِيهَا التَّرَابُ وَقِطْعَةً صَغِيرَةً مِنَ الْعَشْبِ الْمَتَنَاثِرِ.

مَالِ الرَّقِيبِ إِلَى الْأَمَامِ وَاقْتَرَبَ بِشَكْلِ أَكْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: «مَا هَذَا؟».

شَعَرَ نَاثَانَ بِأَنَّ بَوَّبَ يَتَقَدَّمُ مِنْ خَلْفِهِ مِنْ عَلَى الْجَانِبِ وَزَانْدَارٌ يَتَقَدَّمُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، وَنَظَرَ الْجَمِيعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَشِيرُ إِلَيْهِ لَوَدَلُو. كَانَتْ هُنَاكَ بِالْقَرْبِ مِنْ قَاعِدَةِ شَاهِدِ الْقَبْرِ حَيْثُ كَانَ كَامِيرُونَ يَسْتَنْدُ بِظَهْرِهِ حَفْرَةَ سَطْحِيَّةٍ غَامِضَةً.

الفصل الرابع

كانت الحفرة بحجم ثلاث قبضات تقريبًا، وكانت فارغة؛ لا شيء بداخلها. بدأ لودلو يلتقط لها مجموعة من الصور، ووقف ناثن يراقبه. وضع لودلو قفازًا يغطي يده ثم وضع إصبعًا واحدة في الحفرة، بدأ جانب الحفرة بالانهيار على الفور بمجرد لمس الأرض الناعمة، الأرض تتصرف مثل الكائنات الحية. يعلم وناثن أن تلك المنطقة من الأرض سوف تستعيد شكلها السابق خلال يوم أو يومين على الأكثر في منتهى السلاسة. بدأ لودلو بالنبش بشكل أعمق داخل الحفرة، مما دفع ناثن إلى التساؤل بشكل عابر عن العمق الحقيقي الذي دفن عليه مربى الماشية.

- لا أستطيع رؤية أي شيء.

ثم مسح لودلو يديه في بنطاله مرة أخرى ورفع بصره موجهاً الحديث إلى ستيف بوجه عابس قائلاً: «هل فحصت يديه؟».

دار ستيف حول مؤخرة سيارة الإسعاف واختفى، ثم عاد بعد فترة وجيزة قائلاً: «أظافره مكسورة، وهناك بعض بقايا الرمال والحصى في أسفلها، ربما يكون قد حفر تلك الحفرة مستخدمًا يديه إن كان هذا ما تسأل عنه».

- لماذا يهدر طاقته في فعل ذلك؟

- لأن دماغه كان يغلي، أليس كذلك؟

التفت الجميع إلى مصدر الصوت حيث كان بوب يقف محددًا تجاههم وكتفاه منحنيان إلى الإمام بينما ذراعه معقودتان أمام صدره. هزَّ بوب كتفيه وهو يقول: «هذا الأمر واضح للغاية، أليس كذلك؟ لقد بلغت درجة الحرارة بالأمس خمسًا وأربعين درجة مئوية. ربما لا أعرف السبب الذي دفع كام إلى

أن يترك سيارته بالأمس ولكنه في تلك اللحظة قد انتهى أمره، هذه خلاصة القصة».

نظر لودلو إلى ستيف الذي أوما برأسه في حزم.

- حسنًا، إنه ليس على خطأ، إن الجفاف يقود إلى حالة شديدة من الارتباك والهלוسة تتدهور بشكل سريع.

ظَلَّ الجميع يحدق إلى الحفرة السطحية لفترة طويلة، ثم رفع لودلو رأسه وكان أول من تحدث: «الآن، أريد أن أفحص سيارته».

عرض ناثن أن يصحب الرقيب بسيارته إلى هناك ولم يبدُ أن بوب يمانع في ذلك بل إنه أراد أن يبقى في مكانه بصحبة ستيف الذي بدأ بجمع عينات ووضعها في صندوق التبريد قبل أن تفسد وتصبح بلا قيمة على الإطلاق.

صعد ناثن عبر السياج بصحبة لودلو وزاندار وركبوا في سيارته اللاند كروزر.

شَعَرَ ناثن ببعض التحسن لأنه استطاع أخيرًا أن يعبر إلى الجانب الآخر من السياج، الجانب الذي يملكه، كان وجود كاميرون ممددًا على الأرض مشهدًا غير طبيعي، أفسد توازن المكان بشكل ما. كما لو أن الهواء قد أصبح ملوثًا.

لم تكن يد ناثن ثابتة بشكل كامل على عجلة القيادة، بينما كان يحاول أن يتذكر مقابله الأخيرة مع كاميرون، ربما كانت في يونيو أو أي شهر آخر لا يهم. لا بد أن كام كان مبتسمًا ساعتها، فهذه عادته دائمًا. بدأ ناثن بثني يديه الواحدة بعد الأخرى. يمكنه فقط تصور وجه أخيه الممدد تحت قماش القنب وتمنى لو أنه نظر في الاتجاه الآخر في تلك اللحظة.

بعد أن أدار محرك السيارة، وبدأ بالانطلاق مبتعدًا عن القبر لاحظ أن لودلو يقول شيئًا ما.

- آسف؟

- كنت أتساءل، هل اشتريت أنت وأخوك الأراضي التي تخصكما عن عمد بجوار بعضها بعضًا؟

- أوه، لا. إن مزرعة بيرلي داونز كانت مملوكة لأبينا في الماضي، لذلك نشأت مع كام وبوب في هذا المكان، ثم منحني أبي بعضًا من الأراضي على هذا الجانب من السياج عندما تزوجت.

ثم ألقى نظرة خاطفة في مرآة السيارة، واستطاع أن يرى زاندار يجلس في مكانه على المقعد الخلفي ناظرًا في الأفق ومتظاهراً بعدم الاستماع لما يقال.

- حَدَّثَ هذا منذ عشرين عامًا بالتقريب، وبعد وفاة والدي، تولَّى كام إدارة بيرلي داونز في نهاية الأمر.

- إِذَا فَهِيَ مَلِكٌ لِكَام؟

- إنه يديرها، وأصبح لديه الحصة الأكبر في ملكيتها.

- آه، حسنًا.

- نعم، ولكن الأمر لا يدعو للاهتمام لهذه الدرجة الكبيرة، فالأمور تسير على هذا النحو منذ سنوات عديدة. عندما مات أبي حصل كلُّ منا على ثلث ثروته، وكانت الأمور تسير بنزاهة وعدل، ثم بُعِثُ نصف حصتي إلى كام بعد مرور فترة قصيرة، وكان هو يدير المكان وينظم الأعمال اليومية ويخطط للمستقبل على المدى الطويل، حصل بوب على حصته التي تساوي الثلث وما زلت أملك السدس حتى اليوم.

كتب لودلو ملاحظة في دفتره ثم قال: «وما هو حجم بيرلي داونز؟».

- ثلاثة آلاف ونصف كيلومتر مربع، إلى جانب ثلاثة آلاف من رؤوس الماشية.

- وتتولى عائلتك إدارة كل هذه المساحة بنفسها؟

فتح ناثن فمه للرد، ولكنه أدرك وقتها أن هناك شيئاً غريباً يتعلق بالطريقة التي يلقي بها لودلو ذلك السؤال، كان الرجل يتحدث معه في المعتاد بشكل طبيعي للغاية، لا يصرح بشيء ولا يلمح لشيء آخر، لا يوجه تهديدًا أو يسأل بشكل شديد الإلحاح.

تساءل ناثن متى سيبدأ ستيف بإخبار لودلو بحكاياته القديمة، ربما سيفعل ذلك على متن سيارة الإسعاف في الطريق إلى المدينة. كانت الحكاية عبارة عن تجميع للأحاديث الصغيرة والثرثارات المتداولة بين الناس ولم تكن سرية، حتى إنها أصبحت جزءًا من المواريث المحلية من وجهة نظر ناثن.

تحركَ لودلو على مقعده فأدرك ناثن أنه ما زال بانتظار الإجابة.

- كما أخبرتك سابقًا، نطلب المساعدة في حالة الحاجة إلى ذلك، فالمزرعة دائمًا في حاجة إلى حشدٍ من العمال، هناك شركات مختلفة نتعاقد معها من أجل ذلك وبمجرد الاتصال بها توفر كل احتياجاتنا، ترسل العمال في الغالب عن طريق الطائرة الهليكوبتر أو عن طريق الدراجة البخارية في بعض الأحيان. كان كام يطلب المساعدة في الأمور الهندسية أو في إصلاح السياج أو أي شيء آخر. لكن المهام اليومية المعتادة في الغالب ما تؤديها الأسرة وخصوصًا عندما تكون الأجواء هادئة. لا يوجد الكثير من العمل لأدائه في هذا الوقت، فالأسواق مغلقة وكذلك مصانع اللحوم بسبب أعياد الميلاد.

- ألا تحتاج مساعدة من أجل حلب كل هذه الأبقار؟

لمح ناثنان زاندار في المرأة الخلفية يكرم ابتسامته.

- إنها ماشية لإنتاج اللحم وليس الحليب.

- ثلاثتك إذاً ملاءى بشرائح اللحم؟

- وكذلك الحليب طويل الأجل، ولكن الأمر يختلف فيما يتعلق بالماشية الخاصة بالمزرعة، إنها أكبر في الحجم، وتتجول طوال الوقت لترعى العشب وتشرب من المياه المتجمعة في الحفر والثقوب، حتى يحين وقتها. إنها حيوانات وحشية من نواح عديدة حتى إن بعضها لا يرى إنسانًا منذ لحظة ولادتها إلى أن يحين ميعاد ذبحها.

- وما هو حجم مزرعتك؟

- قرابة سبعمئة كيلومتر مربع.

- إنها أصغر قليلًا من بيرلي داونز.

- نعم.

- لماذا؟

تردد ناثنان، بينما عاد زاندار إلى التحديق مرة أخرى خارج النافذة.

- إنها قصة طويلة، ولكن يمكن أن تقول إن الفوضى التي سببها الطلاق هي السبب.

بدا أن لودلو قد اقتنع بتلك الإجابة على الفور، ولم يعد في حاجة إلى المزيد من الشرح.

تساءل ناثان عن السبب الذي دفع هذا الشرطي إلى البعد عن بريسبان لمسافة ألف وخمسمئة كيلومتر.

قال لودلو: «مَن غيرك يعيش في المزرعة؟».

لم يُجب ناثان على الفور.

- لا أحد يعيش هناك سواي، طوال الوقت، أنا أعيش بمفردي.

أدارَ لودلو رأسه وحدَّق إليه قائلاً: «تعيش بمفردك تمامًا؟».

- نعم، إنني أعيش بمفردي بشكل كامل، أطلب العمال وأتعاهد مع المتخصصين عندما أكون في حاجة إلى ذلك وعندما تسمح لي ظروفني المادية.

ظَلَّ الرقيب يحدِّق إليه بشكل وقح.

- إذاً مزرعتك تبلغ سبعمئة كيلومتر مربع، وكم تملك من رؤوس الماشية؟

- ربما خمسمئة، أو ستمئة.

- بحق المسيح! يبدو أنك تملك الكثير.

لم يرد ناثان على الفور، لقد كان يملك الكثير، ولكنه لا يملك الكثير في نفس الوقت. كان يملك الكثير بما يكفي ليظل مرهقًا بالعمل الشاق في الأرض ويغرق فيها كمن يغرق في حفرة من الرمال، ولكنه لم يكن كافيًا في مساعدته للحصول على شيء جيد يساعده على تغيير أحواله.

- لكن...

مسح لودلو بعينه على طول الأفق الواسع على الجانب الفارغ من الطريق.

- ألا تشعر بالوحدة؟

- لا.

نظر ناثان نظرة أخرى في المرأة الخلفية في اتجاه زاندار ليعرف إن كان يتابع الحديث حتى تلك اللحظة.

- لا، أنا في حالة جيدة، ولا أشعر بالضيق من الوحدة. كما أن الماشية تعتنى بنفسها تقريباً في كل شيء ما دمت توفر لها ما يكفي من الماء.

- هل تعتنى بنفسها في كل شيء، فعلاً؟

قال ناثان بمكر في محاولة منه لتغيير موضوع مسار الحديث: «لا، ليس في كل شيء، ولكننا محظوظون هنا في جرينفيل، خلال العامين الماضيين».

- وما السبب؟ هل هو النهر؟

- نعم، إنه يتكون من مياه الأمطار، والطيني يحمل جميع العناصر الغذائية لذلك فهو مفيد للأراضي الزراعية في وقت الفيضان، قد فاض النهر في العام الماضي، وفاض منذ عامين فيما سبق.

حدَّق لودلو إلى اتجاه الشمس سائلًا: «ما مقدار المطر اللازم لحدوث الفيضان؟».

قال زاندار من مكانه في المقعد الخلفي: «النهر يفيض في هذه الأثناء دون الحاجة إلى هطول المطر».

التفت له لودلو قائلًا: «هل هذا حقيقي؟».

أوما ناثان برأسه موافقًا، كان مشهد فيضان النهر قريبًا بالنسبة إليه حتى بعد أن أمضى اثنين وأربعين عامًا في مشاهدة ارتفاع الماء في صمت ويختفي تحت السماء الزرقاء الخالية من السحب. يندفع النهر إلى الخارج غامرًا ضفافه بمياه الأمطار التي سقطت على بُعد ألف كيلومتر شمالًا منذ عدة أيام.

- عندما تفيض المياه، تصبح أغلب هذه الأراضي مغمورة في الأسفل، يصل عرض النهر في بعض الأماكن إلى عشرة كيلومترات حتى إنه لا يمكن عبوره دون الاستعانة بقارب، لقد بُنيت المنازل وشُيِّدت المدن على أراضٍ مرتفعة، ولكن مع هذا تختفي كل الطرق الممهدة جرَّاء الفيضان.

ظهرت على وجه لودلو علامات الذهول: «وكيف تستطيع الخروج في هذه الحالة؟».

سمع ناثان صوت ضحكات زاندار، ثم قال: «لا يمكنك الخروج، معظم المزارع تتحول إلى جزر منعزلة، في أحد المرات ظلت عالقًا في منزلي لمدة خمسة أسابيع متواصلة».

- كنت وحيدًا؟

ردَّ ناثان: «أجل»، ثم أضاف: «ولكن كل شيء سار على ما يرام على كل حال، إنها طبيعة المكان الجغرافية ولا نملك الاختيار، وكل ما عليك فعله، هو أن تكون مستعدًا لما سوف يحدث».

نظر لودلو إلى الرمال الحمراء الممتدة حولهم، كان من الصعب عليه تخيل الفيضان يغمرها، ولكنه يعرف أنها كانت منذ ملايين السنين تحت بحر ضخم كانت قاعه، وما زالت عظام الديناصورات البحرية تُكْتَشَف تحت هذه الرمال، وما زالت هناك أماكن في هذه الصحراء حيث ترقد تلال من الأصداف المتحجرة تحت أشعة الشمس الحارقة.

تذكّر ناثن فجأة كيف كان يذهب بصحبة كاميرون عندما كانا صغيرين لصيد الديناصورات. كانا يحملان المعول في يد وفي اليد الأخرى حقيبة لحمل العظام في طريق العودة إلى المنزل.

والآن، وبعد مرور سنوات طويلة، جاء الدور على زاندار فأصبح ناثن يحشو جيوبه بالديناصورات المصنوعة من البلاستيك ويدفنها في التربة، إذ إن الديناصورات الحقيقية لم تعد تأتي للعب من تلقاء نفسها.

بدأ الرقيب التدوين في دفتر ملاحظاته مرة أخرى قبل أن يسأل: «من هم جيرانك؟».

- أقرب مكان هو أثرتون. (وأشار ناثن إلى الشمال الشرقي). تقع المدينة في الجنوب من هذا الطريق، وهناك مزرعتان في اتجاه الشرق، وثاني أكبر مزرعة في الأنحاء هي مزرعة كيرابي التي تشارك في حدودها مزرعتي، ولكنها أصبحت مملوكة لشركة خاصة الآن.

كانت تلك المزرعة مملوكة في الماضي لعائلة أخرى، على الأحرى عائلة والد زوجة ناثن، دائمًا ما يذكر نفسه بأنه والد زوجة ناثن السابقة، لأن وقع كلمة السابقة أفضل على نفسه.

وضع ناثن قدميه على مكابح الفرامل عندما اقتربوا من المنطقة التي يمكنهم من خلالها العبور عبر السياج. قفز زاندار من السيارة وفتح البوابة ثم عبرت السيارة لتصبح مرة أخرى على الأرض المملوكة لكاميرون.

وجّه ناثن حديثه إلى لودلو قائلاً: «المسافة لم تكن بعيدة».

- ما الذي كنت تقوله في وقت سابق حول معرفة أخيك بمكان القبر معرفة جيدة؟

نظر إليه الرقيب.

- يبدو ذلك المكان غريبًا، بالنسبة إلى شخص ما لتمضية وقته عنده.

قال زاندار وهو يقفز مسرعًا ليعود على متن السيارة مرة أخرى: «لقد رسم العم كام لوحة زيتية لمقبرة مربى الماشية، وبذلك جعلها مشهورة في كل هذه الأنحاء».

- حسنًا.

- لقد كان ذلك نوعًا من الهواية، كان كام هاويًا للرسم، بدأ بممارسة هذه الهواية عندما كنا صغارًا وكان جيدًا جدًا، ولم يكن لدينا الكثير لنفعله من أجل الحصول على بعض المتعة، لذلك كنا نفعل الكثير من الأشياء الغريبة التي تفعلها السيدات العجائز كجمع الطوابع وغيرها من الأمور الأخرى، كان رسمي سيئًا للغاية ولكن كام كان يرسم بشكل جيد، واستمر في الرسم على ما أعتقد بشكل متقطع، ولكنه رسم مقبرة راعي الماشية منذ خمس سنوات على وجه التقريب.

التقطت إحدى العائلات الموسميات صورة فوتوغرافية للوحة ورفعتها على الإنترنت عندما عادت إلى موطنها في فرنسا أو كندا أو أيًا كان المكان الذي جاءت منه. وفجأة بدأ كاميرون بتلقي مكالمات من أشخاص يرغبون في شراء لوحاته، وفي نهاية المطاف وبناءً على اقتراح من والدته تقدّم بإحدى لوحاته في مسابقة على مستوى الولاية وفاز بجائزة.

وأضاف ناثنان: «يمكنك شراء بطاقة بريدية تحمل إحدى لوحاته من متجر المدينة».

سأله لودلو: «إذًا، فالقبر يعني الكثير لأخيك؟».

وكان صوته يشير بأنه وجد شيئًا ذا أهمية.

أجاب ناثنان: «لا يمكن أن أقول ذلك، أعتقد أنه أحب اللوحة أكثر مما أحب المكان، قد حالفه الحظ في أحد الأيام بسبب الطريقة التي كان الضوء يغمر بها القبر».

قال لودلو: «إنه أمر غريب للغاية بالنسبة إليّ، قبر بمفرده في منتصف الصحراء، لم أرَ شيئًا مماثلًا من قبل».

قال زاندار وهو يميل إلى الأمام: «هناك العديد من القبور المشابهة في هذه الأنحاء، تنتمي إلى الماضي، حيث كان أصحاب تلك القبور يموتون فجأة، فيدفنون في مكان الوفاة، وبعد فترة من الوقت تأتي العائلة أو أحد الأشخاص

ويضعون شاهد قبر، هناك العديد من الصور والمعلومات عن هذه الفترة متوفرة على شبكة الإنترنت من أجل السياح».

- من الذي سوف يأتي هذه المسافة الطويلة من أجل زيارة مثل هذا القبر؟ هَزَّ ناثان كتفه: «سوف تشعر بالدهشة، فالبعض يزور قبر مربى الماشية. حدث ذلك الأمر منذ عدة سنوات عندما كانت رسومات كام أكثر شهرة، ولكن ذلك لم يعد يحدث كثيرًا الآن، فلقد أصبح هناك رسام آخر في أثرتون أكثر شعبية منه».

- وما اللوحات التي يرسمها ذلك الشخص؟

- لوحات حزينة على ما أعتقد، لوحة لطفل صغير، ولد يرتدي ملابس القرن التاسع عشر.

بدا على لودلو علامات عدم الارتياح، وتساءل ناثان إن كان لديه أطفال.

- ما الذي حدث لمربى الماشية؟

- القصة المعتادة.

حاول ناثان أن يحافظ على طبقة الصوت الهادئة، وهو يقول: «انحرفَ عن الطريق الصحيح، فَتَاهَ في الصحراء».

وبينما هم يسيرون على الطريق فَوَّتَ ناثان الفتحة المخبأة في البداية، ثم أدار السيارة وهو يقسم أن يجدها وقد تملكت منه حالة من الغيظ والارتباك، ثم دخل بسيارته ذات الدفع الرباعي في الشق المخفي بين الصخور الحادة، وعندما وصل إلى الجانب الآخر نظر حوله في حيرة، لم يجد سيارة كامبيرون تلوح في الأفق، ومَرَّ في عقله خيال لحظي غريب بأن السيارة قد اختفت بالفعل. نقر زاندار على الزجاج المعفر بالغبار وهو يقول: «لقد ابتعدنا أكثر من اللازم»، ثم أشار إلى الخلف.

عاد ناثان إلى الطريق مرة أخرى وحاول العثور على الفتحة مجددًا، كان يسير تقريبًا على المسار الصحيح بشكل متطابق لما فعله بوب، فقد أوقف سيارته في نفس المكان الذي أوقف فيه بوب سيارته في السابق، ثم صعدا جميعًا إلى قمة المنحدر.

عندما وصلوا إلى القمة تراجعَ زاندار خطوة إلى الخلف بينما كان لودلو يرتدي قفازاته ثم دار حول سيارة كامبيرون والتقط المزيد من الصور. قبل أن يتوقف بجوار الباب المفتوح الذي يخص السائق.

قال ناثنان وهو يحاول أن يطرد الغبار من داخل حلقه: «لقد كان الباب مفتوحًا بهذا الشكل عندما وصلنا، ولكن المفاتيح كانت مرصوصة فوق المقعد، لقد جربت المحرك».

- لم يكن يجب عليك لمس أي شيء.
- أعتذر.

- وماذا حدث بعد أن جربته؟
- وجدته يعمل بشكل جيد.

ركب لودلو السيارة وأدار المحرك بنفسه، ثم تركه يعمل لبضع ثوان قبل أن يطفئه، ثم سأل: «هل كان موثوقًا بأداء هذه السيارة بشكل عام؟ فهي تنتمي إلى موديل قديم للغاية».

يعرف ناثنان أن عمر السيارة ثمانية عشر عامًا، فهي في مثل عمر سيارته تمامًا.

- جميع السيارات القديمة تعمل بشكل أفضل في هذه الأثناء، فالسيارات الجديدة تحتوي على هذه الشاشات الإلكترونية وغيرها من الأشياء التي لا تستطيع تحمل الغبار، الذي يدخل بين فتحاتها ويدمر نظام السيارة بالكامل، كما أن كام كان يعتني بسيارته على نحو جيد.
- وماذا عن جهاز اللاسلكي؟

وأشار لودلو إلى الجهاز الموجود في مقصورة القيادة.

أشار له ناثنان إلى الطريقة التي يعمل بها الراديو من خلال الترددات المختلفة.

- يبدو بحالة جيدة بالنسبة إليّ، من المحتمل أن يكون جهاز الطوارئ⁽¹⁾ الخاص بتحديد الموقع الخاص به تحت مقعد السائق كذلك.

مَالَ لودلو بجسده تجاه المقعد ومدَّ يده وسحب الجهاز الشخصي الخاص بالإنقاذ، كان الجهاز ما زال محفوظًا في علبته وغير مفعّل، قال لودلو: «ألا تستخدمون أجهزة اللاسلكي المحمولة؟».

- لا، جميع الأجهزة متصلة بالسيارة.

- إذا من يترك سيارته لا يستطيع إجراء الاتصالات؟

(1) EPIRB جهاز يستخدم في حالة الطوارئ لتحديد مواقع المركبات والسفن الغارقة والأشخاص الضائعين. (المترجم).

- نعم، هذا صحيح.

- ما نطاق الاتصال؟

- هذا يعتمد على عدة عوامل، يمكن للاتصال أن يصل إلى مدى عشرين كيلومترًا أو أكثر من هذا في حالة وجود أعمدة التقوية، ولكن هناك بُعْدًا خارج التغطية.

وأضاف ناثنان: «إنه مدى نظري بشكل كبير».

واصل الرقيب الحركة داخل السيارة وتفحص محتوياتها بيده التي يرتدي فيها القفاز، فحس صندوق القفازات وحواجز الشمس وتحت المقاعد، ثم أعاد فحص كل شيء مرة أخرى.

ثم قال لودلو: «أعتقد أن محفظته مفقودة»، ورفع رأسه، «لم تكن في جيوبه كذلك».

- لا، لا بد من أنه تركها في المنزل، إنه لا يحملها معه.

كانت محفظة ناثنان ملقاة على مائدة المطبخ في مزرعته بداخل منزله المفتوح على بُعد بضعة مئات من الكيلومترات.

لوح ناثنان بيده وقال: «من الذي يهتم بالمحفظة؟».

ظهرت علامات الحرج على وجه لودلو، وفتح دليل الصيانة وبدأ بالتقليب بين صفحاته. سأله ناثنان: «ما الذي تبحث عنه؟».

لم يُجب على الفور، فسأله ناثنان مرة أخرى، فأجاب لودلو في تردد: «أي شيء». بدأ ناثنان بالظن بأنه لا يعرف ما الذي يجب عليه فعله، ولا يعرف كيف تجري مثل هذه الأمور. ألقى نظرة تجاه زاندار فوجده عابسًا. ربما كان زاندار يفكر في نفس الشيء.

سأله زاندار: «هل ستبحث عن بصمات أصابع أو شيء من هذا القبيل؟».

- يجب أن يأتي فريق البحث الجنائي بالطائرة لفعل هذا الأمر.

- وهل سيأتون؟

- فقط إن كانت هناك آثار للعنف.

أدار الجميع بصرهم في اتجاه السيارة، لم تكن النوافذ متصدعة، لا تحتوي المقاعد على شيء غير الأوساخ المعتادة، وكانت المرايا مضبوطة في اتجاهاتها السلمية.

نظر لودلو إلى زاندار وقال: «أنا آسف».

ثم استأنف بحثه بطريقة ممنهجة ونمطية، ولم يتوقف إلا بعد أن فتح الباب الخلفي ونظر إلى كل زجاجات المياه والأطعمة المقدسة بطريقة مرتبة أمامه.

- هل ترك كل ذلك وانصرف؟

لم يكن لدى نااثان إجابة عن هذا السؤال، ودار في ذهنه خاطر بأن وظيفة لودلو المفترض عليه تأديتها، هي الإجابة على مثل هذه الأسئلة.

نظر إليهم لودلو وقال: «هل هناك تفسير عملي، يمكنك قوله؟».

- لقد سمعت عن بعض الأشخاص... (بدا نااثان غارقاً في اليأس حتى أذنيه) في بعض الأحيان يترك الناس سيارتهم للعديد من الأسباب المختلفة مثل مطاردة عجلٍ تائهٍ أو شيء من هذا القبيل، ويبتعدون مع الوقت أكثر مما كان يجب عليهم، وعندما يدركون ذلك، يصيبهم الارتباك بشكل مفاجئ.

خلع لودلو قفازه وقال: «هل تظن أنه ربما يكون هذا ما حدث هنا؟».

- لا، لا أعرف، إنني فقط أخبرك بما يحدث لبعض الأشخاص، ولكنني لا أظن أن كام يمكن أن يتوه في هذه الأنحاء.

قال لودلو: «هذا صحيح، كما أن السيارة تبدو بالنسبة إليّ في حالة جيدة، ولكن دعنا نفترض أن عطباً ما قد أصاب السيارة، ألم يكن من المفترض أن يبقى في سيارته؟ أليست تلك هي النصيحة الذهبية للنجاة كما قيل لي؟».

- نعم.

مَيَّرَ الرقيب النبرة في صوت نااثان، وأخذ يفكر كيف اختلف صوت نااثان كثيراً عن الوقت الذي بدأ فيه حديثهما، وبدا عليه الاستغراق في التفكير.

قال الرقيب: «حسناً، ولكن لماذا تركها؟».

- لا شيء، أنت تفكر بطريقة منطقية لا شك فيها، ولكن هناك طريقاً لعيناً في هذا الاتجاه، لو أصاب السيارة عطبٌ ما، وأراد أن يتركها ويرحل، كان عليه أن يتجه إلى هذا الطريق ويأخذ معه ما يكفي من الماء.

- إذًا، لماذا فعل ذلك؟ لماذا اختار الطريق الآخر؟

- أنا لا أعرف السبب الذي دفعه إلى فعل ذلك. (وبدأ صوت ناثن بالارتفاع حتى استطاع هو تمييز ذلك) كل ما أخبرك به، هو وجهة نظري حول ما الشيء الذي كان يتوجب عليه فعله، كان اختياره الأول هو البقاء في السيارة محافظاً على عمل مكيف الهواء وطالباً النجدة عبر جهاز اللاسلكي، أي غبي كان سيفعل هذا، وإن كان مضطراً إلى أن يترك السيارة ولا مفر في ذلك كان عليه أن يسلك هذا الطريق الملعون على بعد أميال بسيطة، لا أن يلقي بنفسه في وسط المجهول.

قال لودلو: «هذا ما كان يجب أن يفعله كاميرون؟».

- نعم.

أضاف لودلو: «هذا في حالة أنه كان يرغب في أن يُعثر عليه».

بقيت كلمات لودلو معلقة في الهواء بينهما قبل أن يقول ناثن: «حسناً، اسمع يا صديقي، أعتقد أنني بدأت أفهم ما تلمح إليه، فلماذا لا تعلن عما في بالك بصراحة؟».

استغلَّ الشرطي هذه المبادرة وأوماً برأسه إيماءة صغيرة: «كل ما أفكر فيه، هو ما قاله أخوك الأصغر عن كاميرون وشعوره بوطأة الضغط في الفترة الأخيرة».

- كان يمكنه أن يستخدم بندقيته؟

- هل يملك كاميرون بندقية؟

- نعم، لديه خزانة ملأى بالبنادق في المنزل، شأنه في ذلك شأن الجميع.

- لم يكن يحمل سلاحاً في سيارته؟

- نعم، لم يكن يحمل السلاح طوال الوقت، ولكنها موجودة في منزله كما تعلم، وتستطيع الوصول إليها في أي وقت لو كانت هذه رغبتك.

- إذا فأنت تظن...

- أنا لا أظن شيئاً، كل ما أقوله لو صحت فكرتك، لماذا لم يستخدم البندقية لإنهاء...

توقّف ناثن في منتصف العبارة ولم يكملها.

- هذه ملاحظة جيدة، ولكن هل رأيت كم الضرر الذي ينجم عن الإصابة بعيار ناري؟

- رأيته على الحيوانات.

- لا بد من أن أخاك سيكون على دراية بذلك الضرر، أيضًا.

- لذلك...؟

ظهر على وجه لودلو تعبير جعله يبدو أكبر من سنِّه بشكل غريب.

- لذلك، ربما لا تكون تلك التكهّنات حقيقية، ولكن دعنا نفكر معًا، في

بعض الأحيان يرتكب بعض الأشخاص أخطاء من نوعية التفكير في

استخدام السلاح الناري كونها وسيلة لإنهاء حياتهم بطرق سهلة، وفي

أحيان أخرى يجد البعض الآخر أن هذا أمرٌ مستحيلٌ بالنسبة إليهم

ويمنعهم عقلهم من فعل ذلك، في بعض الأحيان...

توقّف لودلو عن الحديث وعبس ثم أدار رأسه متلفتًا ليمسح كل جوانب

المكان، كانت الأرض ممتدة إلى مساحة شاسعة في كل اتجاه.

- هل هذه واحدة من النقاط العالية في هذا المكان؟

- هذا النتوء الصخري هو أعلى نقطة في هذه الأنحاء، اعتاد الجميع أن

يطلقوا عليه اسم المرصد ولم يكن الأمر على سبيل المزاح.

لم يُجب لودلو وتحركَ بضع خطوات نحو حافة النتوء الصخري منحنيًا

إلى الأسفل، لم يكن واجبًا على ناتان اتباعه فقد عرف على الفور الشيء

الموجود هناك، سأله ناتان: «في بعض الأحيان، ماذا كنت تقول يا صديقي؟».

- في بعض الأحيان يحتاج الناس إلى وسيلة للخروج من هذا العالم،

والوسائل السهلة ليست مناسبة للجميع.

تحركَ ناتان بضع خطوات إلى الأمام ووقف بجانب لودلو على حافة

الصخرة العالية. كان يشعر بأن عيني زاندار تراقبانه وهو ينظر في الأسفل

على بُعد خمسة أمتار حيث أرض مسطحة مغطاة بالتراب الناعم الذي يشبه

الوسادة، سيكون المرء محظوظًا في حالة سقوطه من هنا، لو اقتصر الأمر

على كسرٍ في كاحله، وربما رقبته. ولكن السقوط من هذا المكان ليس وسيلة

مؤكدة يختارها رجل يائس كي يغادرَ الحياة.

استدار ناتان ووجّه نظره ناحية الغرب حيث يقف ابنه. كان الاتجاه الآخر

يختلف عن الطريق الذي أشار إليه في السابق. إذ يمتد إلى ما لا نهاية، أراضٍ

وعرة ومكشوفة بطول الطريق إلى الصحراء، إنها بحر مثالي من العدم، مهرب

لا مثيل له لمن يرغب في الوصول إلى حافة النسيان.

الفصل الخامس

جلس ناثن على مقعد الراكب الأمامي وأمسك بعجلة القيادة بقوة، وبجانبه جلس زاندار طاويًا ذراعيه أمام صدره وكتفه منحنية إلى الأمام.

مضى ما يقرب من عشرين دقيقة دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وكلاهما يُحدِّق إلى الطريق أمامه، فجأة أدرك ناثن أن ابنه على حافة البكاء، كان يحبس دموعه بأقصى ما يمكن للأطفال المراهقين أن يفعلوا. كان وجهه شاحبًا، وعيناه مغلقتين، كان يبذل جهدًا كبيرًا ليمنع السد الذي يحبس دموعه من الانهيار. وصل الحزن بداخله إلى أقصى حدود قدرته ولم يُعد يستطيع التحمل، كان زاندار دائمًا يعتبر كاميرون مثله الأعلى، وناثن يعلم ذلك، ولذلك شعر في داخله بطعنة صغيرة من الحسد تجاه أخيه الممدد تحت قماش القنب بينما كان يجلس هو في السيارة.

قبل أن يغادر الجميع الموضع الذي توجد فيه سيارة كاميرون اللاند كروزر، أخرج لودلو من حقيبته الشريط الأصفر الخاص بإحاطة مواقع الجريمة، كان يهدف إلى تثبيته حول السيارة كما هو الإجراء المتبع في مثل هذه الحالات، نظر حوله فلم يجد شيئًا ليُثبَّت الشريط عليه، لم تكن هناك أشجار أو حتى قطع خشبية يفرسها في الأرض ويثبت الشريط حولها. اضطر في النهاية إلى أخذ قطع من الشريط وتثبيتها فوق مقابض أبواب السيارة.

قال له ناثن: «لا أظن أنك في حاجة إلى القلق بشأن السيارة يا صديقي». لكن لودلو لم يُعِرهِ اهتمامًا واستمر في ربط مقابض الأبواب بالشريط الأصفر ثم سلّم مفاتيح السيارة إلى ناثن، قائلاً: «هل يمكنك الاحتفاظ بالمفاتيح، فالرقيب الخاص بهذه المنطقة سوف يرغب في فحص كل شيء غدًا».

وضع ناثنان المفاتيح في جيبيه، فأمكنه من أن يشعر بها في أثناء قيادة السيارة، كانت في وضع غير مريح بالنسبة إليه وتضغط على فخذه بشدة. وصل هو وزاندار الرقيب إلى قبر مربي الماشية مرة أخرى في صمت، حيث كان ستيف قد أنهى لحسن الحظ أداء كل واجباته في المكان وأغلق الباب الخلفي لسيارة الإسعاف، شعر ناثنان بالسعادة لأن جثة كاميرون لم تعد أمام نظره.

حدّق إليهم ستيف قائلاً: «يمكنكم العودة إلى منازلكم أيها الرجال، لا داعي للبقاء هنا».

أدرك ناثنان أن أشكالهم تبدو فظيعة مما تعرضوا إليه خلال اليوم، وأوماً الجميع برؤوسهم بالموافقة. قال ناثنان بفتور وسيارة الإسعاف تبتعد: «ربما يمكننا التخيم في هذا المكان؟ يمكننا أن نوفر عشاء القيادة إلى هنا مرة ثانية في الغد؟».

أجاب بوب وهو في منتصف طريق العودة إلى المقعد الأمامي لسيارته: «مستحيل، لقد لاقيت ما يكفي في الليلة الماضية، شكراً لكما. يمكنكما العودة إلى منزلنا وقضاء الليل».

أوماً ناثنان برأسه: «نعم سنفعل، فأمي تتوقع أن نزورها غداً على كل حال، من أجل أعياد الميلاد التي ستبدأ الخميس».

ظهرت الدهشة على وجه بوب، فأضاف ناثنان: «نعم.. حسناً، سوف نأتي معك».

أدار بوب محرك سيارته وقال: «حسناً، أراكما في المنزل».

قال بوب: «أي طريق سوف تسلكه؟».

- طريق! الطريق الخلفي سوف يستغرق وقتاً أطول في الوصول وخصوصاً لو علقنا في الرمال، لا أعرف شيئاً عن رغبتك، ولكنني لن أستطيع أن أحفر في الرمال اليوم. وأغلق باب سيارته...

يمكن لناثنان رؤية سيارة بوب تسبقه على الطريق بمسافة قصيرة، توقفت أشرطة الغبار المندفعة من أسفل العجلات لعدة مئات من الأمتار، بمجرد أن خرجوا فجأة من الطريق غير الممهّد ووصلوا إلى الأسفلت الناعم. الطريق كان بحالة جيدة حيث اعتنني به وطني بعلامات بيضاء كونه مهبط طوارئ مجهزاً

لطاثرات الفرق الطبية. امتد الطريق الناعم لمدة تصل إلى دقيقة واحدة قبل أن تهتز السيارة مرة أخرى عندما سارت فوق الطريق المغطى بالحصى.

انحنى زاندار إلى الأمام في المقعد الأمامي المجاور للسائق، كان أمامهما على مسافة حركة وأضواء بسيطة لسيارة تقترب، لكنها ما زالت بعيدة عنهما بمسافة كبيرة ولا يمكن رؤيتها بوضوح.

قال زاندار وهو يتكئ في مكانه بحسرة: «ما زالت كل هدايا عيد الميلاد في منزلك».

- اللعنة، أنا آسف فقد كنت أظن أننا سنعود إلى المنزل قبل العودة إلى منزل الجدة.

كان ناثن يخطط أن يقضي الليلة في منزله حيث يمكنه تنظيف نفسه من أطنان الغبار العالقة بجسده وملابسه، قبل التوجه إلى تجمُّع الأسرة بمناسبة أعياد الميلاد.

قال زاندار: «لا يهم، لن يهتم أحد بها بعد كل ما حدث».

بالفعل كان زاندار محقًا، هذا ما دار بخاطر ناثن، ولكنه كان يرغب في تنظيم احتفال مبهج لأعياد الميلاد من أجل زاندار، ولو أن هذا مطلبٌ غاية في الصعوبة.

كانت السيارة المقتربة ما زالت على مسافة بعيدة ولكنها أصبحت أكثر وضوحًا، استطاع ناثن أن يميز أنها مملوكة لمقامر عجوز من أثرتون، لا بد من أن هذا الرجل متجهٌ إلى المدينة، فليس هناك مكان آخر يذهب إليه. اقتربت منهما السيارة ببطء، وبدا الأمر كأنها ستستغرق وقتًا طويلاً قبل أن تظهر بشكل واضح. في النهاية استطاع ناثن أن يلمح انبعاجًا بسيطًا في الواقي الشبكي الأمامي للسيارة، وكشطًا في الطلاء على غطاء المحرك.

قلَّ المقامر من سرعة سيارته عندما اقترب من سيارة بوب ورفع يده ملوحًا، ولكن يده تجمدت في الهواء عندما لمح سيارة ناثن قادمة في الخلف. لم يستطع ناثن تمييز نظرة عينيه بسبب الزجاج الأمامي للسيارة، لكنه لمح يده تتحرك في حزم وسرعة، ثم رفع الرجل معصمه وتحولت إشارة التحية إلى حركة بذيئة بإصبعه في اتجاه ناثن، لم يكن ناثن يتوقع شيئاً أقل من هذا منذ أن لمح الغبار المتصاعد من السيارة وهي قادمة من مسافة بعيدة.

كان زاندار يُحَدِّقُ إلى الأفق وهو يجلس في المقعد المجاور، ويتظاهر كما تعودَ دائماً بأنه لم يلاحظ شيئاً.

اعتاد ناثن أن يرى المنزل الذي قضى فيه طفولته يظهر أمامه وسط الصحراء، واعتاد أن يشعر بالدهشة في كل مرة، كان المنزل قائماً على ارتفاع طفيف في نهاية الطريق المخصص لسير السيارات الذي يمتد لأكثر من عشرين كيلومتراً.

يقف المنزل متوهجاً كواحة أفسحت لها الصحراء الحمراء الطريق لتنتب حديقة ذات أعشاب خضراء مورقة اعتنيت بها جيداً باستخدام مخزون من المياه الجوفية. يبدو المنزل في حد ذاته بشرفته الواسعة وكأنه انتزع من بين مجموعة من المنازل الريفية في العصر الذي كانت فيه المنازل لا تزال غنية بالتفاصيل ومترامية الأطراف. أفسدت حظائر الحيوانات الكبيرة المنتشرة حوله المنظر إلى حد ما، وكذلك العنابر المبنية كونها سكناً للعمال المؤقتين.

بدت الكباشن مهجورة بالنسبة إلى ناثن، ولكنه شاهد عربة نوم لم يرها من قبل واقفة في الفناء الخلفي بجوار سيارة دفع رباعي مغبرة، وبينما كان يقود سيارته نظر بعينه بتركيز إلى المنزل بحثاً عن علامات للتلف أو التهاك أو تقشير في الطلاء ولكنه لم يستطع إيجاد شيء.

كان المنزل والمزرعة والماشية التي مروا عليها خلال الرحلة في حالة جيدة، إنهم في حال أفضل من ممتلكات ناثن على كل حال. لم يستطع ناثن أن يتوقف عن التفكير في ذلك الأمر، بينما كان يصف سيارته بجوار سيارة بوب. علقت في الشرفة شرائط لامعة من الأضواء وزينة أعياد الميلاد، علقت الزينة بعناية ولكنها بدأت بالتهاك بفعل الرياح والهواء الساخن.

كان هاري واقفاً ينتظر وهو يتكئ على السياج الخشبي وبمجرد أن نزل الثلاثة من سيارتهم اعتدل في وقفته. بشرة هاري تشبه الحقائق الجلدية، ويمتلك وجهها خالياً من التعبير يجعل من الصعب معرفة ما يدور بخاطره. ولد ببالامارا وترعرع في محطة وقود، وبدأ العمل في سن مبكرة بدلاً من أن يلتحق بالمدرسة، ثم عمل في مزرعة ببيرلي داونز قبل أن يولد ناثن وظل يباشر عمله بعد رحيل ناثن عن المزرعة.

قال هاري وهو يصافح ناثن: «من الجيد أن أرى كليكما».

ثم دفع زاندار برفق في كتفه، اندمج بوب في تحية كلبه الحارة.

رأى ناثان دافي، كلبة كاميرون المخصصة لرعي الماشية تقف على بُعد وأذناها تتدليان إلى الأسفل بينما تنظر إلى الطريق الخالي، مدّ يده إليها فجاءته على مضض.

كان صوت خافت من الموسيقى ينساب من مكان ما داخل المنزل، يبدو الصوت للوهلة الأولى كأنه تسجيل لأغنية عن الثلج وأجراس عيد الميلاد، ولكن الصوت كان منبعثًا من غرفة بنات أخيه.

مرَّ عام منذ آخر مرة رأى فيها ناثان بنتي أخيه كاميرون، وتساءل ناثان عن الطريقة التي سيتعامل بها الفتاتان مع الأخبار المتعلقة بوالدهما. بدت الموسيقى الاحتفالية شيئًا غريبًا لدرجة كبيرة في هذا الوقت، ولكن الفتاتين كانتا في سن الثامنة والخامسة، ولا بد من أن عزف الموسيقى يساعدهما بطريقة ما لتخطي الموقف.

فتح الباب الأمامي، فشعر ناثان بصدمة مرعبة عندما وجد والدته أمامه، كان خذاها شاحبين وغائرين تحت عينين حقنتهما الدماء، وكتفاها محدبتين وكأنها تبذل كل طاقتها فقط لتبقى منتصبة القامة.

قال هاري: «اعتقدت أنك تحاولين النوم؟».

لم تكلف ليز برايت نفسها عناء الإجابة، وارتعشت عيناها المتورمتان وفمها المشقوق بمجرد أن خرجت إلى الضوء، كان بإمكان ناثان أن يرى دموعًا جديدة تتشكل داخل عينيها كلما نظرت إليهما. شعر ناثان بأنها لم تكن ترغب في ذلك الوقت في رؤيته أو رؤية بوب، بل ترغب في رؤية شخص آخر، ولكنه تراجع عن تلك الفكرة وشعر بالذنب. كانت ليز دائمًا تحاول ألا تفضل أحد أبنائها على الآخرين، ولكن ابتسامة كاميرون الدائمة وعقله السريع وحسن إدارته للمزرعة لم يجعل الأمر سهلاً.

كان بوب يفرك عينيه بأصابع متسخة، نظر ناثان إلى بوب ومن خلال مظهره الرث وشعره غير المحلوق، أدرك أنه لا يختلف عنه كثيرًا.

تغيَّر وجه ليز عند رؤية زاندار وسحبته إلى حضنها وأمسكته بشدة، وعندما تركته يذهب مدَّت يدها وأمسكت ناثان هو الآخر ووضعت ذراعيها حوله فمدَّ يده ولفَّها حول ظهرها. كانت حركة ذراعي ناثان صدئة، إذ إنه لم يحضن أحدًا منذ فترة طويلة.

أخذت ليز نفسًا عميقًا وقالت: «أخبرني».

حاول هاري إبداء رأيه قائلاً: «ربما من الأفضل أن نتجه إلى الداخل». ولكنها قاطعته: «لا، الفتاتان تجلسان في الداخل، أخبرني كل شيء هنا». وجد ناثن نفسه مرة أخرى يتمنى لو كان كامبيرون هو الموجود في ذلك الموقف حتى يتعامل معه بشكل صحيح. لم يقدم له بوب المساعدة في ذلك الموقف الصعب، واستمر جالساً على الأرض يهمس في أذن الكلب. بدأ ناثن بالحديث: «كان الأمر غريباً لدرجة كبيرة».

ثم توقف، بدا وكأنه يحاول بأقصى ما في وسعه شرح ما حدث، تحركت ليز باتجاه الشرفة، مشت عدة خطوات قصيرة ثم توقفت وكأنها ممزقة بين رغبتها في معرفة ما حدث، وبين عدم قدرتها على تحمل تلك المعرفة.

- لسنا متأكدين مما حدث.

وجد ناثن نفسه يكرر نفس العبارة: «لسنا متأكدين مما حدث». تدخل بوب قائلاً: «لقد كانت سيارته سليمة ومحركها يعمل، لقد جربناها». تحركت ليز إلى نهاية الشرفة وألواح الأرضية الخشبية تصدر أصواتاً مزعجة.

قال هاري وهو يدير نظره بين الأخوين: «لم يكن هناك عطل في السيارة، ولا مشكلة في الإطارات؟».

فهزاً رأسيهما في صمت.

سأله ناثن: «هل لديك فكرة عما كان يفعله في الخارج بذلك الوقت؟». فرد هاري: «لم يذكر شيئاً عن الأعمال التي كان يرغب في أدائها بذلك المكان، كل ما كتبه في دفتر اليوميات أنه كان في الطريق إلى تل ليمان».

قال ناثن: «قال بوب إن التوتر كان يملك منه في الفترة الأخيرة».

لاحظ أن هاري ينظر إلى ليز بنظرات توحى بالتردد في أن يكمل الحديث أمامها. ثم قال: «نعم، من المنصف أن أقول إنه كان متوترًا».

- إلى أي مدى كانت حالته سيئة؟

ظهر تعبير بسيط على وجه هاري، ولكن ما زال من الصعب معرفة ما يفكر فيه.

- لم يكن على طبيعته منذ عدة أسابيع، أو ربما لشهر كامل. أحاول أن أحدد بدقة بالعودة بالذاكرة إلى الخلف قليلاً.

أومأت ليز برأسها إيماءة بسيطة وهي تُحدِّقُ إلى الحديقة المورقة التي يوجد خلفها أرض قاحلة بنية اللون، ثم أضاف هاري: «لم يكن الأمر يبدو خطيرًا للغاية، وإلا كنا اتخذنا إجراءً لعلاجهِ».

فرَّدَ ناثنان: «ما الذي قصدته بقولك إنه لم يكن على طبيعته؟».

- لم يكن تركيزه منصبًّا على العمل في المزرعة بطريقته المعتادة، كان مشتتًا وشارد الذهن. لم يكن لدينا في المزرعة مشكلة كبيرة لا نستطيع أن نعالجها تستدعي ذلك القلق الزائد، لقد قال في مناسبات مختلفة إنه متعب. ولكن خطر في بالي أنه لم يكن ينام بشكل جيد.

قالت ليز: «نعم، لم يكن ينام، كنت أسمعهِ في بعض الأحيان مستيقظًا في أثناء الليل».

قال هاري: «وبدأت تأثيرات ذلك الأمر تظهر على وجهه فقد أصبح شديد الحساسية، وأصبحت عيناه محاطتين بالسواد».

فكَّرَ ناثنان في أن هذه الأشياء لا تشبه طبيعة كاميرون، ثم سأل: «هل حدث شيء ما؟ هل كانت الأمور تسير بشكل جيد؟».

قال هاري: «لقد كان كل شيء على ما يرام، والمزرعة تسير على نحو جيد، وكانت مكاسبنا المادية كبيرة في العام الماضي».

قال ناثنان الذي كانت مزرعته تعاني الخسائر في الفترة الأخيرة: «هذا شيء رائع، من الجيد معرفة ذلك».

تلاأت الزينة التي علقها الأطفال بينما كانت الرياح تتلاعب بها.

فسأل ناثنان: «هل صوفي ولو عرفتا بما حدث؟».

قال هاري: «ذهبت إليهما الآن لتخبرهما».

نظر ناثنان بشكل تلقائي ناحية الباب، لم يجد أحدًا هناك، ولكنه أضع بعض الكلمات التي قالها هاري، فقال له: «أسف، ما الذي كنت تقوله؟».

- لقد اتصل جلين.

- أوه، الرقيب المختص، إذًا فقد عاد إلى المدينة، أليس كذلك؟

- لا، ليس بعد، ولكنه يريد أن يأتي أحد لمقابلته عند سيارة كام في الغد.

قال ناثنان وهو يتحسس مفاتيح كاميرون الموجودة في جيبه: «حسنًا، سوف أذهب لمقابلته هناك».

فردّ هاري: «لقد أخبرته أنني سوف أقابله هناك بالفعل».

- لا مانع في ذلك، ولكنني سوف أصحبك إلى هناك.

فردّ بوب وزاندار في نفس اللحظة: «سوف نأتي معكما».

التفتت عينا ليز إليهما في عبوس بعد أن كانت تُحدّق إلى الفراغ: «بوب، اصطحب زاندار إلى الداخل حيث المكان المجهز لنومه».

ردّ بوب: «ولكنه يعرف مكانه، إنه ينام دائماً في نفس المكان».

أغمضت ليز عينيها وأخذت نفساً عميقاً وهي تقول: «نفضّ ما طلبته منك، في جميع الأحوال».

وبمجرد رحيلهما وإغلاق الباب، التفتت إلى نااثان وسألته: «نااثان، كيف يتكيف زاندار مع ما يحدث؟».

- حسناً، هناك عوامل يجب أخذها في الاعتبار.

- لكم من الوقت سيبقى معك؟

- سوف يعود على متن الطائرة في السابع والعشرين.

- أوه.

بدا على ليز الإحباط.

- ألا يمكنه تأخير الرحلة الجوية لمدة أسبوع؟ كنت أعتقد أن الدور قد أتى عليك لمشاركة احتفالات العام الجديد.

- إنه بالفعل دوري ولكنه لن يحضر أعياد الميلاد بصحبتني.

سوف يغادر زاندار قبل أسبوع من التاريخ الذي أمرت به المحكمة، كان بإمكانه أن يُصرَّ على حضور زاندار الاحتفالات فهو حقه القانوني المضمون الذي دفع ثمنه ولكنه لم يفعل.

- إنه يريد الذهاب إلى حفلة في بريسبان مع رفاقه.

- متى سيعود مرة أخرى؟

قال نااثان: «لا أعرف»، كان يحاول أن يُبقي صوته منخفضاً، ولكن عيني ليز ظلتا تراقبانه طوال الوقت، ثم أضاف: «إن لديه عدداً من الامتحانات المدرسية المهمة التي يجب عليه أن يخوضها هذا العام».

سوف يكون العامان القادمان مهمين بالنسبة إلى زاندار، فلهذه العديد من الامتحانات ثم عدد من الاختبارات المؤهلة لدخول الجامعة، وقد حُدِّرَ نااثان بواسطة محامي زوجته السابقة بأن على زاندار أن يستقر في المنزل خلال هذه الفترة للدراسة والتحصيل، وقد أقرَّ نااثان بضرورة ذلك الاستقرار.

لقد فهم نااثان كل شيء، لقد فهم أنه في خلال أقل من عامين سوف يتجاوز عمر طفله الثامنة عشرة، وسوف تصبح كل الزيارات التي أمرت بها المحكمة وكذلك العديد من الأشياء الأخرى أمورًا يتجاوزها زاندار، بينما يتجاوز منعطف الطفولة.

أدرك نااثان أن ترانيم عيد الميلاد توقفت، وسادت لحظات من الفراغ حلَّ محلها صوت آخر، كان صوت طفلة باكية، تمنى نااثان أن تنبعث الموسيقى مرة أخرى، استدارت ليز نحو مصدر الصوت ودون أن تنطق كلمة واحدة توجهت نحو الباب واختفت بالداخل.

ظل نااثان وهاري بمفردهما في الشرفة، كانت الشمس في اتجاه الغرب تشع بضوء أصفر حارق بينما تتجه إلى المغرب.

قال نااثان: «بيني وبينك، هل رأيت شيئاً يشبه ما حدث لكامبيرون؟».

أجاب هاري: «لقد رأيت بعض السائحين يفعلون أفعالاً غبية تتسبب بقتلهم، ولكن أن ينهار كام بهذه السرعة - كما سمعت - هذا أمر غريب، حتى لو تعطلت سيارته فقد كان يجب عليه أن يبقى في السيارة ويشغل مكيف الهواء ويستخدم جهاز اللاسلكي لطلب المساعدة. هذا أمر يعرفه الجميع».

وأضاف هاري: «في العام الماضي عندما تعطلت سيارة إلسي، تصرفت بشكل صحيح، فقد بقيت في سيارتها لمدة أربع ساعات كاملة على الطريق الشمالي، حتى استطاع كام أن يصل إليها».

قال نااثان: «هذا بالضبط ما قلته للشرطي القادم من سانت هيلين».

- وماذا كان رأيه؟

- إنه لا يعرف شيئاً، لم يتدرب في أجواء مشابهة، ولكنه يعتقد أن كام ابتعد عن السيارة بشكل متعمد.

- أعتقد أن هذا صحيح.

قال نااثان: «أخبرني، فقد رأيت كام مؤخراً وتحدثت معه، هل كان سيفعل

ذلك؟».

- يمكنني أن أخبرك أن هناك العديد من الطرق الأخرى، التي من الممكن أن تكون أبسط من ذلك ولكن...

وساد الصمت لفترة طويلة.

- لقد فعل الناس العديد من الأشياء الغريبة، في هذه الأثناء على مر السنوات.

سأله ناثان: «لو كنت مكانه، كنت ستطلق الرصاص على نفسك، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا هاري.

- أليس كذلك؟ أخبرني.

- حسناً، كنت سأفعل.

حاول ناثان أن يتصرف بواقعية ولكن الحوار خرج عن السيطرة، لقد وصل إلى حكم نهائي متسرع ولمستوى من التفكير لم يكن يجب عليه أن يصل إليه. ظل هاري ينظر إليه من كثب دون أن يتبادلا كلمة واحدة لفترة طويلة.

توقَّف البكاء المتصاعد من داخل المنزل، أو على الأقل لم يعد صوته مسموعاً، ولكن لم تعلُ أصوات وأغاني عيد الميلاد مرة أخرى، لم يعد هناك أي بشارة بالراحة والسعادة في ذلك المنزل هذه الليلة.

أخيراً تحدَّث ناثان: «ما الشيء الذي كان يُقلِّق كام في اعتقادك؟».

- لا أعرف كما قلت لك، كما أننا حظينا بموسم جيد، لا يمكن أن يكون شيئاً له علاقة بالعمل.

انحنى هاري بشدة ليستند إلى عارضة حديدية...

- أعتقد أنه وصل إلى سن الأربعين، أليس كذلك؟ هل أزعجه الأمر؟

- إنه لم يذكر ذلك على الإطلاق، ولكنها مرحلة فاصلة على كل حال وبعض الناس تنزعج عندما تصل إلى تلك السن.

حاول ناثان أن يتذكر عيد ميلاده المهم منذ عامين، حين عبر حاجز الأربعين، فلم يذكر شيئاً غير بطاقة تهنئة من زاندار، ومكالمة هاتفية من ليز ومرَّ اليوم بخلاف ذلك مثل باقي الأيام العادية. كانت فوقه ترفرف أشكال الزينة ممتلئة بالغبار.

قال هاري: «لقد قتل كيري ماكغراث نفسه في أثناء احتفالات أعياد الميلاد».

فأجاب ناتان: «أعتقد أن هذا الأمر مختلف».

كان ناتان يعرف أن كيري قد تناول كل العقاقير الطبية التي يملكها في دولاب الإسعافات الأولية الخاص به دفعة واحدة بعد أن هجرته زوجته، لقد تناول العديد من المستحضرات الطبية التي لم يكن عليه تناولها، دون أن يحصل على وصفة طبية أو استشير الطبيب ولو عبر الهاتف. تناول كل شيء بدءًا من الباراسيتامول وحتى المورفين دفعة واحدة، لم يكن الأمر مؤلمًا ولكنه لم يكن سريعًا في نفس الوقت.

هذا كل ما يعرفه عن الحادث، أو على الأقل هذا كل ما قاله ستيف فيتزجيرالد في العيادة الطبية أمام الجميع، وربما قال ذلك حتى يردع الجميع عن تقليد ما فعله كيري في ذلك اليوم المشؤوم.

كان صندوق ناتان الخاص بالإسعافات الطبية يقع في الجزء الخلفي من خزانة مرتفعة، تذكّر ذلك فبلع ريقه في صمت. ثم قال: «كان هناك بريان تايلور، الذي تاه هو الآخر».

فقاطعه هاري: «لقد تاه في قاع النهر، فقد خرج من الحانة وهو في حالة سُكْر شديد، وسقطت سيارته في النهر، ولكن دعني أسألك بمناسبة هذا الحديث، هل لديك ما يكفي من مخزون الطعام في منزلك؟».

- نعم، لدي ما يكفي.

- حسنًا، هذا شيء جيد فأنا أعتقد أن النهر سوف يفيض مرة أخرى.

- مجددًا؟

- هذا ما أظنه، أعتقد أن أمطارًا غزيرة قادمة من الشمال ستسقط.

أوما ناتان برأسه وهو يستمع إلى توقعات هاري، إذ كان الأمر جديرًا بالاهتمام.

قال هاري فجأة وكأن الكلمات خرجت من العدم: «ولا تنسَ ما فعله والدك».

نظر إليه ناتان وهو يشعر بالمفاجأة.

- حَدَّثَ ذلك في نفس الوقت من العام.

- لا، لقد مات في فبراير ولم يقتل نفسه.

أجاب هاري بطريقة مراعية: «أعلم ذلك، ولكنني كنت أتساءل إذا ما كان شيء ما يجول بذهن كاميرون عندما كان بمفرده في الخارج، ربما تذكّر شيئاً ما وحفره على ذلك الفعل».

- أبي لم يكن بمفرده عندما مات.

- لا، لم يكن بمفرده، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- لا شيء، يفعل الناس أشياء غريبة في كثير من الأحيان.

قطع حديثهما صوت صرير الباب الذي يفصلهما عن الداخل. ثم ظهر زاندار قائلاً: «تخبركما الجدة أن العشاء أصبح جاهزاً».

قال هاري بينما زاندار يعود إلى الداخل مختفياً مرة أخرى: «أشكر يا صديقي».

- هل ستأتي؟

- بعد لحظات، يمكنك أن تسبقني.

انتظر ناثان في مكانه حتى سمع صوت إغلاق الباب وأصبح وخبداً تماماً ثم قطع الدرج الخشبي وصار على العشب الربيعي الأخضر، كانت رائحة الحمضيات تنبعث من بين الأشجار، يستطيع ناثان أن يسمع همهمة مولد الكهرباء تنبعث من اتجاه السقيفة الكبيرة وهو يهتز بقوة ليحافظ على إضاءة المنزل.

صعد فوق السياج المصنوع لإبعاد الماشية الفضولية عن العشب الأخضر ودون سبب محدد وقف على الجانب الآخر. نظر ناثان في الأفق، كانت الشمس تميل بسرعة في اتجاه الغرب، بعد ساعة واحدة سوف يصبح المشهد عبارة عن كتلة لا نهاية لها من الظلام، سمع صوت عواء حزين يأتي من على مسافة بعيدة، كان الوقت ما زال مبكراً لخروج الدينغو، ولكن لا يوجد حيوان آخر يمكنه أن يصدر مثل ذلك الصوت.

خطا ناثان خطوتين فوق الأرض المملأى بالغبار بعيداً عن السور والمنزل والحديقة الخضراء المزروعة، نظر إلى الأفق حيث كانت المساحة كبيرة

للغاية، شعر كأنه ينظر إلى الأسفل من فوق مرتفع شاهق، فشعر ببعض الدوار البسيط الذي لم يشعر به من قبل.

يشعر ناثان مع قدوم الليل بأن السماء تبدو أكبر من حجمها، لذلك كان يتخيل أنه يسير في قاع البحر الذي كان موجودًا هنا منذ مليون عام مضى، وأنه يسير بين أحضان الطبيعة قبل أن يتطور العديد من الأشياء الواحد تلو الآخر، خلال فترة الأعوام المليون السابقة، حيث تشكلت هذه الأرض من حوله بالشكل الذي يراها عليه الآن. وأصبحت مكانًا تفيض فيه الأنهار ولكن لا يصله المطر، وتتكوم فيه الأصداف البحرية لآلاف الأميال بعيدًا عن مصدر المياه، ويجد الرجال الذين تعطلت سياراتهم أنفسهم سائرين طويلًا في الطريق إلى الموت.

كان الفراغ في بعض الأحيان يبدو وكأنه ينادي ناثان، بصوت خافت كنبضات القلب ولكنه صوت مقنع ولحوح، كان يستمع إليه فيتخذ خطوات نحوه، كأنه يجرب شيئًا جديدًا ثم يتخذ خطوات أخرى إلى الخلف متراجعًا. سمع ناثان من خلفه صرير الباب الأمامي للمنزل وصوت زاندار ينادي: «يا أبي».

توقف ناثان عن السير، رفع يده إلى الأعلى واستدار ببطء في اتجاه صوت ابنه، ثم شقَّ طريقه متباطئًا من أجل العودة إلى المنزل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السادس

لم يشعر ناثان بوطأة التعب الذي يملكه حتى دخل المنزل، توجّه زاندار إلى المطبخ بينما وقف ناثان في الردهة المعتمة، وهو يشعر بوجود تجويف عميق بداخله. اعتاد ناثان أن يبدأ أيامه في الصباح الباكر قبل ظهور الضوء، ولكنه اليوم شعر باستنفاد طاقته بالكامل، شعر كذلك برعشة في مرفقه بينما دفعه بوب في طريقه إلى المطبخ، كان يبدو على بوب التعب مثله تمامًا.

كانت دافي الكلبة الخاصة بكاميرون تدور حوله وهي تبحث عن مالكةا في ياس. يبدو أنها أكلت من نفس الوعاء الذي أكلت منه كلبة ناثان، التي كان يدعوها كيلي حتى إنها كانت تحرك ساقيها بالطريقة ذاتها التي حركت بها كيلي قدميها في ذلك اليوم المشؤوم. عرف في ذلك اليوم أن كيلي تعاني أمرًا ما، ثم وجدها مختبئة في أحد الأكواخ وعيناها زائغتان تدوران في محجريهما جزاء الشعور بالألم، بأنين مسموع.

ناثان الذي قضى وقتًا مع هذه الكلبة أكثر مما قضاه مع أي كائن حي آخر، رفعها بين ذراعيه حاملاً إياها إلى المنزل ولكنها ماتت في الطريق إلى هناك. كان هناك من سمّمها، أخبر ناثان ذلك لجلين عندما هدأ بعد فترة واستطاع أن يتصل بمركز الشرطة، كان صوته منقطعًا ولم يستطع إنهاء الاتصال بطريقة ملائمة. لقد كان هناك شخص في منزل ناثان وسمّم كلبته، هكذا قال لرقيب الشرطة. تنازل الرقيب وتوجه إلى منزله للتحقيق في الحادث بحثًا عن علامات على صدق ادعائه، ولكنه لم يجد شيئًا يدل على أن الكلبة الخاصة به كانت مستهدفة من قبل شخص ما. ولكن ناثان أصرّ على ادعائه قائلاً: «أنا أعرف كيف يبدو شكل الكلب الذي تعرّض إلى التسمم، لا بد أن أحدًا قد وضع لها طعامًا مسمومًا عن عمد».

شعر جلين بالتعاطف ولكنه كان متشككًا حول حقيقة ما حدث.

- ليس لدي أي إشارات على حدوث ذلك مثل ذلك الأمر، ولا دليل على وجود شخص آخر في المزرعة حتى يقدر على فعل ذلك.

- ألا تظن أنهم سمّموا الكلبة بهدف الوصول إليّ؟

وضع جلين يده فوق كتف ناتان.

- أنا لا أكذبك يا صديقي، ولكنني لست متأكدًا من إقدام شخص ما على ذلك الفعل.

توقّف ناتان في مكانه بالصالة المظلمة ووضع يده على رأس دافي، ثم سمع همسات تأتي من الزاوية الجانبية.

- ... ولكن يجب عليهم المجيء...

كان صوت امرأة لم يستطع تمييزه.

- لا، أنا أقول لك إن ذلك لن يحدث فهو ليس من ذلك النوع من الأماكن، لقد كان يتحدث عبر الهاتف سائلًا إن كان أحدهم سيأتي إلى هنا.

كانت الهمسات تخص رجلًا هذه المرة.

- هنا في المنزل؟

- نعم، ولكنني أعتقد أن الشرطي قال لا.

توقفت الأصوات فجأة، بينما كان صاحبها يتواريان عن زاوية الصالة عندما شاهدا ناتان واقفًا، نصف فك الرجل كان مفتوحًا وكأنه يحمل كلمات لم ينطقها بعد، كان في أواخر العشرينيات من العمر وكذلك كانت المرأة المصاحبة له. وبحسب اللهجة التي كانا يتكلمان بها فهما إنجليزيان وليسا من أستراليا.

شعر ناتان بالصدمة، فأخر ما يحتاج إليه في هذا الوقت اللعين اثنان من الرحالة الأجانب.

- يا إلهي، لقد شعرت بالرعب.

تمالك الرجل نفسه أولاً، وقال: «لا بد من أنك ناتان».

- نعم، من هو الشخص الذي تتحدثون عنه؟

- من؟

- الشخص الذي سمعته يتحدث مع الشرطة عبر الهاتف.

- نعم.

ترددَ الرجل، وهو ينظر خلف ناثنان إلى باب المطبخ الخالي.

- لقد كان هاري، آسف لم أقصد أن أسترقَّ السمع.. لقد سمعته...

- نعم.

كان من الصعب رؤية الزوجين بشكل صحيح في الإضاءة المنخفضة.

- أخبرني، من أنت مرة أخرى؟

- سايمون وكيتي.

أشار الرجل إليها وهو ينطق باسمها، وكأن ناثنان في حاجة إلى تلك

الإشارة حتى يميز بينهما.

- نحن لسنا مهمين، على كل حال.

- يجب أن يكون لكما أهمية، إذا كنتما تتسكعان في رواق أخي المتوفى

وتستمعان إلى المكالمات الهاتفية في منزله.

لم يكن من الضروري أن ينطق ناثنان مثل هذه العبارة، ولكنه لم يستطع

أن يتمالك نفسه فخرجت منه على كل حال.

استطاعت المرأة أن تُخرج صوتها بصعوبة: «لقد وظفنا كاميرون».

قال بوب: «نعم، لقد فعل».

- وما الغرض من توظيفكما؟

قالت المرأة: «لمساعدة والدتك في الأعمال المنزلية، هذا واحد من ضمن

أشياء أخرى»، وأشارت برأسها نحو المطبخ، «لذلك إن لم يكن لديك مانع...».

ومرت بجوار ناثنان قبل أن يستطيع الإجابة، فوجد نفسه ينظر إليهما

بينما يتجهان إلى المطبخ، حيث كان هاري وبوب يجلسان بالفعل إلى طاولة

خشبية كبيرة. جلس ناثنان على كرسي خشبي بجوار زاندار، وأدار عينيه

ناحية الثنائي الإنجليزي: «سايمون، أليس كذلك؟».

كان الرجل ذا عينين شاحبتين وأنف شديد الاستقامة وشعر كثيف داكن

يلمع بطريقة تبدو غريبة بشكل غير طبيعي، كان مظهره مستفزاً لدرجة أن

ناثنان وجد صعوبة في منع نفسه من اقتلاع عينيه وتمزيق رأسه بالكامل، لولا

وجود تلك الفتاة المدعوة كاتي.

لم يستطع ناثان أن يضيف كلمة واحدة على السؤال الذي طرحه. كاتي كانت جميلة بشكل مذهل، يمكن بسهولة تمييز جمال بشرتها ولمعانه الشديد عبر إضاءة المطبخ الزاهية. استطاع ناثان أن يلاحظ التفاصيل التي يكشفها قميصها الضيق، كما لاحظ وجود غمازة في وجهها فور أن ابتسمت لشيء ما، ثم مرت من خلف ناثان الذي شعر برغبة عارمة في الوقوف والتعلق بيدها ولكنه بدلاً من ذلك عبس ووضع يده على الطاولة.

كان بوب يتطلع إلى كاتي بطريقة تشبه إخلاص العبيد إلى أسيادهم، بينما كانت تحمل أطباق اللحم البقري والأرز وتضعها على المائدة.

حتى زاندار كان ينظر إليها في حماس مبالغ فيه، لم يعهده ناثان في ابنه من قبل. لدرجة ظهور بريق لامع في عينيه جعله يشبه بوب إلى حد ما، الوحيد الذي لم يظهر عليه التأثير كان هاري الذي حافظ على تعبيرات وجهه الصخرية.

انحنت كاتي إلى الأسفل تحضر شيئاً من درج منخفض، فتساءل ناثان عن مشاعر زوجة كاميرون تجاهها.

سأل ليز: «هل سننتظر إلسي؟».

كانت ليز تحوم حول باب الثلجة المفتوح وكأنها غير قادرة على تذكر السبب الذي دفعها إلى الوقوف أمامها.

- ما زالت موجودة مع الفتاتين في غرفتهما؟

أجاب هاري بالنيابة عنها: «لقد طلبت أن نبدأ من دونها».

- أوه...

وضعت كاتي الطبق الأخير على المائدة قائلة: «هذا الطبق من أجلك يا باب».

- شكراً لك يا كاتي.

قال ناثان بشكل تلقائي: «اسمه بوب».

- آسفة.

- ولكن...

شعر ناثان بعيني بوب الحانقتين تخترقانه.

- إن لكنتها، تفرض عليها النطق بهذه الطريقة.

- أنا...

تابعت كاتي: «أقول باب من قبيل المداعبة فهو طفل كبير».
قال ناثنان معترضًا على الوصف: «أوه...».

تجعَّد جبين كاتي بعد أن نطقت بهذه العبارة، ونظرت إلى بوب البالغ من العمر ثلاثين عامًا بينما يحشو الطعام في فمه بطريقة صبيانية. وقالت: «أنا أسفة للغاية».

فأجاب بوب والمشاعر تفيض به: «لا عليك، كل شيء على ما يرام».
- هذا محرج للغاية.

ثم ضحكت كاتي ضحكة غريبة وقالت: «كنت أناديك باسم خاطئ طوال ذلك الوقت».

ردت ليز في حسرة: «حسنًا، إن اسمه الحقيقي هو لي، ولكننا لم نعد نستخدمه».

ثم أغلقت الثلاثة أخيرًا وجلست في مكانها.

- إذا فأنا لست الوحيدة التي تُخطئ في اسمك.

رمق بوب كاتي بابتسامة ناعمة جعلتها تنظر بعيدًا.

فنظر إلى هاري وسأله: «ماذا قال جلين عن اجتماع الغد؟».

ثبَّت هاري نظره تجاه ليز وقال: «ليس الوقت مناسبًا لذلك يا صديقي».

ردَّ بوب: «إنه مجرد سؤال».

لاحظَ ناثنان أن بوب قد غيَّرَ ملابسه، فألقى نظرة سريعة على نفسه وعلى زاندار ليجد الغبار الأحمر من موقع الجثة، قد تسلل في ملابسهما وثنايا قميصيهما وبدل لونيهما، ما أشعره بحكة مفاجئة في جلده. فَرَكَ بقعة كبيرة من الغبار الأحمر من فوق بنطاله الجينز فشعرت يداه بالشجاعة للاستمرار والحك، ولكن ليز بادرتة قائلة بهدوء: «سوف أضعه في الغسالة لاحقًا».

أدرك ناثنان أنها لاحظت الغبار العالق على ثيابه هي الأخرى، فقال: «أشكرك».

لم يتكلم الجميع لفترة طويلة من الوقت ولم يعلُ غير صوت ارتطام المعالق بأطباق المائدة، ولكن زاندار التفت بعد مضي بعض الوقت إلى

العمال الرحالة. كان ناثن يعرف بأن الطفل قد قضى معظم حياته في المدينة ولا يستطيع أن يمكث في هدوء مثل الباقين.

قال زاندار موجهًا سؤاله إلى سايمون: «منذ متى بدأ ترحالكما في هذه الأنحاء؟».

بدا على سايمون الارتياح لكسر حاجز الصمت وهو يقول: «منذ عام تقريبًا».

- أئن تعود إلى منزلك في أعياد الميلاد؟

- لا أخطط لذلك.

قال سايمون ذلك تزامناً مع قول كاتي: «سوف تكون رحلة باهظة الثمن».

التقت عيناهما ومر شيء بينهما لم يستطع ناثن تفسيره.

قال ناثن: «إذًا فقد وظَّفكما كام. (نظرًا إليه في نفس الوقت) هل كانت بينكما معرفة سابقة، أم ماذا كان السبب؟».

قال سايمون وهو يبتلع ريقه ويضع شوكتة جانبًا: «لا، لم تكن بيننا معرفة سابقة. كان الأمر نوعًا من حسن الحظ. لقد كنا في حانة المدينة وتحدثنا إليه، كنت أعمل في مجال الصيانة في بلادي لذلك كان في إمكاني المساعدة على إصلاح السياج، وظلمبات المياه وما إلى ذلك».

تغيرت ملامح هاري وارتفع حاجباه، فتساءل ناثن عن المقدار الحقيقي من المساعدة الذي قدمه ذلك الوافد الجديد.

ثم أشار سايمون برأسه في اتجاه كاتي قائلاً: «إنها تعمل في الأصل مُعلمة، لذلك فقد قدمت المساعدة للفتاتين على تحصيل مناهجهما الدراسية ومتابعة واجباتهما في الهواء الطلق».

منحتهم كاتي ابتسامة صغيرة، ثم وضعت سكين الطعام جانبًا وبدأت في قرض إبهامها، سألهما زاندار: «هل أحببتما المعيشة هنا؟».

أجاب سايمون: «نعم».

لكن كاتي لم تجب عن السؤال.

قال ناثن: «أعتقد أن طبيعة المكان الهادئة، تمثل تغييرًا كبيرًا بالنسبة إليك».

أجاب سايمون: «أنت محق في هذا».

انتاب ناٲان شعور غامض بأن سايمون يتعامل مع زاندار بشكل متعالٍ.
- لا يوجد ما يماثل مثل هذه المزرعة في وارينجتون⁽¹⁾، لقد شعرنا بالذهول بسبب حجم محطات الطاقة الكبيرة عندما خرجنا للمرة الأولى، لقد شاهدنا إحدى المحطات في نصف حجم مقاطعة ويلز.
لم تكن لدى ناٲان فكرة عن حجم مقاطعة ويلز، ولكنه كان يستطيع أن يتخيل.

- أوه، هل تعني أنك عملت في بعض محطات الطاقة في السابق؟
- نعم، عملت في محطتين للطاقة قبل أن ألتحق بالعمل هنا.
- أين تقع؟

- في اتجاه الغرب، على ما أعتقد.
- حسنًا، حاول أن تحدد بدقة أكثر، فالغرب مساحة شاسعة للغاية.
- أعتقد أنك لم تسمع بهذه المحطات من قبل.

- يمكنك أن تجرّبني.
- إنها أرميستيد.
- أين تقع بالضبط؟

لم يكن ناٲان بالفعل قد سمع عنها من قبل مما أثار استياءه.
- إنها تقع في اتجاه الشرق من بيرث.
- اللعنة، على اتجاه الشرق.

أسقطت ليز شوكتها في الطبق فأحدثت صوت ارتطام عاليًا، وقالت:
«بحق المسيح، يا ناٲان».

أضاف هاري: «لماذا لا تدعهم يأكلون في سلام يا صديقي».
أجاب سايمون: «لا، إن هذا خطئي أنا. أنا لا أجيد الوصف بشيء جيد، وخصوصًا أنه لا توجد علامة مميزة في تلك الأنحاء تساعدني على ذلك».
تردّد في ذهن ناٲان أن ما يقوله سايمون صحيح في حالة لو كان أعمى ولا يستطيع أن يميز أي شيء حوله.

(1) مقاطعة تتكون من ستة عشر حيًّا سكنيًّا في شمال إنجلترا. (المترجم).

ابتلع زاندار الطعام المتبقي في فمه وقال: «وما الذي جاء بكما إلى كوين لاند؟».

تناول سايمون رشفة كبيرة من الكأس، وقضى وقتًا طويلًا في بلعها قبل أن يقول: «حالة الطقس».

- هل هذا حقيقي؟

- نعم، فالطقس شديد الحرارة في وارينجتون.

- هل تعلم أن هذا المكان حسب الإحصائيات الرسمية أكثر الأماكن سخونة في أستراليا؟

- أوه، لم أكن أعلم ذلك، ولكنه على كل حال أفضل حالًا من الضباب المتجمع في إنجلترا، أليس كذلك؟

ثم نظر إلى كاتي التي رمشت بعينيها على نحو يوحي بشعورها ببعض التشتت، كانت تُحدِّق إلى شيء غير مرئي خارج النافذة، بينما السماء أظلمت معلنة حلول المساء.

- آسفة، ماذا تقول؟

- كنت أقول...

قوِطِعَ بواسطة جرس الهاتف، الذي ارتفع فجأة بدرجة عالية قادمًا من القاعة الرئيسية، ف شعر ناثن بالحنن لأن الحديث لم يكتمل كما كان يخطط، وقف هاري في مكانه.

- سوف أجيّب عن الهاتف.

ولكن ليز كانت قد سبقته بالفعل وتركت طبقها دون أن تمسّه حرفيًا.

نظر هاري للحظات إلى مدخل القاعة الفارغة ثم هزَّ رأسه مستسلمًا.

قال سايمون وهو لا يوجه حديثه إلى أحد على وجه الخصوص، بينما كانت كاتي مستمرة في عض أظافرها: «نحن أسفان بشدة لِمَا حدث لكاميرون. لقد كان رجلًا لطيفًا، عندما كنا في المدينة سمعنا عنه العديد من الأشياء الطيبة وكان الناس على حق فيما قالوه، لقد شعرنا بأننا محظوظان عندما اتفق معنا على العمل هنا في المزرعة».

عرف ناثن أن هذا صحيحٌ، فقد كان معروفًا عن كاميرون أنه مدير ناجح.

قال سايمون: «لم أكن أعرف أنك تعيش بالقرب من هنا لهذه الدرجة في نفس المدينة يا ناثن».

- أنا لست قريبًا لهذا الحد، فأنا على بُعد ثلاث ساعات من هنا.

- نعم، هذا صحيح، ولكن كان لدي انطباع أنك انتقلت إلى مكان أبعد من ذلك.

- لا، لم أفعل.

رفعت كاتي نظرها إلى الأعلى في هذه اللحظة، وبدأت تنتظر بفضول بمشاركة سايمون عودة ليز.

تساءل ناثن عن الأشياء التي يقولها عنه الناس في المدينة، عندما يمدحون كام، ولكنه لم يكن في حاجة إلى أن يعرف إجابة هذا السؤال فبإمكانه أن يخمن.

أصبحت الأجواء شديدة الغرابة والحرَج، ولم يفعل ناثن شيئًا لتلطيفها حيث اكتفى بالتحديق إلى الفراغ بنظرة غير عاطفية، حتى قرَّر سايمون أن يوجه الحديث إلى زاندار: «هل تعيش هنا مع والدك؟».

قال زاندار: «لا، أنا أقصد المدرسة في بريسبان».

يعتقد ناثن أن ابنه اكتسب صفات دبلوماسية جيدة، اختلطت إلى حد ما بقليل من الاندفاع الذي يتسم بالحدة والعدوية في نفس الوقت. واكتسب زاندار هذه الصفات عبر متابعته لمباريات شد الحبل التي امتدت إلى سبع سنوات كاملة بينه وبين زوجته السابقة جاكى وزوجها الجديد الذي انضم إليها فيما بعد. عقد كامل من المكالمات الهاتفية المتقطعة، جدل بين المحامين، أوامر من المحكمة وجدول بالزيارات. ودائمًا، دائمًا لا يخلو الأمر من فواتير وأتعاب المتاعب القانونية.

نظر زاندار تجاه ناثن وألقى عليه ابتسامة مبتورة وكأنه يعرف ما يفكر فيه.

سأل سايمون: «هل ستشارك في إدارة المزرعة في المستقبل؟ هل تظن أنه من الواجب عليك ذلك؟».

قال زاندار: «لا، لا، لا أعتقد ذلك، ليس ذلك في خطتي».

لاحظ زاندار كيف كان يراقبه ناثن وبوب وهاري وهو يتحدث، فبدأ يشعر ببعض التردد قبل أن يبدأ بإجابته: «أريد أن ألتحق بالجامعة، ولكنني لست متأكدًا بعد من ذلك».

شعر زاندار ببعض الإحراج، ولكن أصوات حركة صغيرة بالقرب من باب المطبخ أنقذته من ذلك الموقف. ظهرت على باب المطبخ زوجة كاميرون، سيدة تحولت للتو إلى أرملة تقف في هدوء. استندت إليسي بيد واحدة إلى الباب، وكانت تتحرك بعصبية شديدة لدرجة أن الهواء اضطربَ حولها. شعرها البني الفاتح غير مصفف على الإطلاق، ما جعلها تجمعها بشدة إلى الخلف بشريط مطاطي طويل، وجهها كان لامعًا براقًا ومن الواضح أنها كانت تبكي.

لم يجلس ناثن مرة أخرى على كرسيه، لم يشد كتفيه أو يمرر أصابعه بين خصلات شعره أو يساوي أطراف قميصه. كانت كلها أفعالًا غريزية للغاية، ولكنه ظل يقاومها لأنه شعر بأنه من غير اللائق فعلها في ظل هذه الظروف، حبس أنفاسه، وظل ثابتًا بلا حراك قبل أن يجلس في النهاية وهو ما زال يقاوم كل ردود الفعل الطبيعية التي كان من الممكن أن يفعلها في مثل هذا التوقيت. في النهاية استسلم وبدأ العد حتى وصل إلى رقم ثلاثة، وسمح لبصره أن يرتفع لينظر إلى إليسي نظرة واحدة فقط. غير أنها لم تكن حتى تنظر إليه.

الفصل السابع

وقفت إلسي أمام باب المدخل وتبدو رغبتها جليئةً في أن تستدير وتعود مجددًا من حيث أتت. أشار إليها هاري: «تعالى واجلسي معنا».

فخطت بضع خطوات إلى الداخل.

- هل الفتاتان قادمتان أيضًا؟

- إنهما نائمتان، لو نائمة في غرفة ليز، لم تستطع أن تنام في غرفتها.

وقفت كاتي وهي تقول: «سأجلب لك شيئًا تأكلينه».

قالت إلسي: «لا بأس، أنا لست جائعة...».

أكملت إلسي عبارتها، ولكن كاتي لم تنتظر وتحركت بالفعل جالبةً طبقًا مملوءًا بالطعام ووضعتة في المساحة الفارغة بجوار ناثان، شعر ناثان بحالة من الارتباك الشديد، وبدا عليها التردد لفترة قصيرة قبل أن تجلس بجواره. شعر ناثان بالقماش المصنوعة منه ملابسها يحتك بذراعه، وسمع الصرير الناعم للمقعد الذي شغلته.

- من الجيد رؤيتك يا ناثان.

- ومن الجيد رؤيتك كذلك إلسي.

لا يزال يتذكر المرة الأولى التي رأى فيها إلسي واقفة في ذلك المطبخ منذ تسع سنوات، كانت المرة الأولى التي يراها في المنزل ولكنها كانت المرة الخامسة التي يقابلها فيها بشكل عام.

دخل ناثان إلى المطبخ ليجد شخصًا واقفًا بمفرده يعيد ملء إبريق المياه، تأمل ثوبها وشعرها البني اللامع وانحناءة ظهرها قبل أن يدرك هوية الشخص الذي ينظر إليه. استدارت إلسي بعد ذلك وبادلته النظرة، ووقفًا

يتبادلان النظر دون تبادل كلمة واحدة بسبب المفاجأة. أخذ ناثان نفساً عميقاً واستجمع قوته ولكنه لم ينطق سوى كلمة: «ماذا؟».

حتى مجيء ذلك اليوم لم يكن يعرف بما حدث لها. ثم دخل كامبيرون إلى المطبخ ووضع كفه على ظهر إلسي، ثم أزال خصلة شعر رقيقة هائمة أمام وجهها وقبّل خدها بعد ذلك.

أطلق ناثان الهواء من رثتيه بصعوبة، وجاهد في إبقاء فمه مغلقاً دون أن يعلق بشيء، في وقت لاحق، أوقفته إلسي وهو بمفرده في الصالة الرئيسية وقالت له: «لم أتوقع رؤيتك هنا».

كان ما يحدث نوعاً من الهراء، فهو أيضاً لم يكن يتوقع أن يراها في هذا المكان، ولذلك أجابها بصوت عالٍ: «كامبيرون أخي».

- لم أكن أعرف ذلك عندما التقيته، أنا آسفة.

ولكنها لم تكن آسفة في ذلك الوقت، كانت تبدو سعيدة، على الرغم من أنها لم تبقى سعيدة حتى هذه اللحظة الحالية.

سألها هاري: «كيف أصبحت حالة الفتاتين؟».

- تشعران بالتشويش، لديهما العديد من الأسئلة مثلنا جميعاً، ولا أعرف كيف يمكنني أن أشرح لهما ما حدث.

كان صوتها مختنقاً، وكانت تنظر عبر المنضدة إلى بوب الذي كان مشغولاً بتناول ما تبقى من طبقه حتى آخره، قالت إلسي موجهة السؤال إليه: «لقد كنت في مثل عمرهما عندما مات والداك؟».

تحركت يد بوب الممسكة بالشوكة ببطء وهو يقول: «أعتقد ذلك».

- هل استطاع أحد أن يقول لك شيئاً، يساعد على فهم الأمر أو تخطيه؟

شعر ناثان بأن هذا السؤال علامة على ضعف إلسي وشعورها باليأس، بينما عاد بوب لإكمال طبقه مرة أخرى وهو يقول: «لا أعرف»، ثم أضاف وهو يمضغ: «ربما كنت أشعر بشعور جيد في ذلك الوقت».

يعرف ناثان أن ما يقوله بوب لا علاقة له بالحقيقة، ناثان عندما توفي والده، كاد يصل عمره إلى واحد وعشرين عاماً وكان كامبيرون يصغره بعامين. بينما لم يكن بوب قد تجاوز الثامنة من عمره، وكان الأمر كابوسياً بالنسبة إليه، كانت تصيبه الكوابيس طوال الليل، وكان ناثان مع جميع أفراد

العائلة يستيقظون على صرخاته ليلاً، فيتوجهون إلى حجرته ليجدوا وجه بوب يلمع بسبب العرق والدموع وهو يبكي قائلاً إن أباه الذي كان على قيد الحياة أصبح ملطخاً بالدماء، ويستمر في الصراخ بغضب. واستمرت تلك الكوابيس تزوره ليلاً لسنوات طويلة. لم يكن ناثن متأكداً متى انتهت تلك الكوابيس على وجه الدقة، لكن بوب لم يكن بخير. فقد مرَّ بما هو أسوأ من الكوابيس والأحلام السيئة، لم يكن بوب بخير قط.

نظر زاندار عبر الطاولة وقال موجهاً حديثه إلى الجميع: «هل تحدث أحد إلى العم كام قبل رحيله يوم الأربعاء؟».

وجّه هاري شوكتة نحو سايمون وقال: «لقد كنا قد رحلنا بالفعل قبل أن يخرج ولكن كاتي...».

وأشار إليها، فأومأت برأسها: «نعم، لقد رأيته على نحو سريع بينما كنت أجلس مع الفتاتين في غرفة المذاكرة. إنها الغرفة الصغيرة القريبة من الإسطبلات، خرجت لأحضر شيئاً من المنزل فوجدت كاميرون يتوجه إلى سيارته».

سألها ناثن: «وهل أخبرك بشيء؟».

- لم يقل سوى أنه في طريقه لمقابلة باب، آسفة بوب، أقصد بوب، وذلك في تل ليمان، فسألته إن كانا يخططان لقضاء الليل هناك حتى لا أضطر إلى إعداد طعام العشاء لهما، فأجاب بأنهما سيفعلان ذلك وسيعودان في اليوم التالي.

سألها ناثن: «وهل كان بخير؟».

- لا أعرف، فلم أكن أعرفه بدرجة جيدة في الواقع.
- حسناً، ذلك لا يمنعك من أن تخبريني باعتقادك.

ظلت كاتي تقضم أظافرها، مما جعل سايمون يضع يده عليها لتهدئتها. أجابت كاتي بعد مرور فترة طويلة: «بصراحة شديدة، بدا مضطرباً للغاية وكان حريصاً على المضي قدماً بشكل سريع كما لو كانت لديه خطة لتنفيذها، أو أنه يريد أن يرحل مبتعداً، وظننت أنه مشغول بالرحلة إلى تل ليمان».

- هل قال إنه لا يرغب في الذهاب إلى هناك؟

- لا، لم يقل شيئاً مثل هذا، على الأقل لم يقله أمامي، لقد صعد إلى سيارته مباشرة حتى...

ثم نظرت كاتي إلى إلسي بشكل مباشر وكأنها تحاول أن تمرر الحديث إليها، لكن إلسي ظلت جالسة بلا حراك ولم تحاول أن تلتقط طرف الحديث، فالتفت ناثان إليها متسائلًا: «هل رأيت كام في ذلك الوقت؟».

قالت بعد فترة انتظار: «نعم، كنت بالقرب من الممر، أحضر أحد الخيول من الإسطبل، وكان عليه أن يمر بجواري حتى يستطيع أن يغادر».

قال بوب: «هل توقف للحديث معك؟».

توقف بوب عن الأكل وبدأ عليه الاهتمام بمجرد ذكر تل ليمان. ولاحظ ناثان ذلك على الفور.

قالت إلسي: «بالطبع فعل ذلك، فهو زوجي».

ثم أخذت نفسًا عميقًا وتابعت: «آسفة يا بوب».

- لا عليك، ماذا قال لك؟

تقلص وجه إلسي، فاعتقد ناثان أنها تشعر بالغضاضة من مشاركة آخر حديث شخصي دار بينها وبين زوجها مع الآخرين، لكن ذلك لم يقلل من حرصه على معرفة ما دار بينهما على كل حال.

- قال إنه سوف يراني مرة أخرى عندما يعود.

قال بوب: «هل هذا كل شيء؟ وماذا كانت إجابتك؟».

- طلبت منه أن يقود بحرص وأخبرته أنني سأكون في انتظاره.

شعر بوب بخيبة الأمل، بينما تغيرت نظرة إلسي وأصبحت عيناها لامعتين وقاسيتين. ثم قالت: «حسنًا، ذلك كل شيء، ماذا توقعت غير ذلك؟! أنا آسفة».

ثم أخرجت منديلًا من جيبها ونفخت لتنظيف أنفها.

التفت ناثان إلى بوب وسأله: «بالتأكيد أخبرك كام أنه سوف يقابلك في تل ليمان، أليس كذلك؟».

- نعم، تحدثنا على الراديو في اليوم السابق.

- ولكنكما لم تتحدثا يوم الأربعاء؟

- لا، لم تكن هناك حاجة إلى ذلك يا صديقي، لقد اتفقنا بالفعل على ما سنفعله.

كان هاري ينظر إلى بوب في تركيز.

- كيف بدا صوته عندما تكلمت معه؟

- سبق أن قلت لك، كان يبدو في حالة جيدة.

- حسنًا، كان يبدو بخير أم أنه كان بخير في الحقيقة؟ كلاهما مختلف؟

جاء السؤال من ناحية الباب، فتوجّه الجميع ببصرهم ليجدوا ليز تبكي مرة أخرى. تساءل ناثن بينه وبين نفسه عن الوقت الذي قضته واقفة في مكانها هناك. وقفت ليز في مكانها تنظر إلى بوب في حالة من اليأس واضحة، ولكنه اكتفى بالنظر إليها وهز كتفه كأنه لا يدرك الفرق بين العبارتين اللتين قالتهما.

ثم سألتها زاندار: «هل رأيت العم كام قبل أن يغادر يا جدتي؟».

أجابت بالنفي: «لا، لكن كان من الواضح أنه يشعر بالسوء لسبب ما».

ولكن ثقل الشعور بالذنب في إجابتها جعل الهواء الموجود في الحجرة يبدو أثقل من وزنه الطبيعي المعتاد. لاحظ ناثن أن تعبيرات إلسي تصبح أكثر صلابة.

سأل ناثن ليز: «وأين كنتِ، هل كنتِ في الخارج تركيبين الخيل؟».

شعر ناثن بالارتياح عندما أومأت ليز برأسها، كانت الوالدة تركب الخيل تقريبًا في كل صباح في نفس التوقيت على مدار حياتها بالكامل، وكان ناثن يعتبر ذلك مؤشر اطمئنان على حالتها الصحية، وكذلك كان كامبيرون يفعل هو الآخر.

نظر ناثن بحدّة إلى الطاولة حيث كان طبق الطعام الخاص بها ما زال منتظرًا ولكنها أومأت برأسها وقالت: «لا، سوف أخلد إلى النوم».

سألها هاري: «من كان المتصل؟».

فأجابت: «إنها كارولين، التي تعمل في مكتب البريد».

- إذا فقد انتشر الخبر في جميع أنحاء المدينة؟

- نعم، يبدو أن الأمر كذلك.

- وماذا كانت تريد؟

- مثلما فعل الجميع، الكل قال إنهم يريدون المساعدة.

وهزت ليز رأسها وهي تضيف: «ولكنها كانت ترغب في معرفة حقيقة ما

حدث؟».

ونظرت ليز إلى المطبخ مرة أخرى، كانت الإجابة التي قالتها محددة وواضحة، ولكن ناثان أدرك أنها حزينة ولا تريد أن تستمر في الحديث.

وبعد فترة من الصمت سألتها: «وماذا تقولين لهم؟».

- أنا لا أعرف، لا أعرف ما الذي يجب عليّ أن أقوله لهم.

بدأت التجاعيد على وجهها تزداد بفعل الحزن قبل أن تضيف: «يجب أن أحاول النوم، سأراكم جميعاً في الصباح».

ذهبت ليز إلى حجرتها وتركت مدخل المطبخ فارغاً مرة أخرى.

فوجئ زاندار السؤال إلى العم هاري: «وماذا كنت تفعل أنت وسايمون أيها العم هاري؟».

- كنا نفحص بعض التجاويف الأرضية في اتجاه الشمال الشرقي، أشكرك يا كاتي.

وناول هاري طبقه إلى كاتي قبل أن يكمل حديثه: «لقد تحركنا قبل الفجر، فلم نرَ كام مطلقاً في ذلك اليوم».

- إنها منطقة كبيرة لتغطيتها في يوم واحد، هل استطعت أن تنجز عملك هناك أم أنك في حاجة إلى بعض المساعدة؟

أجاب هاري: «أظن أننا غطيناها بالكامل، لقد فحصت الجزء الشمالي، وفحص سايمون الجزء الشرقي».

اتفق معهما ناثان بأن انفصالهما وقت العمل كان السبيل الوحيد لتغطية تلك المساحة الكبيرة، وبهذه الطريقة يمكنهما تغطية عدد كبير من الأميال في نفس الوقت، فكل واحد منهما يعمل بمفرده، وربما يعني هذا أنهما لم يقابلا بعضهما بعضاً طوال اليوم مطلقاً، وأخذ ينقل بصره بين سايمون وهاري وهو يفكر في ذلك الأمر بشكل أكبر.

قال بوب وهو ينهي كوب الماء الخاص به: «إنه أمر غريب للغاية، ما الذي دفع كام إلى الوجود بالقرب من القبر بهذا الشكل؟ ما حدث مع كام يشبه القصة التي حدثت مع مربّي الماشية المدفون هناك؟».

صرخ هاري بصوت مرتفع خرج من أعماق حلقه: «بوب يا صديقي، ماذا تقول بحق السماء؟».

عبس سايمون وهو ينظر إلى بوب متسائلاً: «ما قصة مربّي الماشية؟».

هَزَّ هَارِي رَأْسَهُ: «إِنهَا قِصَّةٌ سَخِيفَةٌ».

هَزَّ بَوْبُ رَأْسَهُ قَائِلًا: «إِنهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ».

ثم نظر إلى ناثن وقال له: «هيا أخبرهم، أنت تعرف ما حدث، تعرف قصة الرجل الذي أشعل نار المخيم وحكايته مع المسافرين».

قال ناثن: «لا».

- لكنك تعرف ما أعنيه، وتعرف ما الذي حدث لتلك الخيول.

- نعم أعرف.

شعر ناثن بأن إلسي تتحرك فوق مقعدها، فأضاف: «ولكن ليس الآن».

قال بوب بغضب: «أنا لا أتذكر بدقة ما حدث، أخبرني يا ناثن عليك اللعنة، وإلا سأضطر إلى أن أحكي بنفسي، أخبرني فقط كيف بدأت الحكاية، هل كانت هناك مجموعة من الرجال أم كان شيء آخر».

ظلت الغرفة هادئة، وكان الغريبان يشاهدان ما يحدث في ترقب شديد. حتى أطلق ناثن تنهيدة مستسلمة: «إنها مجرد خرافة غبية يحكونها للأطفال».

ثم أضاف: «من المفترض أن تلك القصة حدثت في عام 1890، ولم يكن الرجل بطل الحكاية مربى ماشية، ولكنه كان لصًا يسرق الماشية في الحقيقة».

أغلقت كاتي صنبور المياه ووقفت أمام حوض المطبخ تنظر في اهتمام. استمر ناثن في الحديث: «لقد كان فردًا من عصابة. رأت العصابة مساحات شاسعة من الأرض لا يلتفت إليها أصحابها، ورأوا مجموعة كبيرة من الملاك الغائبين عن رعاية أملاكهم فاعتقدوا أنها فرصة رائعة لكسب بعض الدولارات - وهو ما لم يكن شيئًا طيبًا لفعله-، لم يكن عليهم فعل الكثير على كل حال، كل ما كان عليهم هو السير في الأماكن المنعزلة وخطف الماشية الشاردة التي لا ينتبه إليها أصحابها، وحين يتجمع لتلك العصابة عدد مناسب من الماشية يتوجهون إلى أدليد من طريق سري، ويخفون العلامات المميزة في أجساد تلك الماشية في محاولة لبيعها بسعر زهيد، حتى يتمكنوا من التخلص منها بسرعة كافية».

ثم توقف عن الحديث...

ثم أضاف: «في أحد الأيام أصيبت الخيول بحالة من الجنون».

قال بوب: «نعم، شكرًا على دقة المعلومات يا صديقي».

عبس ناثنان: «حسنًا، في أحد الأيام بدأ جميع أفراد العصابة بمحاولة للسيطرة على خيولهم، فالخيول كما تعلمون متقلبة، ويصعب السيطرة عليها خصوصًا لو أصيبت بالفرع والذعر، وكان الحصان الذي يخص مربى الماشية أسوأهم على الإطلاق، لم يتمكن من مواكبة رفاقه لذلك بقي في المعسكر ليعد الطعام ويشعل النيران، بينما يجمع الآخرون الماشية الشاردة خلال فترة الليل».

توقف ناثنان عن الحديث...

- تقول القصة إنه ظل في المعسكر بمفرده لمدة تقرب من ساعة، وعندما عادوا كان الطعام جاهزًا ونيران المخيم مشتعلة. وكانت القدر معلقة فوق النار ولكنها جافة. (ثم خفض بوب من درجة صوته ليعطي إيحاءً معينًا) ولكن لم يكن هناك أثرٌ لمربى الماشية. فنظر الرحالة إلى ناثنان الذي اكتفى بهز كتفه.

- مثلما قال بوب، لم يجدوا آثارًا على وقوع حادث ولم يجدوا آثارًا لحدوث صراع في المكان، كان جواده مقيدًا ولكنه كان هادئًا لا يأتي بأي تصرف غير طبيعي، بدأ رفاقه بالبحث في كل مكان وتفرقوا في الظلام ولكن لا فائدة، داروا في الأنعاء واستمروا في البحث حتى صباح اليوم التالي، ولم يجدوا شيئًا ولم يعد إليهم الرجل. وفي النهاية قرروا التحرك للتخلص من كل الماشية التي سرقوها، وفي طريقهم إلى المدينة التقوا بعد يومين بعائلة من الرحالة المسافرين على الطريق الشمالي وسألوهم إن كانوا قد رأوا أي علامة تدل على صديقهم التائه. ارتبك أفراد العائلة وظهر عليهم آثار الاضطراب ثم اصطحبوا أفراد العصابة للنظر في مؤخرة إحدى العربات التي تخصهم، فوجدوا جسد مربى الماشية ملفوفًا ببطانية ثقيلة. أخبرتهم الأسرة أنهم وجدوه ميتًا منذ ثلاثة أيام على بُعد مئة كيلومتر في اتجاه الجنوب، وكانوا ينوون اصطحاب الجثة إلى أقرب مدينة لعل أحدهم يتعرف عليه. على ما يبدو كان جسده ملقى على جانب الطريق، ولا يوجد عليه آثارٌ لإصابات ولا يحمل معه المؤن والماء ولا أي شيء آخر.

- ولكن لو كانت تلك هي الحقيقة، كيف وجدوه ميتًا في نفس اليوم الذي اختفى به وعلى بُعد تلك المسافة الكبيرة؟
اعتدل بوب في مقعده ومال بظهره إلى الوراء.

- نعم، على بُعد مسافة كبيرة جدًا من مكان اختفائه، لم يكن يمكنه الوصول إليها عن طريق السير في الصحراء أو حتى راكبًا على ظهر حصان سريع، ولا يعرف أحد حتى اليوم الطريقة التي وصل بها إلى هناك.

نظر سايمون إلى كاتي التي خلعت قفازها المطاطي وأشارت بيدها في علامة على أنها لا تعرف وهز سايمون رأسه قائلاً: «لا أعرف».

قال ناثنان: «حسنًا، ولم يعرف هؤلاء الرجال أيضًا حقيقة ما حدث، وأصابهم القليل من الذعر ولذلك قرروا دفنه هناك في نفس المكان الذي تسلموا فيه جثته، ولكن الأمر لم ينته عند ذلك الحد. والحديث في ذلك الموضوع لم ينقطع، فقد كثرت الأقاويل بشكل مفاجئ عن رؤية مربّي الماشية المتكررة بعد وفاته سائرًا على طول الطريق في أماكن متفرقة. وادّعى البعض أنه ينشط في أثناء الليل والعديد من تلك الحكايات المماثلة. وفي النهاية بدأ العمال برفض إجراء أي أعمال في المنطقة، وادّعوا بأنها مسكونة بالأشباح، ثم زاد الأمر سوءًا بعد وقوع بعض الحوادث الأخرى في نفس المكان، فقد مات شخصان غريبان وتعرض جدي إلى حادثة في نفس المنطقة. في النهاية أصبح الأمر غاية في السوء واضطر صاحب الأرض المدفون عليها مربّي الماشية إلى وضع شاهد قبر في المكان الذي دفن به، حتى يهدأ الشبح ويحصل على راحته الأبدية وحتى يضع حدًا للشائعات المنتشرة، ولكن الأمر لم يفلح على الرغم من ذلك، فقد تطورت الشائعات وأصبح الجميع يقول إن القبر خالٍ لا يوجد به شيء، وإن شاهد القبر ينتصب في العراء بلا جسد يرقد تحته».

استمر الرحالة في التحديق إلى ناثنان بينما ساد الصمت إلا من صوت دقات ساعة المطبخ، حتى همس سايمون: «هذا هراء».

قال ناثنان: «إنك محق تمامًا في اعتقادك، إنها مجرد قصة خرافية لعينة، ولكن...»، ثم أضاف: «من الغريب أن يختفي هذا الرجل وكأنه تلاشى في العدم ثم يظهر على بُعد أميال عديدة، ولكن لا داعي لأن يصيبك الأرق بسبب هذه القصة على كل حال».

هَمَّ ناٲان باسٲكمال حديٲه ولكنه ٲوقف عنءما وقفت إلسي على نحو مفاجئ وأصدر مقعءها صوت صرير نٲيئة احتكاكه بالأرضية؁ فٲٲت فمها كأنها ٲهم أن ٲقول شيئاً ٲم اسٲءارت وءاءرت العرفة ولم ٲٲكلم.

ساءٲ ءالة من الصمٲ في المكان عءا صوت صرير أصدره مقعد بوب وهو يميل إلى الخلف بينما يهز رأسه قبل أن يقول: «ءسناً فعلى يا ناٲان».

الفصل الثامن

كان العشاء جيدًا، وانتهى معظم الموجودين من طعامهم بالكامل، تحرك سايمون من مكانه لمساعدة كاتي، وبدأ الزوجان بالهمس إلى بعضهما بعضًا كعائلة التقت بعد شتات. لاحظ ناتان أن سايمون وكاتي ينظران إليه ثم همس سايمون في أذن كاتي بشيء ما قبل أن يشيحا بنظرهما بعيدًا.

وجّه هاري هذه العبارة إلى ناتان قبل أن ينهض من مكانه ويهم بالمغادرة: «لقد وضعت أمك زاندار في غرفتك القديمة مرة أخرى، لذلك أظن أن اختيار المكان الذي ستنام فيه ليلتك راجع إليك».

- إن سكن العمال متاح لك إن كنت ترغب في ذلك، فهو خالٍ ولا يقيم به أحد، ولكن مكيفات الهواء معطلة هناك.

ستكون الإقامة هناك مثل الحبس في علبة من الصفيح الساخن، لذلك نظر ناتان إلى بوب مدهوشًا من اقتراحه ثم قال: «سأنام على الأريكة». ثم توجه إلى الثلجة باحثًا عن زجاجة من البيرة.

قال هاري: «سوف تجد بعض البيرة في غرفة التبريد، إن لم تجد في الثلجة».

وقف ناتان ينظر في الثلجة ثم صاح فجأة قبل أن يغلقها بعنف: «اللعنة».

- ما الأمر؟

- لقد تذكرت شيئًا.

كانت غرفة التبريد الخاصة بناتان خارجة عن الخدمة منذ فترة طويلة، وبعد أن أمضى عدة أسابيع من الانتظار وصل متعهد الصيانة أخيرًا إلى المنطقة، وكان من المقرر أن يمر على منزل ناتان اليوم لصيانتها. فكر ناتان

في ذلك وهو يفتح الباب الثقيل لغرفة التبريد العائلية الكبيرة المبنية بداخل المطبخ. سيسمح متعهد الصيانة لنفسه بالدخول إلى منزل ناثنان، لا شك في ذلك، ولكنه على الأرجح سيحاول الاتصال بناثنان لأنه يتوقع وجوده في المكان.

شعر ناثنان بشعور جيد لأن غرفة التبريد التي دخلها لم تكن تعاني أعطالاً على الأقل مثل الموجودة في غرفة التبريد الخاصة به، سرت قشعريرة خاطفة في قدميه ووقف لعدة لحظات يتطلع إلى أكوام الأطعمة المجمدة والمحفوظة، ويستمتع بدرجة الحرارة المنخفضة قبل أن يستخرج زجاجة من البيرة من بين كوم من الأشياء الأخرى.

خرج إلى المطبخ ودَسَّ رأسه بداخل غرفة التخزين المجاورة فشعر بالسعادة والارتياح لرؤيتها ممتلئة على آخرها، لم يكن يتوقع أن يجدها على نحو مختلف ولكن امتلاء الغرفة بالمخزون مؤشر على انتباه كامبيرون وتركيزه الشديد، فالشخص المشتت لا يعبأ بالحفاظ على غرفة المخزون ويترك محتوياتها تنساب من بين يديه.

كان مخزن كامبيرون يشبه لحد كبير مخزن ناثنان، فالسير في مخزن ناثنان المنزلي يشبه السير في متجر عامل بالبقالة، الرفوف تتأوه من ثقل أكياس الأرز والمعكرونة والمعلبات. وعلى الجدران مجموعة من القوائم المعلقة بإحصائيات لمدى توفر كل عنصر داخل المخزن وتواريخ الصلاحية، وكل عنصر متوفر منه ما يزيد على خانتين عشريتين.

نظر ناثنان حوله وهو يشرب البيرة وخطر على باله أن يعيد ترتيب مخزنه والتحقق من كل شيء مرة أخرى عندما يعود إلى المنزل ليطمئن أن الأمور بحالة جيدة. لو كان هاري محققاً فيما يخص موضوع الفيضان فينبغي أن يخزن من الأشياء ما يكفي لفترة طويلة، كما يفعل كل ملاك المزارع المجاورة في هذه الظروف.

يشترى ناثنان طلباته المنزلية المعتادة من المتجر الموجود بأقرب مدينة بالنسبة إليه، كلما مرت ستة أسابيع تتحرك شاحنة تحتوي على مبرد ضخم على طريق أديليد الشمالي لتجتاز ما يقرب من ألف كيلومتر وهي تحمل على ظهرها طلبات المدينة بالكامل، كانت طريقة التخطيط السابق والطلب من السوبر ماركت والدفع مقدماً تجعل ناثنان على معرفة كاملة بكل وجبة سيأكلها خلال ستة أشهر قادمة، ناثنان لديه من الطعام ما يكفي للتغلب على

الفيضان، وخصوصًا أنه يقيم بمفرده، وعلى الرغم من ذلك إن تعلق الأمر بفيضان يحاصره، ينبغي له دائمًا أن يكون مستعدًا.

ترك ناثن غرفة التخزين وأغلق الباب خلفه ثم توجه إلى القاعة وأمسك بالهاتف الأرضي وطلب رقم متعهد الصيانة. كانت محفظة كاميرون موضوعة في منتصف الطاولة بالقرب من الهاتف كما كان يتوقع، فالتقطها بينما كان المجيب الخاص بالبريد الصوتي يجيب من الطرف الآخر، ترك ناثن للمتعهد رسالة حتى يستطيع أن يسمعها لاحقًا.

بداخل المحفظة زوجان من البطاقات الائتمانية وبعض النقود وإيصال باهت أو إيصالان نظير مشتريات قديمة من محطة الخدمة في المدينة، سحب ناثن رخصة القيادة ونظر إلى صورة أخيه، لم يكن كاميرون يبتسم في الصورة وهو أمر غير معتاد، كانت نظرته في الصورة نظرة محايدة كأنه يؤدي واجبًا مفروضًا عليه. على الرغم من ذلك كان يبدو وكأن هناك لمحة فكاهية متبقية كأثر في نظرة عين كاميرون، وكأنه انتهى للتو من إلقاء دعابة على المصور قبل أن يلتقط له الصورة.

أغلق ناثن المحفظة بعصبية. ثم التقط زجاجة البيرة الخاصة به وتجول في أنحاء الصالة، لم يتغير المنزل منذ عشر سنوات إلا بصورة بسيطة. كانت الأريكة هي نفس الأريكة التي تربى عليها منذ كان طفلًا ونام عليها مرات عديدة من قبل، لم تكن أريكة سيئة على كل حال.

لاحظ أن ليز قد تركت له فوق الأريكة بعض الملابس النظيفة مطوية بعناية فالتقطها، لا بد أنها تخص كاميرون، الحاجة العملية تتغلب دائمًا على العاطفة، هذا ما تعلمه على مدار السنوات، ولكنه على الرغم من ذلك شعر بالغرابة عندما حمل الجينز والقميص الخاص بشقيقه المتوفى.

وقفت شجرة عيد الميلاد البلاستيكية في ركن صالة المعيشة تتلألأ بالأنوار. يرقد تحتها عدد من صناديق الهدايا، وبالقرب منها على امتداد الجدار إطار ثقيل وكبير يعرف ناثن أنه باهظ الثمن وبداخله اللوحة الزيتية التي حازت على الجائزة التي حصل عليها كاميرون لرسمه قبر مربى الماشية.

لقد مرَّ وقت طويل منذ أن شاهد ناثن اللوحة لآخر مرة، فانحنى إلى الأمام حتى يستطيع أن يلقي عليها نظرة ثاقبة. التقطت اللوحة القبر في وقت الشروق، اعتقد البعض عن طريق الخطأ أن هذه اللوحة رُسمت لوقت الغروب، ولكن ذلك ليس صحيحًا، يستطيع ناثن أن يعرف أن ذلك المنظر في بداية

الصباح عن طريق أشعة الشمس المنعكسة في الأفق. أوّلَى كاميرون الكثير من الاهتمام للطريقة التي ينساب بها الضوء في الأفق، واستخدم التفاصيل الصغيرة وفرشاة دقيقة ومجموعة من الألوان المعبرة الغنية بالتفاصيل ليجسد ذلك، حتى إن قبر مربى الماشية يعتبر وكأنه جزء صغير من اللوحة وغير مهم مقارنةً باهتمامه بالضوء.

كان شاهد القبر يظهر بألوان داكنة في النصف الأسفل من اللوحة بشكل ضمنى غير محدد بطريقة صريحة، بإمكان ناثن -الذي لا يعرف الكثير عن الفن- أن يدرك السبب الذي جعل تلك اللوحة مشهورة وذات شعبية.

عنا حصلت اللوحة على الجائزة قرأ عددًا من المقالات النقدية حولها عبر مواقع الإنترنت حيث وصفها الناس بالعديد من الأوصاف الفنية والنقدية، وفسروها بالعديد من التفسيرات، بعضهم قال إن النور يقهر الظلام أو الخير يقهر الخطيئة والبعض رأى العكس تمامًا، وربطها بعضهم بالولادة والموت والوحدة والحزن، حتى إن أحدهم قال إنه من الممكن لمح مربى الماشية يقف في الجزء الرمادي المعتم بين كتلة النور وكتلة الظلام.

بشكل شخصي لم يحب ناثن تلك اللوحة كثيرًا، كان يعترف بأنها جيدة، ولكنها لا تشبه لوحات المناظر الطبيعية التي يفضلها، يرى أن التناقض بين المناطق المظلمة والمناطق المضيئة فيها يفتقد إلى الاحترافية، كأنها لا تمثل ما يشاهده في الخارج ولا تمثل الطبيعة التي تمتاز ببساطة وانسيابية أكثر في تكوينها.

خبط ناثن على الأريكة ونظر مرة أخرى إلى ملابس أخيه، كان لديه من الملابس ما يشبهها تمام الشبه، ولكن ذلك لم يكن أمرًا غريبًا. فجميع أفراد العائلة يتسوقون من نفس المكان، بل إن كل شخص يعرفه ناثن على وجه التحديد يشتري ملابسه من نفس المكان أيضًا.

لكن ملابس ناثن كانت أصغر في الحجم بدرجة أو اثنتين من مقاسه، منذ بلغ الشقيقان سن السابعة عشرة وهما في نفس الوزن تقريبًا، لكن كاميرون كان أصغر جسمًا، كان نحيفًا ورياضيًا بينما ناثن كان عريضًا ومكثفًا بعض الشيء.

عندما وجد ناثن نفسه قد أصبح وحيديًا، وذلك في المرة الثانية التي أصابته فيها الوحدة بشكل حقيقي وكامل -وليس المرة الأولى التي هجرته فيها جاكى- قضى ساعات طويلة يتمرن بأثقال قديمة بالية كان يحتفظ بها في

أحد المخازن بالمزرعة، ولكنه توقَّفَ عن الاهتمام بالتمارين الرياضية عندما أدرك أن أحدًا لن يستطيع أن يرى كيف يبدو شكل جسده بعد الآن، وفضَّل قضاء الساعات الطويلة في تناول زجاجات البيرة مستلقيًا على أريكته، ولكن ذلك جعله يشعر بصعوبة شديدة في الاستيقاظ مبكرًا كل صباح حتى لو لم يكن يشعر بالدوار المصاحب لحالة السكر الشديد. وكانت الأعمال اليدوية في المزرعة تتطلب مستوى معينًا من اللياقة والقوة البدنية، لذلك اضطر إلى كبح جماح تلك العادة، فتوقف عن تناول البيرة بشكل مفرط وعاد إلى التمرين مستخدمًا الأثقال مرة أخرى، ولكن بشكل غير منتظم مثلما كان يفعل قبل ذلك وأصبح في نقطة ما في المنتصف بين كل شيء، ولم يستطع بعدها أن يعود إلى سابق عهده.

نظر ناثن إلى قميصه الذي كان متسخًا بطبقات من الغبار الأحمر، بينما مرَّ طيف في الخارج استطاع أن يلمحه من خلال النافذة. كانت إلسي، والليل يلقي عليها بظلاله، تتجه إلى الملاءات المعلقة على حبال الغسيل حتى تفكها وتحضرها إلى الداخل، الملاءات كانت منتفخة وتتحرك بسرعة بفعل الريح كما لو كان شخص يسكن بداخلها ويجري من خلالها في كل اتجاه. وقف ناثن يتأمل إلسي لعدة لحظات قبل أن يترك قميص أخيه يسقط فوق الأريكة، ويقرر الخروج وتبادل بعض الكلمات مع زوجة أخيه الموجودة في الخارج.

توجهت عينا إلسي على الفور إلى الغبار الأحمر المنتشر فوق ملابس ناثن، يبدو أنه كان أكثر وضوحًا في الهواء الطلق مما كان عليه في داخل المطبخ. أدرك ناثن بسهولة أنها تفكر في مصدر ذلك الغبار بينما كانت يداها مثنيتين على حبل الغسيل.

- سوف أضع ذلك القميص في المغسلة.

لم تقل شيئًا واستمرت في جمع الملاءات.

- اسمعي يا إلسي، آسف بشأن قصة مربى الماشية الغبية التي قصصتها على العشاء، لم أكن أقصد أن أزعجك.

دفعت الملاءة المفرودة أمامها جانبًا حتى تستطيع أن تنظر إليه، ثم قالت: «أنا لست مستاءة من تلك القصة يا ناثن».

- لا، بل أظنك مستاءة من هذه القصة اللعينة.

مدت يدها إلى الأعلى حتى تلتقط غطاء مخدة يخص الفتاتين بناءً على الرسومات المطبوعة فوقه.

قال ناثان: «اتركي كل هذا، لا يتحتم عليك أداء هذه الأعمال الآن».

- يجب عليّ ذلك، إنها تخص لو وقد بقيت منشورة في الخارج منذ الأمس.

- حسنًا، فقد تأخرت في جمعها في جميع الأحوال، فالملاءات القطنية لا تستغرق غير خمس دقائق حتى تنشف بمجرد وضعها في الخارج، لا بد من أنها قد امتلأت بالغبار والأجسام العالقة ويجب غسلها مرة أخرى، يمكنك تركها فقد انتهى الأمر.

- لا.

- إذا دعيني أساعدك.

فتحت إلسي فمها وكأنها تهتمُّ بالاعتراض، ولكنها في النهاية اكتفت بهز كتفيها باستسلام: «أشكرك»، وضغطت بأصابعها على مشبك تعليق الغسيل الذي تحمله.

- ناثان، ما ظنك بحقيقة ما أصاب كام؟

سحب ناثان ملاءة من فوق حبل الغسيل ولم يجبها على الفور.

- هل ابتعد عن سيارته بالصدفة؟

زادت حدة ضغطها على مشبك تعليق الغسيل الذي تحمله في يدها وهي تقول: «أم تظن أنه كان ينوي أن يفعلها؟».

- أنا لا أعرف.

- لكنك كنت هناك، ماذا رأيت؟

- كان هناك شرطي قادم من سانت هيلين، يمكنه أن يخبرك بكل شيء،

و...

أوقفته قائلة: «أعلم ذلك، ولكنني أرجوك أن تخبرني بما تظن، أريد أن أعرف رأيك أنت».

تنهَّد ناثان بينما استمرت الملاءات في التحرك حولهما، ثم بدأ يحكي لها ما حدث. قصَّ عليها كل ما شاهده هناك وهي مكثفية بالاستماع في صمت، خلال هذه الفترة ضاقت عينها وضمت شفيتها ولم تقاطعه طوال حديثه

سوى مرتين فقط، المرة الأولى عندما أخبرها عن الحفرة الضحلة التي كانت موجودة بالقرب من قاعدة شاهد القبر، والمرة الثانية عندما أخبرها عن المؤن والإمدادات وزجاجات المياه التي تركت دون أن تمس في الجزء الخلفي من سيارة كاميرون ذات الدفع الرباعي.

جعلته يعيد على مسامعها ذلك الأمر مرة أخرى، ولكن إعادة ذلك الجزء من القصة لم يجعل الأمر أكثر منطقية في المرة الأولى ولا في المرة الثانية على حد سواء.

كان يتأمل وجه إلسي متفحصًا، وهو يتحدث معها. على الرغم من مرور عشر سنوات كاملة، ولكنها ما زالت تشبه تلك الفتاة التي رآها للمرة الأولى خلف البار في تلك الليلة، خاصةً حين سقط عليها مصادفة قدرٌ مناسبٌ من الضوء سببته حركة الملاءات المتطايرة.

كان ناثان كذلك مختلفًا في ذلك الوقت، كان زبونًا شبه دائم في الحانة الوحيدة بالمدينة، كان يمضي ساعات طويلة في القيادة حتى يصل إليها، كان حزينًا في ذلك الوقت وما زالت لدغات الطلاق القاسية تُحدث فيه أثرها شديد الخشونة.

كانت زوجته أو بالأحرى زوجته السابقة، قد أرسلت له أوراق الطلاق بعد أن هجرته ورحلت إلى بالامارا مع طفله الصغير زاندار الذي كان يبلغ من العمر وقتها خمس سنوات، رحلت دون نية في العودة ودون أن تنظر إلى الخلف ولو لمرة واحدة. لم تكن لديها نية صادقة في الالتزام بترتيب رؤيته للطفل كما اتضح فيما بعد، على الرغم من اتفاقهما في خلال إجراءات الطلاق على كل التفاصيل.

وعد ناثان زاندار أن يتصل به كل يوم في بريسبان، ولكن الخط كان مشغولًا في مرات كثيرة بما لا يترك المجال لأن تكون صدفة، وكان زاندار يترك الهاتف فجأةً ويبتعد في المرات التي يستطيع فيها ناثان أن يتحدث إليه قبل أن تطول بينهما المكالمة وتأخذ صورة حميمية في الحديث. ظلَّ ناثان أحيانًا على الجانب الآخر من الهاتف يسمع نغمة الانتظار منتظرًا عودة زاندار بلا فائدة. أصبح واضحًا أن جاكى من المستحيل أن تلتزم بالحضور في مواعيد الزيارة المحددة، لقد منحها ناثان الوقت الكافي حتى تستقر في حياتها الجديدة قبل أن يطالبها بأي شيء، ثم منحها وقتًا أطول، ولكن دون فائدة.

في تلك الليلة دخل ناثنان إلى الحانة في بالامارا بعد أن حوّل مبلغًا كبيرًا من المال يسيل له اللعاب إلى محامي العائلة. جعله البعد عن ابنه يشعر بالحزن وجعلته الأموال التي حولها إلى المحامي يشعر بالفقر ولم يكن ناثنان يتوقع في تلك الليلة عند دخوله الحانة أن يتغير أي شيء.

الرجل لا يستفيد كثيرًا على كل حال من تناول زجاجة من البيرة في حانة شبه فارغة، ولكن إلسي كانت هناك وهذا كان كفيلاً بتغيير كل شيء. كانت تجلس وحيدة تقدم المشروبات خلف البار، وكان يجلس وحيدًا أمام البار منتظرًا مشروبه، قدمت له الخدمة مبتسمة ابتسامة ساحرة فتشجع وقدم نفسه إليها. جلس أمامها وتجادبا أطراف الحديث، أخبرته أنها تعمل في الحانة منذ ثلاثة أسابيع ويوم واحد، وأخبرته أنها وصلت إلى المدينة منذ ثلاثة أسابيع ويومين تحمل على ظهرها حقيبة الظهر، وأنها في الأصل هولندية ولكنها تدرس علوم البيئة في كندا.

انحنى في اتجاه البار واقتربت منه تعلمه أن ينطق اسمها بلهجة موسيقية ناعمة.

- حاول مرة أخرى، إنه إل.. سي.

- إلس..ي.

- لقد اقتربت بما فيه الكفاية من نطق الاسم بطريقة صحيحة.

ابتسمت، فاستمر هو في المحاولة حتى نطقها بشكل صحيح.

انفصل والدها في البداية، ثم توفيت والدتها بعد ذلك بعام واحد بسبب سرطان الثدي، توقفت إلسي عن الحديث عن ماضيها عند تلك النقطة. نظر ناثنان مطولًا إلى البار، وفي النهاية مد يده إليها ووضع ذراعه فوق ذراعها.

كانت لديها ابتسامة ساحرة، فعندما نظرت إليه وهي تبتسم شعر بشيء ينفجر في داخله. استمرت في الحديث وهي تبتسم، وأخبرته أن هذه الظروف الصعبة كانت هي الحافز لها على السفر ومشاهدة القليل من العالم الحقيقي والاستمتاع بالمغامرات.

سألها: «وما رأيك في هذه المنطقة النائبة؟».

- إنها جميلة، أشعر بأنني وصلت إلى حافة الأرض.

اشترى لها كأسين من الشراب وجلسا معًا في البار الفارغ، وبدأ يخبرها بعض الأخبار التافهة عن الهراء المحلي. كان في سيارته جيتار فجلبه وبدأ

يعزف لها لبعض الوقت، غير أنه شعر بالانزعاج لاحقًا على الرغم من أنها استمتعت وضحكت. استمعت إلسي في تلك الليلة إلى العديد من الأغاني الأسترالية التي جعلتها تصرخ بصوت عالٍ، ثم طلبت منه أداء بعض الأغاني الهولندية، ولكنه لم يكن قد سمع بها من قبل.

أخيرًا سألته: «ما الذي يفعله الناس هنا للحصول على بعض التسلية؟».

ذكرته الطريقة التي وجهت بها إليه السؤال بشكل ما بالطريقة التي اعتادت جاكبي أن تتحدث بها إليه عندما كانت الأمور بينهما تسير على نحو جيد.

- ما الأشياء الماتعة هنا؟

قال ناثان: «حسنًا، دعيني أفكر، في بعض الأحيان يستمتع الناس هنا بتبادل اللكمات، هذا صحيح فهي متعة لا يجب التقليل من شأنها، في إحدى المرات تبادل اثنان من أبناء العمومة في أثرتون اللكمات وتشاجرا في الطريق العام لمدة أربع ساعات كاملة وجلب الناس مقاعدهم إلى الخارج وجلسوا لمشاهدتهما».

- أربع ساعات كاملة؟

ثم ضحكت بصوت عالٍ، وتابعت: «لو كان هذا صحيحًا وأنا لا أصدق أن ما تقوله حقيقي بالمناسبة، فلا بد من أنهما مقاتلان بارعان للغاية أو أنهما لا يجيدان القتال على الإطلاق».

ابتسم مرة أخرى قبل أن يضيف: «هناك العديد من الأشياء الأخرى التي يفعلها الناس هنا للحصول على المتعة، مثل القيادة بين الكئبان الرملية لمشاهدة غروب الشمس في الصحراء بصحبة زجاجة من النبيذ، يمكن أن يحصل المرء على الكثير من المتعة والمرح بفعل ذلك لو كان بصحبة الشخص المناسب».

أمال رأسه إلى الورا ونظر إليها وهو متأكد من النظرة التي ظهرت في عينيها والابتسامة التي ملأت شفثيها أنها سوف تقبل الدعوة الخفية التي وجهها إليها.

كان يقول بينه وبين نفسه إنه لا داعي لأن يأخذ الموضوع بشكل جدي للغاية فهو لن يقدم على الزواج مرة أخرى على كل حال، والرب شاهد على ذلك ولكن ذلك لا يمنع من أنه أصبح بشكل رسمي أعزب ومتاحًا مرة أخرى

للمواعدة. والأمر لا يعدو سوى نزهة في الصحراء مع تلك الفتاة الرحالة، والفرق شاسع بين ذلك الأمر وبين أن يعرض عليها خاتم الزواج ويضعه في إصبعها.

لم يستطع ناثنان في تلك اللحظة أن يكتم إحساسه بالمرارة، فمجرد التفكير في خاتم الزواج أعاد إلى ذهنه المبلغ الضخم الذي حصل عليه المحامي نظير أتعابه في قضايا الطلاق، كان المبلغ يزيد على أربعة أرقام. أغلق ناثنان فمه مرة أخرى، وترك الزخم الذي تتمتع به اللحظة يمر من بين يديه مكتفياً بطلب مشروب آخر بدلاً من الأفكار التي كانت تملأ رأسه.

تبادلا بعض الضحكات وفي نهاية الليلة عندما كانت تغلق الحانة، وقفا في مواجهة بعضهما بعضاً أمام الباب الأمامي وكان الأمر مُحرجاً بعض الشيء خصوصاً عندما اكتفى بسؤالها عن موعد عملها في الأسبوع القادم.

قضى ليلته في مؤخرة السيارة كما اعتاد في كثير من الأحيان أن يشاهد النجوم التي تتلألأ في الأعلى من خلف زجاج السيارة القذر، ولكنه عاد إلى المنزل في الصباح وعلى وجهه ابتسامة ظهرت لأول مرة منذ فترة طويلة. عاد ناثنان إلى الحانة في الأسبوع التالي والأسبوع الذي يليه، ثم غاب لأسبوع واحد وعاد في الأسبوع التالي مباشرة.

ومع مرور الوقت وجد ناثنان نفسه وقد امتنع عن الذهاب إلى الحانة والمتجر وكل شيء آخر يستحق الزيارة ما دام يفصله عنه ست ساعات من القيادة بالسيارة. لم تكن فترة انعزاله محددة ولم يكن يعرف متى ستنتهي ولكنه عندما بدأ أخيراً بالخروج والاختلاط بالآخرين عرف أنها امتدت لتصل إلى تسع سنوات وأربعة أشهر، وكان من الممكن أن تستمر لأكثر من هذا.

سألته إلسي وهي ما تزال تقف أمام حبل الغسيل، فأعادته مرة أخرى إلى عالم الواقع: «هل ترك كام ورقة تحمل أي ملاحظات؟».

- لا.

- وهل ترك شيئاً ذا دلالة في سيارته؟

- لا، لم يترك شيئاً هناك.

هزت رأسها في صمت، ثم قالت: «هل كان في جيوبه أي شيء يفسر توجهه إلى ذلك المكان بدلاً من تل ليمان؟ ماذا عن جهاز اللاسلكي، هل اتصل بأي أحد على الإطلاق؟».

- لقد كنت في منزلي طوال اليوم ولم يرد منه أي اتصال، لو ورد منه شيء لا بد أنني كنت سأسمعه.

أخذ ناثنان يفكر في الأعمال الورقية التي يجب إتمامها من أجل انتظام العمل في المزرعة، إنها أعمال أسبوعية يجب أداؤها بدقة، مثل حساب مرتبات العاملين، وفواتير الموردين، وعمل الطلبات الجديدة. كانت تلك وظيفة ليز في السابق عندما كان ناثنان أصغر سنًا، ولكنها الآن أصبحت من اختصاص إلسي وتقع بالكامل على عاتقها.

قال ناثنان: «أخبرني بوب وهاري أن كام كان يبدو عليه ظواهر الضغط العصبي مؤخرًا بشكل واضح».

- ماذا؟

بدا على ملامح إلسي الانزعاج الشديد.

- مؤخرًا، فقط مؤخرًا، لقد كان مصابًا بضغط عصبي لفترة أطول من ذلك.

ثم أضافت: «أنت تعرف كم هو شيء صعب أن تدير مكانًا مثل هذا وهم جميعًا يعرفون ذلك، لقد كان دائمًا يقع تحت ضغط شديد حتى عندما كان كل شيء على ما يرام».

ثم انتزعت غطاء وسادة من فوق حبل الغسيل وطوته بعصبية وعلى نحو سيئ فازدادت التجاعيد على سطحه، ثم أخذت نفسًا عميقًا، ونظرت إلى الغطاء برفق وحاولت أن تطويه بشكل أفضل هذه المرة.

- أعتقد أنه كان هناك شيء ما، كان هناك خطب ما أصاب كام، إن هاري كان محققًا فيما قاله لك يا ناثنان، كان كام شديد التوتر، وكان في مزاج سيئ معظم الوقت وكان تركيزه مشتتًا، وكل هذه الأشياء لم تكن من طبيعته، كنت أمل أن تمر تلك الفترة ولكن مرت ستة أسابيع أو أكثر من ذلك والأمر يزداد سوءًا بمرور الوقت، ولم أستطع أن أفعل شيئًا.

- هل سألته عن سبب توتره؟

- بالطبع فعلت.

كانت إجابته سريعة وذات طبيعة دفاعية.

- لقد أخبرني أنه بخير، وأن لديه العديد من الأعمال التي يولي لها الاهتمام، كان كاميرون يعمل بجد شديد ولكن ذلك لا يعني...

توقفت عن الحديث عندما شعر كلاهما بحركة داخل الفناء ونظرا في اتجاه مصدر الحركة، كان الضوء قد تلاشى وهما يشاهدان بوب يمشي ببطء بالقرب من الركن البعيد من السياج حيث الأرض تصبح أكثر ارتفاعا.

توقَّفَ في مكانه ونظر نحو رقعة من الأرض في الأسفل، ناثن يعرف هذا المكان جيدا ولكنه لم يعرف إلى أين ينظر بوب، بينما لم يستطع بوب أن يدرك وجود ناثن وإلسي في الخارج يشاهدانه بسبب الملاءات المتطايرة.

عبست إلسي: «ماذا يفعل هناك؟».

قال ناثن: «وحده الرب يعلم بذلك».

كان بوب ينظر إلى قبر والدهم من فوق السفح، يستطيع ناثن من مكانه أن يرى قمة شجر الأوكالبتوس⁽¹⁾ الذي زرعه هو وإخوته منذ عشرين عاما مضى بعد الجنازة، لقد كان يوما حارًا وكانت الزراعة بالنسبة إليهم في ذلك الوقت عملاً شاقًا ولكنها كانت فكرة ليز لذلك اضطروا إلى تنفيذها، حفروا حفرة عميقة على رأس القبر.

كانت الشجرة في ذلك الوقت متوسطة الحجم ولكنها أصبحت ضخمة بمرور الوقت وذات أغصان متمائلة تحجب أشعة الشمس وتلقي بالظلال السوداء.

على يسار قبر كارل برايت كانت بقية الأرض مجهزة لاستقبال باقي أفراد الأسرة عندما يحين موعدهم، البقعة الموجودة بجانب قبر الأب مباشرة على الأرجح كانت ستُخصَّص إلى ليز في ظل الظروف العادية، ولكن ناثن أدرك على نحو صادم أنها سوف تصبح مقر كاميرون الأخير.

قالت إلسي فجأة: «أريد أن أعود إلى الداخل».

من التعبيرات التي ارتسمت على وجه إلسي شعر ناثن بأنها كانت تفكر في نفس الشيء الذي كان يفكر فيه.

- أريد أن أطمئن على أحوال الفتاتين قبل إغلاق المولد الكهربائي.

كان المولد يُطفأ في كل ليلة من أجل توفير الوقود وتوفير المال، فتغرق بذلك المزرعة بالكامل في حالة من الظلام الحالك طوال فترة الليل. اعتاد

(1) تُعرَف في مصر بشجر الكافور، أو الصمغ الأحمر. (المترجم).

ناثان أن يفعل نفس الشيء أيضًا، حتى إنه كان يطفئ المولد الكهربائي الخاص به لفترات أطول وأطول في هذه الأيام ليستلقي بمفرده في الظلام الدامس منذ غروب الشمس وحتى لحظة شروقها.

- حسنًا اذهبي. (ومد ناثان يديه إلى الملاءات المتبقية وقال) سوف أحضر الباقي إلى الداخل.

قالت: «شكرًا».

وبدا من ملامحها أنها راغبة في قول ما هو أكثر من ذلك، ولكنها تراجعته. طار طرف ملاءة أمام عيني ناثان فمنعه من متابعتها وهي في طريق العودة إلى المنزل، ولكنه دفع بالملاءة في الوقت المناسب متابعًا اندفاعها إلى المنزل الذي ابتلعها.

نظر ناثان إلى حبل الغسيل مرة أخرى، كانت الأقمشة الكتانية البيضاء قد تغير لونها لتصبح حمراء ورمادية وباهتة وملاى بالأوساخ.

عبر الفناء ما زال بوب واقفًا في مكانه يولي ظهره لناثان ويتأمل الساحة المخصصة لمقابر العائلة، وصلت يد ناثان إلى الملاءة الأخيرة ثم توقف عندما شاهد بوب يشرب جرعة أخيرة من الزجاجات التي يمسكها في يده قبل أن يلقيها على الأرض بجواره ويمد يده إلى سحاب بنطاله ولم تمر إلا ثوانٍ قليلة قبل أن يسمع صوت دفقات واضحة من البول تسقط على الأرض بشكل متتابع.

ظل ناثان يقف في هدوء تام بينما استمر صوت الماء المتدفق ينساب على الأرض حتى توقف تمامًا. يبدو أن بوب انتهى مما يفعل، فأغلق سحاب بنطاله مرة أخرى وانطلق في اتجاه المنزل دون أن يلقي ولو حتى نظرة خاطفة في اتجاه ناثان. كان هناك صوت حفيف في الهواء أوحى لناثان أن بوب ربما كان يصفر في انتشاء.

لم يتحرك ناثان من مكانه حتى انصرف بوب واختفى تمامًا، كانت الرقعة المخصصة كونها مقابر للعائلة مظلمة عندما وصل إليها. كان يتحسس موضع قدميه بحذر حتى لا يطاءً فوق شيء على سبيل الخطأ بسبب الظلام الدامس الذي يغمر المكان. نظر إلى الأرض حيث دفن والده وحيث سيدفن كاميرون قريبًا، ثم جلس على ركبتيه ولمس التربة بأطراف أصابعه، كانت المقبرة جافة، لا بد من أن الأرض العطشى قد شربت الماء الرطب بسرعة. لذلك أصبح من المستحيل أن يحدد ناثان البقعة التي تبول عليها بوب.

الفصل التاسع

الوقت ما زال مبكراً ولكن ناثنان كان بإمكانه رؤية الفتاتين في الساحة الأمامية للمنزل المخصصة لتريُّس الخيول، استمر ناثنان لمدة دقيقة في تأمل بنتي كاميرون قبل أن يصعد إلى المقعد المجاور للسائق في سيارة هاري ذات الدفع الرباعي.

لم يكن لدى ليز الطاقة أو القدرة على الاعتراض على ما يحدث، لذلك فقد أصرَّ بوب وزاندار كذلك على الخروج لمقابلة الرقيب المحلي بالقرب من الموقع الذي وجدوا فيه سيارة كاميرون. لم يقل أحد شيئاً ولكن ناثنان كان يشك في أن الجميع يأمل أن يستطيع الرقيب جلين ماكيننا عن طريق خبرته العملية الطويلة ونظرته المتخصصة حل اللغز وإخبارهم ما الذي حدث بالضبط في ذلك المكان.

لم يتحدث بوب إلى أيٍّ من الموجودين عندما صعد إلى المقعد الخلفي وجلس بجوار زاندار. في الليلة السابقة، عندما غادر بوب المقبرة العائلية كانت رائحة بوله ما تزال تفوح في المكان ولكن بطريقة خافتة استطاع ناثنان أن يشمَّها. وعند عودة ناثنان إلى المنزل وجد بوب قد سبقه بالفعل إلى غرفة نومه وأغلق الباب، ظل ناثنان بعدها يفكر هل يطرق باب غرفة نوم بوب، بعد أن يطفئ هاري المولد الكهربائي كما يفعل دائماً بحلول المساء ويسأله عما فعل. تراجع ناثنان عن الفكرة بمجرد أن انطفأ المولد الكهربائي، وقرر أنه ليس من الملائم مناقشة هذا الأمر في تلك الحالة من الظلام اللعين.

غرقت الغرفة في العتمة بعد إغلاق المولد، وغرقت كذلك كل أنحاء المزرعة في ظلام دامس، جلس ناثنان في الظلام على الأريكة يتدرب على الطريقة التي سيفتح بها هذا الحوار مع بوب في الصباح الباكر، ولكنه على الرغم من ذلك

بمجرد استيقاظه مع بزوغ الشمس تبخرت كل تلك الأفكار فجأة من رأسه. وراوده إحساس بأن كل ما رآه في الليلة الماضية - بشكل واضح - لم يعد بذلك الواضح، وغمره إحساس بالاضطراب والتشويش.

أدار هاري المحرك وتحرك بالسيارة على الممر، أشار ناثن قائلاً وهم يمرّون بجوار الساحة المخصصة لتدريب الخيول: «انتظر قليلاً يا هاري».

كانت صوفي البالغة من العمر ثمانية أعوام في منتصف الساحة تمسك بيد واحدة زمام حصان كبير وتجعله يسير في دائرة واسعة ويدها الأخرى معلقة بعلاقة طبية ملونة. بينما كانت لو التي تبلغ من العمر خمسة أعوام جالسة على السياج وفي يدها ورقة تنظر إليها وترسم شيئاً ما. لقد مرّ عام منذ أن رآهما ناثن لآخر مرة وأصبحتا أكبر مما كان يتذكر، كان بإمكان ناثن أن يرى إلسي واقفة في الشرفة تراقب بنتيها، ودافي كلبه كاميرون جالسة تحت قدميها بلا حراك.

بينما كان هاري يوقف السيارة كما طلب منه، أخرج ناثن يده ومال من شبك السيارة ملوحاً: «مرحباً يا فتاتان. لم تسنح لي الفرصة لتحيتهما في الليلة الماضية، كيف أحوالكما؟ أنتما تعرفان زاندار، أليس كذلك؟».

قيدت صوفي الحصان الذي تمسكه، وأخذت الفتاتان وقتهما في المشي للوصول إلى السيارة. نظرت لو إلى عمها ناثن وكأنه شخص غريب.

قال هاري: «هيا، ألقيا تحية الصباح على العم ناثن».

وقفت الفتاتان في مكانهما غير مبتسمتين.

قالت صوفي بعد فترة: «مرحباً أيها العم «ثان»».

ووقفت لو خلفها بخطوة ولم تقل شيئاً. كانت الفتاتان تشبهان كام كثيراً وخصوصاً عند المنطقة المحيطة بالعينين.

أخذ زاندار يفكر في أن شعرهما الأشقر الجميل سوف يصبح داكناً ذا لون قذر عندما تكبران في العمر مثلما حدث لشعره الذي كان أشقر في طفولته.

نظر ناثن إلى العلامة الطبية المصنوعة من القماش الملون والمرسوم عليه بعض المهور المعلقة في ذراع صوفي، وسألها: «ما الذي حدث لك؟».

- لقد سقطتُ.

- هل أنتِ بخير؟

- إنه مجرد كسر صغير.

- هذا ليس أمرًا جيدًا.

- لا.

هل كانت تلك الإجابات المقتضبة، تحمل قدرًا ضئيلًا من السخرية؟ ناثنان ليس متأكدًا من ذلك فصوفي صغيرة جدًا على إجراء ذلك الفعل.

قال ناثنان: «حسنًا، يجب أن تأخذي حذرك، سوف أراك قريبًا».

أومأت الفتاتان برأسيهما وبعد إلقاء نظرة سريعة تجاه هاري، ركضتا عائدتين إلى ساحة تدريب الخيول.

قال ناثنان: «يبدو أنهما تشعران بالذهول من كل شيء».

التقطت صوفي لجام الحصان بيدها السليمة مرة أخرى في خفة، فأضاف ناثنان: «من حسن الحظ أن الإصابة لم تهرمها من ممارسة أنشطتها، هذا على الأقل شيء جيد».

قال هاري وهو يركز بعينه على الممر الذي تسير فيه السيارة: «لا، الإصابة لم تفعل، من الجيد أنك استطعت أن تتعرف على طبيعة صوفي».

اعتقد ناثنان أنه لا يعرفها حق المعرفة، بينما مرت السيارة مبتعدة ورفعت إلسي يدها ملوحة بالتحية. تحركت السيارة في صمت بينما اختفى المنزل شيئًا فشيئًا في الخلفية. اختار هاري أن يسلك الطريق الدائري بدلًا من أن يسير بين المراعي، كان باستطاعة ناثنان أن يسمع أصوات الحجارة وهي تصطدم بجسم السيارة بصوت أكثر حدة ولمدة أطول مما حدث في أمس. كان هاري يقود السيارة بسرعة أكبر مما يفعل ناثنان، ولكن الجميع يقود بنفس الطريقة.

كان ناثنان يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا عندما مات والده في حادثة التصادم، في هذا التوقيت كان يعيش فعليًا مع جاكبي بناءً على طلبها في نفس المنزل الذي ما زال يعتبره منزله حتى ذلك اليوم.

كان شعوره بالمنزل مختلفًا في ذلك الوقت عن شعوره به في الوقت الحالي، كل شيء وقتها كان لامعًا وجديدًا، وكانت علاقتهما الجسدية في شدة زهوها، كانت جاكبي سيدة جميلة تسر النظر ولكنها تصبح أجمل خلال العلاقة الجسدية وهو ما زاد من شدة تعلقه بها لفترة طويلة من الوقت.

عند وقوع الحادث لوالده كان كاميرون ملتحقًا بدورة بعيدة عن الأعمال الزراعية، وكان بوب ما يزال طفلًا صغيرًا.

طبيعة الحادث المفاجئة هي التي هزت كيان ناثن بشكل غير ملحوظ أكثر من كل العوامل الأخرى، كان كارل برايت وليز يقودان السيارة في طريق العودة من المدينة، كما فعلًا مئة مرة في السابق. ظهرت بقرة في الطريق من العدم، حاول كارل تفاديها كما فعل مئة مرة في السابق ولكنه كان في هذه المرة بطيئًا أكثر من اللازم، أو ربما كانت السيارة تسير بسرعة أعلى من المعتاد، أو أن الانحراف كان حادًا جدًا بقدر يصعب السيطرة عليه، أو أنه لم يكن حادًا بدرجة كافية، فاصطدمت السيارة بالبقرة وانقلبت متدحرجة رأسًا على عقب حتى استقرت مقلوبة، علق كارل بين عجلة القيادة وسقف السيارة، بينما فقدت ليز الوعي وعندما استيقظت في الظلام وجدت رأسها ينزف والدم يغطي وجهها، بينما زوجها يرقد بجوارها وهو ينزف حتى الموت.

استخدمت ليز جهاز اللاسلكي لطلب المساعدة، استغرق وصول أول شخص قرابة ثلاثين دقيقة واستغرق الأمر أربعين دقيقة أخرى حتى وصول سيارة الإسعاف. ومَرَّ ما يقرب من أربع ساعات منذ وقوع الحادث حتى تلقى أيُّ منهما العناية الطبية الملائمة، ولم تمر طوال تلك الفترة بالقرب منهما أي سيارة أخرى مطلقًا.

كان ناثن يمارس العلاقة الحميمة مع جاكى عندما وردته تلك المكالمة، أصدرت جاكى أصواتًا مناسبة تدل على التعاطف، بينما كان يرتدي ناثن قميصه وينتعل حذاءه، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من إصدار أصوات أخرى تدل على خيبة الأمل لأنه يتركها وحيدة في منتصف الليل للمشاركة في حدث درامي يخص عائلته.

كان أمرًا حزينًا بالنسبة إلى ناثن رؤيته لكل علامات الخطر في وقت مبكر على طول الطريق لموقع الحادث، وحين وصل إلى موقع السيارة المقلوبة، كانت ليز تجلس بالفعل في مؤخرة سيارة الإسعاف، وكان ستيف فيتزجيرالد في نسخته الأصغر يشغل بالفعل وظيفة المسعف. أخذ ستيف ناثن إلى ركن جانبي وبدأ يشرح له حقيقة الموقف. كارل في هذه اللحظة ما زال مثبتًا في مكانه بداخل السيارة، ولم تعد ثمة ضرورة مُلحة لمحاولة إخراجه من مكانه بعدما تم التأكد من وفاته بالفعل، لم تكن وفاة كارل سريعة ولم تكن بلا آم، سمع ناثن ستيف لاحقًا يهمس عبر جهاز اللاسلكي مطالبًا بإرسال

شخص لتخليص الجثة من المكان الذي علقت به. ربما كان لكارل فرصة ليظل على قيد الحياة لو مَرَّ شخص ما بالصدفة من المكان واكتشف الحادث وأبلغ عنه مبكرًا. في ذلك الوقت كانت ليز تجلس في خلفية سيارة الإسعاف وهي تضع البطانية حول كتفها على الرغم من حرارة الجو في تلك الليلة. كان من الصعب التعرف على ملامح ليز بسبب طبقات الدم السوداء المتخثرة التي تعلق وجهها.

- إنها محظوظة.

وأضاف ستيف: «سوف تتماثل للشفاء بسرعة».

نظر ناتان إلى والدته التي تجلس في حالة من الذهول، مضرجة بالدماء، وأدرك أنها أبعد ما تكون عن وصف المحظوظة بأي شكل من الأشكال. ثم أعاد النظر إلى الألواح المعدنية الملتوية في سيارة والده، ومنذ ذلك اليوم أصبح ناتان يقود السيارة على سرعة أقل ببضعة كيلومترات من السرعة المقررة للقيادة في المكان الذي يوجد فيه.

نظر ناتان إلى وجه هاري الذي كان يحمل تعبيرًا لا يتغير.

- أنت محقٌ.

أجاب هاري: «بالفعل. نعم، فقد كنت أتذكر ذلك اليوم، عندما هربت أنت وكام واتجهتما إلى مقبرة مربى الماشية، كنتما صغيرين حينها، هل تذكر ذلك؟».

- نعم، أذكر بالطبع.

انحنى زاندار إلى الأمام وقال: «ما هذا! ما الذي حدث؟».

نظر إليه هاري عبر المرآة الخلفية للسيارة وقال: «لم تسمع بتلك القصة من قبل، أليس كذلك؟».

هَزَّ زاندار رأسه، فنظر هاري إلى ناتان الذي هز كتفيه قائلاً: «لم أكن لأخبره هذه القصة على كل حال، فلقد كنت صغيرًا وكان ذلك الفعل تصرفًا في منتهى الغباء».

قال هاري: «نعم، لقد كنتما مجرد طفلين، كم كان عمرك عندئذ؟ اثني عشر عامًا».

- كنت في الحادية عشرة من العمر وكان كام في التاسعة.

شعر ناتان بالحزن يعتصره بسبب ذكر أخيه، وتذكر أقدامهما الملاى بالغبار وحقائب الظهر الثقيلة التي كانا يحملانها في ذلك اليوم. سأله زاندار: «وما السبب الذي دفعكما إلى الهرب؟». قال ناتان وهو يكذب: «الرب وحده يعلم السبب، فقد كنت صغيراً جداً لأتذكر».

شعر بعيني زاندار تحديقان إليه في تركيز وكذلك فعل بوب في نفس اللحظة. - لكن لمعلوماتكما، نحن لم نكن نهرب من أجل الوصول إلى قبر مربى المشية، لقد كان مجرد محطة انتقالية قبل أن نكمل طريقنا في اتجاه المدينة.

لقد حضراً حقائب الظهر وحشواها بالمتعلقات الخاصة بهما، ثم أغلقاهما بإحكام قبل أن يبرز الفجر بوقت طويل. لم يكن ناتان متأكداً الآن من الشيء الذي كان يعتقد أنه سيكون في انتظارهما بالمدينة ولكنهما وقتها ظناً أنه سيكون شيئاً جيداً. كانت لديهما خطة، تناقشا في الأمر لفترة طويلة، حتى هذه اللحظة ما زال بإمكانه تذكُّر بعض تفاصيل ذلك النقاش، ولكنه لم يعد يملك الشغف ذاته للحدث في ذلك الأمر. سأله زاندار: «ما الذي حدث؟».

قال هاري: «لم يبتعدا كثيراً، هذان الهاويان الأحمقان، لقد استطاع والدهما أن يخمن كل ما كانا يخططان بعد خمس دقائق من اكتشافنا أمر رحيلهما، قدنا السيارة وانتظرنا بجوار مقبرة مربى المشية، وجلسنا ننظر إلى أعلى القمة حتى يظهر».

وسأل ناتان: «هل تتذكر ذلك؟». فأجاب: «نعم أتذكر».

تذكُّر ناتان بالفعل كيف كان شعوره عندما رأى الرجلين في انتظارهما عند القمة.

سأله زاندار: «وما الذي حدث عندما عثرتما عليهما؟».

أجاب هاري: «لا شيء، اصطحبناهما في السيارة واتجهنا في طريق العودة إلى المنزل وكانا يمسان بزمام خيولهما التي تركض بجوار السيارة وأيديهما تتدلى خارج النافذة».

- هل كان أبي غاضبًا؟

جاء صوت بوب من الخلف، وكانت تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها منذ بدأت الرحلة.

- نعم.

قالها ناثنان دون أن يلتفت وينظر إليه مضيئًا: «نعم، لقد كان غاضبًا. أراهن على أنه كان شديد الغضب».

أصبحت الأجواء داخل السيارة ثقيلة ومتوترة وسادت حالة من الصمت. استطاع ناثنان أن يرى بداية بروز القمة الصخرية والنتوء الصخري الممتد أمامها على مسافة غير بعيدة، بعد مرور تلك الفترة من الوقت وهم يجلسون في السيارة.

لم يكن ناثنان سعيدًا في ذلك اليوم، لأن والدهما عثر عليهما في ذلك المكان، ولكنه أدرك مع الوقت أن ذلك كان أفضل ما يمكن أن يحدث لهما وقتها، لقد كان محظوظًا هو وكام بالنجاة، فقد كانت تلك المنطقة شديدة الخطورة وخصوصًا في هذا الوقت من العام وعلى الرغم من كل ما لديهما من إمدادات ومؤن، كانا في الأغلب سيتعرضان إلى الهلاك.

الآن، أدرك ناثنان، كم كان غيبًا في ذلك الوقت، فالتهاون في تطبيق القواعد الخاصة بالتعامل مع المناطق النائية والموحشة يُكفّر عنه بالدم. ويمكن الاستشهاد بكامبيرون في ذلك الشأن، كان رأس ناثنان يهتز كقطار مزدحم بالأفكار ويندفع إلى الأمام وإلى الخلف.

داس هاري على الفرامل بينما سمع ناثنان بوب يقول: «انعطف يمينًا من هنا».

نظر ناثنان إلى الصخور الموجودة إلى اليمين، بينما مرت السيارة عبر الفجوة غير المرئية حتى وصلوا إلى المكان المنشود. سمع زاندار يتحرك في مؤخرة السيارة فألقى عليه نظرة خاطفة في المرآة الجانبية وعندها شاهد ابنه ينظر إلى هاري وتعلو وجهه نظرة غريبة.

أول ما ظهر في الأفق كانت سيارة الشرطة التي كانت متوقفة عند أسفل المنحدر، بينما كانت سيارة كامبيرون ما زالت واقفة في مكانها على قمة المنحدر الصخري حيث تركوها. كان الرقيب جلين ماكيننا واقفًا بجوار السيارة ثم رفع يده مشيرًا إليهم بينما كانوا يصعدون في الطريق إلى الأعلى.

أوماً ناثن برأسه مشيرًا إلى السيارة اللاند كروزر: «هل استطعت أن تجد السيارة بسهولة؟».

قال ماكيئا وهو يومئ بدوره: «يمكن أن تلمح السيارة من بعيد، لفترة وجيزة من الوقت قبل أن تختفي مرة أخرى، إذا كنت قادمًا من طريق المدينة، فستظهر بوضوح لمدة دقيقة أو ما يقرب من ذلك، فالطريق يرتفع بالقرب من حدود مزرعتك يا ناثن».

- هل هذا صحيح؟

- ألم تلاحظ ذلك بنفسك، من قبل؟

نظر ناثن في عيني النقيب وهو يقول: «أنا لا أستخدم ذلك الطريق، فاستخدامه الوحيد بالنسبة إليّ هو التوجه إلى المدينة».

حافظ الرقيب على التواصل البصري بينهما وهو يقول: «نعم، أنت محق، اسمع، يجب أن أعتذر أنني لم أستطع الحضور بالأمس، كيف كان أداء الشرطي الآخر؟».

تبادل ناثن وبوب نظرة خاطفة، ثم قال ناثن: «كان أداءه جيدًا».

قال ماكيئا: «لقد سمعت عنه العديد من الأشياء الجيدة».

وتحرك ماكيئا في عبوس في اتجاه السيارة الواقفة ومد يده إلى بابها.

- كنت أظن أن السيارة موصدة، هكذا أخبرني.

قال ناثن: «نعم، ولكنها كانت غير موصدة عندما وجدناها».

وسلمه ناثن المفتاح قائلًا: «هو من أغلق باب السيارة».

- لماذا؟

- تحسبًا لمرور أحد الجوار.

بدا على ماكيئا بعض السعادة بما حدث، ولكنه لم يقل شيئًا إضافيًا حول ذلك الأمر. وبينما كان يفتح باب السيارة، نظر الرقيب جليين في الداخل ثم بدأ بالبحث بدقة والتحقق من نفس الأماكن التي تحقق منها زميله من قبل، بالإضافة إلى إجراء المزيد من البحث في بعض الأماكن التي لم يفكر فيها الشرطي الآخر. ثم توقف مثلما فعل لودلو عندما شاهد الطعام والماء المقدس في مؤخرة السيارة. استطاع ناثن أن يشم رائحة الشطائر وثمار الفاكهة وقد بدأت تميل إلى التعفن. أغلق الرقيب الباب الخلفي بعد فحص مؤخرة السيارة.

- أعتقد أننا حصلنا على كل شيء، نحن في حاجة إليه لخدمة التحقيق، لديك الحق الآن في أن تأخذ السيارة وتذهب بها.

ظهرت أعراض الفزع على وجه زاندار.

- ألن تحتفظ بالسيارة، من أجل المزيد من التحقيقات، أو أي شيء من هذا القبيل؟

- لا يا صديقي، أنا آسف.

وهزَّ ماكيننا رأسه: «أنا بصراحة لا أعتقد أن ذلك سوف يفيد، ربما كان الأمر مفيدًا لو كنت طلبت من الرجال المختصين في المعمل الجنائي الحضور من المدينة وإجراء جميع الاختبارات الممكنة، ولكنني لا أستطيع فعل ذلك ولا يوجد سبب قوي يدعم هذا الطلب حيث لا توجد علامة على حدوث صراع أو مقاومة، لا يوجد شيء مكسور أو معطل والممتلكات الثمينة ما زالت في أماكنها ولم تسرق، أنا لست متأكدًا مما كان يدور داخل رأس عمك كامبيرون في ذلك اليوم ولكنه بالتأكيد لم يمت بداخل هذه السيارة».

ظل الجميع صامتًا لمدة دقيقة كاملة، كان الشريط الأصفر الذي يحيط بمقابض السيارة كمسرح للجريمة يطير بفعل هبوب الرياح.

ثم قال ماكيننا وهو ينظر إلى الرجال الأربعة: «حسنًا، ماذا نعلم حتى الآن عن الحادث؟».

- قال كامبيرون إنه سيتوجه إلى تل ليمان ولكن لسبب ما غير معروف غير رأيه، وقطع مسافة طويلة وشاقة بدءًا من هنا حتى المكان الذي انتهى به المطاف إليه عند قبر مربي الماشية. لا بد من أنه كان يعرف سابقًا، كيف سينتهي به الحال في هذا الوقت من العام، بعد السير على قدميه في العراء مع عدم توفر الماء.

- أريد أن أعرف التوقيت الذي ترك فيه المنزل يوم الأربعاء؟

أجاب هاري: «في قرابة الثامنة، لقد رأيته أنا وإلسي وواحد من العمال المؤقتين».

قال ماكيننا: «لقد تحدثت إلى ستيف في العيادة، إن الجثة محجوزة حتى إنهاء أعمال التشريح ولكنه يعتقد أن كامبيرون قد مات في يوم الخميس بمنصف النهار على أقصى تقدير وربما قبل ذلك بفترة قصيرة نظرًا إلى درجة حرارة الجو».

ثم نظر إلى بوب وقال بصوت لطيف: «أنت من أخبر الرقيب لودلو بأن كاميرون كان مضطرباً في الفترة الأخيرة ويعاني بعض الضغط العصبي، هل تعرف ما السبب في ذلك؟ هل تعرف ماذا كانت مشكلته يا صديقي؟».

- لا أعرف.

انتظر ماكيننا لبعض الوقت ولكن بوب لم يُضف المزيد.

تدخل هاري في الحوار: «انظر، إن كام كان ناجحاً ويجيد الإدارة ولكنه كان يحتفظ بداخل صدره بالأمر التي تزعجه ولا ينساها بسهولة، إن بوب محق، فخلال الأسابيع القليلة الماضية حدثت العديد من الأمور التي حاول أن يتجاهلها».

سأله ماكيننا: «مثل ماذا؟».

- أشياء بسيطة ولكنها أزعجته، مثل إصلاح البوابة الخارجية لحظيرة الماشية وغيرها من الأمور المشابهة.

سألهم ماكيننا: «لم يكن على خلاف مع أحد؟ ربما شخص ما في المدينة؟».

هز هاري وبوب رأسيهما بالنفي.

- ربما كان على خلاف مع أحدٍ منكما أو مع زوجته؟

اعتقد ناثن أنها تردداً بعض الشيء قبل أن يبادرا بالإجابة، ولكنهما عادا مرة أخرى لهز رأسيهما نافيين الأمر تماماً.

قال ماكيننا: «هل هذا نفي، أم عدم معرفة؟».

قال هاري: «إنه نفي»، في نفس الوقت الذي قال فيه بوب: «لا أعرف».

كان الرقيب ماكيننا ينظر إليهم - كل على حدة - نظرة تفرس مثلما ينظر المدرس إلى الطلبة في المدرسة. بدأ ناثن في ذلك الوقت يشعر ببعض الذنب، ولكنه لم ينجُ هو الآخر من نظرات ماكيننا المتفحصة، ولكنها كانت خاطفة وسريعة بالنسبة إليه. لم ينجُ من هذه النظرات سوى زاندار الذي كان يراقب الموقف في اهتمام ويولي تركيزاً بشكل خاص إلى هاري الذي لم يتوقف عن رمقه بنظرات فضولية.

قال ماكيننا مستخدماً جملاً قصيرة: «أعتقد، أنه لو رأى شخصاً ما السيارة فارغة وملقاة في العراء بهذا الشكل، لأبلغ عنها، هذا هو التصرف السليم».

ثم نظر إلى ناثان الذي حدَّق إليه بدوره بثبات، يعرف ناثان أنه لو لم ينظر بثبات إلى كل شخص عند ذكر ذلك الأمر في المستقبل، فستبقى عيناه مثبتتين في الأرض إلى الأبد ولن يجروا على النظر في عين أحد على الإطلاق. أخذ ماكيننا نفسًا عميقًا وقال: «على كل حال، لم يتصل أحد ويبلغ عن وجود السيارة، لذلك عليّ أن أفترض أنه لم يمر أحد بالجوار ويرها في هذا الوضع».

سأله زاندار: «هل تعتقد أن العم كام، ربما توقف من أجل مساعدة شخص ما، وقاده هذا إلى التورط في مشكلة. ربما كان سائحًا أو شخصًا آخر».

أجاب ماكيننا: «لا يجب أن نستبعد هذا الاحتمال، ولكن للأسف لم أسمع بمرور شخص ما في هذه المنطقة».

كان ناثان يعرف أنه من الصعب على شخص غريب أن يشقَّ طريقه عبر الصحراء دون معرفة سكانها المحليين بذلك، وخصوصًا أن معظم الطرق الصحراوية تغلق في فصل الصيف، ما عدا طريقين يُفتحان ويُغلقان على حسب الظروف. لا يوجد إلا خياران فقط أمام المسافر عبر طريقين يؤديان إلى مدينتين صغيرتين أُخريين في الاتجاه المعاكس مع فاصل يقدر بمئات الكيلومترات. لذلك يُرغم الجميع على التوقف في محطة ما خلال الرحلة للتزود بالوقود والطعام، السكان المحليون يميلون إلى معرفة كل شيء عن السيارات المارة في هذا الوقت من العام، لم يكن من السهل على الغرباء التحرك في الصحراء من دون أن يرصدهم أحد من السكان المحليين.

كان هذا رأي ناثان عن طبيعة وجود الغرباء، ولكنه يعتقد كذلك أن البعض يمكن أن يمر في الصحراء دون أن يشعر به أحد، ويعرف أن السرية أمر غير مستحيل.

قال ماكيننا: «وهل الأمور تسير على ما يرام في المزرعة؟».

أوما هاري برأسه.

فأضاف ماكيننا: «سوف أسألك سؤالًا ولا داعي للتظاهر بأنه سؤال عابر، يجب الإجابة عنه بدقة شديدة، هل الأسلحة النارية في المزرعة محفوظة بعناية؟».

قال هاري وقد ظهرت آثار حشجة بسيطة في صوته: «نعم، كل الأسلحة في مكانها، ومحفوظة بالشكل السليم».

- حسنًا، وأين المفتاح الخاص بخزانة الأسلحة؟ هل حُفِظَ في مكان آمن، لا بد أنه محفوظ مع الأوراق المهمة في مكان مؤمن، أليس كذلك؟ قال ماكينا هذه العبارة والكل يعلم أنها تؤدي إلى طريق مسدود، فكما هو معروف للجميع فإن مفاتيح خزانة الأسلحة معلقة في سلسلة معدنية على الباب الخلفي للمنزل. ولكن هاري فاجأ الجميع: «أنا أحملها معي».

نظر إليه ناثنان في دهشة.

- لقد كانت معلقة في سلسلة مفاتيحي منذ ثلاثة أسابيع.

نظر إليه ماكينا متسائلًا: «وما السبب الذي دفعك إلى حملها طوال ذلك الوقت؟».

قال هاري: «لا يوجد سبب لذلك، لقد احتجت إليها في أحد الأيام ولم أعدها إلى مكانها منذ ذلك الحين».

- ولم يطلبها كاميرون؟

- لم يكن كاميرون في حاجة إلى أن يطلبها، كان بإمكانه أخذها مني في أي وقت، ولكن الإجابة عن سؤالك ستكون بلا، كاميرون لم يطلبها مني ولم يأخذها.

- حسنًا.

عبس ماكينا وبدا كأنه على وشك أن يقول شيئًا إضافيًا، ولكنه تراجع ثم نظر إلى ناثنان بدلاً من ذلك: «وماذا عنك، هل حدث أي تغيير بخصوص الأسلحة النارية التي تملكها؟».

نظر ناثنان في عينيه بثبات وقال: «لا، لم يحدث تغيير ما زالت كما هي منذ آخر مرة تحدثنا عنها».

- حسنًا، وكيف تتعامل إلسي مع الأمر؟

شعر ناثنان بوخز صغير في قلبه عند سماع اسمها.

- إنها ليست في حالة جيدة.

- وماذا عن والدتك؟

- إنها ليست في حالة جيدة هي الأخرى.

- حسنًا، هذا متوقع، أرجو أن تخبروهما أنني سوف أتصل بهما، وماذا عنكم يا أصدقائي؟

وترددَ ماكيننا قبل أن يضيف: «كيف حالكم جميعًا، لا بد من أن الأمر صعب بالنسبة إليكم، وخصوصًا في هذا الوقت من العام فهناك الكثير من الضغوط من كثير من الجهات، هل أنتم بخير؟».

أدرك ناثنان السبب وراء هذا السؤال، إنه يطمئن ألا يفعل أحد منهم نفس المغامرة ويخرج للسير في اتجاه العدم. فتكلم لما وجد الجميع صامتًا: «نحن بخير، كما أعتقد، أنا أعني أننا بحال جيدة، كما هو متوقع بالنسبة إلى هذه الظروف الصعبة».

- حسنًا يا صديقي، يمكنكم الاتصال بي في أي وقت، أو الاتصال بستيف في العيادة لو كنتم في حاجة إلى أي شيء مهما كان تافهًا. أوماً الجميع برؤوسهم: «هذا شيء جيد».

ثم أشار ماكيننا إلى ناثنان وقال: «تعالَ معي، فإن لدي بعض الأشياء في السيارة أرغب في أن أريها لك».

تبعه ناثنان إلى أسفل المنحدر ووقف بجوار سيارة الشرطة، ومد ماكيننا يده إلى صندوق القفازات وفتحه ثم أخرج مجموعة من البطاقات.

- في مثل هذه الحالات يجب عليّ أن أقدم لكم هذا.

أخذ ناثنان البطاقات ونظر إليها، كانت البطاقات تحتوي على أرقام هاتفية ومواقع إلكترونية تخص جمعيات المساعدة في حالات الاكتئاب والمرض النفسي والوقاية من الانتحار وغيرها من جمعيات الصحة العقلية والمساعدة الاجتماعية.

نظر ناثنان إلى ماكيننا وبدت عليه علامات عدم الارتياح. سأله ناثنان: «هل هناك شيء آخر؟».

- اسمع يا صديقي، لا أريد أن أففز في الاستنتاجات، أما بشأن عدم تبليغ أحد عن وجود السيارة فأنا أعلم أنك... كل ما أريد قوله إن هناك جفوة بينك وبين المدينة منذ فترة طويلة.

- نعم، فأنا لا أملك الكثير من الخيارات بهذا الشأن، أليس كذلك؟

- حسنًا هذا ليس صحيحًا يا صديقي، فلديك الكثير من الخيارات، لقد كنت تذهب إلى المدينة وتثير العديد من المشكلات في السنوات السابقة، ولكنك اخترت أن تتوقف عن الذهاب إلى هناك وأنا أقدر ذلك بالفعل.

- أنا سعيد أن أحدهم قدّر موقفني.
- أنا أعلم أنك تأقلمت على الوضع الآن، ولم يعد هناك المزيد من المشكلات، ولكن في ضوء كل ما حدث، إن كنت تشعر أن الأمر يزداد سوءًا وتعتقد أنك قد...

ثم تراجع ماكيننا.

- تقصد أنني قد أفعل في نفسي مثلما فعل كام؟

- حسنًا، اسمعني حتى تسير الأمور على نحو جيد بالنسبة إليك، لو شعرت أن هناك شيئًا سيئًا يدور بداخلك، يجب أن تعلم أنه يمكنك القدوم إلى المدينة في أي وقت تشاء أو عند شعورك بالحاجة إلى ذلك.
- أوما ناثان برأسه، كان ماكيننا رجلًا طيبًا ولم يكن ما حدث في السابق خطأه، لم يكن خطأ أحد على الإطلاق. كان الخطأ كله يقع على عاتق ناثان. وكان ماكيننا منصفًا على قدر الإمكان بشأن تلك الأحداث. كان من الصعوبة على الرجل أن يكون هو الشرطي الوحيد في هذه الأنحاء، كان يحاول أن يقول كلمات طيبة لناثان بقدر المستطاع، حتى إنه حاول أن يبني الجسور مع ناثان ولكن لم يشكّل ذلك فرقًا ولم يكن ذلك خطأه كذلك.

قال ناثان: «أشكرك يا صديقي، أنا بخير على الرغم من كل شيء؟».

- حسنًا، لقد سمعت أن جهاز الإرسال الخاص بك كان مغلقًا عندما بدأ البحث عن كاميرون.

- وبالتالي.

- حسنًا، من المفترض أن نتحدث بهذا الشأن.

لم يُجب ناثان.

- هذه، لم تكن المرة الأولى التي تغلق جهاز الإرسال اللاسلكي الخاص بك.

- لم أكن أعلم أن هناك قانونًا يحتم أن يبقي المرء جهاز الإرسال الخاص به في وضع التشغيل.

- في مكان مثل هذا يجب أن يكون في وضع التشغيل، لا تتصنع مثل هذا الذكاء الملعون.

ثم أكمل ماكينا: «حسنًا، لا داعي لأن تشعر بالخجل إن أردت الصراخ أو طلب المساعدة، لا تتردد في ذلك».

- حسنًا، سوف أفعل.

بدا في تلك اللحظة أن الحديث بينهما قد انتهى، ولم يعد هناك المزيد لقوله. انتظر ناثان حتى عاد ماكينا إلى داخل سيارة الشرطة مرة أخرى وانطلق بها مبتعدًا. ثم وقف ناثان في مكانه يراقب السيارة وهي تبتعد حتى صارت نقطة صغيرة في الأفق، قبل أن يتسلق المنحدر صعودًا في اتجاه الآخرين.

سأل زاندار وهو ينظر إلى البطاقات في يد ناثان: «ما هذه؟».

فناولها ناثان إليهم، كانت عينا بوب تدوران حول نفسها، وهاري ينظر في الأفق بوجه خالٍ من التعبير كشأنه دائمًا الذي لا يتغير.

- لا بد من العودة إلى المنزل مرة أخرى على نفس الطريق الذي سلكه كام، ويجب أن نمر على قبر مربي الماشية مرة أخرى.

قال بوب: «لا يوجد شيء لرؤيته على هذا الطريق».

قال هاري: «لا يزال هناك شيء لم نره، هذا مؤكد».

ووضع البطاقات الخاصة بطلب المساعدة في جيبه كما لاحظ ناثان، وبدأ الجميع بالنظر إلى سيارة كاميرون.

سأل بوب بصوت عالٍ: «من يرغب في أن يعيدها إلى المنزل؟».

فسادت حالة من الصمت. فألقى ناثان نظرة تجاه زاندار، ثم قال: «حسنًا، نحن من سيفعل ذلك».

قال هاري وهو يتوجه إلى سيارته في أسفل المنحدر: «هذا أمر جيد ولكن ابقوا على مقربة في حالة كانت سيارة كام تعاني مشكلة ما في المحرك».

- لا داعي للقلق.

كان من الواضح أن كلاً منهم لا يصدق بوجود خطب في سيارة كاميرون.

بينما تبع بوب هاري إلى أسفل المنحدر في الطريق إلى السيارة، بدأ ناثان بفك أسرطة الشرطة التي تحيط بمقابض سيارة كاميرون واندفع إلى داخلها.

كان المقعد الخاص بالسائق ناعمًا، بدأ ناثان بتحريك الذراع الخاصة بضبط وضع المقعد وتحريكه إلى الأمام وإلى الخلف حتى يصل إلى الوضع

المريح والمناسب لحجم ومقاسات جسده، وعلى مسافة مناسبة من المكابح حتى يسهل عليه التعامل معها.

شعر ناثان أن حساسية المكابح غير مناسبة بالنسبة إليه، ربما لأنها اعتادت جسد أخيه الأخف في الوزن. عدل من وضع مرآة الرؤية الخلفية فظهرت عيناه في المرآة، بدت عيناه تشبهان عينيّ كام في المرآة فنظر إليهما ثم أشاح نظره بعيداً.

- هاري كان يعرف الطريق إلى هنا سابقاً.

بدا صوت زاندار هادئاً وهو يجلس في المقعد المجاور للسائق.

- ماذا؟

أوماً زاندار برأسه تجاه سيارة هاري: «في الطريق إلى هنا، عرف هاري المكان الصحيح للانعطاف عبر الصخور من أجل الوصول إلى سيارة العم كام».

- لأن بوب أخبره بذلك، لقد سمعته.

قال زاندار: «لا، إن بوب لم يَقُل شيئاً حتى بدأ هاري بالانعطاف بالفعل».

- لا.

حاول ناثان أن يتخيل الموقف في رأسه.

- لقد كان قبل أن ينعطف، أليس كذلك؟

لم يكن ناثان يعرف على وجه الدقة فقد كان هائماً في أفكاره الخاصة في تلك اللحظة.

- حسناً، لقد كان هاري يعرف مكان السيارة على كل حال، فقد أخبره بوب بذلك.

- نعم، أنا أعرف ذلك وكذلك أنا وأنت نعلم مكان السيارة، وما زلنا لا نعرف التجويف المناسب بالانعطاف من أجل الوصول إليها، حتى إننا بالأمس أخطأنا الطريق عندما كنا بصحبة الشرطي الآخر، فكيف عرفها العم هاري بهذه الدقة الشديدة؟

- لأنه يعرف هذه المنطقة كراحة يده، إنه يعلم كل شيء هنا، بدرجة أكبر من أي شخص آخر، لا بد من أنه كان يستطيع التخمين بسهولة.

في أسفل المنحدر زارت سيارة هاري عندما دار المحرك، هَزَّ ناثان رأسه وأدار مفاتيح كاميرون فعمل المحرك بشكل جيد كما حدث في اليوم السابق. بهدوء وضع قدمه على المكابح وبدأت السيارة تتحرك ببطء، خفف السرعة حتى يستطيع أن يسير خلف سيارة هاري وبوب التي كانت تسير في اتجاه المقبرة. التزم هاري بالسير بمحاذاة السياج وهو نفس المسار الذي اتبعوه بالأمس. كان بإمكان ناثان أن يلاحظ رأسي الرجلين يتحادثان في السيارة التي تسير أمامه ويحيط بهما الظلال.

قال ناثان: «لا بد من أنه وجد طريقة لمعرفة الطريق».

صمت زاندار لبعض الوقت. ثم قال في النهاية، وهو يتراجع إلى الخلف ويغوص في مقعده: «حسنًا، أنت محق، أعتذر إليك، فقد كانا يومين في غاية الغرابة».

- نعم، أنا أعرف.

بدأت سيارة هاري بالتقدم بمزيد من السرعة، فضغط ناثان على المكابح حتى يستطيع مواكبتها، ولكنه لم يعد يستطيع رؤية رأسي هاري وبوب يتحركان كما كان يحدث منذ قليل، ربما قالوا بالفعل كل ما يرغبان في قوله لبعضهما بعضًا.

راقب ناثان السيارة وهي تتبعد شيئًا فشيئًا وشعر بوخز خفيف وكأنه على وشك الإصابة بطفح جلدي لا يمكن التحكم فيه، لقد كانت الشكوك تتصاعد بداخله ولا يستطيع إخمادها. إنه العم هاري، إنه الرجل الذي يعرفه ناثان طوال حياته بشكل حرفي.

لو كان في إمكان أي شخص على الإطلاق تتبع الأثر وقراءة العلامات على ظهر الأرض فسوف يكون هاري، هل يمكن الشك فيه لأنه لأنّه خَمَّنَ صحيحًا، لم يعرف ناثان فيم يفكر ولكن شيئًا ما همس في أذنه بأن الصحراء ذات مساحة كبيرة جدًّا وكان تخمين هاري جيدًا ودقيقًا بشكل واضح، لا يمكن إنكاره.

الفصل العاشر

تعفن الطعام الخاص بكاميرون في مؤخرة السيارة فاضطر ناثنان إلى فتح شق صغير في الزجاج الأمامي لتتسرب الرائحة.

قال زاندار: «ربما من الأفضل أن نتخلص من هذا الطعام المتعفن».

كان ناثنان يفكر بوضوح في نفس الشيء، فقال: «نعم». ثم أوماً برأسه دون أن يتوقف بالسيارة.

الأطعمة الموجودة في مؤخرة السيارة، كان من المفترض أن تكون طوق النجاة لكاميرون من رحلة الصحراء، ولكن لسبب غامض لم يستخدمها.

بدا التخلص من تلك الأطعمة بهذه السرعة أمرًا في غاية التهور بالنسبة إلى ناثنان، بينما كان زاندار جالسًا بجانبه يراقب خيالي بوب وهاري اللذين يرتعشان في السيارة الأمامية. بدأ العبس يظهر على وجه ناثنان، لقد كان يثق بهاري بدرجة كبيرة، إنه يثق به بالفعل بلا حدود، لدرجة أنه يأتّمنه على حياته نفسها لو وصل الأمر إلى تلك الدرجة. ولكنه على الرغم من كل ذلك وجد نفسه وهو يراقب هاري -يتحدث إلى بوب- يعصر رأسه مفكرًا في هذه اللحظة عندما استدار هاري في المنعطف متجهًا إلى سيارة كاميرون. وفكر في الدقائق التي تمكن فيها جلين من رؤية سيارة كاميرون وهو في الطريق إلى أعلى التل، ثم قال زاندار على نحو مفاجئ: «لقد كانت السيارة مخفية بشكل جيد على كل حال».

- نعم، ولكن كل الأماكن هنا مخفية بشكل جيد ولا يسهل العثور عليها.
- كان من الممكن أن يتركها العم كام في منتصف الطريق في وضح النهار لتصبح هناك فرصة جيدة في العثور عليه، فما هي فرصة قدوم

شخص إلى هنا؟ هل هي مرة في الأسبوع، أم أنه لا يوجد غيرنا من يتجول في تلك الأنحاء في هذا الوقت من العام؟

- أعتقد ذلك.

قال زاندار: «أعتقد أن الأرض مسطحة هنا بما فيه الكفاية ولا تصلح لإخفاء شيء، ولو كان شخص يرغب في أن يخفي سيارته لاتجه بها ناحية الصخور، أليس كذلك؟».

ثم نظر حوله ناحية المساحات الشاسعة الخالية من الأراضي. وأضاف: «من سوء الحظ، عدم مرور أحد بالجوار طوال هذه المدة، ولكن لو كانت السيارة قد تعطلت يوم الثلاثاء في وقت متأخر لسبب ما، فمن المفترض أن يجد حلاً في يوم الأربعاء أو حتى يستطيع شخص ما الوصول إليه في الوقت الملائم».

لم يُجب ناثنان، ولكنه كان يعلم أن زاندار محق، لو عُثِرَ على السيارة في وقت أسرع ربما انتبه الجميع لما يحدث، وانطلقت المساعدات في الوقت المناسب لإنقاذه.

بدأت الأفكار تتسارع في رأس ناثنان على الرغم من أنه حاول مساومتها في البداية، ولكنه لم يستطع أن يبعدها عن رأسه لوقت طويل، وبدأ يتخيل تعرضه هو نفسه لظروف مشابهة، لو وجدت سيارته مهجورة في العراء وهو متورط في مشكلة أو أصبح في عداد المفقودين. هل سيبلغ أحد السكان المحليين عن الحادث، أم أن جميع هؤلاء الأشخاص سيديرون ظهورهم إليه كما يفعلون الآن ولن يحدث فرق وقتها؟ هل سيهتم أحدهم به أم أن الأمر لن يعني أحداً؟ لم يستطع ببساطة أن يعرف ذلك.

لم يكن الأمر بسبب إلسي على كل حال، ولم يكن خطأها بأي شكل من الأشكال، ولكن ناثنان لم يكن ليتجه إلى المدينة في ذلك اليوم إلا لرغبته الملحة في رؤيتها. لقد كانت تلك زيارته الثالثة على التوالي خلال العطلة الأسبوعية إلى البار الموجود في المدينة، كان عليه أن يتوقف عن التظاهر بأنه يتجه إلى المدينة لقضاء أمر مهم يخص العمل، يجعل الرحلة تستحق العناء كأمر ضروري لا يمكن تأجيله.

في زيارته الثانية وجد نفسه جالساً أمام إلسي على الجانب الآخر من البار في مواجهة بعضهما بعضاً ثم وجد نفسه يحكي لها عن طلاقه المُر وعن ابنه

الذي يعيش بعيدًا عنه بمسافة مئة وخمسة عشر كيلومترًا، وفي المقابل بدأت تحكي له كيف اضطرت إلى تأجيل دراستها للحصول على وظيفة بدوام كامل عندما أصيبت والدتها بمرض السرطان وشخص المرض على أنه في المراحل النهائية وأخبرته كذلك عن خطبتها وكيف شكلت تلك المرحلة الصعبة في حياتها وحياة والدتها المحتضرة عبئًا كبيرًا بالنسبة إليه، لم تستطع تحمله، وبحلول الوقت الذي توفيت فيه والدتها كانت خطبتها كذلك قد انتهت.

تناولا كأسين أخريين من الشراب، وفجأة أدرك ناثان أنها بيتسمان ويتبادلان الضحكات، على الرغم من كل المآسي التي كانت تملأ أحاديثهما لم يكونا يضحكان بسبب الأحداث العصبية التي مرت بهما، ولكنهما كانا يضحكان بسبب أشياء أخرى، أشياء صغيرة يجعل حدوثها الحياة محتملة.

لم يكن باستطاعة ناثان التوقف عن التحديق إليها، كان يحب شكلها ويحب الطريقة التي تنتظر بها إليه، أخبرها عن الكئيبان الرملية فابتسمت وقالت له إنها ستحب أن تذهب معه إلى هناك في يوم من الأيام.

وفي وقت زيارته الثالثة انتظر حتى ميعاد الإغلاق ثم ساعدها على أن تغلق المكان، وبعد أن انتهى مدت يدها ولمست يديه. كان الطريق خاليًا في كل اتجاه لذلك تركته يقودها عبر الشوارع بعيدًا عن الإضاءة حتى يتمكن من رؤية النجوم الليلية وهي تضوي بشكل أكثر وضوحًا. وكما كان يأمل منذ بداية الليلة استطاع أن يقودها إلى ركن مظلم، ويدفعها إلى ركن سيارته ذات الدفع الرباعي، ويضع شفاهه أمام شفاهها الساخنة في قبلة حميمية دافئة. ثم بمزيج مثير من البهجة وعدم التصديق فتح مؤخرة سيارته حيث ينتظر كيس النوم الناعم ملفوفًا ومتأهبًا للاستخدام.

كان جلدنا ناعمًا وشديد الحرارة، احتضنها بقوة وأخذ يستمع لوقع أنفاسها المتسارعة في تناغم، كانت النجوم في الأعلى تطل عليهما بضوئها الساطع من خلال زجاج النافذة الملبد بالغيبار.

وبعد أن انتهى استلقى بجوارها وهو ينظر إليها، وفتح باب السيارة حتى يسمح للنسيم العليل أن يتسرب إلى الداخل، ثم رفس بقدمه كيس النوم ليدفعه جانبًا، فابتسمت ابتسامة ساحرة برزت خلالها أسنانها البيضاء في الظلام.

- ماذا؟

- لا شيء، كنت فقط أريد أن أخبرك أنه شعور...

حاول أن يفكر في الكلمة التي يقولها ويختارها بعناية: «رائع، خلاب، محفز». ولكنه اختار أن يقول: «عظيم».

كانت تلك هي المرة الأولى التي يمارس فيها الحب منذ أن رحلت جاكى. ولكن الأمر لم يكن يقتصر على المتعة الجنسية، لقد أحس بشعور لم ينتبه له منذ سنوات طويلة.

- لقد كان عظيمًا جدًا.

ضحكت وهي تقول: «أشكر».

مر بيده على جسدها: «إدًا، ماذا سيحدث الآن؟».

قالت وهي تبتسم مرة أخرى: «أنا متأكدة أن هذا هو الجزء الذي سوف تختفي فيه مع شروق الشمس، ولن أراك مرة أخرى وفقًا لما هو مكتوب في دليل الرحالة».

في هذه اللحظة جاء الدور عليه لأن يبادر بالضحك وهو يقول: «هذا محال». ثم جذبها إليه حتى اقتربت لدرجة أن شعر بنعومة ملمس جلدها وهي تتقلب فوق صدره، «لن يحدث ذلك مطلقًا».

لقد كانت محقة وكان هو على خطأ، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن يعني ما يقوله في ذلك الوقت.

قال زاندار فجأة وهو يميل إلى الأمام في مكانه على المقعد المجاور للسائق: «لماذا يتوقفان هنا؟».

فاستفاق ناثن وعاد إلى الواقع مرة أخرى. كانت أمامهما سيارة هاري تُهدئ من سرعتها وتتجه إلى الوقوف بجوار السياج، بينما كانت المسافة بينهم وبين مقبرة مربى الماشية لا تزال بعيدة بدرجة كبيرة. لم يكونوا بالقرب من أي مكان يمكن لناثن أن يميزه بعلامة محددة. شاهد هاري يقفز من السيارة بينما محركها لا يزال دائرًا، ويتكئ على ركبته ناظرًا إلى الأرض المعفرة بالغبار والأتربة، ويمد يده ليلمسها بأصابعه بين اللحظة والأخرى.

سأل زاندار: «ما الذي يحدث؟».

قال ناثن: «لا أعرف».

ثم أخفض زجاج النافذة المجاور له وصاح: «هاري، ماذا تفعل؟».

- أنا أبحث.

- عن ماذا؟

- أي شيء.

قال الشرطي القادم من سانت هيلين نفس العبارة، لم يكن ليجد شيئاً مفيداً على كل حال، ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى هاري، فمع هاري هناك فرصة كبيرة أن يؤدي الأمر لشيء ذي قيمة.

أغلق ناتان النافذة المجاورة له، وقال لزاندان في تعجب: «إنه يبحث، لقد سمعته بنفسك».

أرعى زاندان ظهره على المقعد وعاد إلى الوراء، ومرت عدة دقائق وهاري في مكانه يبحث عن شيء ما حتى عاد أخيراً إلى السيارة من جديد، وتحركوا في طريقهم.

تركته إلسي مباشرة بعد الفجر، سكان المدينة ينهضون مبكراً سواء كانوا يسكنون في وسط المدينة أو على أطرافها، لذلك قامت إلسي مبكراً وقبّلته ثم أغلقت أزرار قميصها.

قال ناتان موجهاً إليها الحديث: «سوف أوصلك إلى المنزل».

قالت: «لا داعي لذلك». وأشارت إلى الحي السكني المجاور للبار وقالت: «أنا أسكن هنا».

قال ناتان: «إنه قريب جداً، كان يمكننا الذهاب إلى هناك».

قفزت من السيارة في مرح وهي تقول بابتسامة عذبة: «وما العيب في السيارة؟ ألم تحصل على القدر الكافي من المتعة هنا؟».

- لا، لقد استمتعت كثيراً.

- أنا كذلك.

ظل يطلق الصفير بين شفتيه وهو يراقبها تبتعد، ثم عدل من قميصه وظلت الابتسامة عالقة على وجهه طوال النهار لم تغادره بينما كان يتحرك في المدينة منجزاً الأعمال التي حضر من أجلها.

وبحلول الوقت الذي أوشك فيه على الانتهاء من كل شيء، اتجه إلى محطة الخدمة ليملاً السيارة بالوقود قبل التحرك في طريق العودة إلى المنزل. عندما

توقفت سيارة بجانبه، وضع ناثنان يده على سقف سيارته ذات الدفع الرباعي، شعر بابتسامته تبهت للمرة الأولى خلال اليوم.

حافظ ناثنان على نظره موجهاً إلى الأسفل بينما فتح باب السيارة وخرج منها والد زوجته - والد زوجته السابقة - ووقف بجوار سيارته. من طرف عينه ظن ناثنان أنه رأى كيث واكر يقف متردداً لفترة قصيرة، كانت الأفكار تتسارع في رأسه على ما يبدو.

كانت هناك مضختان للوقود في المحطة وكان ناثنان بالفعل يستعمل إحدهما، ولذلك لم يكن لدى كيث اختيار إذا كان يرغب في ملء سيارته بالوقود على أن يستخدم المضخة الأخرى.

- ناثنان.

- طاب يومك يا كيث.

ركز ناثنان بصره على المضخة مقررًا أن يملأ سيارته بالوقود ويبتعد، قبل أن يحدث أي شيء.

نظر إليه كيث قائلاً: «لقد تحدثت إلى جاكى بالأمس».

أخذ ناثنان ينظر إلى الأرقام الموجودة على العداد الخاص بمضخة الوقود.

- أوه، حسنًا.

ولم يسأله عن شيء آخر.

- انظر، لقد استشارت المحامي الخاص بها وطلبت منه أن يتراجع.

- حسنًا.

- ناثنان، كن منطقيًا في طلباتك، فهذا القدر من التواصل والزيارات والمكالمات كثير جدًا لطفل في عمر زاندار.

- المحامي الخاص بي يظن أنها طلبات منطقية جدًا وعادلة ولا تخرج عن المألوف.

- نعم، إن هذا صحيح بالنسبة إلى شخصين منفصلين ولكنهما يعيشان بالقرب من بعضهما بعضًا، ولكن هذه الطلبات مبالغ فيها بالنظر إلى بُعد المسافة بين مكان إقامتهما.

- هي التي رحلت إلى هناك، أنا لم أبرح مكاني.

ثم أغلق ناثان فمه وسكت، ثم فتحه مجددًا وهو يقول: «على كل حال، أظن أنك تشعر بالسعادة لوجود زاندار بالقرب منك».

كان كيث يملك أربع مزارع كبيرة مما جعله واحدًا من أكثر الناس ثراءً في تلك المنطقة وفي كثير من الأحيان عندما تكون أرباح العام جيدة بالنسبة إليه كان يتذيل قائمة الأثرياء في المدينة.

هَزَّ كيث رأسه وقال وفمه تقريبًا مطبق: «أرى أنا وجاكي أن يظل زاندار في بريسبان طوال الوقت، ولا داعي لخروجه إلى أي مكان آخر».

- ولكنني والده يا كيث.

أصدرت المضخة صوتًا معدنيًا معلنًا عن امتلاء خزان الوقود.

- ومن أجل هذا السبب اللعين، يجب عليه أن يخرج من هنا.

نظر ناثان للمرة الأولى إلى والد زوجته السابقة متفحصًا، كان الرجل شاحبًا بعض الشيء ويبدو عليه أعراض التعب والانزعاج، ربما كان مستيقظًا طوال الليل يحصي أمواله، هذا ما فكر فيه ناثان وهو متجهٌ إلى داخل محطة الخدمة ليدفع ثمن الوقود للمحصل من خلال النافذة.

استطاع ناثان في أثناء حركته ملاحظة أن كيث ما زال يراقبه، ولم يكن يعرف ما هو الشيء المتعلق به، الذي يجعل شخصًا ما يكرهه لهذه الدرجة، لم يكن كيث متوافقًا مع والد ناثان وهذا أمر اعتيادي بالنسبة إلى والده الذي لم يكن ناثان نفسه على توافق معه.

كما أن كيث كان يتعامل مع ناثان بود في بداية علاقته مع جاكي، ولكن ناثان على الرغم من ذلك كان يعتقد بأن كيث يحاول أن يمسك لسانه عن الاعتراض على تلك العلاقة منتظرًا أن تخمد جذوة الرومانسية المشتعلة بينهما بشكل تلقائي ويفترقا دون أن يضطر إلى التدخل. ولكن الأمور ساءت بينهما مباشرة مع تطور علاقته بجاكي حتى إنه باقتراب موعد الزفاف المحدد بينهما لم يعد ناثان وكيث يتحدثان إلى بعضهما بعضًا إلا في النادر.

حاول كيث أن يقنع جاكي أن تتراجع عن هذه الزيجة عدة مرات، وقد عرف ناثان هذه المعلومة في وقت لاحق عندما سمع جاكي تصرخ في والدها عبر الغرفة بأن الزفاف سيتم في مواعده سواء وافق على ذلك أو لم يوافق، وبعد هذا اقتطع كيث جزءًا من مزرعته المفضلة كعرض للسلام وهو الجزء الملاصق لأفضل قطعة أرض تملكها عائلته، وقدمها كهدية للعروسين

الجديدين وقال لهما اعتبراهما موطناً قدم لكما، وأضاف شارحاً أنه ينتظر أن ينميا قطعة الأرض ويحسنا استثمارها، يمكنه أن يبيع لهما المزيد من الأراضي بمرور الوقت.

كان لدى ناثن العديد من الشكوك والمخاوف بخصوص تلك القطعة من الأرض القريبة من السياج، التي كان يعتبرها سيئة للزراعة من وجهة نظره، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن مخاوفه وشكوكه لأن جاكى شعرت بسعادة غامرة وصرخت بصوت عالٍ من فرط فرحتها. شجعت جاكى على أن يوجه كل اهتمامه ويجمع موارده في خدمة هذه الأرض وأن يولي لها عناية خاصة لتصبح نواة لمزرعتها العائلية في المستقبل. لذلك اضطر ناثن إلى أن يتجه إلى الثلث الذي ورثه عند وفاة والده من مزرعة «بيبرلي داونز» وبيع نصفه إلى أخيه كاميرون.

ابتلعت ملكيته الجديدة النقود بسرعة أكبر مما يمكنه أن يدركه، لم تستطع جاكى أن تفهم ما يحدث فشجعت على أن يبيع باقي حصته من الميراث ويستثمر المزيد من النقود في الملكية الجديدة ويحاول بجدية أكبر أن ينجح الأمر. كانت ترى أن أباهما استطاع أن يربح الكثير من الأموال من الاستثمار في هذه الأرض فلماذا يفشل ناثن في ذلك، رفض ناثن أن يبيع كامل حصته من الميراث فدبّ الخلاف بينهما وكان هذا أول خلاف كبير ينشب بينهما بعد أن أصبحا زوجين.

ذهبت جاكى لتقضي عدة أيام في منزل والديها وعندما عادت لم تستطع ناثن تمالك نفسه وأبدى بعصبية رأيه بخصوص الأرض التي أعطاهما إياها كيث، بأنها عديمة القيمة وكانت هذه ثاني أكبر معركة بينهما من بعد الزواج. عادت جاكى إلى سيارتها مباشرة وانطلقت إلى منزل والديها بهدف البقاء هناك لعدة أيام أخرى، وفي تلك اللحظة بينما ناثن يشاهدها تقود مبتعدة خطر على باله أن كيث تعمد أن يمنحهما تلك القطعة الخربة من الأرض ليوقع المشكلات بينهما، وهذه كانت خطته منذ البداية.

في تلك اللحظة داست السيارة فوق قطعة صخرية كبيرة فأدرك ناثن أن عليه التركيز في الطريق، كانت الأرض غير مستوية، وكذلك كانت القيادة في سيارة كاميرون غير مألوفة بالنسبة إليه، وكان آخر ما يحتاجه في هذا اليوم العصيب هو أن يجد نفسه غائراً في حفرة رملية.

كانت سيارة هاري التي تسبقهما تهديء من سرعتها مرة أخرى، لقد توقَّف هاري بالفعل مرتين على طول الرحلة ونزل من سيارته ليفحص الأرض بالقرب من السياج وتجول في دوائر صغيرة لينظر حوله في الأثناء متلفتًا. سأله زاندار عندما بدأ قبر مربّي الماشية يلوح في الأفق: «ما الذي يتوقع هاري أن يجده عند القبر؟».

أجاب ناثنان: «لا أعرف، لكنه يعرف كام منذ كان طفلاً صغيرًا، ربما يريد أن يشاهد المكان بنفسه».

بدا عدم الاقتناع على وجه زاندار وهو يقول: «ربما».

شعر ناثنان بافتقاد زاندار بدرجة أكبر مما كان يتوقع عندما رحلت جاكى بشكل نهائي إلى الأبد، كانت تهدده بالرحيل منذ مدة طويلة وشعر بارتياح شديد عندما نفذت تهديدها. كانت تشعر باستياء شديد بسبب العديد من الأشياء، ناثنان كان زوجًا سيئًا وراعياً سيئاً لأسرته وأصرت هي على إخباره بذلك طوال الوقت. ظن ناثنان أنه سيشعر بالسعادة عندما توليه ظهرها وترحل، ولكنه لم يكن يتوقع أن يشعر بكل هذا الحزن بسبب غياب زاندار عنه. لذلك وجد ناثنان نفسه يتطلع إلى الصور القديمة وينظر إلى وجه زاندار المبتسم، ينظر إلى يده الصغيرة، وشعره الناعم الغزير المموج تمويجًا بسيطًا. حتى إن ناثنان افتقد صوت بكاء ابنه في منتصف الليل الذي يشبه صوت محرك السيارة عند مرحلة الإحماء.

عندما كان زاندار طفلاً صغيرًا، اعتاد ناثنان أن يجلس بجوار فراشه ويعزف على الجيتار بنعومة وقد كان ذلك واحدًا من الأشياء القليلة التي تهب الطفل الراحة والهدوء ولكن جاكى كانت تجد في ذلك الأمر إزعاجًا كبيرًا ولا تعتبره سلوكًا جيدًا، وهو ما فاجأ ناثنان بشدة. لم يكن ناثنان يحب الدخول معها في صراع أو مناقشة في وجود الطفل زاندار، لم يكن ذنب الطفل أنهما غير متوافقين، ولم يكن ذنبها هي الأخرى كذلك على كل حال. عندما كان ناثنان يعترف بذلك لنفسه في أكثر لحظاته صدقًا مع نفسه.

لقد أمضيا مع بعضهما بعضًا سنوات قليلة ولكنها صعبة، لقد كانا متزوجين ولكنهما منفصلان في نفس الوقت. منذ أن رحلت جاكى وناثنان يشعر ببعض السعادة في كثير من الأيام بسبب غيابها. فمثلًا كان بإمكانه أن يصحو في مؤخرة سيارته وبجانبه فتاة هولندية جميلة تعمل في البار، ولكنه على الرغم من ذلك كان دائمًا ما يفتقد زاندار وكان الافتقاد موجهًا.

كان ناثنان يتساءل كثيرًا، عن الأشياء التي من الممكن حدوثها في ذلك اليوم لو تجاهل كيث في محطة الخدمة وانطلق بسيارته مباشرة إلى المنزل. كان من الممكن في تلك الليلة أن يصافح والد زوجته بحماسة أو حتى يلكمه بقوة في وجهه وتسير الأمور على الرغم من ذلك على نحو طيب على المدى البعيد -على الأقل مما آلت إليه فيما بعد- ولكن كل ذلك لم يحدث. فنناثنان لم يفعل شيئًا من هذين الأمرين، واكتفى بالتوجه إلى الشباك من أجل دفع ثمن الوقود، وما إن انتهى من ذلك حتى ناداه كيث بصوت عالٍ عبر الساحة: «فلتعلم يا ناثنان، سأدفع أنا وجاكي مبالغ طائلة للمحامي حتى نكسب القضية».

وقف ناثنان في منتصف الطريق على بُعد أمتار من سيارته.

- هذا هراء.

- لا، إنها الحقيقة.

غَيَّرَ ناثنان اتجاهه وعاد مرة أخرى إلى كيث واقترب منه قائلاً: «أنا أعرف أن ما تقوله حقيقي، ولكن الهراء هو ما تفعله بإقحام أنفك اللعين في كل شيء».

- نحن نشعر بأنك عديم المسؤولية.

- أنا؟

- ونريد أن نطمئن على أن جاكي لديها ممثل قانوني جيد وكذلك زاندار.

- إن زاندار على ما يرام ولا حاجة إليه في الحصول على مساعدتك، كل ما يحتاج الفتى إليه هو أن يقابل والده بين الحين والآخر، هذا كل ما

يريده.

- ناثنان.

- لو لم تكن ابنتك اللعينة...

قال كيث بصوت عالٍ حتى انقطعت أنفاسه: «انتبه إلى ألفاظك جيدًا».

فرد ناثنان: «لا، عليك أنت أن تنتبه إلى ألفاظك، لو تمت الأمور بالطريقة

التي تريدها ابنتك اللعينة فلن أراه على الإطلاق».

لم يجب كيث عن اتهامات ناثنان ولكن الإجابة ظهرت على وجهه بوضوح،

كانت تعبيرات وجهه تصيح بصوت عالٍ وواضح في اعتراف مثالي بما سوف

يحدث. شعر ناثنان بدفعة هائلة من الخوف تتسرب إليه، فقد كان يتوقع أن

ينفي كيث الاتهام وأن يضمن له الرعاية المشتركة على ابنه الصغير. ولكنه تأكد أن المفاوضات بينهم لن تصل أبدًا إلى ذلك الحد، رغبتهم هي أن يبعده عن زاندار بشكل نهائي.

هل بإمكانهم فعل ذلك؟ تساءل زاندار وملأه الشك والهلع لأن كيث لديه من الإمكانيات المادية ما يؤهله لذلك.

تقدم ناثن خطوة إضافية ورفع إصبعه مشيرًا إلى والد زوجته السابقة، ولاحظ في ذلك الوقت بطرف عينيه كيلى العاملة في محطة الخدمة تراقب ما يحدث بينهما عبر النافذة. وسوف تشهد لاحقًا أن ناثن كان عنيفًا في هذه اللحظة، ولكن الحقيقة أنه لم يكن كذلك.

قال ناثن بصوت حاول أن يحافظ عليه هادئًا وناعمًا قدر المستطاع: «كيث، يا صديقي، يجب أن تستمع إلى ما أقول بشكل جيد، لأنه سيكون أصدق شيء ستسمعه طوال العام. ربما كان بإمكانك شراء أو بيع كل الأبقار اللعينة في هذه المنطقة ولكن لن يمكنك أبدًا أن تبعدني عن زاندار مهما حاولت».

- ولكن هذه رغبة جاكى.

- هذا من سوء حظها، يجب عليها أن تتقبل هذا الوضع.

هز كيث مفاتيحه ربما كان ذلك إشارة إلى شعوره بالعصبية.

- هذا صحيح إن لم أتدخل أنا لمساعدتها. ربما لو لم تكن زوجًا سيئًا وأبًا فاشلاً ما كنت وجدت نفسك في مثل هذا الموقف منذ البداية.

- يا صديقي، لا يوجد شيء في هذا العالم يمكنه أن يجعل تلك المرأة سعيدة، ربما لو لم تكن دائمًا ما تصطاد أذنها وتخبرها بأنني زوج سيئٌ لدرجة لا يمكن إصلاحها، أما تركت المنزل من البداية.

- هل تظن حقًا، أن كل هذا خطئي يا ناثن؟ هل تظن أنها عادت إلى رشدنا بسببي؟ هذا غير صحيح على الإطلاق، لقد منحتك فرصة، لقد منحتك تلك القطعة من الأرض وذلك أقصى ما في وسعي.

ضحك ناثن: «نعم، استمر في قول ذلك حتى تبرئ نفسك، أنت تعلم جيدًا أن تلك القطعة البائسة من الأرض لم تكن من ورائها فائدة، ولم تكن لدي فرصة على الإطلاق في أن أزرعها وأستثمرها، لقد خططت منذ البداية لكي أفضل وأردت جاكى أن تشاهد ذلك الفشل بعينها حتى تحقق مرادك،

وقد نجحت في ذلك، ولكنك لن تنجح في تحقيق رغبتك عندما يتعلق الأمر بزاندان».

- سوف نرى.

- هل ستكون سعيدًا بالفعل لو تخليتُ عن الطفل؟ هل تظن أن ذلك سيكون أفضل بالنسبة إليه؟

- لكي أكون صادقًا معك فهذا هو اعتقادي، أنا لا أظن أن جاكى وزاندان يجب أن تكون لهما علاقة بشخص مثلك على الإطلاق.

- لماذا؟

شعر ناثن بشعور شديد بالفضول تفوق على شعوره بالغضب.

- ما الذي تحمله ضدي؟ ما الشيء الذي تظن أنه يجعلني سيئًا لذلك الحد؟ أنت لم تكلف نفسك عناء محاولة التعرف عليّ مطلقًا يا كيث.

قال كيث: «أنا أعرف الرجال من أمثالك، فقد عشت طوال عمري في تلك المناطق النائية، وأعرف الرجال من أمثالك وأعرف ما الذي يفعلونه».

- وما المفترض أن تعنيه بذلك؟

اتجه كيث إلى سيارته وفتح الباب وهو يقول: «هذه إضاعة للوقت، لن أتورط معك في هذا الحديث».

- انتظر، ما الذي تعنيه بذلك؟ هل تقصد أبي بحديثك؟

- على سبيل المثال.

صاح ناثن: «لا، توقف».

ووضع يده أمام مقبض السيارة ومنع كيث من الركوب بداخلها، كان ناثن يفوق كيث في الحجم بدرجة كبيرة وواضحة.

- هذا ليس صحيحًا.

- هل أنت واثق بهذا؟

نظر كيث بحدة إلى ذراع ناثن حتى أنزلها ببطء. ثم فتح باب السيارة وصعد إلى الداخل، وأنزل زجاج النافذة إلى الأسفل.

- لا تحاول أن تتصل بجاكي بعد اليوم، يجب أن يتم كل التواصل بينكما عبر المحامين.

- بحق المسيح يا كيث.

انحنى ناثنان إلى الأمام، وأدخل رأسه من نافذة السيارة، سوف تتذكر كيلى ذلك لاحقاً لأنها شاهدته من مكانها خلف المنضدة التي تقع وراء النافذة في محطة الخدمة.

- هذه الأمور بيني وبين جاكى، ابتعد أنت وأموالك اللعينة عنا، لا أريدك أن تعبت بعائلتي مرة أخرى.

قال كيث وهو يضحك بصوت مرتفع: «لا، ناثنان ربما يجب عليك أنت أن تسمع جيداً، سوف أستمر بتحرير الشيكات للمحامين مهما تطلَّب الأمر، جاكى وزاندار ليسا عائلتك، إنهما عائلتي وأنا وسوف أحرص على أن أراهما جيداً، من الأفضل أن تستوعب كلامي جيداً. فأنا لا أهتم مطلقاً برغباتك اللعينة، كل ما يهمني هو ما تريده جاكى وما أريده أنا».

- ابتعد عن عائلتي ولا تقترب منهما مجدداً أيها اللعين.

كان في إمكان ناثنان في تلك اللحظة أن يمد يده عبر نافذة السيارة ويكسر أنف الرجل، ما زال ناثنان يتساءل حتى هذا اليوم إن كان يجب عليه فعل ذلك. ربما مرَّ ذلك الأمر بسهولة ونسي سريعاً، على الأقل أسرع مما حدث فيما بعد، ولكنه لسبب ما في منتصف الأحداث تذكر إلسي بشكل مفاجئ وتدقق سحر الليلة السابقة الذي غمره بسبب كيث والمشاحنة التي حدثت بينهما. وبسرعة أصبح هذا الرجل الجالس أمامه في السيارة أقل أهمية، ولا يستطيع بكل أمواله أن يسلبه سعادته.

سحب ناثنان نفساً طويلاً وعميقاً ودون أن يضيف كلمة واحدة وصل إلى مستوى عالٍ من ضبط النفس لم يصل إليه سابقاً طوال حياته، واتجه إلى سيارته وبداخله الرغبة في أن يقودها مبتعداً.

أوقف ناثنان سيارته على مسافة من قبر مربى الماشية، أكبر من المسافة التي توقفت عليها سيارة هاري، بدت المقبرة وكأنها تشعر بالوحدة بشكل أكبر مما كانت عليه في الليلة السابقة.

خرج بوب من السيارة في نفس اللحظة التي وصلت بها سيارة ناثنان واتبع هاري إلى شاهد القبر. وقف بوب وهاري جنباً إلى جنب ولاحظ ناثنان أن الرياح والأتربة قد أعادت الأرض إلى وضعها الأصلي كما كان يتوقع في البداية.

كان من الصعب على أحد أن يتخيل أن كاميرون كان يرقد في هذا المكان، ظل ناثن يراقبهما من خلف الزجاج الأمامي لسيارته، قال بوب شيئاً ما، فظهرت حالة من التجهم على وجه هاري ثم اختفت سريعاً.

التفت ناثن إلى زاندار: «هل تريد أن تغادر السيارة؟».

قال زاندار: «لا».

كان زاندار يجول ببصره في المكان في كل الاتجاهات متجنباً النظر إلى المكان الذي كان كاميرون يرقد فيه.

- هل تريد أنت؟

- لا.

جلسا في مكانهما بالداخل بينما تدفقت إليهما رائحة الطعام المتعفن من مؤخرة السيارة.

كان في إمكان ناثن أن يلمح سيارة الدفع الرباعي باهظة الثمن على مسافة أميال عديدة، غادر محطة الخدمة وهو يمسك مقبض سيارته بكلتا يديه وكلمات كيث القاسية تطن داخل أذنيه. شعر ناثن وقتها بأن ما حدث مع إلسي مر عليه وقتٌ طويلٌ جداً، وتدفق إليه شعورٌ بالحرارة وبآلام في أنحاء جسده. كان يخطط في البداية أن يقود السيارة مباشرة إلى المنزل، ولكنه شعر بالتعب بسبب قلة نومه في الليلة السابقة وهو ما يعتبر نذير شؤم قبل الخروج على الطريق الرئيسي.

توقف عند محل المخبوزات واشترى بعض القهوة، ما زال يشعر بالتعب بينما يجلس في سيارته يشربها ويفكر في سبب معاناته من قلة النوم فعادت الابتسامة مرة أخرى للظهور على وجهه. بعدها بعشرين دقيقة قاد سيارته متوجهاً إلى الطريق الرئيسي. وبعد أن خرج من المدينة بنصف ساعة شاهد سيارة فارهة ذات موتور دفع رباعي تقف بزاوية مائلة على طريق جانبي مصنوع من الحصى، لم تكن السيارة الفارهة مصطفة بشكل جيد، فنصفها على الطريق ونصفها فوق الحصى. كان ناثن يعرف هذه السيارة جيداً. بعد ذلك لمح ناثن جسداً يتدلى من مقدمة السيارة. في تلك اللحظة أدرك أن أمامه ثلاث أو أربع دقائق قبل أن يتخذ قراره النهائي بخصوص ما شاهده. لم يكن الأمر وليد اللحظة فقد استغرق ما يلزمه من الوقت في التفكير مما زاد الموقف سوءاً فيما بعد.

في كلتا الحالتين كانت النتيجة واحدة، لقد شاهد ناثنان سيارة كيث متوقفة خارج الطريق ثم رأى كيث يتدلى خارجها، لَوَّحَ له كيث بذراعه طالبًا المساعدة، قبل أن ينزل يده في يأس وتظهر على وجهه خيبة أمل عميقة، فقد أدرك كيث أن ناثنان هو قائد السيارة المارة بالجوار. لَوَّحَ كيث في الهواء مرة أخرى، كانت إحدى ذراعيه خارج السيارة ترفرف في الهواء والذراع الأخرى متجهة إلى الأسفل في داخل السيارة في اتجاه صندوق القفازات حيث كان يحتفظ بأمواله.

لمست قدم ناثنان مكابح الفرامل بخفة ودون أن يسمح لنفسه في التفكير في الأمر أزاح قدمه عن مكابح الفرامل مرة أخرى. أخذ ناثنان يتخيل في تلك اللحظة زاندار جالسًا هناك على مسافة أميال كثيرة بعيدًا عنه، شعر وقتها بثقب في صدره واندفع الدم إلى رأسه بقوة. وفي مكان ما بداخله تحت كل هذه المشاعر المتدفقة سمع صوت كيث وهو يقول: «لا تقترب مني أو من عائلتي مرة أخرى».

- حسنًا يا صديق، سوف أنفذ رغبتك.

ومرَّ ناثنان بسيارته ولم يتوقف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الحادي عشر

لم يكن الأمر ذا أهمية لأحد على الإطلاق، ولكن علم الجميع -فيما بعد- أن مخاوف وشكوك ناتان تمكنت منه بعد مضي نصف ساعة من الحادث، فعاد أدراجه مرة أخرى وكان قد مضت ساعة عندما وصل ناتان إلى المكان الذي ترك فيه سيارة كيث.

كانت السيارة ذات الدفع الرباعي واقفة في مكانها بنفس الزاوية الغريبة، لم تتحرك، ولكن لم تكن هناك علامة على وجود كيث. شعر ناتان باضطراب شديد وأمسك جهاز اللاسلكي للإبلاغ عن الحادث، وبشكل غير اعتيادي سادت فترة طويلة من الصمت والانتظار قبل أن يجيب أحد عن ندائه، علم ناتان في النهاية أن سيارة الإسعاف اصطحبت كيث.

سأل ناتان الشخص الموجود على الطرف الآخر: «هل هو بخير؟».

انتظر ناتان لفترة أخرى طويلة ثم تحوّل الصوت إلى ما يشبه الشوشرة المعدنية قبل أن يجيب الطرف الآخر في فترة امتدت لتصل إلى دقيقة كاملة: «لقد تأخر الأمر كثيرًا يا صديقي».

لا بد من أن ناتان يعرف صاحب الصوت، ولكنه لم يستطع أن يميزه.

- اللعنة، تأخر الأمر كثيرًا بالنسبة إلى كيث؟

- لا، تأخّر الأمر كثيرًا بالنسبة إليك، حتى تدعي أنك مهتم بما حدث، لقد أخبرنا كيث أنك تركته مصابًا في العراء.

وبعد هذا انقطع الإرسال عن جهاز الراديو الخاص بناتان وساد الصمت.

استغرق ناتان في تلك اللحظة النظر تجاه زاندار الذي كان بدوره يتطلع إلى بوب وهاري اللذين يقفان فوق قبر مربّي الماشية. كان بوب يولي ظهره إليهما، بينما كان هاري منحنياً على الأرض يفحص ما تبقى من الحفرة التي

كانت موجودة بجوار قبر مربي الماشية، ظل هاري على نفس الوضع لفترة طويلة من الوقت قبل أن يقوم من مكانه ويبدأ بفحص الأرض بنظرة في كل اتجاه.

لم يُتعب ناثن نفسه بالمتابعة لما يحدث، فقد كان على علم سابقًا بكل الأشياء الموجودة حولهم، لا توجد أشياء في الحقيقة غير مساحات واسعة من الفراغ والرمال تمتد إلى أميال وأميال.

لقد أصيب كيث بسكتة دماغية، لقد أوشك على الموت، لقد كان قريبًا جدًا من الموت ولكنه لم يمُت والفضل في نجاته لا يعود إلى ناثن على الإطلاق. كان كيث يشعر بغضب رهيب حتى وهو على أعتاب الموت، حتى إنه قرر خلع قناع الأكسجين وهو مستلقٍ في سيارة الإسعاف، حتى يخبر المسعف بأن ناثن مَرَّ بجواره وتركه مُلقى في العراء ليموت.

اكتُشِفَ كيث بواسطة سائق توصيل عابر بالصدفة بعد مرور خمس عشرة دقيقة من انصراف ناثن، قال الجميع إن كيث كان محظوظًا لدرجة كبيرة، ففرصة مرور أحد من هذا الطريق في الوقت المناسب لا تزيد على واحد في الألف.

انتشرت أخبار الحادث في كل مكان كالنار في الهشيم وظهرت حالة من الاشمئزاز وانعدام الثقة تجاه ناثن بطريقة واضحة، إن التخلي عن شخص في العراء لمواجهة الموت لا تدرج تحت بند الخلاف ووجهات النظر، ولكنها مسألة حياة وموت، مسألة أخلاق ومبادئ لا يمكن تجاوزها مهما كانت الأسباب والظروف.

استطاع ناثن بمفرده بهذا التصرف أن يحقق المستحيل ويوجد كل سكان المدينة على رأي واحد، اجتمع البيض والسكان الأصليون والعجائز وصغار السن والأصدقاء المقربون والمتنافسون وأصحاب الخلافات التي استمرت لمدة ثلاثين عامًا على نفس الرأي. كان كل شيء ينحني جانبًا، ما داموا يتحدثون عن ناثن والخطأ الشنيع الذي ارتكبه.

في هذا الموضوع تحديدًا اجتمع كل الأشخاص واتفقوا على رأي واحد في مجتمع المدينة المحلي الصغير. اتفقوا على أن ترك شخص ما تحت رحمة الظروف وعناصر الطبيعة هو أمر لا يمكن تصوره وجريمة لا يمكن أن تغفر.

اجتمع الجميع على أن شخصًا مثل ناثن تَعوَّدَ العيش في المناطق النائية والمنعزلة وتربَّى وكبر هناك، لا تناسبه المعيشة في المدينة وفي المجتمعات الكبيرة.

اعتذر ناثن عما فعل في البداية، ثم اعتذر لعدة مرات لاحقة، وكذلك اعتذر هاري وليز بالنيابة عنه، واضطر كاميرون إلى الاعتذار هو الآخر بعد مرور فترة من الوقت.

اتصلت به جاكى من بريسبان، واستغرقت وقتًا طويلًا في الصراخ بوجهه، ثم أغلقت الهاتف وعادت بعد ذلك تتصل بالمحامي الخاص بها. أدرك ناثن بعد فترة من الوقت أنها اتصلت به بينما لم يفعل الآخرون -إلا قلة نادرة- كان عقاب المجتمع سريعًا وقاسيًا، حيث اضطر ناثن إلى أن يحضر اجتماعًا في المدينة ويقف أمام أكثر من ستين زوجًا من العيون التي تكيل له الاتهامات ويقرأ اعتذارًا مكتوبًا في ورقة يمسكها بيده.

كان ناثن عصبياً في ذلك اليوم ويشعر بالاضطراب والضغط الشديد الذي لم يشعر به من قبل، حاول أن يشرح للجميع الضغوط التي مورست عليه بسبب معركة الوصاية على الطفل، ولكن ذلك لم يكن مبررًا كافيًا في نظر الجميع، فقد قال له أحدهم: «حتى لو كانت النار تشتعل في جسدك وأصبحت على وشك الموت، ما زال من الواجب عليك أن تقف وتقدم المساعدة».

لم يكن هناك سبب منطقي في العالم يمكنه تبرير ما فعله ناثن، وإن كانت كل المبررات التي ساقها خلال ذلك اللقاء استُخدمت كدليل قوي مبرر فيما بعد لتأكيد مخاوف جاكى حول أحقيته برعاية الطفل، حصل المحامي الخاص بها لاحقًا على نموذج مخطوط لما قاله ناثن في ذلك اليوم واستخدمه ضده في جلسة المحكمة.

كما كتبت جاكى بنفسها كل ما حدث بينهما من خلاف في رسالة إلكترونية -ما زال ناثن حتى يومنا هذا يشعر بمشاعر مضطربة وقوية تجاه تلك الرسالة- وأرسلتها إلى جميع من حضر الاجتماع يومها، كما قرأت والدتها تلك الرسالة الإلكترونية المشؤومة في الاجتماع بصوت عالٍ على الرغم من كونه يرتجف.

سببت أفعال ناثن في ذلك اليوم العديد من الخسائر غير المتوقعة لتجارة العائلة ونشاطها الاقتصادي. شاهد ناثن بوب عدة مرات يخفض رأسه في حجل في أكثر من مكان بينما كان الحضور يطلقون تعليقات ساخنة حول ما

ارتكبه ناثان في ذلك اليوم. وطالب البعض الرقيب ماكينا بتوجيه تهمة القتل غير العمد جزاء على ما فعل ولكنهم فشلوا في إقناعه بذلك.

قرر جميع أفراد المجتمع عقاب ناثان وإدارة ظهورهم تجاهه كأنه نمو سرطاني غير مرغوب فيه وطردوه خارجًا. كل المتاجر والمنشآت العامة والخاصة أغلقت أبوابها في وجهه. ولكن وافق مكتب البريد ومحطة الخدمة على أن يقدموا له خدماتهما على مضض بعد أن طلب منهما الرقيب جلين ذلك وأصر بشدة.

كانت تلك الخدمات تقدم إليه، دون النظر في عينيه، ولم يمر وقت طويل حتى بدأت الأخبار تصل إلى العمال المؤقتين الذين يعملون في مزرعة ناثان، وبدؤوا بالاستقالة من أعمالهم الواحد تلو الآخر، واضطر ناثان إلى جلب عمالة غير مدربة ومنحهم أجورًا عالية، ولكن ذلك لم يحل مشكلاته ولم يجد بديلًا مناسبًا عن العمال الذين استقالوا.

لم يكن في إمكانه تحمّل رعاية كل الماشية التي يملكها بمفرده، فاضطر إلى تخفيض أعدادها كما اضطر إلى أن يوقف التعاملات مع بعض المتعهدين الذين يورد لهم الماشية لأنهم ببساطة امتنعوا عن ذلك، وقد اعترف له بعضهم في النهاية أنهم يتعرضون إلى ضغوط كبيرة ومهددون بالمقاطعة إن استمروا في العمل معه، وهم لا يرغبون بذلك على كل حال.

إنه معاقب لأنه ترك رجلًا يواجه الموت في العراء، لذلك اضطر إلى بيع ماشيته في أماكن بعيدة وشراء احتياجاته كذلك من أماكن أبعد، مما اضطره إلى أن يتحمل دفع مبالغ مالية كبيرة ويحصل على القليل في المقابل.

في صباح أحد الأيام بعد مرور عدة أشهر على الحادث، استيقظ ناثان من نومه ليجد الصمت يلف مزرعته ويحيط به من كل اتجاه، جلس في مكانه ساكنًا ومضطربًا وتملّك منه الخوف تمامًا، كان كل شيء حوله ساكنًا وكان وحيدًا تمامًا، لا عمالة، ولا موظفون ولا صوت إلا الشوشرة التي تعلق من جهاز اللاسلكي بين الحين والآخر. حدّق ناثان إلى السقف، إنه وحيد بالكامل، ولا يوجد شخص آخر على مسافة عدة ساعات من مكانه في كل اتجاه، لقد أصبح ناثان منبوذًا ومهملاً ومطروودًا بشكل تام.

كان زاندار يتجنب النظر إلى قبر مربّي الماشية عبر التظاهر بتفحص محتويات صندوق القفازات الخاص بكاميرون. كلا الشرطيين قد أجريا ذلك البحث من قبل، ولكن ناثان لم يفتح الصندوق ولم ينظر بداخله. كان الصندوق

مرتبًا بطريقة منظمة وعملية، مثل كل الممتلكات التي يديرها كامبيرون تحت قيادته المثالية، شعر ناثنان في تلك اللحظة بقدر ضئيل من المرارة.

- هل وجدت شيئاً مثيراً للاهتمام في الداخل؟

- لا، لا يوجد شيء.

هَزَّ زاندار رأسه وهو يقول: «ولكن على ما يبدو أنه كان يخطط للذهاب إلى برج التقوية في وقت من الأوقات، فلهذه دليل الصيانة في الداخل».

- حقًا؟

مَدَّ ناثنان يده إلى الداخل وأمسك بدليل الصيانة وأخرجه وقَلَّبَه بين أصابعه.

- ربما، كان هذا نوعًا من أنواع الخداع، حتى لا يفطن أحد أنه كان يخطط للمجيء إلى هنا منذ البداية.

- ربما.

أجاب زاندار: «ولكن الدليل يحتوي على العديد من المعلومات المهمة، فقد وضع علامات حول بعض النقاط التي سوف يحتاجها في إجراء عملية الصيانة وكتب أسماء كل المعدات التي سوف يحتاجها من أجل إتمام مهمته».

عبست ملامح ناثنان: «أعتقد أنه غيَّرَ من تفكيره، واتخذ قرارًا آخر وهو في الطريق إذًا؟».

لم ينطق زاندار بكلمة واحدة واكتفى بهز كتفيه وثبت نظراته بشكل أكبر في اتجاه بوب وهاري.

حاول ناثنان بعد مرور فترة طويلة أن يتصل بإلسي، كان يخشى الحديث معها فور وقوع الحادث لأنه لا يعرف ما الذي سمعته عنه، كان يشعر بالارتباك والخوف ولا يرغب في أن يدافع عن نفسه أمامها، ويخبرها أن لا تصدق ما يقال، كيف يمكنه أن يفعل ذلك، وكل ما يقال عنه صحيحٌ. حتى إنه بحث عنها بين الحضور في الاجتماع الخاص بمجلس المدينة، وعندما لم يجدها شعر بحزن وخيبة أمل بالغة، ولكنه شعر ببعض الارتياح لعدم حضورها عندما اتفق الجميع على إدانته.

عندما استطاع أن يستجمع شجاعته في النهاية ويتصل بالحانة في عطلة نهاية الأسبوع التي تعمل خلالها، كان قد مرَّ أسبوع كامل على المحاكمة.

رفع مالك الحانة سماعة الهاتف، وتعرف على صوت ناثن على الفور، فأخبره أنه لو رآه أو سمع صوته مرة أخرى، فلن يلجأ إلى الشرطة من أجل التخلص منه ولكنه سيتصرف بطريقته الخاصة.

فهم ناثن ما الذي يرمي إليه الرجل، ولكنه على الرغم من ذلك وجد نفسه يقود السيارة في عطلة نهاية الأسبوع التالي، وعطلة نهاية الأسبوع التي تليها، حاول أن يستنتج أيًا من المنازل في الوحدات السكنية القريب من الحانة تعيش فيه إلسي وجلس في الانتظار.

لم يكن يعرف إن كان بإمكانها نسيانه بهذه السرعة، لم يعرف أنه كان سيسمع عنها مرة أخرى، لذلك وجد نفسه داخل سيارته منتظرًا في الظلام على مسافة آمنة من الحانة حتى لا يلححه أحد يراقب أنوارها من بعيد. لم يكن بإمكانه الدخول، ولم يكن بإمكانه الرحيل كذلك.

واستمر في تكرار نفس السيناريو لعدة مرات خلال الأعوام التالية، ربما كان يكرر ذلك مرة واحدة كل ستة أشهر. كان يرغب في أن يراها ويسمع صوتها بدلًا من ذلك الصمت المطبق الذي يحيط به من كل اتجاه وبدلًا من صوته الداخلي الذي لا يكف عن الطنين بداخل رأسه.

كانت سيارته تقف في الظلام وهو يستمع إلى الثرثرات العابرة، وأصوات الموسيقى الخافتة التي تنبعث من داخل الحانة. لم يكن يجرؤ على الدخول على كل حال، فلم يكن يعرف الأشخاص الذين يتوقع مقابلاتهم داخل الحانة وهل بإمكان أحدهم أن يتعرف عليه، لا بد أنهم يتذكرون اسمه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، لا شك لديه في أن القصة قد تناقلتها كل الألسنة وسمعتها كل الآذان وأصبح مجرد ذكر اسمه يطلق صيحات التحذير.

في إحدى الليالي قبل أن يمر وقت طويل على الحادث شاهد ناثن بوب وكامبيرون يخرجان من الحانة وهما يضحكان ويصافحان عددًا من الرجال، كان الجميع ينظر في اتجاه ناثن.

منذ وقوع الحادث وناثن يحافظ على مسافة كبيرة بينه وبين أخويه كما حافظ على مسافة كبيرة بينه وبين الآخرين، لعلمه أن الحادث قد ألقى بظلاله عليهما، حتى لو لم يصرحا بذلك، حافظ ناثن على تلك المسافة حتى لا يضطرا في يوم من الأيام إلى أن يطلبها منه ذلك.

رأهما ناثان خارج الحانة فشعر بداخله بمرارة الخيانة التي تحولت بعد فترة قصيرة لوميض خافت من الأمل المشوب بالحذر. كان يأمل أن ينادي عليه كام قائلًا: «تعال يا صديقي إلى هنا، لقد شرحت الموقف وأصبح كل شيء على ما يرام، إنهم يعلمون أنك آسف على ما حدث». ولكن ذلك النداء لم يأت قط.

بعد أسبوع كان ناثان ينتظر مرة أخرى أمام الحانة بعد أن قاد سيارته إلى هناك، فوجد ما كان ينتظره منذ البداية. وقفت إلسي على باب الحانة وجسدها مضاءً بمصباح الشارع الوحيد بعد أن أنهت مناوبتها، وضع ناثان يده على مقبض باب السيارة مُجَهِّزًا اعتذارًا لها. ولكن فوجئ بصاحب الحانة واثنين من مربى الماشية يتبعونها إلى الخارج ويتجادبون أطراف الحديث بالجوار بينما تغلق هي أبواب الحانة. وقف الرجال في الشارع حتى انصرفت إلسي واضطر ناثان إلى أن يراقب ابتعادها من بعيد، بينما يعتصره حزنه وندمه.

ابتلع ناثان كبريائه واتصل بكاميرون ليطلب منه بشكل مباشر أن يتحدث عنه بشكل جيد في الحانة. فأجابه كام: «يا صديقي، أنا نادرًا ما أذهب إلى هناك بمفردتي، أنا لا أقصد الحانة إلا لو كان بوب لديه ميعاد مع شخص ما لتبادل أطراف الحديث».

- من فضلك يا كام أسألهم إن كان بإمكانني العودة إلى الحانة، فهناك فتاة لطيفة هناك، تعمل خلف البار.

كان ناثان يتحدث بطريقة يعلم أن كاميرون سيتعاطف معها.

أجاب كاميرون: «أوه، نعم. لقد رأيتها، إنها فتاة جيدة».

- نعم، هي كذلك. أعتقد أنك تفهمني الآن، وسوف تسألهم إن كان بإمكانني الرجوع إلى الحانة.

حبس ناثان أنفاسه وهو ينتظر إجابة أخيه.

- يا صديقي، لم يمر وقت طويل على الحادث، والجميع هناك لا يرغب في وجودك بينهم، أنا آسف فليس بإمكانني فعل شيء لمساعدتك.

أغلق ناثان الخط ولم يتحدث إلى أخيه مرة أخرى لمدة ثلاثة أشهر كاملة.

أعاد زاندار الأوراق مرة أخرى إلى صندوق القفاذات، وتحرك في مقعده بملل، يستطيع ناثان أن يدرك أن زاندار قد اكتفى بما شاهد حتى الآن، ويتلهف

للرحيل. كذلك كان ناثن متلهفًا هو الآخر للمغادرة والعودة إلى المنزل، ولكنه كان يتساءل بينه وبين نفسه إن كان من المناسب أن يترك هاري وبوب بجوار القبر في العراء ويسبقهما إلى المنزل أم أن الأمر فيه مخاطرة بالغة فشعر بتردد شديد.

كان رأسهما منخفضين ومتقاربين ويتحدثان بصوت منخفض لدرجة لا يمكن لناثن سماعها.

قال ناثن: «سوف نعود خلال دقائق».

فأوما زاندار برأسه.

كان ناثن سعيدًا على كل حال لأن زاندار لم يكن يميل إلى جده كثيرًا، كانت جاكى حكت نسختها مما حدث بينهم لزاندار بمجرد أن أصبح كبيرًا بما يكفي، فاضطر ناثن هو الآخر إلى أن يحكي نسخته من نفس القصة إلى زاندار، والحقيقة أن النتيجة في الحالتين لم تختلف كثيرًا وهو ما كان يتمنى ناثن أن يتجنبه.

مات كيث الآن نتيجة الإصابة بسكتة دماغية أخرى، بعد أربع سنوات من السكتة الأولى التي أصابته في ذلك اليوم. لم تكن إصابة كيث بالسكتة الدماغية في المقام الأول خطأ ناثن ولكنه كان مُلامًا لأنه لم يرفع إصبعًا واحدة لمساعدته، فتحمل اللوم كله.

بعد موت كيث انتقلت أرملته إلى بريسبان لتصبح على مقربة من جاكى وزاندار، وتعيش الآن في دار لرعاية المسنين.

كان لدى ناثن أمل في أن يتسبب موت كيث في رفع عقوبة النفي عنه، ولكن ذلك لم يحدث بل زادت الأمور سوءًا، إذ كان كيث هو الوحيد القادر على العفو عنه وبموته استحال العفو تمامًا.

قال ناثن لنفسه يومًا إن كل شيء سيصبح على ما يرام، ولكن مرت عشر سنوات حتى الآن ولم يتغير شيء على الرغم من انتظاره. الحقيقة أنه لم يعد يعتقد أن شيئًا سيتغير، ومرت أيامه متشابهة إلى حد التطابق، ربما كان يقضيها في بعض الأحيان في التفكير في عدد من الاحتمالات المختلفة التي كان من الممكن حدوثها في يوم الحادث. فمثلًا ماذا كان سيحدث لو مات كيث على جانب الطريق في ذلك اليوم؟ ماذا لو مات كيث اللعين وسقطت ذراعه بجانبه في هدوء وبقي فمه مغلقًا؟

عبر الزجاج الأمامي شاهد نااثان هاري يركل الأرض بطرف حذائه المدبب بالقرب من قبر مربى الماشية.

دون وجود كيث لتوجيه أصابع الاتهام إلى نااثان لسارت الأمور بشكل مختلف بالنسبة إليه، فالموتى لا يتحدثون ولن يعرف أحد بما فعله نااثان يومها، فى تلك الحالة كان نااثان سيحافظ على حرىته وبراءة ساحته.

أخيراً قال هاري شيئاً لبوب الذى أوماً برأسه، واستدارا معاً فى اتجاه السيارة، وأدار المحرك فأدار نااثان محرك سيارته بدوره.

ألقى نااثان نظرة أخيرة على الأرض التى وجدت عليها جثة كامىرون.

«الموتى لا يتحدثون»، لا بد أن نااثان فكَّر فى هذه العبارة ألف مرة خلال السنوات الماضية، ولكن هذه المرة كان وقَّعها مختلفاً داخل رأسه، فقد اتخذت شكلاً غريباً وغير مريح بينما كان يقود سيارته بجوار قبر مربى الماشية واستقرت فى النهاية فى أحلك ركن من أركان عقله.

أصدرت عجلات السيارة صوتاً مرتفعاً وهى تدوس على قطعة خشنة من الأرض فى طريقها مبتعدة إلى المنزل. لم ينظر نااثان إلى الخلف بل على العكس تماماً حافظ على نظره مثبتاً طوال الطريق إلى الأمام.

كانت نظراته تتابع بشكل لا إرادى السيارة التى تسير فى المقدمة أمامه، وبشكل أدق كانت تتبع الظل الخاص بالرجلين الجالسَيْن بداخلها وانعكاسهما على مرآة الرؤية الخلفية التى تَمَكَّنَ من خلالها أن يلمح زوجين من الأعين ينظران إليه. لقد كان هاري يراقبه.

الفصل الثاني عشر

على الرغم من بُعد المسافة استطاع ناثن أن يلاحظ تعبيرات وجه والدته وهو يدخل بسيارة كاميرون الممر الجانبي المؤدي إلى المنزل. كانت ليز تجلس تحت شجرة الصمغ الأحمر العتيقة بجوار قبر زوجها الراحل ثم تصَلَّبَ جسدها عند سماع صوت محرك السيارة، بدأت أولاً بالوقوف، ثم تراجع جسدها إلى الخلف، ولم تَقَوَّ على إكمال حركتها عندما شاهدت ناثن يجلس خلف عجلة القيادة بدلاً من كاميرون.

أوقف ناثن السيارة بجوار المكان الذي أوقف فيه هاري وبوب سيارتهما، ولكنه لم يجد أثرًا بداخلها لبوب أو لهاري. لقد تأخر ناثن قليلاً في الطريق عن المجموعة، ليتخلص من الطعام الفاسد الموجود في مؤخرة السيارة الخاصة بكاميرون، فغاب لحظة وصول سيارة بوب وهاري إلى المنزل.

نزل ناثن من السيارة وقال موجهاً حديثه إلى زاندار: «سوف أذهب للتحديث قليلاً مع جدتك».

قال زاندار وهو يغادر السيارة: «حسنًا، سأكون في حجرتي، لا داعي للقلق».

تحرك زاندار مبتعدًا بسرعة وكأنه يخطط لشيء داخل عقله. شاهده ناثن وهو يبتعد ثم اتجه ناحية ليز، كانت دافي جالسة تحت قدميها.

سألته ليز: «ماذا قال جيلين؟».

نظرت ليز إليه وهي تبكي مجددًا.

- إنه يرسل تعازيه، ولكنه سوف يتصل بك.

سألته ليز: «وهل تتضمن تلك التعازي إجابة عما حدث؟».

أجابها ناثان: «لا».

ثم جلس على يمين والدته، كانت أذنها اليسرى لا تسمع على نحو جيد، تحركت دافى وأراحت رأسها فوق ركبته.

مدت ليز يدها فأمسك بها ناثان، كان بإمكانه أن يرى ندبة قديمة على ذراعها، كانت ندبة تلاشت بصماتها الغاضبة بمرور الزمن، تجاهل تلك الندبة كما يفعل دائماً ونظر إلى ندبة جديدة ظهرت أسفل منها، كانت حديثة وحمراء، عرف على الفور أنها بسبب إزالة سرطان الجلد، ولم يكن في حاجة إلى أن يسأل عن سببها.

كان الجميع مصاباً بسرطان الجلد بدرجة من الدرجات، كل الأشخاص البيض البالغين في المنطقة، وكلما حضر اختصاصي إلى المنطقة بالطائرة، تدفقوا إليه ووقفوا في طابور طويل في انتظار دورهم للكشف والجراحة. كان الجميع ينتظر حتى يستأصل الطبيب قطع اللحم الغادرة من أجسادهم ويحرقها. ثم يعقدون أصابعهم متمنين ألا يتمكن منهم المرض حين عودته في المرة القادمة، كان لدى ناثان العديد من الندوب المماثلة كذلك.

- هل أزيل كل هذا؟

وأشار إلى الندبة الحمراء على كل ذراعها.

قالت: «أعتقد هذا، على الأقل في الوقت الحالي».

أدارت ليز ذراعها حتى لا يستطيع رؤيتها مرة أخرى وهي تقول: «ولكن من يعلم ماذا سيحدث في المستقبل؟».

في مكان قريب من موضع جلوسهما، سمع ناثان عواء دينغو فأدار رأسه تجاه مصدر الصوت وكذلك فعلت ليز.

قالت ليز: «إنها تتسكع في الجوار كثيراً في الفترة الأخيرة، وخصوصاً صاحب العواء»، ثم أضافت: «لقد أصبحت أكثر شجاعة».

قال ناثان وعلى وجهه علامات التردد: «هل تريدين أن أصطاده من أجلك». أجابت ليز: «بواب سوف يفعل ذلك، إنه يحب الأمر»، ثم أضافت مسرعة: «أقصد الأموال المتعلقة بالصيد، مجلس المدينة يدفع ثلاثين دولاراً مقابل كل فروة رأس دينغو تُقدَّم إلى رجال الشرطة، يحصي جلين الرؤوس ويملاً الأوراق المطلوبة».

ثم تنهدت ليز: «هل تعتقد أن بوب على ما يرام؟».

تذكّر ناثان ما فعله أخوه بالأمس، وكيف شاهده يتبول في الظلام على الأرض المخصصة لمقابر العائلة ثم قال: «لا أعرف، فبوب هو بوب لا يتغير».

- إذا فهو لا يبدو في حال أسوأ في رأيك؟

- بل على نفس وضعه، لم يتغير.

نظرت ليز إلى قطعة الأرض الخالية بجوار قبر كارل: «لم أكن أتصور طوال حياتي، أن كاميرون هو من سيسكن هذا المكان، تتصارع الأفكار داخل رأسي طوال الوقت، ما الذي كان يجب عليّ فعله ليتغير هذا المصير؟».

قال ناثان: «لا تلومي نفسك وتحملها ما لا تقدر على فعله، لم يكن في إمكانك فعل أي شيء على ما أعتقد يمكنه أن يغير ما حدث».

- هذا أسوأ على نحو ما. مكتبة سُر من قرأ

وهزت ليز رأسها ثم تابعت: «أتمنى لو لم أخرج في نزهة بالحصان هذا الصباح، ولكن كان عليّ أن أتحقق من أن الحصان الخاص بصوفي يمارس بعض التمارين الرياضية المعتادة، فقد ألقى بها من فوقه، هل أخبرتك بذلك؟».

- نعم، لقد أخبرتني بسقوطها.

- أنا لست واثقة، إن حدث هذا بسبب خطأ منها، أم أنه كان خطأ من الحصان، إنها تتدرب من أجل المشاركة في بطولة الفروسية هذا العام مرة أخرى، ولكنها ستواجه مشكلة كبيرة إن لم تستطع السيطرة على الحصان، لذلك قررت أن أتحقق من طريقة تحركه وتصرفاته ولكنني لو لم أفعل هذا... (ثم صمتت ليز وظهرت الدموع في عينيها) ربما، لو جلست للحديث مع كاميرون بشكل لائق لتغير كل شيء، هل تتذكر الحوار الذي دار بينكما في آخر مرة؟

حاول ناثان أن يتذكر. ثم قال: «تحدثنا على الأرجح حول إصلاح الأسوار».

- هل هذا حقاً ما تحدثتما عنه؟

لاحظ ناثان ضحكة بسيطة تظهر على وجهها عندما أدركت أن ما يقوله

لا يوضح مقصدها.

- لا أقصد هذا، أقصد آخر مرة تحدثتُما فيها عن شيء مهم، كيف اتفقتما على اقتسام مصاريف الصيانة فيما بينكما؟
- آه بالطبع.

- حسنًا، ستيف اتصل من العيادة وأخبرني أنهم بصدد تشريح جثة كاميرون. ولو لم يجدوا سببًا للوفاة غير إصابته بالجفاف فسوف يسلموننا جسده في غضون يومين، حيث يمكن أن نقيم الجنازة يوم الأربعاء إن كانت هذه رغبتنا.

- بهذه السرعة؟ في عشية عيد الميلاد!

- يجب علينا أن نفعل ذلك، وإلا سنضطر إلى الانتظار حتى بداية العام الجديد. لم تستطع إلسي أن تحدد رأيها، لذلك أخبرتهم أننا سنقوم بالدفن في ذلك الميعاد، هذا أفضل اختيار بالنسبة إلينا، حسبما أظن. ثم أدارت عينيها المتورمتين تجاه المنزل ونظرت إلى نوافذ غرفة نوم الفتاتين.

- هل تعتقد أنني فعلتُ التصرف الصحيح؟

- أعتقد ذلك، فلا يوجد اختيار أفضل منه على كل حال.

- حسنًا، إذًا من الأفضل أن أبدأ بإخبار الجيران.

- وهل سيحضرون؟ هذا الميعاد قريب جدًا من احتفالات أعياد الميلاد.

قالت ليز بصوت يحمل بعض الحدة: «بالطبع، سوف يحضرون».

كان ناثان يعلم أن ما تقوله حقيقي، فقد كان الناس يحبون كاميرون، وحتى لو كانوا لا يحبونه هو شخصيًا. ولذلك فهم على استعداد لبذل بعض الجهد من أجل تقديم العزاء لأسرة كاميرون المتوفى. الجنازات تعتبر واحدًا من الأسباب القليلة التي تجعل أمه تخرج من المزرعة، كانت معظمها جنازات محلية على بُعد مسافة صغيرة بالسيارة لا تهدر من الوقت أكثر من يوم واحد في رحلة الذهاب والعودة، ولكنها منذ عدة شهور سافرت بالطائرة كل المسافة إلى فيكتوريا لتحضر مراسم إحراق جثة أخيها.

سمع ناثان بالكاد ما تقوله ليز عندما اتصلت به لتخبره أن خاله قد تُوُفِّي، مالكولم ديكان كان رجلًا مسنًا في الحادي والسبعين من العمر، مات بسبب قصور في الشريان التاجي. لم يستطع ناثان أن يتظاهر حتى بالاهتمام بما

حدث، فهو لم يكن يعرف الرجل ولم يلتقه إلا مرة واحدة فقط منذ عشرين عامًا، أو ما يزيد على ذلك، في جنازة ابنته. حيث اضطر هو وإخوته إلى الذهاب لحضور الجنازة بسبب إصرار ليز على ذلك. قالت: «الراحلة، هي ابنة خالك».

وكان ذلك كافيًا، من الواضح أن كارل رفض الذهاب، ولكنه للغرابة الشديدة لم يستطع أن يُعَطَّلَ مخططات زوجته فذهبت ليز بصحبة الأبناء الثلاثة، ركبوا الطائرة، ثم قادوا السيارة لعدة ساعات على طول الطريق المتعرج إلى كيوارا تلك المدينة الصغيرة الوضيعة التي لم يسمع عنها ناثن من قبل والتي تقع في نهاية الطريق إلى مدينة فيكتوريا، عندما وصل ناثن إلى هناك أدرك السبب الذي دفع والدته إلى مغادرة تلك المدينة بمجرد أن بلغت من العمر ثمانية عشر عامًا. كانت تلك المدينة أكبر من بالامارا بعض الشيء، ولكن كان شيء ما حولها يسبب النفور. لم يكن السكان المحليون يفعلون شيئًا طوال النهار سوى التذمر بسبب حالة الطقس.

كان الإخوة الثلاثة يتجولون بين السكان المحليين متباهين بقمصانهم اللامعة ذات الأكمام الطويلة ومستمتعين بمشاهدة المكان الجديد. استمع ثلاثتهم إلى خطبة الوداع لفتاة لم يعرفوها قط، وسط أشخاص يقابلونهم للمرة الأولى، كانت ابنة خاله تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، أي أنها كانت تصغره بسنوات قليلة، ولكنه شعر بأنه صغير السن لدرجة كبيرة على نحو مفاجئ بمجرد أن شاهد التابوت الذي وضعوها بداخله.

جلس بالقرب من مقدمة التابوت شابان وفتاة في سن مقاربة من سنهما يرتعشون بفعل الحزن ويبدو في أعينهم علامات عدم التصديق، بينما كان بوب البالغ من العمر في ذلك الوقت ثمانية أعوام يبكي عليها دافئًا وجهه بين راحتي يده وكأنه يعرفها.

بعد أن انتهت مراسم الجنازة تراجع ناثن وكاميرون وبوب قليلًا ووقفوا عن بُعد يراقبون لقاء ليز الفاتر بشقيقتها. بينما كان أحد أقاربهم، الذين لا يعرفون عنه شيئًا يراقبهم بدوره بعينين نصف مفتوحتين، ورأس تدور به أقداح الشراب في وضوح النهار، بدا له هذا القريب الغامض شخصًا من أسوأ أنواع الحمقى وجودًا.

قال ذلك الشخص في وقت لاحق عبارة أزججت بوب كثيرًا، لذلك حاصره ناثن وكاميرون في الحمام وعنّفاه قليلًا كنوع من العقاب، لم يبالغا في

ذلك العقاب فاليوم هو يوم الجنازة على كل حال وهما ليسا حيوانين، ولكنه سيتذكر ما حدث إن حاول أن يكرر فعلته مجددًا.

بعد أن انتهى العزاء هزت ليز رأسها وتمتمت بشيء ما وسط أنفاسها المتقطعة. سألتها ناتان: «هل تريدن شيئاً؟».

قالت: «لا، لا شيء، ولكنني كنت أتمنى أن ينظموا جنازة أفضل من تلك لهذه الفتاة المسكينة».

وتوجهوا على الفور إلى خارج المدينة في اللحظة التي تمت فيها عملية الدفن، من الواضح أن ليز لم تكن مستعدة على الإطلاق لقضاء ليلة واحدة في تلك المدينة الزراعية التي نشأت فيها، كان هذا العام يتسم بأنه جلب الموت لأفراد العائلة، فلم تمر شهور قليلة واستخرجوا جثة والد ناتان من وسط حطام السيارة المعدني المتشابك، ودفنوه في ركن بعيد من فناء المنزل.

وبعد هذا لم تطأ قدم ليز الطائرة مرة أخرى، إلا بعد مرور ثلاثة أشهر كاملة، عندما أخبرت ناتان أنها سوف تحضر جنازة أخيها، تفاجأ ناتان من الخبر في البداية ولكنه شعر بارتياح غامض لوفاة خاله، وافترض أن والدته تشعر بنفس الشيء.

سألها ناتان معترضًا: «لماذا تذهبين إلى هناك بحق الجحيم؟».

- لقد كان أخي.

- نعم، ولكن...

بدأ ناتان عبارته ثم توقف عن الحديث، لم يكن يعرف ما يجب عليه أن يقول فهي تعرف سابقًا كل المعلومات التي يمكنه قولها.

كان ناتان يظن أن الرجل محظوظ للغاية لأنه أنهى حياته بسبب نوبة قلبية قبل أن يتعامل معه النظام القانوني ويُلقى القبض عليه. لم يكن خاله شخصًا مهمًا بالنسبة إلى جاكبي على كل حال، ولكن بمجرد أن عرفت بشأن متاعبه القانونية حتى استغلت الموقف، وقررت من تلقاء نفسها ألا ترسل زاندار لقضاء الوقت بصحبة ناتان في المواعيد المتفق عليها سابقًا مستشهدةً بالموقف القانوني لذلك الخال الذي يقيم بعيدًا، ونموذج السلوك الذي يقدمه للطفل وكل هذا الهراء القانوني البغيض.

اضطر ناتان إلى أن يدفع مبلغًا مكونًا من ثلاثة أرقام لمحاميه حتى يرسل مذكرة تحتوي على تسع كلمات إلى جاكبي ليذكرها بالالتزام بالقواعد المنظمة

التي فرضتها المحكمة. ولعل هذا هو السبب الذي جعل ناثنان يشعر بالسعادة لأن الرجل تُوَفِّيَ ولم يعد له وجود على ظهر الأرض.

كان يبدو من نبرة ليز أنها مصممة على الذهاب، مما أشعر ناثنان بالقلق الشديد من تركها تذهب في تلك الرحلة الطويلة والشاقة بمفردها، ولكنه استغرق في التفكير في الأمر وقتًا أكثر مما ينبغي قبل أن يعرض عليها اصطحابها إلى هناك. غير أنها أخبرته أن كاميرون قد عرض عليها نفس العرض سابقًا ولكنها رفضت عرضه، طلبت منه أن يهتم بأعماله ولا يشغل نفسه بأمرها.

وقالت: «بحق السماء الأمر لا يستحق أن نحجز تذكرتين على متن الطائرة للذهاب إلى هناك، وخصوصًا في هذه الظروف، على كل حال».

ودار جدال طويل بسبب هذا الأمر حتى وافقت في النهاية بأن يذهب العم هاري بصحبتها.

سأله ناثنان في وقت لاحق: «كيف مرت الرحلة؟».

- كانت رحلة هادئة.
- وهل حضر العديد من الأشخاص.
- العديد من الأشخاص؟ لم يحضر سوانا وظهر اثنان من رجال الشرطة قرب نهاية الجنازة.
- هل حضرا بشكل رسمي؟
- لا أعتقد ذلك، أحدهما كان رجل الشرطة المختص بمدينة كيوارا، كان يتعامل بودًا إلى حد ما ولكنه عند نهاية الجنازة، جاء وتحدث إلينا فظهر على وجه هاري موجة من الانفعالات غير المحددة، كما ظهر على الشرطي بعض الاضطراب، والشرطي الآخر طويل القامة قال إنه عاش في هذه الأنحاء في السابق ولكنه الآن يعمل في ملبورن ولم يفصح بالكثير غير هذا، وبدا منزعجًا من الموقف برمته، في اعتقادي أنهما كانا هناك للتأكد من أن ذلك الوغد العجوز قد مات فعليًا.

شعر ناثنان بالشك في أن والدته ذهبت إلى هناك لنفس السبب.

بمجرد أن خطر هاري على عقل ناثنان، حتى تذكر على الفور ما حدث اليوم في وقت سابق، فقد استطاع الرجل أن يعرف الفتحة المناسبة للدوران عندها من المحاولة الأولى بمنتهى السهولة.

فسألها: «هل أخبرك كام عن شيء محدد يزعجه في الفترة الأخيرة، أي شيء مهمما كان صغيرًا، خلاف مع بوب أو هاري أو شيء من هذا القبيل؟».

أجابت ليز: «لا، كما قلت سابقًا، بوب هو بوب لا يتغير».

- وبالنسبة إلى هاري.

عبست ليز قليلًا: «كل شيء على ما يرام على حد علمي، لماذا تسأل؟».

- لا شيء، كل ما هنالك أن هاري أخبرنا أن كام كان يتعرض إلى ضغط في الفترة الأخيرة وتظهر عليه علامات الاضطراب، لذلك كنت أتساءل.

- تتساءل عن ماذا؟

- أتساءل إن كان دَبَّ بينهما خلاف، أو شيء من هذا القبيل.

زاد عبوس ليز: «لا، هاري رجلٌ طيب، لقد كان طيبًا مع عائلتنا من زمن

بعيد».

- أعلم ذلك.

- لقد أمضى بصحبتنا وقتًا أطول مما قضيت أنت، وساعدنا في العديد من الأمور التي لم تساعد فيها أنت، أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك.

- إذا ما الذي تتساءل بشأنه؟

- لا شيء، عليك فقط أن تنسى ذلك الأمر.

سادت فترة من الصمت، قبل أن تقول ليز: «حسنًا».

ولكن ناثان شاهد عينيها تتحركان في اتجاه سيارة هاري ذات الدفع

الرباعي. سألتها ناثان بهدف تغيير الموضوع: «حسنًا، وما الذي سوف يحدث لحصة كام من المزرعة والممتلكات؟».

خرج سؤال ناثان أشد وقاحة، مما كان يجب عليه أن يفعل، ولكن يبدو أن

ليز لم تلاحظ ذلك.

- تؤول كل الممتلكات إلى إلسي.

كانت هناك حالة من الحزن البالغ في صوتها.

- لا أعرف من سيدير المكان على المدى الطويل، فهناك العديد من المهام

اليومية الشاقة التي يجب أداؤها.

وانتظرت لبعض الوقت وكأنها تنتظر أن يتقدم ناثن باقتراح ما، ثم أضافت عندما لم تسمع منه جوابًا: «ربما سأضطر إلى توظيف مدير للمزرعة».

- أألن يتولى بوب الإدارة؟

- لا.

أجابت ليز بسرعة: «اسمع، يعتقد هاري أن على بوب فعل ذلك، ولكنني لا أظن بصراحة، يجب عليك أن تطرح اسم بوب في أي حديث بخصوص المزرعة يدور بينك وبين إلسي في المستقبل على الرغم من ذلك، هل ستفعل؟».

- نعم، بالطبع سأفعل.

نظر ناثن عبر الساحة فرأى دراجة أطفال تستند إلى جدار المنزل.

- كيف حال الفتاتين اليوم؟ لقد كانتا في الصباح تتصرفان على نحو...

أخذ ناثن يفكر في كلمة مناسبة ولكنه لم يستطع أن يتوصل إلى كلمة

سوى: «غريب».

- لا أعلم، من الصعب أن أحدد مشاعر صوفي، ولكن لو تشعر بصدمة شديدة، لقد كان يسكن رأسها العديد من الأفكار منذ وقت طويل، أقصد من قبل حادث الوفاة، تعتقد أن المكان مسكون.

- مسكون بماذا؟

- لا أعرف، ربما كانت تخاف من شبح مربى المشية، فجميع الأطفال تخاف منه، قد كنتم تخافون منه في طفولتكم كذلك.

هبّت رياح عبر السهل حملت معها كمية من الغبار استطاع ناثن أن يراها

تتحرك على هيئة دوامة صغيرة من على مسافة بعيدة.

تابعت ليز حديثها: «من السهل معرفة السبب في اعتقادها بأن المنزل

مسكون»، ثم نظرت إليه، «عندما جنّت للعيش هنا في البداية كان يعمل لدينا

مربى ماشية، كان مربياً حقيقياً وليس شبحاً وكان يظن أن المزرعة بالكامل

مسكونة بأرواح أبناء السكان الأصليين الأطفال الذين ماتوا بطريقة بشعة

بسبب مشكلات الولادة أو التعرض إلى حوادث أو الإصابة بالمرض، على ما

أعتقد».

يعرف ناثن أن وفيات الأطفال كانت كثيرة في الماضي لأسباب متنوعة،

ولم ينجُ طفل أبيض واحد في المدينة في عشرينيات القرن الماضي.

لمعت الدموع في عيني ليز.

- اعتاد الرجل أن يقول إن أرواح هؤلاء الأطفال البائسة تجوب في الصحراء طوال الليل ويمكن لأمهاتهم أن يسمعن صرخاتهم التي تحملها ويميزنها طوال حياتهن، هل تظن أن ذلك صحيح؟
- هل تسألين لأنني كنت أظن أن هذا المكان مسكونٌ بالأشباح؟
- إن الأمهات يمكنهن سماع صرخات أطفالهن الضائعين التي تحملها الرياح.
- أوه.

مد يده وأمسك بيد والدته مرة أخرى. ثم تابع: «لا، لا أعتقد ذلك على الإطلاق، لو كان هذا صحيحًا لأصبح الهواء ثقيلًا بصرخات الأطفال وأصبحت الرياح طوال الوقت شديدة العواء، ولن تستقر دوامات الغبار على الإطلاق».

الفصل الثالث عشر

كان العاملان المؤقتان في المطبخ يجهزان المائدة لطعام العشاء، عندما مدَّ ناثان رأسه عبر الباب.

ما زالت ليز في الخارج بعد أن تركها ناثان جالسة تحت شجرة الصمغ الأحمر تغرق في أفكارها الخاصة، وتوجه إلى الداخل.

وجَّه كلُّ من سايمون وكاتي بصرهما إلى الأعلى وخفت صوت أدوات المائدة بينما كانا ينظران إليه واقفًا أمام باب المطبخ. شعر ناثان فورًا بأنهما توقفًا عن الكلام بمجرد رؤيته. فقال موجهاً إليهما حديثه: «أنا آسف».

ثم قال بينه وبين نفسه: عن أي شيء تعتذر؟

سألها ناثان: «هل رأى أحدكما بوب؟».

هزَّ سايمون رأسه نافيًا: «لا، اعتقدت أنه بصحبتك أو بصحبة هاري».

- حسنًا، لا عليك، أشكرك.

لم يسمع ناثان أصوات همهماتهما تعود بشكل منخفض مرة أخرى، إلا بعد أن أصبح خارج المطبخ تمامًا.

وجد ناثان بوب جالسًا في غرفة المعيشة وواضعًا قدميه فوق كيس النوم الخاص به، كان يلعب إحدى ألعاب الفيديو. لعبة تتضمن إطلاق النار على رجل مقنع. كانت لوحة كاميرون تطل عليهما وهي معلقة على الجدار المقابل، كمشهد من النقاء الطبيعي في مواجهة المعركة الإلكترونية التي تحدث.

- مرحبًا.

أومأ بوب برأسه في اتجاه ناثان في أثناء دخوله إلى الحجرة.

- ماذا تفعل؟

- لا شيء، إنها مجرد لعبة. (وأشار إلى الشاشة الموجودة أمامه) هل تريد المشاركة؟ يمكن أن يشارك في اللعبة لاعبان في نفس الوقت.

- لا، لا رغبة لدي في ذلك.

ثم سحب ناثن كيس النوم الخاص به من تحت قدمي بوب، وقال: «أنت تعلم أن هذا هو السرير الخاص بي، أليس كذلك؟».

- يمكنك أن تنام على الأريكة يا صديقي.

مرت كاتي عبر الباب المفتوح وعادت بعد ثانية وفي يدها منشفة صغيرة ونظيفة متجهة إلى المطبخ وعينا بوب تلاحقانها.

- اللعنة! كم أحب هذه الفتاة.

وتنهَّد تنهيدة رومانسية.

سأله ناثن: «هل تعلم ماذا يُخبئ لها المستقبل؟».

قال بوب بضجر: «لا أعلم».

ثم أضاف: «ولكن يمكنني أن أخبرك ماذا سيخبئ المستقبل بيننا».

ابتسم ناثن: «أعتقد أنك تأخرت بعض الشيء يا صديقي، فيبدو أنها على علاقة بشخص ما بالفعل».

تصاعد القليل من الدماء الغاضبة في وجه بوب.

- إنها جريمة كبرى، كيف تكون فتاة رائعة مثلها على علاقة مع شاب أخرج مثله لا يملك شيئاً، إنه حتى لا يستطيع أن يحافظ على سعادتها.

- كيف تستطيع أن تعرف ذلك؟

- هل تبدو سعيدة بالنسبة إليك؟

- في الحقيقة، لم أفكر في هذا الأمر.

قال بوب: «سوف أبقئها سعيدة، على الرغم من كل شيء».

ثم أوماً برأسه إيماءة ذات معنى، ولكن ناثن فشل في أن يدرك معناها.

- حسناً، لا عليك، افعل ما تشاء.

أطلق بوب وابلاً من النيران في لعبة الفيديو التي يلعبها فأصدرت صوتاً عالياً.

- هل يمكنك أن... .
- ثم مدّ ناثان يده وأوقف اللعبة.
- ما هي مشكلتك يا رجل؟
- ثم قبل أن تتلاشى الانفعالات المنزعجة من على وجه بوب بنفس سرعة ظهورها قال: «ماذا هناك؟ هل هو كام؟ هل هناك خطأ ما؟».
- لا.. نعم.. إلى حد ما، لذلك أردت التحدث إليك.
- ثم تلعثم ناثان: «لقد رأيتك الليلة الماضية».
- ماذا؟ متى رأيتني في الليلة الماضية؟
- وتحركت عينا بوب إلى المدخل حيث اتجهت كاتي واحمرّ خداه من الخجل، فتساءل ناثان عن الأفكار التي تدور برأسه في هذه اللحظة.
- بالخارج في الحديقة. (عبس ناثان) تتبول على المقابر.
- ضحك بوب: «أوه، لقد فعلت، حسناً؟».
- حسناً؟! ما الذي تعتقد أنك فعلته بالضبط؟ ما معنى هذا؟
- لقد تبولت فقط على قبر أبي، وكأنك لم تفعل ذلك من قبل.
- ناثان لم يفعل ذلك من قبل، ربما لأنه لم يفكر في ذلك الأمر من قبل.
- هل.. أنت..
- هل ماذا يا صديقي؟
- هل تفعل ذلك كثيراً؟
- نعم، من وقت إلى آخر، كلما مررت على القبر وكانت لديّ رغبة في التبول.
- ولكن، لماذا؟
- يا صديقي، دعك من هذا.
- وأعاد تشغيل لعبة الفيديو وبدأ باللعب دون أن يضيف كلمة واحدة.
- لم يخطر مطلقاً في عقل ناثان أن يتبول على قبر والده، ولكنه كان يعلم أن بوب لديه من الدوافع التي تفوق دوافعه التي تجعله يفعل مثل هذا.

كانت الطريقة الناجحة في التعامل مع كارل برايت هي التعلم بسرعة، يجب أن يبدأ الشخص في مرحلة مبكرة من العمر بالابتعاد عن طريقه كلما أتاحت الفرصة لذلك، ويجب أن يُبقي رأسه مطأطأًا طوال الوقت لتجنبه.

ولكن بوب -لأنه أصغر الأبناء- لم يُعلِّم أحد هذا السلوك، كما كان كارل برايت يلومه طوال الوقت، لأنه لم يكن يرغب في المزيد من الأطفال. إنها لم تكن غلطة بوب، ولكنه دفع ثمنها، على كل حال. لم تلمح ليز مطلقًا أنها لم تكن ترغب في المزيد من الأطفال. وخصوصًا أن الفرق في العمر بينه وبين أخويه كان يبلغ عشرة أعوام واثنى عشر عامًا، ولكن كارل لم يكلف نفسه عناء إخفاء مشاعره.

ربما لم تكن الأمور لتصبح بهذه الصعوبة بالنسبة إلى بوب لو كان يشبه ناثان بدلًا من كاميرون، ربما ساهم ذلك في تخفيف حدة والده واعتداءاته المتكررة تجاهه، ولكن لأن بوب يتسم بالبطء ويجد صعوبة في التعبير عن نفسه بالكلمات المناسبة في الوقت المناسب، فقد صَبَّ عليه كارل غضبه، ولم يكن في إمكان بوب أن يفهم سبب حدوث كل ذلك أو يتجنبه.

حاول ناثان أن يساعد بوب وأوضح له كل الأمور التي ينبغي له تجنبها حتى ينجو من غضب والده، ولكنه شعر بإحباط شديد عندما لم يستوعب بوب ما يقوله وحاول كاميرون أيضًا أن يفعل نفس الشيء، ولكن محاولته كانت بلا جدوى، ولم يستطع بوب أن يفهم المطلوب منه لإنقاذ نفسه.

نظر ناثان إلى بوب، لقد كبر ولكنه ما زال يفكر بنفس الطريقة.

قال ناثان: «حسنًا، إنك تعبت بقبر أبي وهذا شيء مقزز، ولكن كاميرون سوف يدفن في نفس المكان كما تعلم».

- نعم، ولكنه لم يدفن بعد، أليس كذلك؟

أعاد بوب نظره إلى لعبة الفيديو وزاد من حدة تركيزه في اتجاه الشاشة.

- على كل حال لن أفعل ذلك عند وصول كام، لا تقلق.

- لا أعلم.

نظر إلى بوب في حدة وتركيز وقال: «لقد كنت على وفاق مع كام، ولم تحدث بيننا خلافات مطلقًا، لقد كانت علاقتي بكام أفضل من علاقتك به على كل حال».

فتح ناثن فمه ليرد فأنقذه نداء من المطبخ بأن العشاء جاهز... فقال بصوت منخفض: «سوف تقتل شجرة الصمغ الأحمر، إن استمرت في فعل هذا على كل حال».

هَزَّ بوب كتفه وقال: «هل تظن أنني أهتم، إنها مجرد شجرة لعينة على كل حال».

كانت الأجواء المحيطة بطاولة العشاء في الداخل هادئة للغاية.

نظرت إلسي إلى ناثن الجالس بجوار زاندار. سألته وهي تبدي على وجهها تعبيرات محايدة: «كيف سارت الأمور هناك؟».

كانت ابنتاها تجلسان بجوارها ويبدو أنها كانت تحاول أن تتماسك في وجودهما وتحاول بجدية أن تحافظ على مظهرها الشجاع أمامهما.

- لقد قال جلين إنه سوف يتصل بك.

ثم أضاف: «وقد سمح لنا أن نعيد سيارة كاميرون، إنها بالخارج».

أومأت إليه إلسي إيماة صغيرة: «أشكر».

شعر ناثن بيد ناعمة توضع على كتفه، فتحرك جانباً ليفسح مكاناً حتى يسمح لليز بالجلوس، كان منظرها تحت الضوء الصناعي يبدو أوضح مما كان عليه في الخارج، فالسواد يحلق تحت عينيها، الجلد مشدود ولامع بشكل ملحوظ.

وضعت كاتي طبق الطعام أمامها فحدقت إليه ليز وفي وجهها علامات الحيرة، رَنَّ جرس الهاتف الموجود في الخارج فدفع كل من ليز وهاري مقعديهما إلى الخلف.

قالت ليز بحسم: «سوف أتولى الرد على الهاتف، ربما يكون جلين».

سألت إلسي بمجرد أن غادرت ليز الحجرة: «ماذا قال جلين لكم؟».

- لا شيء، لم يُضف شيئاً لا نعرفه، ولكنه سألنا بعض الأسئلة حول الحالة النفسية والعقلية لكam، وسألنا عن المزرعة وباقي الممتلكات وكيفية إدارتها.

سألت إلسي وهي تنظر إلى هاري بتركيز: «وماذا أخبرته؟».

- ماذا تتوقعين أن أقول له، أخبرته أن كل شيء يسير هنا على ما يرام ولكن كاميرون كان يشعر بالقلق بسبب شيء ما.

- هل سألك عن هذا الشيء؟

- بالطبع.

- وماذا حدث؟

لم يبدُ على وجه هاري أي مظهر من مظاهر التعبير، ولكنه كان شديد التركيز على وجه إلسي.

- أخبرته أنني لا أعرف شيئاً، ولن أستطيع أن أقدم له إجابة في هذا الشأن وربما كان من الواجب عليه أن يوجه لك مثل هذا السؤال.

ألقت إلسي نظرة على بنتيها اللتين بدأتا في متابعة ما يحدث، ثم قالت: «ربما يكون من الأفضل أن نكمل هذا الحديث لاحقاً».

لعدة دقائق لم ينبعث من قاعة الطعام سوى صوت أدوات المائدة وهي تصطدم بالأطباق، وصوت عقارب ساعة المطبخ وصوت ناثان وهو يسعل من أجل إخراج بعض بقايا الطعام المحشورة من أعلى حلقه.

التفت ناثان إلى هاري: «أعتقد أنني سوف أذهب إلى تل ليمان في الغد من أجل إصلاح برج تقوية الإرسال».

قال هاري: «سيكون هذا أمراً طيباً، وأعتقد أن بوب يمكنه مساعدتك».

أوماً بوب برأسه، حين نظر هاري إليه.

قال ناثان: «لا بأس، سوف أصطحب معي زاندار».

هَزَّ هاري رأسه: «إنه طريق طويل وجهاز الراديو لا يعمل، من الأفضل أن تصطحب بوب كذلك».

فتح ناثان فمه للرد، ثم توقف عن الإجابة عندما ظهرت ليز عند الباب ووجهها ثابت بشكل غريب. وقالت موجهة حديثها إلى إلسي: «جلين يرغب في التحدث إليك».

فقامت إلسي من مكانها وتوجهت إلى خارج المطبخ.

قال هاري: «ما الخطب؟».

- لا شيء، كل شيء على ما يرام.

ثم ألقت ابتسامة سريعة وهي تنظر إلى الفتاتين. وتابعت: «هاري، أحتاج إلى أن أقول لك شيئاً ما في الخارج على وجه السرعة، إن لم يكن لديك ما يمنع».

لاحظ ناٲان علامات الحيرة تظهر على وجهي بوب وزاندار وسمع ثلاثتهم صوت الباب الأمامي يُغلق. بينما تبع هاري ليز إلى الخارج. وسمعوا طنين أصوات هامسة قادمة من الشرفة فتوقف الجميع عن الأكل، ونسوا وجبات الطعام الموجودة في أطباقهم تمامًا.

مرت دقيقة كاملة ولم يعد أحد من الخارج فبدأ الجميع بإمساك شوكلاتهم، وتناول الطعام ببطء ومر وقت آخر شعروا بأنه طويل للغاية.

سمع ناٲان صوت أقدام متسارعة تسير في الردهة الخارجية وفتح الباب الأمامي مرة أخرى، وغمغم صوت آخر في الشرفة بالإضافة إلى الأصوات الموجودة في السابق، كان الصوت غير مسموع ولكنه كان يحمل نبرة الإلحاح واضحة في نبراته.

انتظر ناٲان برهةً أخرى، ولكن لم يعد أحد إلى المطبخ. فدفغ في النهاية مقعده إلى الخلف ووقف في مكانه: «سوف أعود بعد دقيقة».

حملت فيه ستة أزواج من الأعين.

توقفت المحادثة تمامًا عندما خرج ناٲان إلى الشرفة. توقف هاري عن الحديث ولم يكمل الجملة التي كان يقولها، ورفعت ليز رأسها إلى الأعلى وكانت تلف ذراعها حول جسدها بإحكام.

والسي التي كان يبدو عليها أنها تنقل نظرها في البداية بين الحين والآخر ركزت عينيها بثبات تجاه ناٲان، لم يفهم ناٲان ما الذي تحاول أن تخبره بذلك الفعل، أم أنها لا تقول شيئًا، بينما كان ضوء المصباح الأصفر الباهت يلقي بوجهه الضعيف فوق وجوههم.

- ما الذي يحدث؟

لم يُجب أحد على سؤاله.

حاول مرة أخرى: «هل يمكن أن يخبرني أحد عما قاله لكم جلين؟».

ألقي هاري نظرة في اتجاه ليز.

- لقد كان يفحص تقارير الشرطة السابقة في عصر اليوم، ليكتب تقريره ووجد شيئًا ما يخص كامبيرون.

عبس ناٲان: «هل فعل كام خطأ ما؟».

قالت ليز بحسم: «لا».

ضمت إلسي شفيتها: «على ما يبدو فقد اتصل أحدهم بمركز الشرطة منذ شهرين ليسأل عن كاميرون».

ثم نظر هاري إلى ليز وقال: «يجب عليك أن تخبريه، فقد تحدث جلين إليك وأخبرك بكل شيء».

هزت ليز رأسها وسرت رعشة قصيرة حول عنقها ثم نظرت إلى إلسي. فهزت إلسي رأسها في حالة من الضيق وأشارت بيدها بصبر نافذ: «بحق المسيح، أخبره يا هاري بما حدث».

تنهَّد هاري: «اتصل شخص ما بمركز الشرطة، ولكن جلين لم يكن موجودًا ليتلقى هذا الاتصال، لقد كان في إجازة طبية لمدة أسبوع أو أكثر من ذلك، هل تتذكر هذا؟».

قال ناثن: «ليس تمامًا».

- كان الرقيب مات يغطي مكانه، إنه رقيب الشرطة المختص بحفظ الأمن في سانت هيلين ودائمًا ما يحل محل جلين في غيابه، وهو شرطي جيد على كل حال.
- حسنًا.

- لاحظ جلين إدخالًا بسيطًا في السجل ولم يفهم فحواه، فسأل مات عن فحواه، فأخبره أنه تلقى مكالمة من امرأة قالت إنها كانت تعرف كاميرون في الماضي، وسألته إن كان ما زال يملك نفس المزرعة ويعمل فيها.

سافرت إلسي بعينيها إلى الليل والسماء مبتعدة عما يقال، بمسافة ألف متر وأكثر.

استمر هاري في الحديث: «أجابها مات، بأنه ما زال يعمل ويعيش في نفس المكان، وعرض أن يحمل له رسالة منها ولكنها قالت إنه لا داعي لذلك فما دام في نفس مكانه القديم فسوف تتواصل معه بنفسها».
شعر ناثن ببذرة من القلق تسربت بداخله وبدأت بالنمو.
- حسنًا.

طبعًا لم يفكر مات كثيرًا في هذا الأمر في البداية، ولكنه أتى على ذكره إلى كامبيرون عندما قابله في المدينة بعد عدة أيام وهو يظن أنها ربما صديقة أو حبيبة قديمة أو شيء من هذا القبيل.

ضمت إليسي ذراعيها أمام صدرها بغضب.

قال هاري: «لكن كامبيرون لم يبدو سعيدًا لمعرفة أن تلك المرأة تسأل عنه، لذلك طلب من مات ألا يحدثه عنها مرة أخرى، وألا يعطيها أي بيانات تخصه للتواصل، مثل الرقم البريدي أو الإيميل أو رقم التليفون، وظن مات أن هذا أمرٌ منطقيٌ خصوصًا لو كانت حبيبة قديمة»، نظر هاري إلى إليسي نظرة ذات مغزى، «فالعلاقة بين الأحباء القدامى لا تخصه على كل حال، ولذلك كتب ملاحظة صغيرة في الدفتر، ولم يكن لديه الكثير ليفعله»، زادت التجاعيد في وجه هاري، «وبقي الأمر على حاله، حتى وقعت الأحداث الجديدة».

ثم أضاف: «رأى جلين الواقعة في السجل، وتوجه بالسؤال إلى مات حول الملاحظة التي كتبها، وأعتقد أنه من الأفضل أن يتصل بنا ليعرف إن كان اسم هذه المرأة يدق الأجراس في أذهاننا».

- حسنًا، لا داعي أن تبقي تلك الحالة من التشويق يا صديق وأخبرني من هي.

كانت ليز تتفحص لوحات الأرضية وإليسي ما زالت تنظر في الخارج باتجاه الأفق.

- اسمها جينا مور.

أطلق ناثن زفرة طويلة: «تَبًّا».

لم يكن قد سمع ذلك الاسم منذ ما يزيد على عشرين عامًا، وكان عليه أن يعصر ذهنه حتى يستخرج من الذاكرة كل الذكريات المدفونة التي غطاها التراب بفعل السنين. لماذا نهضت تلك الذكريات مرة أخرى وفرضت نفسها على الساحة في هذا التوقيت؟ لم تكن أجراس عيد الميلاد ما يدق في رأس ناثن عندما أخبره هاري باسم هذه المرأة، بل كانت أجراس الخطر.

الفصل الرابع عشر

اتجهوا إلى تل ليمان مباشرة بعد بزوغ الفجر، كان نااثان يقود السيارة ويجلس إلى جانبه بوب، وزاندار يجلس في المقعد الخلفي. عدل نااثان المرآة الأمامية، بينما ارتفعت الشمس خلفهم وكادت أشعتها الحمراء الساطعة أن تصيبه بالعمى.

انطلقت السيارة غربًا في اتجاه الصحراء والسماء العالية التي تمتد أمامهم بامتداد الأفق بلا نهاية، بحلول الوقت اللازم للوصول إلى حافة الطريق ثم الاتجاه في المسار المؤدي إلى الشمال سوف تظهر أمامهم الكتبان الرملية، والقمم الضخمة التي تمتد إلى مئات الكيلومترات أمامهم، بدايةً من الطريق الشمالي وبامتداد الطريق المتجه إلى الجنوب.

ساعد زاندار نااثان قبيل أن ينطلقا على جمع أدوات الإصلاح الخاصة بعمود التقوية واصطحب كذلك كتيب التعليمات الذي كان موجودًا في سيارة كاميرون، وجد زاندار كل المعدات والأدوات المطلوبة في سيارة كاميرون، لو لم يكن كاميرون جاد العزم في الذهاب إلى برج التقوية من أجل صيانته، لماذا حرص على أن يحمل معه كل المعدات؟ يعتقد نااثان أن كاميرون كان يعمل جاهدًا على إخفاء نيته الحقيقية.

اختفى المنزل عن الأنظار -تقريبًا- من خلفهم، عندما انحنى زاندار إلى الأمام في مكانه على المقعد الخلفي سائلًا: «إذًا، ما قصة هذه المرأة التي يهمس الجميع حولها؟».

كان من الواضح أن الفضول قد تملك منه بشكل كامل، لا يمكن أن يلومه نااثان على ذلك، فقد توقّف الجميع عن تناول طعام العشاء بسرعة بسببها،

بينما وقف هاري وليز وإلسي وناثان في الشرفة يتهامسون ويتحركون في دوائر متوترة ويدورون حول أنفسهم.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى وضعت صوفي ولو رأسيهما الصغيرين على فتحة الشرفة محاولتين سماع ما يجري في الداخل وتبعهما زاندار. عندما أدركت إلسي ما يحدث جمعت الفتاتين وأخذتهما إلى الداخل ثم اصطحبتهما إلى الفراش ولم تُعد إلى المجموعة في الخارج مرة أخرى.

بينما نظر ناثان إلى زاندار الواقف على حافة الشرفة وقال له: «ليس الآن يا صديقي». فهزَّ زاندار رأسه على مضض، وانصرف.

بدأت ليز تمسح دموعها الخافتة التي تتسرب من داخل عينيها الحمراء، وتشعر بتيبس في أطرافها جعلها تضطر في النهاية إلى أن تعود إلى الداخل دون أن تنطق كلمة واحدة.

استمر هاري في الحديث حتى حان موعد إيقاف المولد الكهربائي، فاتجه إليه وترك ناثان الذي اتجه بدوره إلى الأريكة المخصصة لنومه، ولكنه بقي مستيقظاً وهو يجلس عليها لساعات طويلة. خلال الليل كان صوت بكاء خافتاً يسري في المنزل، ولم يستطع ناثان أن يحدد مصدره.

مع بزوغ أول ضوء للنهار شعر باحترق في عينيه ومع تسرب الضوء إلى داخل المنزل، فَرَكَ عينيه بأصابعه مما جعل الأمر أكثر سوءاً.

قال بوب وهو جالس في مكانه بالمقعد المجاور للسائق: «جينا مور، إنها المرأة التي يشعر الجميع بالقلق بسبب ذكراها».

سأله ناثان: «هل تسمع الكثير عنها مؤخراً؟».

كان ناثان يعلم أن كل الأحداث المرتبطة بجينا مور حدثت في الماضي، بينما كان بوب صغيراً، لم تكن سنه تزيد على سبعة أعوام في ذلك الوقت.

هزَّ بوب كتفه: «ربما سمعت القليل».

أدرك ناثان في تلك اللحظة أن كلاً من بوب وزاندار ينظران إليه بترقب منتظرين إخبارهما بما حدث، ظهرت أمامهم بقرة تعبر الطريق ببطء، فاضطر ناثان إلى أن يبطن من سرعة السيارة حتى يسمح لها بالعبور، ولكن البقرة توقفت تماماً في منتصف المسافة وأغلقت الطريق وأدارت رأسها في اتجاههم ثم أخذت تنظر إليهم نظرة ميته لا تحمل أي انفعال. اضطر ناثان

إلى أن يوقف السيارة وينتظر، ثم أطلق بوق السيارة ولكن البقرة لم تتحرك من مكانها، كل ما هنالك أنها رمشت بعينيها ببطء شديد.

- بحق المسيح، تحركي ولو لمسافة صغيرة.

وضع ناثنان السيارة على وضع الانتظار وقفز منها، وتحرك في اتجاه البقرة ببطء، كان ذلك كفيلاً بأن يحركها من مكانها، ظهر خلفها قطيع صغير ينتظر على الجانب الآخر، بشكل تلقائي أسرع ناثنان الخطى في اتجاهه، وبدأ بفحصه بعناية، بدا عليه علامات الصحة والتغذية السليمة. لا بد من أن كامبيرون أو بوب أو حتى هاري أيًا يكن قد أولاه عناية فائقة حتى يستطيع بيعه بسهولة في السوق في الوقت المناسب.

لم يزد اهتمام ناثنان بالموقف على هذا، وعاد إلى السيارة. مال إليه زاندار بملل بمجرد أن جلس في مكانه وقال: «يجب عليك أن نخبرنا من هي جينا مور؟». نظر ناثنان إلى الطريق الممتد أمامه وأدرك في هذه اللحظة أنه لم يضطر من قبل إلى أن يحكي تلك القصة بصوت عالٍ لأحد، وأنه عندما حان الوقت ليحكيها لم يكن يعرف من أين يجب عليه أن يبدأ، ولكنه اضطر إلى أن يبدأ الحديث في نهاية المطاف على كل حال.

قال ناثنان: «لا بد من أن الأمر حدث منذ فترة طويلة للغاية، فقد كنت في التاسع عشر من عمري، وهذا يعني أن كامبيرون كان في السابع عشر من العمر وقتها، نعم، لقد كان في السابع عشر فلم يكن قد بلغ السن القانونية بعد».

ضحك بوب ضحكة مستمتعة وهو جالس على المقعد المجاور للسائق ساخراً من ذلك الفتى الصغير الذي لم يكن بلغ السن القانونية لتناول الكحول في ذلك الوقت، كان بوب يضحك بحماسٍ حقيقي.

- كانت نفس الفترة من العام تقريباً، الفترة التي تسبق أعياد الميلاد وتسبق بداية العام الجديد، حيث يكون الجميع في منازلهم، أو يكونون في طريقهم إلى العودة إلى المنزل مرة أخرى بعد غياب، يعود الجميع إلى منازلهم في ذلك الوقت، يعود الأطفال من مدارسهم ومن جامعاتهم، ويعود الرجال من وظائفهم ومن جميع مشاغلهم طوال العام المنصرم. كان كامبيرون في عطلة الدراسة، فقد كان طالباً في السنة الأخيرة وملتحقاً بمدرسة داخلية في بريسبان، بينما كان ناثنان يقسم وقته بين العمل

في المزرعة وبين المغازلة وتبادل القبلات مع جاكى واكر ابنة كيث واكر، الفتاة ذات جدائل الشعر الذهبي التي تقطن بالجوار.

أضاف ناثنان: «كانت هناك حفلة في خارج المدينة عند الكثبان الرملية، لا يمكنني تذكر الشخص الذي نظّم ذلك الحفل، ربما بعض الشباب من أثرتون حسبما أعتقد، على كل حال قاد الجميع سياراتهم إلى هناك، بعض الأطفال في سنواتهم النهائية للمدرسة، بعض الرحالة والعمال المتجولين، عمال محطات الخدمة وما إلى ذلك، معظم الحضور كانوا قد أنهوا دراستهم الأساسية، لذلك كانوا أقرب إليّ في العمر مما هم أقرب إلى كام لكنه كان موضع ترحاب طوال الوقت، كان الجميع يعرفه على كل حال».

تداعى الذكريات إلى ناثنان بخصوص تلك الليلة، كانت ليلة سعيدة، ذات جوّ دافئ بلا حرارة زائدة، والسماء الداكنة مرصعة بالنجوم اللامعة، التي أمكنهم مشاهدتها وهم يوقفون سياراتهم وعرباتهم ذات الدفع الرباعي على الرمال.

شخص ما أشعل نيران المخيم، وبدأت الموسيقى تنبعث عالية في المكان، وزجاجات الشراب بدأت تظهر من مكان ما وتنتشر في أيدي الحاضرين.

توجّه ناثنان بسيارته إلى الكثبان الرملية بصحبة كاميرون، وبمجرد أن وصل استطاع أن يحدد مكان جاكى وهي تجلس بالقرب من نيران المخيم. كانت بصحبتها فتاة أخرى، وكانتا تضحكان على شيء ما، بينما تفك جاكى جدائل شعرها الأصفر الكثيف الذي يلعب بفعل انعكاس الوهج البرتقالي للنيران المشتعلة. كانت كلتا الفتاتين تشرب البيرة وبمجرد أن لمحت جاكى ناثنان حتى منحنه واحدة من الابتسامات العذبة التي اعتادت أن تمنحه إياها مؤخرًا، كاد ناثنان يسقط وهو يخرج من خلف عجلة القيادة ويترك السيارة. ونسي تمامًا أمر أخيه الذي كان يجلس بجواره، ولم يتذكر أمره إلا بعد أن رآه يسير خلفه ولمح خياله الطويل الممتد يرتعش على الأرض بفعل أضواء اللهب المنبعث من نيران المخيم.

قال ناثنان: «الفتاة الأخرى هي جينا مور، التي تعمل لدى والد جاكى في المزرعة، هي فتاة إنجليزية التحقت للعمل في المزرعة مع صديقها، ولكنه اضطر إلى البقاء في المزرعة لأداء بعض الأعمال، ولم يستطع أن يصحبها إلى الحفلة فجاءت بصحبة جاكى دونه».

كانت حفلة جيدة بها الكثير من الضحك والثرثرة، وكانت زجاجات البيرة المنعشة لا تنفد من أيدي المدعوين، الذين لم يقابلوا بعضهم بعضًا منذ فترة طويلة وصلت إلى عدة سنوات في بعض الحالات، لذلك هم في حالة اشتياق أو هكذا كان حال أغلبهم.

زاد عدد الحضور في الحفلة مع تدفق حفنة كبيرة من الأشخاص، ثم عاد عدد الحضور إلى الانخفاض مرة أخرى بينما بدأت الخمر تدور بالرؤوس، واختفى بعض الأزواج خلف الكئبان الرملية المعتمة للاستمتاع بالحفل لأقصى درجة ممكنة. كان بعض المختفين يعرفون بعضهم بعضًا في السابق، والبعض الآخر التقوا في الحفلة لأول مرة، ولكن ذلك لم ينك من المتعة في شيء.

انتظر ناثن أن يتجه خلف أحد الكئبان بصحبة جاكي ليحظيا بنصيبهما من المتعة. كان يخطط ألا يبيت في المنزل في تلك الليلة، وكذلك كان لجاكي نفس الخطة حيث كان في انتظارهما منزل خالٍ في المدينة يخص أحد الأصدقاء. عرف كاميرون بذلك وهو يجلس في مؤخرة السيارة ويستعد للحصول على غفوة قصيرة وهما في الطريق إلى الكئبان الرملية. كان ناثن يحيط جاكي بذراعه وهي تبتسم في اتجاهه، بينما شعرها يتألق في ضوء المخيم. يشع ناثن بالسعادة مما يحدث، وبيبتسم معجبًا بالحياة، وحسن صنيعها تجاهه في ذلك اليوم.

لا يدري ناثن متى أدرك أن كاميرون وجينا قد توافقا معًا، ربما عندما نهضت جينا من مكانها بجوار نيران المخيم لتجلب زجاجتين من البيرة لها ولكاميرون بعد أن انتهيا من الزجاجتين اللتين كانا يشربانها، رفعت جينا يدها إلى الأعلى وشدت جسمها فتطلع كاميرون إلى جسدها في شغف ولم تمنع جينا عندما لاحظت ما يفعله. سارت جينا ببطء إلى صندوق البيرة البارد، ثم عادت ببطء وجلست مرة أخرى إلى جوار كاميرون والتصقت به، استطاع ناثن أن يدرك ما يحدث بينهما بكل وضوح.

قال ناثن: «حسبما أتذكر فقد كانت جينا أكبر سنًا، ربما بلغت العشرين في ذلك الوقت».

كان كاميرون في مرحلة مربكة من حياته فهو مراهق في زي المدرسة ذو شعر مخلوق ووجه ملتهب بعلامات البلوغ، بدا وكأنه عامل في المزرعة، بجسده القوي وساعديه المفتولين وكتفيه العريضتين، يمكن لأي شخص أن

يحسبه رجلاً ناضجاً. وخصوصاً في أضواء المخيم المرتعشة وتحت تأثير الكحول الذي يجعل الرؤية ضبابية والعقل كذلك.

قال ناثان: «كان من الواضح أنها مهتمة بكاميرون، وأنه يبادلها نفس الاهتمام، كان الجميع يعلم أن جينا لديها صديق في المزرعة، ولكن ذلك لم يبدو أنه سيمنعها من فعل كل ما يدور بعقلها، ولم يكن أحد منا يمانع من حدوث أي شيء ما دام هي لا تمنع بذلك. لم أرها تتحدث كثيراً مع أحد بخلاف كاميرون في تلك الليلة، كان الليل لهما وحدهما فصَبَّ كُلُّ منهما تركيزه على الآخر».

بعد أن تناول ناثان بعضاً من زجاجات الشراب، أدار بصره تجاه جينا فوجد أنها ما زالت بجوار نار المخيم ولكنها قد أرخت رأسها واستلقت فوق قدم كاميرون، قال لها كام شيئاً ما فضحكت ثم قال لها شيئاً آخر فرفعت جسدها واقتربت بوجهها بالقرب من وجهه، كان كلُّ منهما يحمل زجاجة بيرة بإحدى يديه، واليد الأخرى لكلُّ منهما تتشابك مع بعضها بعضاً.

عندما نظر إليهما ناثان مرة أخرى، وجدتهما يتبادلان القبلات، ويد كاميرون تتوغل داخل شعر جينا المصفوف على هيئة ضفائر صغيرة. فكَّر ناثان في أن يناذي أخاه الأصغر ويتبادل معه بعض الكلمات الموجزة، ولكنه كان يخشى غضب كاميرون إن فعل.

تمددت جاكي فوق كتف ناثان وهمست بشيء ما في أذنه وهي تداعبها برؤوس أصابعها، لقد حان وقت الرحيل بشكل مفاجئ.

ألقوا مفاتيح سيارة ناثان في اتجاه كاميرون، وطلبوا منه أن يُرجع جينا إلى المدينة لاحقاً عقب نهاية الحفلة، أو يتأكد أنها ستعود بصحبة شخص آخر، ثم انطلقا إلى منزل صديقهما الخالي بأقصى سرعة، تحملهما سيارة جاكي الحمراء ذات الدفع الرباعي.

نظر ناثان في هذه اللحظة في مرآة السيارة الخلفية إلى زاندار وقال له: «لقد تركت الحفلة مع والدتك في ذلك الوقت حتى أطمئن أنها عادت إلى المدينة في أمان».

ابتسم بوب وتظاهر زاندار بأنه لم يفهم ما حدث بينهما بعد ذلك.

- في صباح اليوم التالي، التقينا صدفة بعض الأشخاص الذين كانوا موجودين في الحفلة، فتاة كانت جاكي تعرفها في السابق ورجلين من أثرتون، وقد أخبرونا بكل ما حدث بين كام وجينا في تلك الليلة.

ألقي ناثان نظرة أخرى على زاندار الجالس في المقعد الخلفي، وتردّد قليلاً. حتى قال بوب وهو يجلس في مكانه على المقعد المجاور للسائق: «تقصد، أنهما توافّقاً في تلك الليلة؟».

- نعم يا بوب، هذا ما حدث، أشكرك.

تذكّر ناثان أن الأمر كان مضحكاً للغاية، لقد ضحك الجميع عندما أخبروهم بالقصة، لقد تمكن كامبيرون برايت من أن ينال من الفتاة في تلك الليلة خلف الكتيبان الرملية وهو لم ينته بعد من سنوات دراسته الأساسية.

قال ناثان: «هذا كل ما حدث مع القليل من الترتبة والحكايات عن الليلة الماضية، تطفو على السطح في صباح اليوم المشرق الجميل الذي تلا الحفلة. وجدت كام ينام وعلى وجهه ابتسامة سعيدة في المقعد الخلفي لسيارتي، ويغطي جسده بكيس النوم الخاص بي، تركت جاكبي في طريقها للبحث عن جينا بينما اتجهت بصحبة كام إلى المنزل».

أضاف ناثان: «كانت جينا تنام في الركن المخصص للعاملين بالحانة وبصحبتها عدد من العمال المؤقتين، كانت على ما يرام وهي تركب السيارة بجوار جاكبي في الطريق إلى المزرعة. كانت هادئة بعض الشيء، ربما لشعورها بالجوع أو الإحراج مما حدث الليلة الماضية، وربما كانت تعاني آثار ما بعد الثمالة، ولكنها كانت بخير، هذا شيء مؤكد، كما أنها لم تذكر كامبيرون بكلمة واحدة، وبالطبع لم تسألها جاكبي عن ذلك الأمر».

وبعد فترة من الصمت أضاف ناثان: «ظل كامبيرون يبتسم مثل الأحمق طوال طريق العودة إلى المنزل، وهو يجلس على المقعد المجاور لناثان وينظر إلى الطريق من شباك السيارة الأمامي واستمر الأمر على نفس الحال لمدة يوم كامل لم يتغير».

أكمل ناثان: «ظل كامبيرون مبتسمًا، حتى جاءت تلك المكالمة في فترة ما بعد الظهر من اليوم التالي».

انحنى زاندار إلى الأمام بدرجة أكبر وقال: «ثم ماذا؟ ماذا حدث بعد ذلك؟».

- ثم قالت جينا إنها لم تكن بخير بسبب ما حدث في تلك الليلة.

الفصل الخامس عشر

بعد أن ترك سماعه الهاتف أصبح كارل برايت في أسوأ حالة من الحالات التي كانت تنتابه طوال الوقت، كان غضبه من النوع المفاجئ، النوع الذي لا يمكن بعده التنبؤ بما سوف يفعل بعد ذلك، وهو ما جعل ناثنان في حالة شديدة من الخوف.

جمع كارل ابنيه الأكبران صائحًا: «أنتما الاثنان، تعاليا إليّ هنا».

تدافع كامبيرون وناثنان في الطريق إليه وكلُّ منهما يخشى أن يكون الأخير في الوصول، ووقفوا وظهراهما في اتجاه الحائط، بينما أشار كارل إلى الهاتف. كان صوته ناعمًا لدرجة جعلتهما يدركان أنهما في انتظار شيء سيئ.

- حسنًا، ما هذا الهراء الذي سمعته عن إحدى الفتيات؟

كان بوب في هذه اللحظة يتطلع من خلال الشباك في المقعد المجاور للسائق على الطريق الطويل الممتد أمامهم، بينما ناثنان ينظر أمامه في صمت. مال زاندار إلى الأمام مرة أخرى محاولاً أن يدرك المشاعر القديمة التي استيقظت خلال الحكاية، ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئًا.

عاد ناثنان ليكمل حديثه: «بدأ الناس ينشرون القصص عما حدث بين جينا وكامبيرون في الحفلة، ووصلت تلك الحكايات إلى صديق جينا الذي اكتشف ما فعله كام، ولم يكن سعيدًا بما حدث، كما يمكنكما أن تتصورا».

توقّف قليلاً، ثم عاد إلى حديثه مجددًا: «والشيء التالي الذي علمناه، أن جينا وصديقتها الحميمي قد اتجها إلى ائمرکز الطبي في المدينة بعد ذلك، وبداخل العيادة تحدثت جينا مع ستيف فيتزجيرالد، عندما كان أصغر سنًا كان وجهه غضًا في تلك الفترة وملامحه هادئة وطيبة، وبعد أن انتهت من حديثها معه عبرت الشارع بصحبة صديقتها الحميمي وتوجّها إلى قسم الشرطة».

تحدثًا إلى الرقيب الذي كان موجودًا في قسم الشرطة وقتها، والذي قدم لهما فنجانَي الشاي ودعاهما إلى الجلوس. لم يكن الرقيب جلين هو المختص في ذلك الوقت، ولم يكن ذلك الرقيب الموجود يشبه جلين في أي شيء على الإطلاق. بمجرد أن انصرفًا من قسم الشرطة اتصل الرقيب بعائلة برايت على الفور، وأطلع كارل على ما حدث كونها نوعًا من المجاملات التي يقدمها أحد السكان المحليين إلى ساكن آخر.

ما زال ناثان حتى هذا اليوم يستطيع تخيل النظرة التي ظهرت على وجه ليز عندما عرفت بما قيل داخل قسم الشرطة، حيث ظهر على وجهها تركيبة من شعورين مختلفين، كانت خليطًا من الرعب وعدم القدرة على التصديق. سأل زاندار: «ماذا قالت جينا لرجال الشرطة؟».

قال ناثان: «إنها لم تكن ترغب في ممارسة الجنس مع كاميرون، ولكنها كانت مخمورة لدرجة لم تستطع معها أن تمنعه أو توقفه عما يفعل».

سادت حالة من الصمت الثقيل داخل السيارة. ثم قطع الصمت زاندار وهو يقول بصوت حائر: «هل اتهمت العم كاميرون باغتصابها؟».

قال ناثان: «هذه الكلمة لم تُقل في ذلك الوقت، ولم يستخدمها أحد مطلقًا». ثم أضاف: «قال الشرطي إنها لم تستعمل تلك الكلمة في بلاغها، ولم تنطقها على الإطلاق».

أرادت ليز على الفور أن تصطحب كاميرون إلى المدينة بالسيارة، وتحدث إلى ستيف فيتزجيرالد وإلى رقيب الشرطة بعد ذلك، وربما تتحدث كذلك مع جينا هي الأخرى إن أتاحت لها الفرصة لتفعل ذلك. كان هدفها أن تكشف الحقيقة وتعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ولكن كارل منعها من ذلك وهو يقول بصوت عالٍ إن الفتى لن يذهب إلى المدينة ليصبح هدفًا سهلًا ينال منه الجميع لمجرد أن عاهرة حقيرة مارست معه الجنس ثم غيرت رأيها بعد ذلك في صباح اليوم التالي.

في ذلك الوقت ابيضَّ وجه كاميرون وظهر عليه الخوف الشديد ولم يسأله أحد عن رأيه فيما يحدث.

أكمل ناثان حديثه وهو يثبت عينيه على الطريق الترابي الممتد أمامه: «الاتهامات التي أطلقتها جينا انتشرت في المدينة خلال خمس دقائق، وأصبح الجميع يعلم بما قالت».

توقّف ناثان عن الحديث لمدة دقيقة ثم أكملَ قائلاً: «لكن الكثير من أبناء المدينة كان حاضراً الحفلة ورأى كل ما حدث بينهما طوال الليل فقد كانت جينا منجذبة له طواعية ولم تبتعد عنه وفقاً لرغبتها، لقد رأى الجميع ذلك، أنا رأيت ذلك والودتك رأّت ذلك».

سأله زاندار: «هل اتفق جميع الذين حضروا الحفلة على نفس الشيء».

أجاب ناثان: «اتفق الجميع على نفس الرواية، حتى إن الأشخاص الذين لم يحضروا الحفلة اقتنعوا بها ولاموا جينا على ما حدث، فقد كانت جينا تكبر كاميرون بثلاث سنواتٍ لعينة، وكاميرون ما زال طفلاً في نهاية سنواته الدراسية، فما الذي دفع تلك الفتاة الناضجة إلى أن تقدم المشروبات الكحولية لهذا الطفل الصغير طوال الليل؟ ما الذي دفعها إلى ذلك بحق المسيح؟ كان كاميرون صغيراً جداً من الناحية القانونية حتى يتناول الشراب، كما كان في الحفلة العديد من الفتيات، فلماذا لم تحاول إحداهن أن تستغل هذا الفتى القروي الصغير كما فعلت جينا؟ ما الذي دفع جينا إلى أن تذهب بصحبة كاميرون خلف الكتبان الرملية؟ ولماذا لم تصرخ طالبة النجدة لو حاول إجبارها على شيء لا ترغب في حدوثه؟ كل ما كان عليها لتحمي نفسها هو أن تصرخ ولم يكن ليلومها أحد لو فعلت، لماذا سمحت له بعد كل ما حدث أن يقود بها السيارة ويعيدها إلى مكان سكنها في المدينة...؟ حسناً، ربما كان هناك بعض الشك في صحة روايتها، ولكن لماذا اختارت كام برايت! فلم يكن سوى طفل، وكان طفلاً محبوباً محدود الخبرة، ربما لم يكن يفهم حقيقة ما حدث في تلك الليلة خلف الكتبان الرملية».

استدار ناثان بالسيارة عندما وصل إلى منعطف حاد فأصدرت عجلاتها أزيزاً حاداً بينما مرت فوق جسم صخري صلب.

صاح بوب بصوت عالٍ: «انتبه، في هذا المكان تقريباً منذ أيام سربت إطاراتي الهواء، يجب أن تحذر».

- هل الطريق من هنا؟

أشار ناثان إلى طريق ممتد وظهرت قمة تل ليमान على مسافة بعيدة في الأفق. ثم نظر إلى بوب نظرة خاطفة وهو يقول: «لقد ظننت أنك كنت في الطريق لمقابلة كاميرون قادماً عبر الطريق الشمالي؟».

استمرت السيارة بالسير على الطريق المتعرج وهي ترتج بشدة فاضطر ناثنان إلى أن يعيد بصره إلى الطريق ويراقبه بتركيز حتى لا تنقلب السيارة بالموجودين داخلها.

قال بوب: «كان الطريق الشمالي رملياً وزلّقا، فاضطرتُّ إلى الدوران حوله لأتجنب المخاطرة، سوف أنبهك إن اقتربنا من بقعة زلقة أو قطعة صخرية حادة حتى لا تتضرر السيارة».

حاول ناثنان أن يركز في الطريق ولكنه كان مشغولاً بحساب الوقت الذي كان بوب في حاجة إليه ليقابل كاميرون بناءً على المعلومات الجديدة.

عندما قاطعه زاندار بسؤاله: «ما الذي حدث بعد أن تحدثت جينا مع الشرطة؟».

أمعن ناثنان التفكير لبضع لحظات في الإجابة ثم قال: «لا شيء، لم يحدث شيءٌ في الحقيقة».

ثم استدرك قائلاً: «حسناً. لم تكن الأمور بخير، لقد استمر التوتر لمدة يوم أو يومين كاملين، إذ كان الأمر غريباً بالنسبة إلى كارل برايت الذي اعتاد أن يوبخ أبناءه كما يحلو له، ولكنه لم يكن راضياً على أن يتحدث الناس بأشياء سيئة عنهم في العلن، وخصوصاً لو كان حديثهم يدور حول كاميرون، لكن المشكلة التي تخص جينا بوجه عام انتهت حتى قبل أن تبدأ».

سأله زاندار متعجباً: «ماذا؟ بهذه البساطة؟».

- نعم، لقد هدأ صديق جينا بمرور الوقت، ثم أخبرتني جاكى لاحقاً أن جينا وصديقها توجَّها إلى أبيها وأخبراه أنها يريدان الرحيل، وأن ذلك سوف يكون أفضل للجميع فأعطاهما ما تبقى من أجرهما، وحرماً حقائبهما في صباح اليوم التالي ورحلا، وكان هذا أمراً جيداً بالفعل وانتهت القصة عند هذا الحد، هدأ كاميرون واختفى شحوب وجهه بالتدريج وعاد إلى طبيعته في خلال أسبوع، لم تقدم في حقه شكوى رسمية على كل حال، وظل سجله القانوني نظيفاً وهو الأمر الذي لا يمكن أن نصف به العديد من سكان المدينة، كان ذلك منصفاً في الحقيقة فلا يمكن السماح لطفل جيد مثل كاميرون أن يفسد حياته من أجل نزوة عابرة مع فتاة متجولة، استيقظت في الصباح وهي تشعر بأعراض الندم والصداع الناتج عن شرب الخمر.

عاد زاندار إلى الخلف واستقر في الجلوس على مقعده.

- ولم يسمع أحد عن جينا مرة أخرى؟

- على حد معلوماتي.

- حسنًا، ولماذا ظهرت الآن؟

- هذا سؤال جيد.

كان كاميرون مستعدًا أكثر من اللازم، هذا ما خطر بذهن ناثان وهو يقف فوق تل ليمان، نجح ناثان في الوصول إلى تل ليمان وحافظ على أن تكون جميع إطارات السيارة سليمة فلم يتعرض أيٌّ من الإطارات الأربعة إلى الضرر بسبب طبيعة الأرض الخشنة.

أوقف ناثان السيارة في منطقة رملية ناعمة ليتفادى أن تتضرر الإطارات من طول الانتظار، ثم خرج هو وبوب من السيارة لفحص عمود التقوية الذي يقف عاليًا في الشمس.

استطاع ناثان أن يدرك بسهولة أنهم ليسوا في حاجة إلى كتيب الإرشادات لإجراء عملية الإصلاح بدقة، فقد طبع كاميرون كل التعليمات المطلوبة وحرص على أن يبقيها معه قبل أن يترك المنزل في صباح اليوم السابق لآخر يوم في حياته، كما كان لديه في السيارة كل العُدَد والأدوات اللازمة لعملية الصيانة.

وقف ناثان أعلى تل ليمان، ولم يجد في عمود التقوية عيبًا خطيرًا يصعب إصلاحه، كانت مجرد مشكلات صيانة عادية، كل ما عليه فعله هو تنظيف البرج من الرمال والحصى المتراكمة وربط بعض المسامير بشكل جيد واستبدال بعض الأسلاك التالفة وسيصبح كل شيء على ما يرام، لم يكن الأمر يتطلب رجلين لإصلاحه على كل حال، وقد كان على قمة تل ليمان ثلاثة رجال من أجل أداء تلك المهمة.

عمل ناثان على أداء الصيانات المطلوبة، وبقي الآخرون يشاهدون ما يحدث. بعد مرور ساعة كاملة قال ناثان موجهًا حديثه إلى بوب: «مرّر إليّ المفك الصغير يا بوب».

لم يصدر من بوب أي رد فعل وظل واقفًا وهو يولي ظهره للصحراء وذراعه مدلاة بجواره ناظرًا في اتجاه الأراضي التي تخصهم، بينما كان زاندار جالسًا في السيارة على بُعد مسافة صغيرة ينتظر التعليمات بتشغيل جهاز الاستقبال اللاسلكي من أجل تجربته.

- بوب، مرّر إليّ ذلك المفك الموجود هناك.

- آسف.

أعطى بوب المفك إلى ناثان وهو يقول: «معذرة، فقد كنت أفكر في بعض الأشياء».

قال ناثان بلهجة معترضة، بينما تصاعد زئير الرياح في نفس اللحظة ودخل بعض الحصى إلى فمه: «أوه، حسناً».

- كان يجب أن أتحرك في وقت مبكر.

نظر إليه ناثان باستنكار: «ما الذي تقوله يا صديقي؟».

أمسك بوب بصخرة صغيرة وقلبها بين يديه قبل أن يطيح بها بعيداً من فوق التل إلى الأسفل. تدرجت الصخرة لمسافة كبيرة ولم يكن هناك شيء يعوقها في طريق النزول، لم يكن تل ليمان تلاً عالياً بما فيه الكفاية، ولكنه كان مرتفعاً بما يتيح أن يحصل المرء على مشاهدة لمساحات كبيرة وممتدة من فوقه، حيث تظهر المساحات الواسعة من الأراضي الخضراء والصحاري القاحلة الحمراء.

استطاع ناثان أن يشاهد من الأعلى قطعان الماشية وهي تتجول بحرية ملقياً ظلالها على الأراضي الرملية والعشبية الممتدة التي تبدو صغيرة الحجم، في الاتجاه الآخر المؤدي إلى الغرب كان كل شيء هادئاً وثابتاً، والصحراء لا يبدو عليها التأثير بدوامات الرمال المتحركة بفعل الرياح.

كان ناثان يرى تلك المناظر الطبيعية الخلابة طوال الوقت ومن اتجاهات مختلفة، لذلك تعودَ تجاهلها في كل الأوقات، ولكنها ما زالت على كل حال تخطف الأبصار في بعض الأحيان وخصوصاً عند تجمع زاوية الرؤية والإضاءة المناسبة.

قال بوب وهو يُحدِّق إلى الأفق ناظرًا في اتجاه ظلال غامضة لا تتحرك: «ما كان يجب أن أنتظر كام لكل هذا الوقت اللعين، لقد جلست بداخل السيارة لفترة طويلة دون أن أفعل شيئاً. لا أعرف لماذا لم يمر أحد لإنقاذه، من المؤكد أنه شعر باليأس من عثوري عليه».

علم ناثان أن ما يقوله بوب صحيح، فمن السهل تمييز وجود سيارة متحركة في هذه الصحراء القاحلة الخالية من كل مظاهر الحياة.

قال ناثان بعد فترة من الانتظار: «هذا ليس خطأك يا صديقي، كان من الممكن أن يكون في أي مكان أو يكون بعيداً عنك لمسافة كبيرة فلا تعثر عليه مطلقاً».

قال بوب: «نعم أنت محق، ولكن حتى لو لم أستطع رؤيته والعثور عليه ربما استطعت أن أشعر بوجوده وأتوقع مكانه، ألا يحدث لك هذا في بعض الأحيان، خصوصًا عندما يكون الشخص قريبًا منك».

قال ناتان مستسلمًا وهو يوميء برأسه: «نعم، في بعض الأحيان يحدث شيء مشابه».

- حسنًا، هذا بالضبط ما أشعر به، لو كنت انطلقت بالشاحنة وعدت إلى الطريق قبل أن يحل الظلام ربما أطلقت الإنذار في وقت مبكر، وكان ذلك من الممكن أن ينقذ حياة كامبيرون.

طأطأ بوب رأسه ونظر في الأرض بينما كان زاندار يشاهد ما يحدث عن بُعد من مكانه داخل السيارة.

قال ناتان بعد فترة من الانتظار: «لو كنت في مكانك، كنت انتظرت داخل سيارتي مثلما فعلت».

نظر إليه بوب غير مصدق لما يسمع: «هل كنت ستفعل ذلك؟ أخبرني بالحقيقة».

- نعم، بالطبع، كان من المفترض أن تقابله في هذا المكان وانتظرت في هذا المكان، ما الخطأ في هذا؟

لم يُجب بوب على الفور وانتظر لبعض الوقت قبل أن يقول: «لقد كنت على خلاف معه، وظننت أن ذلك هو سبب التأخير، ولذلك لم أكثرث لأمره»، لم يرفع بوب عينيه لينظر في عيني ناتان، «لقد ظننت أن سيارته سقطت في حفرة، أو أن أحد إطاراته قد ثقب، ومن الأفضل أن أتركه يعتني بذلك الأمر بمفرده لأنني كنت غاضبًا».

- لماذا؟

- كان هذا غباءً مني، فلم يكن هناك سبب حقيقي نتشاجر من أجله. أطلق بوب تنهيدة ثم تابع: «كنت أفكر في الذهاب إلى مدينة ديولستير لأصبح صيادًا محترفًا».

قال ناتان وهو يشعر بالمفاجأة: «هل كنت ستفعل ذلك؟».

لم يخطر على بال ناتان مطلقًا أن بوب سوف يفكر في ترك المزرعة يومًا من الأيام.

- نعم، فكرت في ذلك وربما كنت سأفعل، وما المانع في ذلك؟ كانت لهجة بوب دفاعية، لكن ناثن لم يكن يرى مانعاً من تنفيذ ما يقوله، بل إنه ظن أن صيد حيوان الكنغر⁽¹⁾ باستخدام البندقية ربما سيعجب بوب، كما أنه يعتبر النشاط الرئيسي في مدينة ديولستير لذلك سيجد الكثير من فرص العمل.

كان ناثن قد مرَّ عبر هذه المدينة الصغيرة النائبة عدة مرات في طريقه إلى الشرق. وشاهد اليوتس⁽²⁾ المعدلة وهي واقفة ويتم تجهيزها للخروج في مهمة ليلية للصيد، حيث تُعدُّ الكشافات الضوئية وتُنَبَّتُ البنادق فوق الأبواب حتى يمكن إطلاق النيران من نوافذ السيارات المفتوحة، وفي خلفية السيارة أقواس كبيرة ومسننة تُعلَّقُ الجثث فوقها، بهدف تسليمها إلى نقطة محددة خارج المدينة، حيث تُحصَى ثم يُسَلَّمُ الصيادون مكافآتهم، وتتحول جثث حيوانات الكنغر بعد ذلك إلى طعام للحيوانات الأليفة ومصدر للفراء لمستهلكيه، وتدور عجلة الاقتصاد المرتبطة بعملية الصيد.

سأله ناثن: «هل كنت ستفعل ذلك، بالفعل؟».

هَزَّ بوب رأسه: «نعم، لقد اعتقدت كام أن هذا تصرف غبي، وطلب مني أن أبقى، وأتابع سير العمل هنا في المزرعة».

- حسناً، لكنك لم تكن في حاجة إلى الحصول على موافقة كام من أجل الرحيل.

- لا، لم أكن في حاجة إلى موافقة أحد ولكنني كنت في حاجة إلى بعض المال، بعض النقود الملعونة، لا يهوى الجميع الاستثمارات طويلة الأجل والعمل في المزارع، ولكنني كنت في حاجة إلى بعض النقود لشراء المعدات وإصلاح السيارة اللاند كروزر، وإيجار مكان لإقامتي وخلاف ذلك من الاحتياجات.

(1) صيد حيوان الكنغر ممنوع في أستراليا، ولكن الحكومة الأسترالية تصدر عددًا معينًا من تراخيص الصيد حتى لا تتفاقم أعداد الحيوانات لدرجة يصعب السيطرة عليها، ويقدر عدد الحيوانات التي تُصَاد سنويًا بقرابة 3 ملايين. (المترجم).

(2) مصطلح يطلق في أستراليا على السيارات التي تحتوي على مكان لتحميل السلع والبضائع خلف مقصورة الركاب. (المترجم).

حدَّق بوب تجاه الشمس وصعب على ناثن فهم التعبيرات التي ظهرت على وجهه.

- لم أكن أطلب شيئاً لا يخصني، أردت فقط أن أحصل على بعض المال من نصيبي، لا شيء أكثر من ذلك.

- ولكن كام رفض؟

- لم يرفض بشكل مباشر، ولكنه طلب مني أن أعيد التفكير في الأمر، أن أنتظر حتى بداية العام القادم لأتأكد من أنني سوف أفعل الشيء المناسب.

- هذا طلب منطقي.

قال بوب بشكل متحمس: «حسناً، وما رأيك أنت في هذه الفكرة؟».

- لا أعلم يا صديقي.

كانت طريقة بوب وكاميرون في التفكير مختلفة، وكانت أولويات كلٍّ منهما مختلفة ولكن كاميرون على الأرجح كان محقاً عندما اقترح على بوب أن يعيد التفكير في الأمر.

- هذا يعتمد عليك يا صديقي، مثل هذه الأمور يجب ألا تتم بشكل متسرع، لقد بعث جزءاً بسيطاً من ميراثي وندمت على ذلك.

- نعم، أنت محق، حسبما أعتقد.

بدا الإحباط على وجه بوب فشعر ناثن بغصة في إجابته، من المحتمل أن يصبح أخوه صياداً مثالياً.

قال ناثن: «اسمع، ربما تكون خطتك غير سيئة».

- نعم، هي ليست سيئة، ولكن من سيخبر كام بذلك؟

سادت لحظات من الصمت المخرج، ثم هز بوب كتفيه: «حسناً، سوف تنجح الخطة، لقد فكرت فيها بشكل جيد، ولم يكن هناك ما يمنعني عن تنفيذها سوى توافر المال اللازم، والمال ليس شيئاً مهماً لكل الناس».

- نعم، المال غير مهم بالنسبة إليّ.

- حسناً، هل حصلت على ترخيص لبندقيتك؟

- لا، لم أفعل.

- صدقاً، لم تحصل على ترخيص لبندقيتك حتى الآن؟

- لا، لم أفعل.
- وما السبب؟
- لقد انتهى الترخيص القديم، ولم أجدده.
- هل تمزح يا صديقي؟ ومتى انتهى ترخيصك القديم؟
- منذ بضعة أشهر، لا أعرف.

انتهى ترخيص البندقية منذ ستة أشهر تقريبًا، شعر ناتان بأن شيئًا تغيَّرَ بداخله منذ وفاة الكلبة كيلى، لقد اتصل به ستيف على الهاتف من العيادة وجعله يجيب عن بعض الأسئلة عن مشاعره وحالته النفسية وما إلى ذلك من أشياء، حاول ناتان أن يخفف نبرة الحزن من لهجته في أثناء الحديث ولكن على الرغم من ذلك بدأ كلُّ من جلين وستيف بالمرور بالصدفة بالقرب من ممتلكات ناتان والحضور إلى المنزل من أجل زيارته.

بدأ ناتان يشعر بالشفقة حيالهما فهما يقطعان طريقًا طويلًا في أوقات متأخرة من أجل زيارته والاطمئنان على حاله، ويفعلان كل ذلك بأعذار ملفقة ومكشوفة. لذلك عندما اقترب ميعاد تجديد رخصة سلاحه الناري فضَّلَ ألا يبدأ بإجراءات التجديد حتى يبعد وجود السلاح عن ذهنيهما فلا يزيد من شعورهما بالقلق، على الأقل هذا ما دار بداخل عقله.

كان ناتان يعرف بأن هناك قائمة ما بالأشخاص الذين يجب عليهما مراقبة أفعالهم وأنه لا محالة واحد من الأسماء في هذه القائمة. وربما يقع اسمه في أعلى القائمة، وربما كان الاسم الأول فيها، في كل الأحوال، تنبيههما إلى وجود أسلحة نارية في منزله لم يعجبه، وسوف يثير أعصابهما ويحرصان على ألا تبقى تلك البنادق بحوزته.

اضطر ناتان في النهاية إلى أن يسلم كل أسلحته النارية إلى جلين، ومنذ ذلك الوقت وباب الخزانة المخصصة لحفظ بنادق ناتان يتأرجح مفتوحًا على مصراعيه، أصبح ناتان معتادًا كلما مرَّ من أمامه أن يقف لبعض الوقت أمام الخزانة ويتأمل الرف الفارغ.

نظر ناتان إلى ابنه الجالس في السيارة، ثم قال موجهًا حديثه إلى بوب: «اسمع، لا تخبر زاندار شيئًا حول الحوار الذي دار بيننا، إنه يتصرف بغرابة في بعض الأحيان».

ظَلَّ بوب ينظر إلى زاندار لبعض الوقت وكأنه يعترف بأن ناثن محقٌ فيما قال عن ابنه، شعر زاندار بأن الحديث يدور حوله فأخرج رأسه من نافذة السيارة وقال بصوت مرتفع عبارة ما، ولكن أصوات صياحه ضاعت بفعل الرياح القوية.

قال ناثن: «ماذا تريد يا صديقي؟».

فتح زاندار باب السيارة ومضى في اتجاههما.

- هل هناك خطأ ما؟

- لا، هل أنت بخير؟

- حسنًا، لا شيء، ربما...

ثم توقَّف ناثن عن الحديث وقال مستدرِّكًا: «اسمع، إن والدتك لم تخبرك بشيء مما حدث في تلك الليلة، أليس كذلك؟».

قال زاندار: «ماما».

كانت طريقة زاندار موحية بطريقة تؤكد أنه كان يفكر في الأمر طوال الساعات الماضية التي قضاها بصحبتها في السيارة، ثم ظهر عليه الاستياء. عندما كان زاندار في الخامس من عمره أهداه العم كام مهرًا صغيرًا يسمى السيد تيباس، وصل المهر إلى منزل زاندار معتمرًا بقبة من القش وتطل أنزاه الطويلتان من فتحات صنعت خصيصي في القبة من أجلهما. استقبل زاندار المهر بوجه متورد من شدة الفرحة، وظل لعدة أشهر يتصل بالعم كامبيرون تليفونيًّا بشكل أسبوعي ليخبره عن السيد تيباس وحكاياته ومغامراته معه.

- نعم، الكل في ذلك الوقت تساءل عن موقف جاكى مما حدث، فقد ظلت جينا وجاكى ثلاث ساعات بمفردهما في السيارة في ذلك اليوم، خلال طريق العودة إلى المنزل، ربما ظلت جينا هادئة طوال الطريق، ولكن جاكى كانت هادئة هي الأخرى، ولم يكن ذلك بسبب تأثير الكحول على ما أعتقد.

قال زاندار: «لا بد من أن ماما كانت ستساعدها، لو علمت أن مكروها أصابها».

- أي شخص في هذا الموقف كان سيساعدها فنحن بشر، ولسنا وحوشًا.

- أنا لم أقصد ذلك.

- نعم، أنا أعرف، ولكن لو قالت جينا شيئاً ما حول ما حدث، لا بد من أن أمك كانت ستقدم لها المساعدة.

كان ناثن يعرف أن جينا لم تشتك من شيء قط بعد ما حدث بينها وبين كاميرون خلف الكئبان الرملية، وأن كاميرون لما عرض عليها أن يوصلها بالسيارة إلى المدينة وافقت حتى لو كان ذلك لأنها لم تجد الكثير من الخيارات البديلة في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

كان ناثن يعرف أيضاً أن سيارة كام توقفت أمام الحانة تلك الليلة وقد استطاع مالك الحانة أن يميز الجسدين الشابين وهما يميلان في اتجاه بعضهما بعضاً ويتبادلان القبلات وهما جالسان على المقاعد الأمامية للسيارة من خلال الضوء الأصفر الباهت الذي يضيء الشارع، ثم خرجت جينا بعد ذلك قافزة من السيارة وابتعدت تحت الضوء الأصفر حتى وصلت إلى المجمع السكني الذي يخص العمال والرحالة.

- قال مالك الحانة للجميع في صباح ذلك اليوم إنها بدت بخير وفي حالة طبيعية تماماً، ولم تشتك من شيء على الإطلاق.

قال زاندار: «ولم تشتك جينا إلى أحد في المدينة صباح ذلك اليوم، ولم تخبر أحداً بشيء؟».

قال ناثن: «لا».

بدت الحيرة على وجه زاندار.

فبعيداً عن طبيعة كاميرون الجيدة وبعيداً عن كل ما حدث في تلك الليلة خلف الكئبان الرملية، بعيداً عن الرأي العام الذي تكوّن تجاه الحادثة، فقد رأى الجميع جينا تجلس في المقهى في صباح اليوم التالي منتظرة جاكبي، بينما كانت تشرب الشاي وتأكل المخبوزات وهي في حالة طبيعية، وكان قسم الشرطة والعيادة الطبية على مرأى من بصرها طوال الوقت ولم تفكر للحظة واحدة في التوجه إليهما.

قال ناثن: «على حد معلوماتي، فإن جينا لم تتفوه بكلمة واحدة حتى سمع حبيبها بما حدث خلف الكئبان الرملية من بعض الذين حضروا الحفلة».

نفذ ناثن بعض حبات الغبار عن قميصه، وتوجه بنفسه ليجرب جهاز الاستقبال اللاسلكي ليتأكد من أنه يعمل بشكل جيد.

قال زاندار: «إنه أمر غريب للغاية أن تتصل جينا بالعم كام في ذلك التوقيت بالذات، وعلى الرغم من كل ما حدث».

قال ناثنان: «نعم، جرّب جهاز اللاسلكي مرة أخرى».

- حتى لو كانت مصادفة فإن التوقيت...

- نعم، التوقيت سيئٌ للغاية، جرّب جهاز اللاسلكي.

لم يتحرك زاندار من مكانه.

- إذًا، هل تظن أن شيئًا سيئًا حدث بالفعل خلال الحفلة؟

- لا، لم يحدث شيء، لو حدث لها مكروه لكانت صرحت بذلك على الفور.

وتحرّك ناثنان في اتجاه السيارة وفتح الباب ثم مدّ يده ليجرب جهاز الاستقبال بنفسه. استطاع ناثنان أن يسمع وقع خطوات زاندار تتبعه.

- حسنًا، لو كنت تظن أن شيئًا لم يحدث في ذلك الوقت، ما هو ظنك الآن؟

- لا شيء يا صديقي، لم يحدث شيء في تلك الليلة.

سمع ناثنان أصواتًا من خلال جهاز اللاسلكي فقال: «حسنًا، برج محطة التقوية يعمل بشكل جيد، نستطيع أن ننصرف».

- لكن، ماذا لو كان...

قال ناثنان بصوت أعلى مما كان يتوقع: «اسمع»، فتراجع وسحب نفسًا عميقًا حتى يهدئ من أنفاسه، ويخفض حدة صوته ثم تابع: «نحن نتحدث عن عمك كام، أنت تعرفه جيدًا، إنه فرد من العائلة، أليس كذلك؟ ألم تكن تعرفه؟». خفض زاندار رأسه وقال: «نعم، أنا أعرفه».

- لقد شعر كام بالصدمة عندما سمع بما قالته جينا.

كان ذلك صحيحًا فقد جلس كاميرون في الشرفة في ذلك الوقت، يبكي وينتحب، ما دفع ليز إلى الاقتراب منه، فركت يديه واحتضنته وقربت أنفها من أنفه مغلقة عينيها.

- نعم، كان كاميرون واضحًا وصريحًا بشأن ما حدث تلك الليلة، وقد حكى لنا ما حدث عدة مرات، كما قصه على رجل الشرطة، على جدك وجدتك، على العديد من سكان المدينة.

ثم أكمل ناثنان حديثه قائلاً: «قابل كام جينا في الحفلة، اتجها بالفعل إلى خلف الكُتبان الرملية، تبادلا القبلات ومارسا الحب، ولكن كليهما كان سعيدًا

بما يحدث، وجينا فعلت ذلك بإرادتها، لم تخبره تلك الليلة عن أنها مرتبطة بشخص آخر، لم تخبره عن عدم رغبتها في قضاء الوقت بصحبته، لم تخبره عن شعورها بالانزعاج بسبب شيء مما حدث بينهما، لم تقل شيئاً مطلقاً في أثناء ممارسة الجنس معه ولا بعد أن انتهيا منه».

عاد ناثان ينظر إلى برج التقوية مرة أخرى.

قال زاندار بطريقة جعلت ناثان ينظر إليه مرة أخرى، وجعلت بوب يتوقف عن تعبئة الأدوات في السيارة مرة أخرى بعد أن انتهت مهمة الصيانة ويتوقف لمراقبة ما يحدث بعد أن طوى ذراعيه وعقدهما أمام صدره: «كيف يمكن أن يعرف أي شخص مهما كان حقيقة ما حدث في تلك الليلة»، بدأت عينا زاندار ترمشان بسرعة وظهر عليه التوتر، «إن الطريقة التي تحكي بها ما حدث، تجعل من المستحيل على أي شخص أن يتأكد بشكل قاطع من حقيقة ما حدث في تلك الليلة».

- إذا فقد أخبرتك القصة بشكل خاطئ.

- ليس الأمر كذلك.

توقفَ زاندار للحظة ثم قال: «لكن، يمكن لشخصين أن يتذكَّرًا نسخًا مختلفة من نفس القصة، وكل منهما يظن أن نسخته هي الحقيقية».

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟

- نعم، بالطبع، أنت وأمي تفعلان ذلك طوال الوقت.

- ولكن الأمر مختلف تمام الاختلاف يا صديقي.

- نعم، أنا أعرف، لكنني أحاول أن أوضح لك وجهة نظري، فالحقيقة أن ما يظن الآخرون أنه حدث في تلك الليلة أو ما رأوه قبل أو بعد ذلك لا يهم، لا يهم إلا ما حدث خلف تلك الكئبان الرملية بين كام وجينا وذلك شيء لا يعرفه أحد سواهما و...

توقفَ زاندار عن الحديث ولم يستمر في إطلاق الأفكار التي تكونت في داخله بصوت عالٍ ولكن لم يكن في حاجة إلى ذلك. فلم يكن هناك إلا شخصان فقط في تلك الليلة، وهما فقط من يعلمان بحقيقة ما حدث بينهما، وقد مات أحدهما.

الفصل السادس عشر

انفجر أحد الإطارات بعد مضي ساعة من انطلاق السيارة في رحلة العودة.
قال بوب: «نعم».

وهو يتفقد المناظر الطبيعية الخلابة على امتداد الأفق، ثم مسح بيديه على فخذه ناظرًا في اتجاه نااثان الذي يتصبب عرقًا بينما يبذل الإطار وشمس الظهيرة تلفح ظهره.

- لقد كنت قريبًا من هذا المكان عندما علقت بسيارتي، ما زلت أتذكر هذه الصخور الضخمة.

- هذا شيء رائع، كنت أتمنى أن تتذكر ذلك في وقت سابق لتحذيرنا.
كان نااثان يتحدث بلهجة عصبية بينما كان زاندار يحوم حوله في محاولة لتقديم المساعدة، غير مدرك أنه يعوقه عن إتمام مهمته في حقيقة الأمر.

- نعم، أنت محق.

- أعرف ذلك.

استغرق الأمر من نااثان ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة ولترين من الماء ليعيدهما مرة أخرى إلى الطريق بسبب درجة الحرارة المرتفعة.

لم يتكلم أحد طوال الطريق، الذي بدا أطول مما كان عليه في السابق بسبب حالة الصمت التي تلفهم. نظر نااثان في المرأة الخلفية تجاه زاندار الذي كان يُحدّق إلى الطريق بالخارج وعليه علامات التفكير العميق. واستمر ضوء النهار في النزيف تدريجيًا وهم في طريق العودة إلى المنزل، قبل أن يصلوا في النهاية بحلول المساء.

كان موعد العشاء قد اقترب وبإمكان ناثن أن يسمع صوت العمال المتجولين في المطبخ، وهم يغسلون أيديهم ويزيلون آثار الزيت والحصى من تحت أظافرهم نتيجة يوم عمل طويل، ثم اتجه إلى الحمام الصغير قرب الصالة الرئيسية وأعاد غسل يديه ليتأكد من نظافتهما قدر استطاعته.

توقف العامل عما يفعله حين لاحظ ضوءًا قادمًا من الخارج من حجرة المكتب الخاصة بالسي، وعندما علا الصوت دفع الباب إلى الخارج. كانت صوفي ولو ممددتين على الأرض محاطتين بالألعاب والكتيبات الملونة. لو كانت تستلقي في مقدمة الحجرة وشعرها الأصفر الرملي المنساب يخفي وجهها وهي ترسم شيئًا ما في كراسة الرسم، بينما كانت صوفي تجلس القرفصاء وهي تكافح للفوز بلعبة من ألعاب الفيديو تحملها بين يديها وتتحكم بها باستخدام ذراع واحدة.

جعله ذلك المشهد يتذكر علاقته بكام عندما كانا في مثل عمرهما، لقد كانا على درجة كبيرة من التقارب كأفضل صديقين، ربما كان ذلك ناتجًا من عدم توافر اختيارات بديلة، ولكنه كان ماتعًا على الرغم من كل شيء، لم تستمر العلاقة على نفس النمط بمرور الوقت.

قفزت الفتاتان في الهواء عندما شاهدتا ناثن.

قالت صوفي: «لقد أخفنتني، لقد اعتقدت أنك مومياء متحركة».

ردَّ ناثن: «لماذا شعرتما بالخوف؟ أليس مسموحًا لكما بالدخول إلى هنا؟».

دخلَ ناثن بكامل جسده إلى داخل المكتب، كان مرتبًا بشكل جيد وأنيقًا. وفي ركن المكتب مجموعة من الملفات والأوراق المرصوصة بشكل منظم، وكان السجل الخاص بالموظفين الذين عُيِّنوا خلال العام موضوعًا فوق سطحها وفي مقدمته بيانات سايمون وكاتي كونها أحدث إضافة. بالإضافة إلى سجل ضخم يحتوي على تواريخ سابقة لمدة عام قادم بكل المواعيد المهمة التي تخص التسليم واستقبال الفواتير ورعاية الماشية، وكل الأعمال التي من شأنها تسهيل رعاية المزرعة وتحسين أدائها، مرت عينا ناثن سريعًا بين السجلات.

قالت لو دون أن ترفع رأسها عن كراسة الرسم: «من المفترض أن تقرأ صوفي، لا أن تلعب ألعاب الفيديو».

- لهذا السبب كانت تشعر بالقلق؟ لقد فهمت.

لاحظ ناثنان مجموعة من العلامات الحمراء، فوق لوحة معلقة في الجدار مخصصة لتخطيط المواعيد، كانت كل العلامات مشطوبة وكل الكلمات المكتوبة بجوارها بخط أسود مشطوبة كذلك.

قالت صوفيا وفي صوتها لهجة تحدُّ: «على كل حال، لقد وافقت ماما على وجودنا في حجرة المكتب، لذلك فمن المسموح لنا الوجود هنا».

فردَّ عليها ناثنان: «إمممم، هل مسموح لكما الوجود في حجرة المكتب؟ لا أعلم». استمر تعلق ناثنان باللوحة المعلقة على الحائط، في الحقيقة كان يشعر أن الوجود بداخل هذه الحجرة شيء غير مسموح به للأطفال، لأنه لم يكن يدخلها وكذلك أخواه عندما كانت لوالدهم في الماضي، وكان يتحكم في كل شيء.

- من المسموح لهما الدخول إلى هنا.

جاء صوت إلسي من الخلف بالقرب من باب الحجرة. نظر ناثنان إليها فمحتة ابتسامة متعبة، ثم قالت موجهة حديثها إلى الفتاتين: «العشاء أصبح جاهزاً، استعدا يا فتاتان وابدأ في جمع أشياءكما».

كانت يدا ناثنان نظيفتين ولكنه بمجرد أن دلفت إلسي إلى داخل الحجرة حتى اكتشف أن ملابسه غير نظيفة، وأن قميصه مملوء بآثار العرق المتبسة الجافة، وهناك كومة من الغبار تملأ شعره.

لم يُظهر ناثنان أي رد فعل حيال إلسي سوى أنه اتخذ خطوة إلى الخلف واقترب من اللوحة المعلقة فوق الجدار. اكتشف ناثنان بمرور السنوات أن الأمر سيصبح أسهل بالنسبة إليه لو حافظ على وجود مسافة مادية حقيقية بينه وبين إلسي، ولكن هذا لم يمنعه من أن يسأل نفسه عن إمكانية معرفة كاميرون بما حدث بينه وبين إلسي في تلك الليلة بالمدينة، كان متأكداً من أن كاميرون لو عرف بذلك فلن يكون عن طريقه، على الرغم من أن ناثنان كان على وشك أن يخبره بتلك المعلومة مرة أو مرتين في السابق عندما كان كام يتعامل معه بطريقة فظة بعض الشيء.

كان من الممكن أن يسأل كاميرون إلسي بشأن ذلك، خاصةً مع معرفته بمدى اهتمام ناثنان بها في السابق، ولكنه لم يفعل على ما يبدو. لأنه لم يُثر الأمر معه على الإطلاق طوال تلك السنوات، فبدأ جلياً أن ما حدث بين ناثنان وإلسي في الماضي قد بقي سرّاً بينهما.

أبقى ناثنان بدوره الموضوع في طي الكتمان، وحافظ على فمه مغلقاً منذ اليوم الأول الذي قابلها فيه بداخل المنزل بصحبه أخيه، وحافظ على مسافة كبيرة بينه وبينها طوال الوقت منذ رآها في المطبخ في موسم أعياد الميلاد الأول، بعد أن عزله الجميع وحاصروه، لم يكن ناثنان يعتقد أن الناس يكونون أكثر تسامحاً في أعياد الميلاد، وخصوصاً أن جاكى قد صممت أن تمنع عنه زاندار في أعياد الميلاد ولو لبضعة أيام.

اقتصر فكر ناثنان على أن يكتفي في عيد الميلاد بجلوسه في غرفة مظلمة وحيداً مخبئاً رأسه بإحدى ملاءات الفراش حتى الصباح، ولكن ليز أصرّت على أن يحضر إليهم في المنزل ويمضي فترة أعياد الميلاد بصحبتهم، ظلت تفاوضه وتجادله بشكل مرهق حتى اضطر إلى الموافقة مستسلماً، ليتخلص من حالة الجدل المستمرة.

وصل ناثنان إلى مزرعة العائلة في ذلك اليوم وهو يشعر بالإجهاد بسبب القيادة والضجر بسبب الغبار الكثيف طوال الطريق، توجه ناثنان إلى المطبخ باحثاً عن زجاجة من البيرة الباردة فوجد إلسي بدلاً منها. استدارت لمواجهته وإبريق الماء في يديها، شعر ناثنان في هذه اللحظة بالسعادة والارتباك، ودار في ذهنه أنها جاءت خصيصاً لمقابلته، ولكن عندما دخل كاميرون من باب المطبخ وأحاط خصرها بذراعيه، شعر ناثنان بلكمة في معدته.

قال كاميرون: «هل تعرفان بعضكما بعضاً؟».

ظن ناثنان أن شقيقه يغمز إليه بعينيهِ فترنح رأسه، لم يكن ناثنان قادراً في تلك اللحظة إلا على الإيماء برأسه.

جلس ناثنان صامتاً طوال فترة العشاء بينما كان جميع أفراد الأسرة يتجاذبون أطراف الحديث مع صديقة كاميرون الجديدة، وكلما حاول أحدهم أن يجذب ناثنان إلى المشاركة في الحديث كان يرد بهمهمات غير مفهومة، لم يكن واثقاً بقدرته على المشاركة في ذلك الحديث وإخفاء مشاعره، وظل بعد العشاء يحوم في المكان ويتساءل إن كان يجب عليه أن يغادر في بساطة، حتى ظهرت إلسي فوجد نفسه وحيداً معها للمرة الأولى، كانت تقف على مسافة منه وحافظ هو على هذه المسافة حتى لا تصبح قريبة منه بدرجة غير مناسبة.

قالت إلسي: «من الجيد أن نتقابل مرة أخرى».

قال ناثنان: «أنا كذلك سعيد برؤيتك».

كان كلاهما يعني ما يقوله، ويشعر بنوع من السعادة، بالفعل.

- لم تعد إلى الحانة مرة أخرى بعد تلك الليلة.

قال ناثان: «لا، لم أفعل».

بدأ ناثان يحك ذقنه وفي داخله رغبة عارمة للجلوس معها مطولاً، حتى يخبرها بكل ما حدث معه خلال تلك الفترة. وكيف كان العبء ثقيلاً عليه وثقيلاً على عقله خلال الشهور الماضية. ويخبرها بمقدار الندم الذي يشعر به بسبب ما فعله مع كيث، وكيف يشعر بالخوف الشديد بشأن مستقبله، وكيف كان يقف خارج الحانة في انتظارها، وعجزه عن الحديث معها على الرغم من ذلك. غير أنه عندما سمع صوت كاميرون يتسرب خافتاً من خارج الحجرة، تراجع عما في عقله وقال لها بدلاً من ذلك: «لقد كنت أُمُرُّ ببعض الظروف الخاصة»، ثم أطلق زفيراً قصيراً، «لقد سمعتِ عن هذا».

وانتظرت إلسي أن يستمر في حديثه وعندما لم يستفِض قالت: «يبدو أنك تمر بوقت عصيب».

كان صوته متصدعاً ولكنه حافظ على نبرته بصعوبة: «سوف أكون بخير». أخذ ينظر إليها وهو يعلم ما يجب عليه أن يقوله. وبدأت عبارات الاعتذار تتشكل بالفعل على طرف لسانه، ولكن سمعا صوت باب يُغلق بعنف في مكان ما داخل المنزل فقفز كُلُّ منهما من مكانه.

تراجعت إلسي خطوة إلى الخلف، ثم تراجعت خطوة أخرى حتى أصبحت المسافة بينهما بعيدة جداً على أن يتكلما بسهولة. قالت بصوت يخلو من الارتياح: «في الواقع، لم أكن أتخيل أنني سوف أراك هنا».

- حسناً، إن كاميرون شقيقي.

- أنا أعرف، ولكنه أخبرني...

ثم توقفت عن الحديث.

- أنا آسفة، لم أكن أعرف أنه شقيقك في البداية.

أجبر نفسه على أن ينظر في عينيها مباشرة، ثم هَزَّ كتفيه وقال: «حسناً، لم يَعد الأمر يضايقني».

كان وجهه شديد التصلب.

حاولت أن تبتمس فتأخرت ابتسامتها قليلاً.

- هذا أمر جيد.

ظن ناثان بأن إلسي لم تكن تعلم فعلاً أن كاميرون هو شقيقه، ولكن كاميرون بالتأكيد كان يعلم عن إلسي ورغبة ناثان في مقابلتها، على كل حال فالإلسي امرأة ناضجة ولا يمكن أن يمتلكها المرء لمجرد أنه مارس معها الحب لمرة واحدة في مؤخرة سيارته. ربما كان ناثان مخطئاً بشأنها، ولكنه كان متأكدًا من أن كاميرون لم يكن مهتمًا بها حتى طلب منه ورجاه أن يساعده على رؤيتها.

- أرجوك يا كاميرون، هناك فتاة تعمل في البار، هي فتاة جميلة.

- نعم، لا بأس بها.

ولدت صوفيا بعد مرور عشرة أشهر، وتزوج كاميرون وإلسي بعد مرور أربعة أشهر من ميلادها.

لم يعد ناثان إلى منزله في تلك الليلة، ولكنه بدلاً من ذلك قاد السيارة لمدة ثماني عشرة ساعة حتى وصل إلى بريسبان ووقف على أعتاب منزل جاكبي وفي يديه اتفاق الحضانة المشتركة ووقفًا يصرخان في بعضهما بعضًا حتى جاءت الشرطة بناءً على اتصال شخص ما.

وقف ناثان في تلك اللحظة يشاهد إلسي تطلب من بنتيها تنظيم حجرة المكتب ورفع ألعابهما من فوق الأرض. كانت مشتتة ويبدو أنها تفكر في شيء ما وترغب في أن تسأله عنه، توقع أنها تفكر في جينا مور وترغب في معرفة المزيد عنها، ولكنها لم تكن تستطيع فعل ذلك لوجود بنتيها في الغرفة.

أشار ناثان -بدلاً من الخوض في ذلك الحديث- إلى اللوحة المعلقة فوق الحائط وسألها مشيرًا إلى الخطوط والعلامات المشطوبة: «ما كل هذه العلامات؟ هل كان كاميرون سيغير طريقة الرعي في العام القادم؟».

قالت إلسي: «أوه»، ثم تحركت ووقفت بجواره في عبوس بجانب اللوحة، «لا.. أعني نعم... كانت مجرد فكرة».

عبس ناثان وهو ينظر بتركيز محاولاً فك الرموز المكتوبة: «ماذا كان يقصد؟ هل كان سينتقل إلى هنا، ثم إلى هنا؟».

- نعم، ثم سيكرر نفس الأمر مرة أخرى لاحقًا.

ثم أمسكت بدفتر يوميات كبير وفتحته أمامه حتى يستطيع مشاهدة محتوياته. وتابعت: «كان ينوي أن ينتقل بين المراعي في هذه التواريخ»، أشارت بخفة: «حتى يتفادي الزحام الذي يحدث كل عام، ويضمن اللحاق

بمواعيد المشترين في أثرتون، أعتقد أنه كان سينسق الأمر معك كذلك إن كنت مهتمًا، حتى نقلل تكاليف عمليات الوزن».

عبس ناثن وهو يراها تقلب الصفحات المكتوبة بشكل أنيق. قال لها: «هل تعتقدين أن هذه الخطة كانت لتنجح؟».

- لا أعلم، لقد كانت فكرة بوب في الأساس، وقد رأى كام أنها تستحق المحاولة، لذلك حددت الفترة المناسبة للتنفيذ وعملت قائمة بالاحتياجات الخاصة بذلك.

أجاب ناثن وهو يشعر بالدهشة: «هل فكر بوب في ذلك؟».

- نعم، لقد سئم من تكرار الوقوع في نفس المشكلات عامًا بعد الآخر، ولذلك فكّر في هذه الخطة البديلة، قال كاميرون إن بوب جيد في هذه الأمور، ربما لأنه كسول بعض الشيء ويبحث عن الراحة ولكنه تشجّع على تجربتها لعلها تؤتي ثمارها.

سمع ناثن وقّع خطوات في الردهة الخارجية، بينما كانت الفتاتان تجمعان آخر ألعابهما من فوق أرضية حجرة المكتب، كانت لو تحصي عدد الألعاب بعناية وتفحص كل واحدة باهتمام، مما أسعد إلسي فنظرت إليها بإعجاب. فتح باب حجرة المكتب، رفع الجميع رؤوسهم لرؤية الشخص الذي فتحه، فأطل بوب برأسه وقال: «ماما أرادت أن أخبركما بأن العشاء جاهز».

لاحظ أن ناثن وإلسي كانا واقفين أمام اللوحة المعلقة فوق الجدار، فظهر انفعال غامض على وجهه بينما عبرت الفتاتان بجواره متجهتين إلى الخارج. اتجه بوب إلى الداخل وسألهما: «ما هو الأمر الذي كنتما تتحدثان بشأنه؟ هل تناقشان شيئاً دون أن تشركاني فيه، لماذا لا تخبرانني؟».

قالت إلسي: «كان ناثن يتساءل عن فكرتك الجديدة في تنظيم الرعي».

نظر إليها بوب في سعادة: «أوه، نعم إنها ليست سيئة، أليس كذلك؟».

أوماً ناثن برأسه في اتجاه اللوحة المعلقة فوق الجدار: «ولكن لماذا سُطِبَت بالكامل؟».

أجابت إلسي: «كان هناك بعض الأخطاء في الخطة، أراد كام أن يعيد النظر فيها ويحسنها لتصبح صالحة للتنفيذ في العام القادم، حتى يتأكد من نجاحها قبل إجرائه تغييرات كبيرة في عملية الرعي».

رَدَّ بوب بصوت عالٍ مُحْدِثًا ضَجِيحًا مرتفعًا: «أوه، حقًا؟ لم يعد كام هنا بعد الآن، وسأبشر تنفيذ الخطة مطلع هذا العام، الخطة بلا عيوب، الجميع يعرف ذلك، ربما كان عيبها الوحيد أنها لم تكن خطة كام، ولكنها كانت خطتي أنا، لو كان كام توصل إلى هذه الخطة ربما كان سينفذها على الفور، هكذا كانت تسير الأمور للعينة في هذه المزرعة والكل يعرف ذلك أيضًا».

ثم اقترب بوب من اللوحة المعلقة على الحائط ونظر إلى الملاحظات الموجودة في دفتر الملاحظات الخاص بالسي، وساد الهدوء في المكتب لعدة دقائق.

قال بوب بنبرة هادئة وبسيطة: «حسنًا، يمكننا أن ننفذ تلك الخطة الآن».

ثم أضاف: «يمكن أن ننفذها نحن الثلاثة».

أدرك ناثنان في تلك اللحظة أن بوب كان يفكر في ذلك الأمر طوال الوقت، فاستدار لمواجهة بوب وإلسي، شعر ناثنان أن هناك شيئًا ثقيلًا يحوم في الهواء حوله، وأن هناك أمرًا خفيًا يدور لا يعرف حقيقته، فغلبه بالغموض ولم يعرف ما يتوجب عليه قوله في هذا الموقف، فتراجع عن الحديث واكتفى بالصمت.

هَزَّ بوب كتفه: «على كل حال، يمكنكما التفكير في الأمر».

ثم اتجه ناحية الباب وهو يقول: «ولكن لا يوجد ما يمنعنا من تنفيذها على كل حال».

راقباه وهو يخرج من حجرة المكتب ثم هَزَّت إلسي رأسها وعلى وجهها تعبير غريب ثم قالت: «اسمع، ما قاله بوب عن كاميرون وتعطيله للخطة لأنها لم تكن من أفكاره، لم يكن هو السبب الوحيد، وبوب يعلم ذلك جيدًا»، ثم أعادت الدفتر الخاص بالملاحظات واليوميات مرة أخرى فوق سطح المكتب، وأضافت: «لا أعرف، لا يمكنني أن أفكر في ذلك الآن، ولكن كل التفاصيل في هذا الدفتر، يمكنك أن تطلع عليها لاحقًا».

ثم اتجهت إلى الخارج وتبعها ناثنان، الذي أطفأ الأنوار ليدع المكتب غارقًا في الظلام.

كانت حجرة المطبخ بعيدة وتشتع بالسخونة، وشعر ناثنان بالإرهاك بمجرد دخولها.

سألهم هاري وهو جالس في مقعده: «كيف كانت رحلتك إلى تل ليمان».

أجاب ناثنان: «نعم، لقد أصلحت العطل، لم يكن خطيرًا على كل حال».

- عليك أن تكون حذرًا، عندما توجد في تل ليمان.

جاء الصوت صغيرًا وكأنه يخرج من العدم، فاستغرق ناثن بعض الوقت حتى يدرك أن لو هي التي كانت تتحدث. لم تكن لو قد اقتربت من عشائها ولكنها بدلًا من ذلك كانت تمسك قطعة من الورق وتخدشها بالقلم فانتبهت إلسي لما تفعل وسألتها وهي تربت على شعرها: «ما هذا؟».

- كان من المفترض أن يذهب أبي إلى تل ليمان، ولكنه لم يذهب قط إلى هناك ولم يعد قط إلى هنا كذلك.

قالت إلسي: «لا علاقة لذلك بتل ليمان».

وظل الجميع صامتًا دون نطق كلمة واحدة لعدة دقائق.

قالت إلسي ويدها ما زالت تداعب شعر ابنتها: «لو.. هذا لا علاقة له بعودة أبيك».

أجابت لو: «أنا أعرف، لماذا لم يعد أبي، أنا أعرف السبب».

فسألها هاري قاطعًا حالة الصمت: «لماذا يا لو؟».

رفعت الفتاة رأسها إلى الأعلى فأدركت أن الجميع يراقبها فخفضته مرة أخرى.

- لويس، لقد وجهتُ إليك سؤالًا؟

- لا يهم، لا شيء مهم.

كان صوت لويس بالكاد مسموعًا.

وضعت إلسي ذراعها حول لو: «لا بأس يا حبيبتي، لا بأس».

فقال هاري: «اتركي لها فرصة للحديث يا إلسي».

- إنها لا تريد أن تتحدث.

- إنها من بدأت بالحديث منذ دقائق قليلة.

- إنها مجرد طفلة يا هاري.

- أريد أن أعرف ما الذي تقصده.

- إن إلسي تتصرف بطريقة صحيحة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها ليز منذ بداية العشاء، ثم بدأت بالبكاء مرة أخرى، كما استطاع ناثن أن يميز من نبرة صوتها، فقدت ليز الكثير من وزنها خلال الأيام الماضية، وزاد تجعد جلدها بشكل ملحوظ.

أضافت ليز: «أنت تخيفها يا هاري».

ظلت لو جالسة في وضع الثبات على المائدة دون حركة واحدة، ثم التقطت قلمها وبدأت بالرسم.

قالت لو هذه العبارة وهي توجه حديثها إلى الورقة: «أبي لم يعد مرة أخرى لأنه كان حزينًا. بسبب كل تلك الأشياء الضائعة».

سادت حالة من التنهد الجماعي المعبرة عن الارتياح حول المائدة.

- أوه، يا حبيبتي ليس هذا مرة أخرى، لا بأس يا لو.

وأمسكت إلسي يد ابنتها بقوة بين يديها، ثم لاحظت أن ناثن وزاندار قد بدا على وجهيهما الحيرة

فقالت: «إن لو تظن أن هناك لصًا وهي خائفة بسببه».

انترعت لو يدها وعادت لخربشة الورقة التي أمامها بشكل أكثر شراسة.

- حبيبتي، ليس هناك لص.

- إذًا هو شبح.

هزّت إلسي رأسها وهي تنظر إلى ناثن: «وليس هناك شبح كذلك»، ثم وجهت إليه حديثها: «إنها تعتقد بأن هناك بعض الألعاب المفقودة وبعض الرسومات الملونة بسبب لص أو شبح غامض، أليس كذلك يا لو؟».

- لم تضح، كان هناك شخص ما وهذا الشخص أخذها.

على الطرف الآخر من المائدة ضحك سايمون بطريقة غريبة وقال: «ربما كان بابا نويل».

كان يحاول أن يلف من الأجواء، ولكن لو نظرت في اتجاهه نظرة كفيلة بأن تقتل بقرة كبيرة، قائلة: «إنه ليس بابا نويل»، وأدارت رأسها بطريقة تدل على أنها تبغضه، «لقد كان شخصًا آخر، شخصًا شريرًا من فعل ذلك».

استاءت لو كثيرًا فاضطرت إلسي إلى أخذ القلم من يديها.

- لو يا حبيبتي، لو دخل شخص إلى المنزل لعرفنا بوجوده، أليس كذلك؟

ثم نظرت إلسي في اتجاه النافذة وشعر ناثن بشيء من التردد في صوتها: «كنا نعتقد أن بعض الأشياء قد اختفت من داخل المنزل، ولكننا وجدناها مرة أخرى، أليس كذلك؟».

تحرك زاندار داخل مقعده: «ما هي الأشياء التي اختفت؟».

قالت لو: «بعض من العابي وملابسي».

أجابت إلسي بحزم: «ولكننا وجدناها فيما بعد».

قالت لو وهي تدفع يد والدتها بعيدًا: «لم نجدها سريعًا، ولم نجد كل شيء»، ثم أضافت: «كما أن أبي لم يجد أشياءه المفقودة».

فسأل هاري: «ماذا تقصدين بذلك؟».

لم تُجب لو ومدت يدها بتوتر تجاه القلم الذي أخذته أمها، وأخفت وجهها خلف شعرها الطويل، فقال هاري بصوت حاد على نحو غير متوقع: «لا...».

- لو، من فضلك أجيبني يا حبيبتي. (انحنت إلسي إلى الأمام) ما هي الأشياء التي ضاعت من بابا؟

أجابت لو بصوت هامس: «أعتقد أنها كانت نقودًا».

جاهد ناثان ليسمع ما تقوله الفتاة بصوت منخفض.

- وأشياء أخرى، لا أعرف ما هي، ولكن أبي كان يبحث عنها جاهدًا ولم يستطع العثور عليها.

سألها هاري: «وما هو قدر المال المفقود؟».

فقالت إلسي بعصبية: «بحق المسيح، وكيف لها أن تعرف، إنها لا تستطيع أن تعد حتى المئة بشكل صحيح، كما أن كاميرون لم يفقد شيئًا يخصه، لا تجعل الأمور أسوأ مما هي عليه بالفعل».

ارتفع حاجبا لو: «لا يا ماما، لقد فقد بابا أشياء كثيرة، لقد كان هناك شخص ما في المنزل، أنا متأكدة من ذلك، لقد كان بابا يبحث في كل مكان».

صرخ شخص ما من الجالسين على الطاولة: «جينا».

ولكن لم يستطع ناثان أن يحدد مصدر الصوت حتى صاحت ليز بصوت غاضب ومرتفع: «بحق الجحيم يا بوب، أغلق فمك ولا تتحدث مرة أخرى، أنا أعني ذلك».

أضافت لو بصوت مرتفع: «لقد فقد أبي العديد من الأشياء، أنا أعرف ذلك، فقد كنت أراه يبحث في كل مكان، في المزرعة وفي الحظائر وحظائر الخيول، كان يبحث في كل مكان، لماذا لا تصدقيني يا ماما؟».

- الأمر ليس كذلك؟

بدا أن إنكار إلسي للأمر مستهجنًا من قبل ابنتها. فأضافت إلسي: «لو كان بابا فقد شيئًا ما، لماذا لم يخبر أحدًا بذلك؟».

- لأنه كان يعلم أنك لن تصدقيه بالضبط كما فعلتِ معي. (وبدأت لو بالصراخ) لقد احتفظ بالأمر سرًا، لأنك لم تكوني لتصدقيه.

سادت حالة من الصمت المزعج، ووضعت لو يدها على فمها كما لو كانت تريد أن تستعيد الكلمات مرة أخرى بعد أن نطقتها واصطبغ وجهها الصغير بدرجة قمينة من اللون الأحمر.

ظلت إلسي ساكنة لم تنطق شيئًا، ثم نظرت إلى ابنتها الكبرى التي ظهرت على وجهها علامات الصدمة، وكأن لا فكرة لديها عما قالته لو. استدارت إلسي ووجهت مقعدها في اتجاه لو حتى أصبحتا في مواجهة بعضهما بعضًا بشكل كامل.

- هذا أمر مهم للغاية، أخبريني بكل ما قاله لك بابا بدقة.

هزّت لو رأسها وعادت للصمت مرة أخرى.

قال هاري بصوت محبط: «بحق السماء».

فصاحت ليز بصوت يحمل نبرة تحذير واضحة: «هاري».

بدأت حيوانات الدينغو في العواء بالخارج مرة أخرى، يبدو من صوتها أنها قريبة من المنزل بدرجة كبيرة.

انحنى إلسي إلى الأمام حتى أصبح وجهها ملاصقًا لوجه ابنتها: «لو، لا بأس يا حبيبتي، أنت لست واقعة في ورطة، كل ما عليك فعله هو قول الحقيقة، هل أنت متأكدة من أن بابا كان يبحث عن شيء ما؟».

بدت على وجه الفتاة الصغيرة علامات الخوف والتوتر وهي تقول: «نعم، لقد رأيتُه وهو يُجري البحث».

- وهل أخبرك بابا أن تحفظي هذا السر ولا تخبري الجميع عنه؟

- لا، ليس الجميع؟ (ثم نظرت إلى أمها بقلق) لا، طلب مني أن لا أخبرك أنتِ وحسب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل السابع عشر

جلس ناثنان في الشرفة يراقب الليل الزاحف في اتجاه المنزل، كان انعكاس لون السماء الأحمر على الأرض يشبه النزيف الذي تزداد درجة لونه الداكنة مع الوقت، استمر النزيف حتى تحوّل كلُّ من الأرض والسماء إلى اللون الأحمر.

لم تعد لو قادرة، أو ربما كانت غير راغبة في أن تخبرهم بالمزيد من المعلومات المفيدة، ولذلك اضطرت إلسي إلى أن تصحبها في النهاية إلى الفراش.

ترك ناثنان الدفتر الخاص بملاحظات ومذكرات كاميرون من يده عندما اكتشف وجود جيتار قديم في خزانة القاعة الرئيسية.

كان زاندار في غرفته يقرأ شيئاً ما، لذلك اصطحب ناثنان دافي إلى الشرفة وجلس هناك، كانت أوتار الجيتار بلا انضباط، تصدر أصواتاً غير متناغمة موسيقياً، لذلك فأخذ يشد أوتاره ويعدل من وضعها.

عبر الفناء كانت عربة النوم الخاصة بالعمال المتجولين، ما زالت مضاءة واستطاع ناثنان أن يسمع همهمات أصواتهم، دون أن يتمكن من تحديد الكلمات المتبادلة بينهم، وإن كانت تبدو بسبب طبقة الصوت الواصلة إليه، كشجار بسيط. ولم يكن يستطيع أن يرى شيئاً كذلك من نافذة الحجرة، لذلك استمر في العزف على الجيتار بهدوء، في محاولة لإخراج نغمات سليمة، حتى سمع صوت الباب الأمامي وهو يفتح وجاء صوت يقول: «هذا الجيتار يخصني».

كانت صوفي تتكئ على باب المدخل ورأسها يلمع تحت بقعة الضوء الأصفر.

- آسف، لقد وجدته مصادفة.

- لا بأس، هل أنت من كتب هذه الأغنية؟
- ثم جلست أمامه بينما عاد للعزف مرة أخرى.
- نعم، كتبتها منذ عشر سنوات تقريبًا.
- وما اسمها؟
- كانت الأغنية مكتوبة من أجل إلسي ولكنه أجاب ببساطة: «لا، إنها دون عنوان، هل لديك عنوان مناسب؟».
- لا أعرف، إنها حزينة إلى حد ما، ولكن بها بعض الأمل على الرغم من ذلك، يمكن أن تسميها شروق الشمس أو شيئًا من هذا القبيل.
- كان اسمًا جيدًا بالفعل وأكثر ملاءمة من تسميتها باسم إلسي على كل حال، فابتسم وهو مستمر في العزف.
- إنها جميلة ولكن الجزء الختامي ليس بنفس الجودة.
- نعم، أنا أعرف، لم أتمكن من إنهاؤها بشكل صحيح بعد.
- لو لم تتمكن من ذلك على الرغم من مرور عشر سنوات، ربما يجب عليك أن تنسى أمرها.
- أعتقد أنك على حق، في غالب الأمر.
- منحها ناثان ابتسامة قبل أن يسألها: «وهل تعزفين أيضًا؟».
- نعم، حين لا أصاب بهذا.
- ثم أشارت بيدها السليمة إلى اليد المصابة.
- استمر ناثان في العزف لفترة أطول فقالت صوفي: «إنك بارع للغاية، في العزف».
- حاول أن يخفي المرارة من صوته: «لدي الكثير من الوقت للتدريب».
- هل تعزف بشكل يومي؟
- نعم، كلما استطعت ذلك، بدأت العزف عندما كنت في مثل عمرك.
- ظهرت على وجهها علامات الدهشة بشدة لدرجة أنه اضطر إلى أن يمنحها ابتسامة.
- كل يوم.
- بالتأكيد، باستثناء بضع سنوات لم أكن أملك فيها جيتارًا.

- ولماذا لم تكن تملك جيتارًا؟

تلاشت ابتسامة نااثان: «لقد كُسر».

كانت تلك الحادثة في الحقيقة، هي أوضح ما يملك من ذكريات عن والده، وعلى الرغم من كونها لم تكن أسوأ ما فعل معه على مر سنوات طويلة. فإنه كان يتذكرها بشكل كامل. حدث ذلك في نفس اليوم الذي حاول فيه كلٌّ من كاميرون ونااثان الهرب من المنزل وبعد تمكن كارل برايت من العثور عليهما عند قبر مربى الماشية.

ما زال نااثان يتذكر جلوسه في الجزء الخلفي من تلك الشاحنة خلف والده، والنظر إلى مؤخرة رأسه ورغبته في الصياح معترضًا على عودتهما إلى المنزل. كان السكون يُلْفهم فشعر نااثان بالخوف وخصوصًا أنهما لم يريا شخصًا آخر غير والدهما، ولا سيارة عابرة طوال طريق العودة.

لم يكن أمرًا مستغربًا عدم وجود شخص آخر طوال الطريق، ولكن نااثان كانت لديه رغبة في أن يلمح أحدًا يخفف من وطأة السكون، كان نااثان يحفظ كل تفاصيل ذلك اليوم بدقة، كما كان يعلم وقتها ما الذي ينتظرهما عند العودة إلى المنزل.

ولكن بغرابة شديدة خرج كارل برايت من السيارة دون أن ينطق كلمة واحدة وترك خلفه نااثان وكاميرون يتبادلان النظرات الملأى بالحيرة والقلق، خرج الطفلان من السيارة وسارا ببطء وظلاً مختفيين طوال اليوم في المنزل، ولكن العقاب الحقيقي الذي يتوجب عليهما الخوف منه كان سيتأخر حتى المساء.

بمجرد أن ألقى هاري تحية المساء وانصرف إلى حجرته الخاصة خارج المنزل، تابع كارل ببصره واطمأن لابتعاده بالقدر الكافي، وأطلق زفرة ارتياح قبل أن يصيح: «كلاكما، هيا إلى الخارج».

حاول نااثان أن ينظم أنفاسه حتى يهدأ من رد فعله، لم تعجب كارل حالة الخوف التي ظهر عليها ابناه، فطلب منهما إشعال النار، بدت الحيرة على وجه الصبيين فاقتربا منه ليستطيعا سماعه بوضوح، فكرر طلبه عليهما بصوت أعلى، ثم أمسك نااثان من كتفه ودفعه في اتجاه الأخشاب وتبعه كاميرون، لم يتحدث كارل واكتفى بالصمت وهو ينتظر أن تشتعل النيران بشكل جيد.

ظهر انعكاس النيران على وجه كارل برايت وهو ينظر إليهما، ثم طلب منهما في النهاية أن يعود كلُّ منهما إلى الداخل، ويجلب أعز وأغلى ممتلكاته على نفسه ويعود بها مرة أخرى. شعر ناثن باحترق في صدره وصعوبة في التنفس وهو ينظر إلى أشياءه، ثم قرَّر أن يخرج لوالده مصطحبًا دراجته، أمسكه والده من يده بقوة ونظر في عينيه نظرة مخيفة وهو يقول: «محاولة جيدة، أحضر أعز وأغلى الأشياء على نفسك، وإلا سأحرق كل شيء تجلبه إليَّ حتى تحضر الشيء الصحيح».

عاد ناثن إلى الداخل مرة أخرى، وعاد بعد فترة طويلة حاملاً جيتاره الحبيب، كانت يداه متعرقتين ترتعشان على رقبة الجيتار الخشبية، وبدأ يبكي ويتوسل إلى والده ألا يحطم الجيتار على الرغم من معرفته بأن هذه التوسلات سوف تزيد الأمر سوءًا.

كانت ليز حاضرة في ذلك اليوم والدموع تملأ عينيها وهي تتوسل ضارعةً إلى كارل: «أرجوك، يا كارل دَعِ الفتى يحتفظ بجيتاره».

ظلت ليز تكرر رجاءها وكارل مغمض العينين عن توسلاتها حتى صاح أخيرًا وهو ينظر إليها: «هل تريدين أن ألقنهما ذلك الدرس بطريقة مختلفة؟».

قالها كارل بطريقة جعلت ناثن يشعر ببعض الأمل في ألا يفقد الجيتار في نهاية اليوم. أمسك ناثن بالجيتار وكانت الدموع تغشى عينيه لدرجة أنه لا يستطيع الرؤية، ولكن والده أصرَّ على أن يلقي الجيتار في النار بنفسه. واضطر ناثن تحت ضغط والده إلى أن يمثل للأمر ويلقي الجيتار في النار وفي رد فعل عكسي حاول أن يمد يده وينقذه، فأحرقته النار يده وما زالت آثار تلك الندبة واضحة عليها حتى الآن.

أحضر كاميرون الشيء المفضل بالنسبة إليه في المرة الأولى، كان كتابًا مصورًا يحكي قصة العالم في الحرب العالمية الثانية، كان ناثن يعتقد أنه كتاب مُمل بدرجة كبيرة ولكن كاميرون كان يعشقه ببساطة. تقدَّم كاميرون بثبات في اتجاه النار ونظر إلى والده في عينيه وقال شيئًا ما بصوت منخفض تبدَّد في الهواء مع أصوات الاحتراق المنبعثة من النار، ثم ألقى الكتاب في النار وتراجع إلى مكانه في هدوء. شعر والده بالغضب الشديد وقال له: «كرَّر ما قلت، لم أسمعك بوضوح».

قال كاميرون بهدوء وصوت ثابت بعد فترة من التردد: «النازيون أيضًا كانوا يحرقون الكتب».

شبهت ليز ورفعت كتفها من الصدمة، ثم سادت حالة من الصمت الرهيب، شعر ناثن بالدهشة عندما ظهرت ابتسامة خفيفة على وجه كارل ظهرت من خلالها أسنانه المسنونة، ثم نظر إلى كاميرون نظرة تدل على شعوره بالمتعة، وشدَّ قبضته وهو يقول: «أجلب باقي الكتب».

أطاع كاميرون والده دون مناقشة، عاد إلى داخل المنزل وهو يترنح في طريقه. وغاب لعدة دقائق ورجع مرة أخرى وهو يحمل كومة من الكتب بين يديه.

جلس ناثن على السلم الخشبي بجوار ليز وشاهدا كاميرون يلقي بكتبه في النار، الواحد تلو الآخر، كانت عينا كاميرون جافتين وخاليتين من التعبير وهو يرى الكتب تحترق أمامه.

قالت ليز بعد أن ألقى أول خمسة كتب: «اعتذر لوالدك».

لكن كاميرون اكتفى بالصمت، وألقى كتابًا آخر في نيران المحرقة، بينما وقف كارل ينظر إلى ابنه بتعبيرات لم يرَ مثلها ناثن من قبل. شعر ناثن بالذهول من استمتاع الطرفين بالمواجهة التي تتطور لدرجة لم يشهدها المنزل من قبل، استغرق الأمر ساعة كاملة حتى احترقت جميع الكتب. نظر ناثن إلى المنزل وأدار بصره بقلق بين الموجودين وهو يتساءل عما سوف يحدث بعد ذلك.

وأخيرًا نظر كاميرون إلى كارل في عينيه وقال: «أنا آسف يا أبي».

ثم أشاح ببصره إلى الأسفل. شعر كارل بالارتياح وبدأت ليز تتراخى في مكانها ويقل توترها.

توهج انعكاس ضوء اللهب على وجه كارل وهو ينظر إلى كاميرون ثم استدار ووجه نظرة غاضبة تجاه ناثن قبل أن يقول بنبرة مألوفة: «لا يحاول أيُّ منكما مرة أخرى في المستقبل فعل هراء مشابه، وإلا سوف تواجهنا عقابًا أسوأ من هذا العقاب بعشر مرات أو يزيد، وربما لن أكتفي بعقابكما فقط...».

عاد التوتر يتملك من ليز مرة أخرى، وظل كاميرون وناثن يتجنبان والدهما لفترة طويلة بعد هذه الليلة.

الآن، يجلس ناثن في الشرفة في مواجهة صوفي، توقفت أصابع ناثن عن العزف ونظر إليها وهو لا يشعر برغبة في العزف مجددًا. لم تلاحظ

صوفي انعدام رغبته المفاجئ بينما كانت تنظر إلى المنزل في اتجاه غرفة نوم أختها، وتنقل بصرها بين النافذة والشباك.

سألها ناتان: «هل لديك فكرة عما كانت تقصده لو في أثناء العشاء؟».

قالت صوفي: «لا، إن لو دائماً ما تنتابها أفكار خيالية حول شخص ما».

- شخص خيالي، مثل مربى المشية، أم أنها تعتقد بوجود شخص آخر داخل المنزل؟

- لا أعرف، لقد أخبرتها من قبل أنه لا داعي للقلق، ولكنها ما زالت خائفة على الرغم من كل ذلك.

- لا بد من أن الأمور صعبة بالنسبة إليكما، بعد كل ما حدث لبابا.

أومأت صوفي برأسها، ولكنها لم تجب.

- هل حكى لكما بابا من قبل عن مربى المشية؟

أكمل ناتان حديثه: «هل أخبركما أنه مكان مميز بالنسبة إليه؟».

- لا، لم يخبرنا بذلك ولا أظن أنه كان مكاناً مميزاً بالنسبة إليه، لقد رسم صورته فقط ولكنه كان يعتقد أن مربى المشية رجلٌ غيبٌ، وقد كان كذلك بالفعل.

- أوه، بالفعل.

- لقد أطلق الرصاص على نفسه عن طريق الخطأ، كان يتسلق السياج وسقط من الأعلى فخرجت رصاصة من سلاحه الناري ومزقت رأسه وقضى على نفسه بنفسه.

- من الذي أخبرك بذلك؟

- بابا.

- هذا بالفعل ما حدث.

لم يكن هذا ما حدث لمربى المشية، لكن ناتان رأى أنه ليس الوقت الملائم ليصحح المعلومة لتلك الطفلة، وأن ذكرياتها عن والدها ستتشوش عما قريب بطبيعة الحال، ولا داعي لأن يتدخل لإفسادها.

تنهدت صوفي ونظرت بحزن إلى الجيتار، وسألته: «هل يمكنك أن تعزف شيئاً آخر؟».

- يسعدني أن ألبّي طلبك؟

طلبت منه غناء أغنية لا يعرف عنها شيئاً، تخص فرقة موسيقية لم يسمعها من قبل، تظاهرَ بالعزف والغناء مصاحباً لها، وهي تغني، وعندما وصلا إلى نهاية الأغنية كانت تبتمس في سعادة، ليس إعجاباً بغنائه بقدر ما كان سخرية من أخطائه خلال الغناء.

- سوف أعود للغناء والعزف، عندما تصبح ذراعي بحالة أفضل.

ثم أضافت: «وعندما ينتهي العام الدراسي».

كان يعلم أن جزءاً كبيراً من التعليم يتم عن بُعد عبر جهاز اللاسلكي، فقد مرَّ بكل ذلك بنفسه عندما كان صغيراً، جلس يتذكر كيف كان يسمع شخصاً عبر اللاسلكي يقول معلومات غامضة وسط التشويش، وكيف كان عبء التعليم بالكامل يقع على عاتق ليز، وكيف كانت تلك المرأة المسكينة تبذل قصارى جهدها وتتوسل إليه حتى يركز في دروسه كما كان كاميرون يفعل. لقد أصبحت هذه العملية التعليمية الآن تتم عن طريق شبكة الإنترنت، بلا اختلاف كبير عن الماضي. ولكن التعليم عبر الإنترنت أصبح يحاول محاكاة المدرسة بشكل فعلي بأكثر قدر ممكن من الواقعية، حيث أصبح المدرسون قادرين على إجراء حوار عن طريق محادثات الفيديو مع الطلاب لمدة ساعتين يومياً على الأقل، ابتسم ناثان وهو يفكر في أن ذلك أفضل بكثير من التعليم عن طريق اللاسلكي.

ثم عبس وسأل صوفي: «هل كاتي تشرف على تعليمك المنزلي؟».

- لا، كانت ماما هي التي تتابع تعليمي في المنزل، ولكنها أصبحت مشغولة وأوكلت تلك المهمة إلى كاتي التي من المفترض أن تعتني بنا طوال الوقت، حتى في العطلات.

لاحظ ناثان علامات الضيق على وجه الفتاة الصغيرة.

- هل هذا أمر غير جيد؟

- إنه مملٌ للغاية، فهي لا تملك أي أفكار مسلية، في اليوم الذي غاب فيه أبي عن المنزل، جعلتنا نجلس في غرفتنا طوال اليوم ونتفرج على مجموعة من الأفلام.

- وهل جلست بصحبتكما؟

- نعم، كانت جالسة معنا، ولكنها لم تكن تفعل أي شيء، كانت حريصة على أن تحصل على أكبر قدر من الراحة، كما أنها متقلبة المزاج إلى حد ما.

- وهل تستطيع أن تشرح لكما المواد الدراسية بشكل جيد؟

تجدد أنف صوفي علامةً على الاعتراض وهي تقول: «لا، إنها ليست جيدة، إنها لا تعرف شيئاً عن المواد الدراسية على الإطلاق، سمعتُ ماما في أحد الأيام تسأل أبي عن السبب الذي استأجرها للعمل من أجله وأنه ما كان يجب عليه أن يمنحها تلك الوظيفة ثم قالت عنها إنها...»، ثم خفضت صوتها وتلفتت إلى اليمين واليسار وقالت: «حقيرة».

ابتسم ناثان ابتسامة خفيفة: «هل وصفتها ماما بذلك؟».

- إنها أحد الأشياء التي وصفتها بها ماما، لقد قالت إنها حقيرة وأنا أتفق معها في الرأي، أنا لا أظن أنها معلمة في الحقيقة، فهي لا تعرف شيئاً عن التدريس ولا عن المواد الدراسية.

- لا.

كان الضوء الأصفر يتلألأ على وجهها.

- لماذا تقولين ذلك؟

قالت صوفي: «حسنًا، لقد قصت شعرنا بشكل جيد، أعتقد أنها تعمل في تصفيف الشعر».

نظر ناثان إلى شعر صوفي بتركيز، كان طويلًا يصل إلى الكتفين ومقصوصًا بعناية عند الحواف بشكل دائري. لم يدعِ ناثان أنه خبير في قصات الشعر فقد كان روتينه المعتاد أن ينتظر حتى ينمو شعره ويصبح كثيفًا وأشعث ولا يستطيع أن يصففه أو يتعامل معه، ثم يقصه بالكامل في حوض الحمام ويتخلص منه، ولكن شعر صوفي بالفعل كان يبدو مقصوصًا بعناية وبشكل محترف.

نظر ناثان مرة أخرى تجاه عربة النوم الخاصة بالعمال المؤقتين، كان بإمكانه أن يرى خيالًا يتحرك في الداخل من خلف الستارة الرقيقة على ضوء المصباح. وكان ينبعث من الداخل أصوات خافتة تدل على أنهما ما زالا يتجادلان، تساءل ناثان هل كانت كاتي بالفعل مصففة شعر وليست معلمة؟ كان من المعتاد عند العمال المتجولين تزوير سيرتهم الذاتية وإضافة مهارات

غير حقيقية لتسهيل الحصول على وظائف، كان ذلك شيئاً متعارفاً عليه بينهم، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتساءل عن حقيقة شخصياتهم، وإن كان ما يدعونه ليس صحيحاً.

- لقد عدنا في يوم من الأيام من نزهة في الخارج فوجدناهما في المزرعة. أضافت صوفي: «لم يخبرنا بابا أنه استأجرهما وأعتقد أن هذا هو السبب الذي أثار غضب ماما».

- لماذا شعرت بالانزعاج؟
جاء صوت منخفض إثر حركة الباب الخاص بالشرفة وظهرت إلسي من خلفه.

قالت صوفي: «كانت ماما منزعة بسبب وجود كاتي وسامون».
قالت إلسي: «أوه، لا... لقد انزعجت بسبب المفاجأة، هذا كل شيء».
ثم أضافت: «من فضلك يا صوفي، لا تقولي هذا مرة أخرى، حتى لا يشعرنا بالانزعاج وبأن وجودهما غير مرغوب به هنا».
سألها ناتان: «ما أخبار لو؟».

أشارت إلسي إلى ابنتها: «أذهبي للنوم في غرفة ماما».
- ولكن.

- هذا اليوم هو يومك المحدد.

- ماما.

- صوفي، لو سمحتِ ليس الليلة.

وقفت صوفي على مضض وقالت: «تصبحان على خير».

ثم نظرت بحنان إلى والدتها وقالت: «هل ستأتين لتضعي الغطاء عليّ».

- سأتبعك خلال دقائق، أذهبي واستعدي في فراشك.

أغلقت صوفي الباب وراءها، ثم أغلقت ضوء الصلاة في الداخل.

نظرت إلسي إلى ناتان، كانت منهكة ولم تنطق، واتكأت على حافة السلم، فنظر إليها ناتان غير متأكد مما يجب عليه قوله. ولكن على الرغم من ذلك سألتها: «ما رأيك فيما قالته لو في السابق؟».

كان هذا السؤال مجرد وسيلة لبدء الحديث بينهما.

- أنا لا أعلم، كامبيرون لم يخبرني شيئاً عن هذه الحادثة، كما هو واضح للجميع. (كان هناك بعض المرارة في صوتها) أنا لا أعرف حتى كيف أفكر في الأمر.

ثم أخذت تُحدِّق إلى الظلام، قبل أن تضيف: «ولا داعي لذكر تلك المرأة التي تحاول الاتصال به».

- ولكن كام أخبرك بقصة جينا قبل ذلك؟

- بالطبع، أخبرني. (وظهرت غيمة من الحزن على وجه إلسي) أخبرني كام عن علاقته بتلك الفتاة التي استمرت لليلة واحدة خلال إحدى الحفلات، وكيف كان لهذه الفتاة حبيب غيور، لقد قصَّ عليَّ الأمر بطريقة مسلية وكأنه نوع من سوء التفاهم.

لم يعلق ناثن على ما تقوله إلسي، يمكن بالطبع وصف ما حدث بين كامبيرون وجينا بالعديد من الطرق ولكن التسلية ليست إحداها.

- لقد كان كام في حالة من الإرهاق والضغط العصبي الشديد مؤخراً، لقد كان... (ثم عادت إلسي تُحدِّق إلى الظلام) لقد تغير شيءٌ بداخله، خلال الأسابيع القليلة الماضية، تقريباً في نفس الوقت الذي حاولت أن تتصل به، أستطيع الآن إدراك كل هذا.

- لقد صدمك الأمر كما أعتقد.

- نعم، لقد فعل.

نظرت إلسي نظرة حزينة في اتجاه ناثن، ولم يكن حولهما شيء غير صوت الرياح الليلية الهادئة يملأ أذانهما، حتى جاء صوت رقيق ومنخفض من داخل المنزل: «ماما، إنني مستعدة».

أجابت إلسي: «سأكون معك خلال دقيقة».

ثم التفتت إلسي إلى ناثن وفي عينيها نظرة أكثر جدية هذه المرة: «اسمع، لا أعتقد أن أحداً قد صدَّق تلك الاتهامات التي ألصقتها هذه الفتاة بكامبيرون، أليس كذلك؟».

- لا، بالطبع لم يفعلوا.

ثم فتح فمه ليضيف شيئاً، ثم تراجع.

- ماذا؟ أرجوك أخبرني ما الأمر.

- لا شيء، لا شيء ذو أهمية على الإطلاق، كنت سأضيف أن ستيف...
 - ستيف فيزجيرالد، في العيادة؟
 - نعم هو، لقد صدقها عندما ذهب لرؤيته في العيادة، ولكن ذلك كان لفترة قصيرة من الوقت.
 - لماذا؟
 حاول ناثن أن يتذكر جاهداً ما حدث، ثم قال: «لم يصدقها في الحقيقة، كل ما في الأمر أنه أخذ ادعاءها على محمل الجد، أعتقد أن هذا جزء من طبيعة وظيفته كونه ممرضاً، أليس كذلك؟».
 تذكر حالة الانزعاج التي ظهرت على ستيف في ذلك الوقت وأسئلته المتكررة والعلامات التي كانت ظاهرة على وجهه عندما رآه ناثن بعدها في العيادة، لقد كان ستيف مثابراً وجاداً إلى حد كبير تجاه هذه الحادثة.
 - نعم، ولكنه لم يكن جاداً للدرجة الكافية حتى تتحول الاتهامات إلى قضية حقيقية وبلاغ لدى الشرطة، أليس كذلك؟
 سألته إلسي.
 - لا، لم يتطور الأمر إلى ذلك الحد على الإطلاق.
 تنهدت إلسي ببطء: «لم يكن كاميرون وستيف على توافق على كل حال».
 قال ناثن: «نعم، أعتقد أنك تستطيعين فهم مثل هذه الأمور».
 عاد صوت صوفي منادياً مرة أخرى: «ماما».
 تجاهلت إلسي ابنتها تماماً هذه المرة، وركزت بصرها على ناثن: «ولكنك كنت تصدق كام طوال الوقت، أليس كذلك؟».
 - هذا شيء مؤكد.

شعر ناثن بشيء غامض حيال نظرة إلسي إليه في تلك اللحظة، كان ضوء الشرفة ضعيفاً والإضاءة الخافتة لا تمكنه من تمييز ملامحها بشكل واضح، ولكنه شعر شعوراً مؤكداً بوجود شيء ما داخلها لا يفهمه، كانت كمن يحمل شعوراً بالذنب شعوراً قديماً خافتاً، عاد للظهور فجأة. ربما لم يخبر كاميرون زوجته كل شيء عما حدث في تلك الليلة، ولكنه بالتأكيد أخبرها شيئاً ما، جعلها تشعر بذنب مدفون منذ مدة طويلة، ومن ثم عاد هذا الشعور للظهور على السطح وبانت آثاره على وجهها في تلك اللحظة.

قال ناثن بحزم: «بالطبع، كنت أصدق كاميرون طوال الوقت، لا شك في هذا».

ظهر على وجه إلسي تعبيرٌ آخر لم يستطع ناثن أن يفهمه، ثم عادت صوفي تنادي مجددًا: «بحق السماء، من الأفضل أن أذهب».

فتحت الباب وهَمَّتْ بالخروج ولكنها وقفت للحظة في مكانها ونظرت إلى ناثن قائلة: «ليلتك سعيدة يا ناثن».

- ليلتك سعيدة إلسي.

عادت إلى المنزل بينما نظر ناثن إلى الأسفل حيث تجلس دافي التي اكتفت بهز ذيلها دون أن تصدر أي تعليق، ظل ناثن جالسًا في مكانه لعدة دقائق ثم وضع جيتار صوفي على حافة الشرفة، وخرج في اتجاه ساحة المنزل ودافي تسير في أعقابه.

انتظر ناثن حتى تتأقلم عيناه على حالة الظلام المحيطة به، ونظر في اتجاه عربة النوم الخاصة بالعمال المؤقتين، كانت هادئة تمامًا، لا بد من أنهما وصلا إلى حالة من حالات التصالح والسلام بينهما، حتى لو كانت مؤقتة.

تحرك في اتجاه قبر كارل برايت تحت شجرة الصمغ الأحمر، خطا بقدميه فوق القبر ووقف عند حافته، وأخذ يفكر فيما دار بينه وبين إلسي. هل نجح في الدفاع عن كاميرون بشكل سليم؟ هل استطاع أن يبرئ كاميرون في عيني زوجته؟ نظر ناثن للمرة الأولى بتركيز إلى القبر الذي يرقد فيه والده.

- ما هذا الهراء الذي أسمع عن تلك الفتاة اللعينة؟

أنهى كارل المكالمة الهاتفية مع رقيب الشرطة ووضع سماعة الهاتف، ثم نادى على كاميرون وناثن أكبر أبنائه.

تذكّر ناثن وقوفه بجوار الحائط بينما كان أخوه كاميرون يحاول متلعثمًا أن يشرح لوالده ما حدث في تلك الليلة.

صَرَفَ كارل نظره عن كاميرون واتجه إلى ناثن قائلاً: «وأين كنت بحق الجحيم حين وقعت كل هذه الأحداث؟ هل كنت تتبع رائحة تلك العاهرة التي تسكن في المنزل المجاور؟».

- هل تقصد جاكبي؟

ارتطمت مؤخرة رأس ناثنان في الحائط بقوة نتيجة صدمة شديدة مفاجئة، لم يكلف كارل نفسه بالنظر إليه وهو يضربه بل عاد ليركز نظره إلى كاميرون ورفع يده بسرعة وصفعه على حين غرة. كانت الضربة سريعة وخاطفة فلم يتمكن ناثنان من تفاديها أو من الدفاع عن نفسه، لم يعتد ناثنان أن يدافع عن نفسه، فقد كان من الأسهل أن يمتثل لأوامر كارل حتى ينتهي كل شيء بسرعة، ظل ناثنان واقفًا في مكانه لعدة لحظات ثم أدرك أن كارل ما زال منتظرًا الإجابة، فأومأ برأسه في خجل: «نعم، لقد كنت بصحبة جاكى».

- ولماذا لم تكن تضع عينيك نصب أخيك الأصغر؟

لم تكن لدى ناثنان إجابة مناسبة لمثل هذا السؤال.

- ولكنك رأيتة معها، أليس كذلك؟

كان كارل يشير إلى كاميرون ولكنه يصرخ مخاطبًا ناثنان: «هيا أخبرني، هل فعل ذلك الحقير شيئًا، يجب عليّ أن أشعر بالقلق بسببه؟».

نظر كارل إلى ناثنان وحدّق إليه بتركيز شديد، وهو يضيق عينيه كأنه يحاول أن يعصره بداخلهما، تذكّر ناثنان تلك الليلة وشعر بأنه ما زال خائفًا مما حدث وقتها، إن الخوف ما زال يلزمه حتى اليوم. تساءل هل الخوف الذي كان يشعر به كلما رفع كارل صوته مهددًا أو رفع إحدى يديه ليضربه أو رفع كلتا يديه في وقت واحد- سيظل ملازمًا له طوال حياته؟ هل سيختفي الشعور بالخوف الذي شعر به في تلك الليلة التي أجبره فيها كارل على حرق الجيتار؟ أم أنه سيظل يصحبه ولن يتغير مطلقًا؟

اكتشف ناثنان في تلك اللحظة من الصفاء ومواجهة النفس أن كارل لم يتوقف طوال حياته عن الإساءة إليه، وأنه لم يستطع أن يضع حدًا لهذه الإساءة، وأعتقد أنه سيظل عالقًا مع ذلك الخوف حتى نهاية حياته.

أحس ناثنان بأن الأفكار تستنزفه لحد الإرهاق، وشعر بألم شديد في رأسه من قوة الضربة، فنظر في اتجاه كاميرون وهو يشعر بالغضب الشديد. لم يكن هو من تسبب في تلك المشكلة ومهما كان الذي فعله أخوه فإن عليه أن يتحمل مسؤوليته ولا علاقة له بذلك الأمر على الإطلاق بأي شكل من الأشكال.

على الأقل كان يتحلى باللياقة والإدراك الكافيين ليحصل على إذن جاكى في كل مرة قبل أن تخلع ملابسها وهي بصحبته، أخذ ناثنان ينقل بصره بين كارل وكاميرون عدة مرات، ثم أدرك أنه لا يريد أن يكون على مقربة من هذين

الرجلين في تلك اللحظة، يرغب في أن يكون بمفرده في مكان بعيد، مكان لا يستطيع أن يحدده الآن.

ظل ناثان صامتًا لبعض الوقت حتى مدَّ كامبيرون يده إليه وأمسك مرفقه وهزه برفق فعاد مرة أخرى إلى أرض الواقع، وأدرك الخطأ الذي كاد يقع فيه، فتح ناثان فمه وبدأ بالحديث بالكلمات التي كان يظن أن كامبيرون كان سيقولها للدفاع عنه إن كان واقعًا في مأزق مشابه من أجل حمايته: «لا، كامبيرون لم يفعل شيئًا خاطئًا على الإطلاق في تلك الليلة».

للأسف جاءت إجابة ناثان متأخرة بعض الشيء، لم تتأخر كثيرًا، كانت متأخرة لبرهة صغيرة ولكن كارل للأسف لاحظ حالة التردد والتأخير في إجابة ناثان، تنقلت عيناه بسرعة بين أبنائه الواحد تلو الآخر. ثم قال: «حسنًا»، بلهجة توضح أنه فهمَ كل ما يدور في عقل أبنائه في تلك اللحظة. وتابع: «يمكنك أن تنصرف، أرغب في أن أتحدث مع أخيك بمفردنا لبعض الوقت».

وبذلك فهمَ ناثان أن وجوده لم يعد مرغوبًا فيه وعليه أن يتركهما وينصرف. خرج ناثان من المنزل وجلس في سيارته في صمت، أراد ببساطة ألا يسمع شيئًا مما يدور في داخل ذلك المنزل، لم تمر إلا عدة دقائق ولحق به بوب وفتح الباب المجاور له وجلس في المقعد المجاور.

كان يدور في ذهن بوب العديد من الأسئلة حول حقيقة ما يحدث لكنه لم يجد الكلمات المناسبة لي طرحها فاكتفى بالجلوس بجوار أخيه في صمت، واكتفى ناثان بالجلوس مع الشعور بالخجل والخزي الصامت.

استغرق ناثان وقتًا طويلًا ليتدرب داخل عقله على الطريقة التي يجب بها أن يعتذر إلى كامبيرون عما حدث بالداخل، قرر أن يخبره أنه لم يقصد أن يتأخر في الإجابة وأن تردده لم يكن يعني شيئًا، ولكنه كان محتارًا في التفكير لإيجاد الإجابة الأنسب التي يرغب كارل في سماعها، وهو ما جعله يستغرق وقتًا طويلًا، أراد أن يخبر كامبيرون أن كارل لا يحب أن يتلقى إجابات خاطئة لا تتفق مع أهوائه.

لقد كنتُ خائفًا يا كام، لقد كنت خائفًا من أبي، أنا أعلم أنك لم ترتكب أي خطأ في تلك الليلة.

أراد ناثان أن يقول كل هذا لكامبيرون، وربما أكثر من ذلك وقد فعل ذلك بالفعل، فعله لاحقًا لمرات عديدة ولكن ذلك لم يُحدث أي فرق.

استغرق كامبيرون وقتًا طويلًا حتى يستطيع أن ينظر في عيني أخيه مجددًا، وعندما استطاع أن يفعل ذلك، كانت عيناه مملوءتين بآثار اللوم والمرارة وشعور عميق بالخيانة لم يختفِ قط، حتى بعد مرور عشرين عامًا على تلك الليلة المشؤومة.

الفصل الثامن عشر

عندما عاد ناثان إلى الداخل مرة أخرى، كانت غرفة زاندار فارغة. لكنه استطاع أن يسمع صوت المياه الناتجة عن الاستحمام ينبعث من الحمام، ولاحظ وجود كتاب مفتوح فوق الفراش وقد انتهى زاندار من قراءة نصفه على الأقل، كان الكتاب المفتوح هو نفس الكتاب الذي أهده ناثان لابنه بمناسبة أعياد الميلاد.

عندما أمعن ناثان النظر إلى الكتاب بدا عليه الانزعاج حين لاحظ البطاقة التي تخص مارتن -زوج والدة زاندار- تستخدم كعلامة بين الصفحات لتحديد مواضع القراءة. كان مارتن يعمل مهندسًا معماريًا متخصصًا في نوع من الألواح المعدنية اللامعة المصقولة العاكسة تُسمى ألواح الاستقطاب⁽¹⁾ كما توصف في الصحف والمجلات.

سحب ناثان نفسًا عميقًا ثم خرج من الحجرة وأغلق الباب خلفه، وعاد إلى حجرة الاستقبال. باستطاعة ناثان على الرغم من الظلام المحيط به أن يرى خيالات العمال المتجولين في عربة النوم الخاصة بهم من خلف الستائر، فأخذ يراقبهم لبعض الوقت وهو يفكر في كل المعلومات التي قالتها له صوفيا.

وبعد مضي عدة دقائق استدار واتجه ناحية الكمبيوتر العائلي الموضوع على المنضدة وشغله، وانتظر عشر دقائق كاملة حتى استطاع الدخول إلى

(1) ألواح معدنية تستخدم في البناء وأعمال التغطية والعزل. (المترجم).

الإنترنت وفتح موقع التواصل الاجتماعي فليكر⁽¹⁾ الذي تدب فيه الحياة، وبمجرد اكتمال فتح الموقع توجهَ إلى شريط البحث وكتب اسم كاتي. اهتز جهاز الكمبيوتر بينما أخذ نااثان يطالع نتائج البحث، كان ينظر في النتائج ببطء أول الأمر، ثم زاد من سرعة البحث مرتين بلا جدوى. لم يجد شيئاً على الإطلاق. كان هناك العديد من الحسابات باسم كاتي، ولكن لم تكن الصور الشخصية والبيانات الخاصة بتلك الحسابات تنطبق على كاتي المقصودة بالبحث. نظر في ساعته، لم يتبقَّ وقتٌ طويلاً حتى موعد إغلاق المولد الكهربائي وبعدها يسود الظلام طوال فترة الليل. عاد لبيحث مرة أخرى عن اسم سايمون، وبدأ بفحص نتائج البحث بأسرع ما يمكنه ذلك الحاسوب البطيء. حتى وصل إلى الصفحة الثالثة من نتائج البحث وعندها سمع صوتاً يتحرك فوق ألواح الأرضية الخشبية، نظر خلفه.. لقد كان هاري. كان هاري من مكانه يستطيع رؤية جهاز الحاسب الآلي، ولكنه لا يستطيع أن يرى البيانات التي تظهر على الشاشة.

قال هاري: «لقد كنت أتحدث إلى بوب».

من نظرات هاري استطاع نااثان أن يخمن المقصود بهذا الحديث.

- حسناً، وماذا بعد؟

- كلانا يعلم، أن بوب يفهم العديد من الأمور بشكل خاطئ أحياناً.

رد نااثان: «أحياناً».

- لذلك أتمنى فعلاً أن يكون مخطئاً بشأن عدم تجديدك لرخصة الأسلحة النارية حتى الآن.

- أنا لم أقدم حتى لإعادة ترخيص الأسلحة النارية.

- هذا هراء، تلك هي المرة الأولى في حياتك التي ترتكب فيها حماقة من هذا النوع.

ظل نااثان صامتاً.

- هل سلمت كل أسلحتك إلى جلين؟

- إنه ممثل القانون يا هاري.

(1) منصة رقمية شائعة للمصورين الهواة والمحترفين لاستضافة صور عالية الدقة وفيدوهات وبيانات أخرى. (المترجم).

- ولكنها تعتبر شيئاً لا غنى عنه يا صديقي.

- حسنًا، سوف أجدد الترخيص.

- أنت تعيش بمفردك على مسافة بعيدة جدًا، وتغلق جهاز اللاسلكي لأيام متواصلة.

- بحق المسيح يا هاري، لقد قلت لك إنني أجدد التراخيص.

- هل تعلم والدتك كل شيء عما تفعله؟

- أنا متأكد من أنك ستخبرها.

- وهل يعلم زاندار؟ .

ظل السؤال معلقًا بينهما في الهواء بلا إجابة، ثم تمالكَ ناثان نفسه وقال بصوت هادئ على قدر استطاعته: «هل تريد شيئاً آخر يا هاري؟».

ظل هاري ثابتًا في مكانه بلا حراك، حتى أدار ناثان وجهه وعاد للتحديق إلى شاشة الحاسب الآلي.

- سوف أغلق المولد الكهربائي في تمام الساعة العاشرة.

اختفى هاري من أمام المدخل وغاب في الظلام، فعاد ناثان لتفحص شاشة الحاسب الآلي بسرعة حتى بدأت عيناه ترتعشان من شدة الوميض المنبعث من الشاشة. أغلق عينيه التي بدأت تدمعان ثم فتحهما ونظر في ساعته مجددًا، لم يكن قد أحرز تقدمًا حقيقيًا في عملية البحث ولكنه وجد ما يكفي ليدرك أن هؤلاء العمال المتجولين لا يوجد عنهم ما يكفي من البيانات على شبكة الإنترنت.

لا جريمة في ذلك على كل حال، ولكن ناثان كان يجده أمرًا غريبًا، وخصوصًا أنه لم يصادف من قبل ولو قلة يمكن إحصاؤها على أصابع اليد الواحدة من الرحالة المتجولين، يمكنه مقاومة إغراء التصوير في هذه المناظر الطبيعية الخلابة والبيئية الساحرة وقطعان الماشية ورفع تلك الصور على شبكة الإنترنت ليراها عائلتهم وأصدقائهم في الوطن.

عاد إلى النظر في ساعته مرة أخرى، وبأقصى قدر من السرعة يسمح به جهاز الحاسب الآلي البطيء الموضوع أمامه، عاد إلى شريط البحث مرة أخرى وكتب اسمًا جديدًا. وجد العديد من النتائج باسم جينا مور في المملكة

المتحدة، يمكنه أن يمضي ساعات في البحث بينها حتى يصل إلى الفتاة المطلوبة إن لم يجد دليلاً مناسباً يحد من عدد النتائج التي ظهرت أمامه.

وبينما ناثان يتصفح النتائج وجد رابطاً تشعبياً ذا لون مختلف ومن الواضح أن شخصاً ما قد زاره على الأقل مرة واحدة في السابق من نفس جهاز الحاسب الآلي. لم يعلم ناثان كيف يجمع معلومات عن الزيارة السابقة لتلك الصفحة ولكنه ظنَّ أن زاندار يمكنه أن يفيد في ذلك الشأن. على كل حال اتبع ناثان الرابط التشعبي ودخل إلى الصفحة الخاصة بجينا، فوجدها تعمل في مجال بيع الزهور، لقد أصبح لها عملٌ خاصٌ، هي المسؤولة عن إدارته، كما شاهد صورة لها تزرع نباتاً طويلاً أخضر اللون في وعاء كبير.

أصبح شعرها أطول مما كان عليه من قبل وظهرت علامات الأعوام العشرين الماضية على وجهها، ولم يمنعه ذلك من أن يُمَيِّزَ ملامحها. كانت تبتسم أمام الكاميرا ابتسامة عريضة ولكنها متكلفة، مما أعطى ناثان الانطباع بأن هذه الصورة التَّقَطَّت عدة مرات قبل الاستقرار على اختيار تلك اللقطة النهائية ورفعها على الإنترنت، تغمس جينا أصابعها في التربة ولكنه استطاع أن يميز على الرغم من ذلك، أنها لا تضع خاتم زواج، وتساءل إن كان حبيب جينا السابق ما زال على علاقة بها حتى الآن أم أن الأمور تغيرت منذ ذلك الوقت. حاول أن يتذكر اسم ذلك الشخص لكنه فشل، حتى أدرك أنه لم يكن يعرف اسم ذلك الشخص من البداية. عاد للنظر إلى وجه جينا مرة أخرى، ولاحظ وجود رقم هاتف في الركن العلوي الأيسر من الصورة، مدَّ ناثان يده وأمسك القلم ودَوَّنَ الرقم ثم قام من مكانه.

كانت حجرة المعيشة خالية وكذلك مكتب إلسي وحجرة المطبخ وكان الظلام يخيم على كل مكان، التقط سماعة الهاتف واتصل بالرقم. بينما كان يستمع إلى صوت الاتصال أدرك أنه لا يعرف التوقيت الحالي في إنجلترا.

جاء صوت مبتهج من الطرف الآخر: «صباح الخير، متجر زهور الشمال في خدمتكم».

- هل يمكنني التحدث مع جينا مور؟ من فضلك.
- أخشى أنها في إجازة، هل أستطيع أن أساعدك في شيء؟
- شعر ناثان ببعض التردد.
- كانت تحاول أن تتواصل مع أخي.

انتظر ناثنان لبعض الوقت، ولكنه لم يحصل على رد فعل من الطرف الآخر.
- أرغب في الحصول على بعض المعلومات، هل لديها رقم هاتف آخر،
يمكنني محاولة الاتصال به؟

- أوه، لا يوجد رقم آخر، أنا آسفة. (بدا من صوت الفتاة أن اعتذارها
صادق بالفعل) إنها لا تملك رقم هاتف مصرحاً لي بإعطائه إلى أحد،
كما أن هذا لن يفيد فهي خارج تغطية الشبكة.

نظر ناثنان إلى سلك الهاتف الذي يمسكه بيده وقال: «هل هذا حقيقي؟».

ردت الفتاة: «يمكنني أن أعطيها رقمك إن كنت ترغب في ذلك».

- لا، للأسف الشديد، فأنا كذلك خارج تغطية شبكة الموبايل ولن يُجدي
هذا نفعًا.

- هل أنت كذلك، بالفعل؟

بدا من صوت الفتاة شعورها بالدهشة لهذه الصدفة العجيبة.

- لا أعتقد أنك تحضر دروسًا لليوجا في بالي، أليس كذلك؟ سيكون هذا
رائعًا.

قال ناثنان: «بالطبع لا.. لا أفعل شيئًا مماثلًا».

- أعتقد أنها كانت ستصبح الصدفة المثالية.

وسرى صوت ضحكتها العالي في أذنه.

سمع ناثنان صوت هدير عاليًا ناتجًا من إغلاق المولد الكهربائي، وساد
الظلام الدامس في كل مكان، اختفى الضوء الخافض الذي كان يأتيه من
الصالة الرئيسية. فبدأت عيناه ترتعشان وأصبح لا يرى شيئًا بفعل حالة
العمى المؤقت التي أصابته.

سألها: «ما هو عنوان المتجر؟».

في هذه اللحظة بدأت الحواف الرمادية الشاحبة لقطع الأثاث تتشكل أمام
عينيه بفعل تَعُوده على الظلام.

- في نهاية شارع بيل.

- آسف، أنا أقصد في أي مدينة؟

- مانشستر⁽¹⁾.

لم يكن ناثن واثقًا بموقع مانشستر ولكنه توقَّع أنها موجودة في مكان ما جهة الشمال.

عاد الصوت قائلًا مرة أخرى: «على كل حال، فسوف تنهي إجازتها في خلال أحد عشر يومًا، وتعود مرة أخرى، يمكنك إعادة المحاولة في ذلك الوقت».

في هذه اللحظة سمع ناثن ضوضاء في مكان ما، لم يكن مصدر الصوت ينبعث إليه عبر الهاتف، ولكنه كان يأتي من مكان ما حوله، ويقطع سكون الليل الهادئ. هل هو هاري؟ من الممكن أن يكون هو. كانت النافذة المجاورة له عبارة عن مربع أسود غارق في الظلمة، ولا يمكن من خلالها رؤية شيء سوى انعكاسه الشخصي على الزجاج.

- هل أنت متأكدة من أن جينا موجودة في بالي؟

سمع صوت الضوضاء مرة أخرى فنظر من أعلى كتفه إلى الخلف. من الممكن أن يكون الصوت من داخل المنزل، حبس أنفاسه، سمع صوتًا آخر ولكنه أقل حدة. لا! إن الصوت يأتي من خارج المنزل، عاد للنظر مرة أخرى في اتجاه النافذة ولكنه لم يستطع الحصول على نتيجة مختلفة.

- نعم، من المؤكد، لقد أخبرتني أن الطقس حارٌ جدًا ولا تتساقط الثلوج هناك، هل تتخيل ذلك؟

- نعم، أستطيع تخيل ذلك؟

تلفَّت ناثن حوله في الظلام مرة أخرى.

- على كل حال، أشكرك على المساعدة.

- مرحبًا بك في كل وقت، وشكرًا على اتصالك بمتجر زهور الشمال.

أعاد ناثن سماع الهاتف إلى مكانها الأصلي، وأنهى المكالمة.

كانت الساحة الخارجية غارقة في الظلام ولا يوجد بها أثر لشيء يتحرك، انتظر في مكانه لمدة دقيقة كاملة، ثم انتظر دقيقتين إضافيتين ولم يسمع شيئًا، كان على وشك العودة إلى داخل المنزل، ولكنه سمع الصوت مرة أخرى.

(1) واحدة من المدن الكبرى الرئيسية في إنجلترا، حيث تعتبر خامس مدينة من حيث عدد السكان. (المترجم).

الفصل التاسع عشر

خطا ناثان عدة خطوات في الظلام، وانتظر أن تتعود عيناه الضوء الفضي المنبعث من القمر، أصدر الباب الخارجي للمنزل صريرًا عاليًا وهو يغلقه خلفه بعد خروجه. وقف مكانه بصبر ينتظر صدور صوت مكتوم من أي اتجاه. ثم اتبع مصدر الضوضاء التي سمعها سابقًا ودار حول المنزل، ثمة ضوء خفيف يتسرب من أسفل باب الجراج، كان ضوءًا ناعمًا ولكنه كفيل بإفساد مهارة الرؤية الليلية التي اكتسبها في الدقائق الماضية.

سار ببطء شديد وهو يظن أن ما يفعله لا يتعدى كونه سخافة لا أساس لها. استمر في السير ببطء ودون أن يصدر صوتًا، حتى استطاع أن يرى شخصًا في الظلام، كان النصف الخلفي من رأس الشخص المختفي في الظلام ظاهرًا، ونصف رأسه الآخر ينظر في خزانة خشبية، وبيد ذلك الشبح مصباح ضوئي يعمل بالشحن الكهربائي.

قال ناثان بينه وبين نفسه: *إن الفرصة أصبحت مواتية ليمسك الشبح الذي تحدثت عنه لو متلبسًا بجريمته. اقترب منه وبمجرد أن مَدَّ يده ليمسكه. استدار زاندار وهو يصيح: «ما الذي يحدث؟».*

ظل ناثان صامتًا، فأضاف زاندار: *«لم أستطع النوم».*

- حسنًا.

اعتدل زاندار وبدأ يسمح يديه في مؤخرة بنطاله الجينز.

- ما زلت أفكر في الأشياء التي قالتها لو عن العم كام، وخصوصًا مسألة بحثه عن شيء ما مفقود.

- تعتقد صوفيا أن أختها الصغرى... ربما تكون مشوشة.

مرَّ زاندار راحة يده على مقدمة رأسه ليمسح بعض آثار التراب.

- وماذا قالت إلسي عن ذلك الأمر؟
- لا أعرف، لم تتحدث معي عن ذلك الأمر.
- أوه.. حسنًا، كنت أظنها ستفعل.
- سحب ناثان كرسيًا قديمًا مصنوعًا من البلاستيك، وجلس.
- أعتقد أن العم كام كان يستخدم ذلك الجراج كمخزن سري لأشياءه الثمينة، طريقة ترتيبه تؤكد ذلك، والأشياء التي وجدتها فيه وأماكن وجودها.
- هل توصلت إلى شيء ذي أهمية بعد؟
- لا، الأمر صعب للغاية عندما لا تعلم بهوية الشيء الذي تبحث عنه، يمكنه أن يصبح أي شيء يقابلك في أثناء البحث ويمكن أن يكون كل شيء، لا أعرف.
- نظر ناثان نظرة متفحصة في اتجاه زاندار، في الآونة الأخيرة لاحظ ناثان أن ابنه قد أصبح أكثر نضجًا. ولكن ناثان في هذه اللحظة عندما رأى زاندار يقف أمامه في الظلام بكتفيه العريضتين وظهره المشدود والعرق والتراب يغطي جبهته، أدرك أنه أصبح يشبه الرجال.
- أين بحثت حتى الآن؟
- أشار زاندار بيديه إلى المساحة الخالية في الجراج.
- لم أبحث إلا في هذه المنطقة، وبعض الأجزاء بالجوار.
- وهل تظن أنك ستبقى هنا لفترة أطول من هذا؟
- لا أعرف، ربما حتى أعثر على شيء، أو أشعر بالتعب.
- وهزَّ كتفيه.
- قال ناثان: «حسنًا، من الأفضل أن أساعدك».
- أجبر ناثان جسده أن يقف تاركًا مكانه على الكرسي المتهالك، وتحرك تجاه أقرب خزانة إليه، فتحها وبدأ بالنظر بداخلها فوجد نفسه وجهًا لوجه مع مجموعة كبيرة من الأدوات المصفوفة بعناية.
- قال زاندار: «لقد بحثت بالفعل في هذه الخزانة»، ثم أشار بيده ناحية خزانة أخرى، «ربما يمكنك أن تجرب البحث بداخل تلك الخزانة».
- قال ناثان: «حسنًا».

وبدأ بالتحرك عبر الجراج إلى الناحية الأخرى، لكنه لم يتوقع أن يجد شيئاً مختلفاً عما وجده في الخزانة السابقة. كان غير متأكد من صحة حكايات لو، عن فقدان والدها لبعض الأشياء من داخل المنزل، وحتى لو كانت تلك الحكايات صحيحة فلا يمكنه تخيل أن كام لم يبدأ البحث عن تلك الأشياء المفقودة بداخل الجراج الخاص بالمنزل، فهذا أمر بديهي.

شكَّ ناثان في أن زاندار يفكر بنفس الطريقة، ولكنه كان يعرف أهمية إصدار رد فعل ما، أي رد فعل حتى لو تسبب ذلك -رد الفعل- في أن يقف والتراب يغطي يديه وجبينه داخل جراج مظلم.

بدأ الاثنان بالعمل جنباً إلى جنب في حالة ما من التناغم وأخذاً يتنقلان بين جنبات الجراج، كانا يفتحان الخزائن والأدراج بسرعة ويفحصانها ثم يغلقانها مرة أخرى، بينما يتحسسان بعناية مواضع أيديهما وأقدامهما خوفاً من الثعابين المنتشرة حولهما التي لا يرغبان في أن تفاجئهما على حين غرة. ربما كان كل ما يفعلانه عديم القيمة من وجهة نظر ناثان، ولكنه سعيدٌ بفعله ما دام ذلك يخفف عن زاندار شدة ما يحدث حوله.

عندما تزوج ناثان بجاكي أصرت على أن تنجب طفلاً، وعلى الرغم من عدم ترحيبه بالفكرة لحظتها فلم يمارس حقه في الاعتراض وسمح لها أن تنفذ رغبتها، ومع مرور الوقت أصبح ممتناً لما حدث على الرغم من الاختلافات الكثيرة بينهما. حتى إنه أدرك أنه لو لم يحظَ بطفل عن طريق جاكي ربما لن يحظى بطفل على الإطلاق ولسارت حياته بشكل مختلف.

شعر ناثان بارتباط كبير بالطفل بدايةً من فترة حمل جاكي، ولكنه عانى أيضاً الكثير بسبب هرائها الخاص باختيار الأسماء المناسبة للطفل مصمماً على إنقاذه من الأسماء الغريبة التي تقترحها. ظل حائراً لفترة طويلة بين اسمين فقط ولم يكن زاندار هو اختياره الأول، كان يفضل أن يكون ألكسندر لأنه اسم مألوف وشائع ويسهل تمييز صاحبه أو استعماله في النداء عليه في المستقبل داخل المزرعة. ولكنه اضطر إلى الموافقة على اسم زاندار عندما اقترحت جاكي اسم كاسبر بدلاً من ألكسندر فاضطر ناثان إلى الموافقة على تسمية الطفل زاندار، ومع الوقت شعر بأنه اسم مناسب لطبيعة حياته والمستقبل الذي ينتظره.

سأل ناثان: «هل ترغب في أن تلتحق بالجامعة؟».

هَزَّ زاندار رأسه وهو مستمر في فحص الخزانة التي فتحها.

- هذا شيء عظيم.

- نعم، أشكرك.

- هل تحتاج إلى أن تحصل على تقديرات جيدة.

- نعم، حسب ما أعتقد.

- حسنًا، لقد قالت والدتك إنك أصبحت في حاجة إلى أن تمكث في

بريسبان لفترات أطول. ويشمل ذلك أيام العطلات، حتى تتمكن من

الاستذكار وجمع الدرجات، فهل تؤدي فروضك المدرسية بشكل جيد؟

سادت فترة قصيرة من الصمت.

- نعم، أنا في حاجة إلى المزيد من الوقت.

- حسنًا، لو كان الأمر كذلك.

أجبر ناثن نفسه على أن ينطق بكلمات تُنافي رغبته الحقيقية.

- يمكنك أن تبقى في بريسان حسب احتياجك، لا مانع لدي في ذلك إن

كانت تلك رغبتك.

ثم أضاف: «يمكنك طبعًا أن تجلب كتبك الدراسية إلى هنا وتستذكر

دروسك كما يحلو لك، فالمكان هادئ ونظيف وأنا لن أعطلك عن شيء تفعله».

- إن الدراسة في أغلب الوقت تتم عبر الإنترنت، أحتاج إلى سرعات عالية.

- أوه، نعم لقد فهمت الآن، إنًا من الأفضل أن تبقى في بريسان، هذا أمر

منطقي.

- أنا آسف.

- لا بأس، أنا أفهم الموقف.

- ليس الأمر أنني لا أحب زيارتك...

- نعم، أعرف.

- إن لدي بعض الأمور التي يجب علي أن أنجزها.

- نعم، أنا أفهم كل شيء، هناك بعض الأشياء التي يجب أن تُصَبَّ اهتمامك

عليها، وهذا شيء طبيعي ومفهوم بالنسبة إلي، يجب أن تحصل على

درجات مرتفعة وتلتحق بالجامعة، فأنت تتمتع بالذكاء الكافي لتحقيق هذا الإنجاز.

ابتسم زاندار ابتسامة خفيفة وقال: «أشكرك، هل رغبت في أن تلتحق يوماً بالجامعة؟».

هَزَّ ناثن رأسه: «لا، مثل هذه الأمور لا تناسبني».

في الحقيقة، لم يفكر ناثن مطلقاً في أن يلتحق بالجامعة أو أن يحصل على قدر كافٍ من التعليم، فكل ما كان يرغب به منذ البداية هو أن يستمر في العمل بالمزرعة حيث لا تستطيع الأبقار الاطلاع على مؤهله الدراسي.

بالطبع لم تكن هذه رغبة كاميرون الذي فاجأه بالالتحاق بالجامعة في أديليد، والعودة بعد عدة سنوات مع مؤهل دراسي متخصص في إدارة المشروعات الزراعية، وحفنة من الأفكار البراقة والأصدقاء الجدد الذين يزورونه بين الحين والآخر من أجل أن تتعفر أحذيتهم اللامعة المخصصة للسير في المدينة بتراب المزرعة، وتتسع أعينهم بالدهشة والتسلية من الأشياء الجديدة التي يشاهدونها. كان هؤلاء الأصدقاء يتحدثون إلى ناثن طوال الوقت بصوت أعلى من المعتاد وبطريقة بطيئة على نحو مستغرب.

صاح زاندار: «هذا شيء غريب»، كان يمد يده في صندوق مفتوح ويقلب بين محتوياته، «جميع هذه الأشياء كانت ذات أهمية للعم كام، ولكن شخصاً ما تخلص منها سريعاً لسبب ما، لا أعلم».

قال ناثن وهو ينظر إلى محتويات الصندوق: «نعم، إنهم في حاجة إلى معظم هذه الأشياء»، ثم أضاف: «هذه الأشياء لها أهمية كبيرة في إدارة المزرعة».

- هل سوف تتولّى إدارة هذه المزرعة، في المستقبل؟

- لا، إن لديّ ما يكفي من الأعباء في مزرعتي الخاصة.

- ومن سيديرها، بوب؟

- أظن أنهم سيعيّنون مديراً مناسباً؟ فربما ترغب إلسي في أن تحصل على نصيب كاميرون.

مَسَحَ زاندار بأصابعه طبقة رقيقة من الغبار من فوق ظهر غطاء صندوق التخزين.

- هل أعطى العم كام جزءاً من ميراثه إلى بوب أو إلى العم هاري؟
- لا أظن ذلك، فبوب يملك ثلث المزرعة، بالفعل.
- نعم، ولكن أنت وإلسي تملكان الجزء الباقي.
- شعر ناثنان من الطريقة التي قال بها زاندار هذه العبارة ببعض الدهشة فرفع رأسه وهو ينظر إليه قائلاً: «ماذا تقصد؟».
- لا شيء، ولكنها تملك نصف المزرعة وأنت تملك سدس المزرعة، وهذا هو النصيب الأكبر، كل ما في الأمر أنني أتساءل عن شعور بوب تجاه كل ذلك؟
- لا يجب أن يشعر بشيء تجاه ذلك، فالأمور على حالها منذ كان كام موجوداً.
- لا، إن الأمور لم تعد على حالها، فعندما كان كام على قيد الحياة، كان كاميرون وبوب هما من يديران المزرعة.
- لا أظن أن بوب يفكر بهذه الطريقة.
- أخذ ناثنان يفكر في ردود فعل أخيه عندما كانا يتحدثان أمام اللوحة المعلقة على الحائط في غرفة المكتب.
- حسناً، في كل الأحوال. فقد تغيّر الوضع الآن لأنه أصبح يملك النسبة الأصغر في المزرعة، وأصبحت إلسي من سيدير الأمور في المزرعة في تحول مفاجئ للأحداث.
- لا، الأمر ليس كذلك. لا شيء تغيّر.
- قال زاندار وعلى وجهه نصف ابتسامة: «أبي العزيز، هل تظن ذلك بالفعل؟».
- شعر ناثنان بموجة من الدم الحار تتصاعد داخل رقبته، ولذلك لم يُجب.
- قال زاندار وهو يقرأ ما يدور في ذهن والده من أفكار: «لا تقلق، لا أظن أن أحداً سوف يفكر بالطريقة التي أفكر بها، أو سيتوصل إلى الاستنتاجات نفسها التي توصلت إليها، ولكن يجب عليك أن تحدد عندما يبدأ النقاش، أي طرف من الطرفين ستختار؟ هل سيكون بوب، أم ستكون إلسي؟».
- لا هذا ولا تلك، سوف أختار الأفضل بالنسبة إلى المزرعة.
- لاحظ ناثنان التعبير الذي ارتسم على وجه ابنه فقال: «سوف أفعل».

- حسنًا، ولكن هل بوب يعلم ذلك؟ هل تعلم إلسي؟
- نعم، بالطبع. (عبست نظرة نااثان) بالطبع إنهما يعرفان ذلك، فهذه هي الحقيقة.
- حسنًا، هذا أمر جيد.

فتح زاندار خزانة أخرى، وسحب نااثان صندوقًا آخر من فوق الرف، لم يكن في الصندوق أكثر من مجرد مجموعة أسلاك كهربائية قديمة.

شعر نااثان بالتعب يتسرب إليه، وبدأ بالتثاؤب، كان يرغب في الحصول على قسط من الراحة، ولكنه فَضَّلَ أن يستمر فيما يفعل حتى لا يكون هو من تسبب في إيقاف عملية البحث، فاستمر في العمل بتراخ ثم أدار بصره ونظر عبر باب الجراج المربع إلى الليل المظلم في الخارج، لم يكن هناك ما يُرى في الخارج. كان نااثان ينظر في اتجاه الجنوب، حيث يرقد مربى الماشية في قبره، ومن بعده على امتداد الأفق تقع مزرعة نااثان ومنزله الخالي على امتداد نفس خط الأفق.

يفتقد نااثان منزله الجميل وقطع أثاثه المختارة بعناية، لم تكلف جاكى نفسها عندما هجرت المنزل بأخذ أي شيء سوى زاندار وتركت له الباقي. لم تكن المشكلة في المنزل، بل في الأرض المحيطة به، كانت أرضًا سيئة، من الصعب العناية بها، ولا تدر دخلًا كبيرًا، ولكن نااثان لم يكن يستطيع التخلص منها فهي مصدر دخله الوحيد، كره نااثان تلك الأرض وذلك المنزل وشعر بأنهما يشبهان حفرة سوداء تمتص كل الضوء والأمل من حياته، متمنيًا وجود مكان آخر يستطيع الذهاب إليه.

كان يفكر بجدية في ترك المنزل والمزرعة، ترك كل شيء في مكانه وهجر الأدوات والمعدات، وأن يترك الباب مفتوحًا على مصراعيه ويقود سيارته بعيدًا. ربما يستطيع أن يحصل على وظيفة في المنجم الواقع غربًا، ولكنه كان يتراجع لأنه أصبح أكبر سنًا من فعل تلك المغامرة.

ربما يستطيع نااثان أن يتخلص من الأرض والمزرعة، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من الديون المتركمة عليه، فكل شيء مدون بدقة من قبل موظفي البنك في ملفات رقمية وسوف ينتظرون أن يسدد دفعات ديونه بالكامل في الأوقات المحددة.

من حسن الحظ أن ليز وكامبيرون أقنعا في الماضي أن يحافظ على نصيبه من مزرعة العائلة التي تمثل السدس من إجمالي قيمة المزرعة، إن نصيبه من مزرعة العائلة لا يدر ربحًا وفيرًا، ولكنه على الأقل قادر على إعاشته بشكل لائق.

- يمكنك أن تباع منزلك لكام.

نصحه هاري بذلك منذ عامين في احتفالات أعياد الميلاد، كان عامًا سيئًا بشكل واضح، قضى على كل مدخرات ناثن البسيطة وضغط على أعصابه.

- هل ستظل تعاني طوال الوقت بمفردك يا صديقي؟ دع كام يشتري حصتك واحصل أنت على المال.

قال ناثن إنه سوف يفكر في الأمر، قَبِلَ ذلك العرض من هاري، كان ناثن بالفعل قد طلب من أخيه كامبيرون أن يساعده ولكنه طلب منه سرًا على انفراد، ألقى كامبيرون نظره على مديونيات ناثن، وحاول أن يجد زاوية مشرقة حتى يساعده على تخطي المشكلة، ولكنه لم يجد حلًا مناسبًا أو هذا ما قاله كامبيرون.

كان كامبيرون يعتذر إلى ناثن دائمًا عن مساعدته بأنه لم يجد حلًا مناسبًا، سواء طلب منه أن يساعده في مشكلة الديون المتراكمة، أو طلب منه أن يتحدث عنه بشكل إيجابي في المدينة، كان كامبيرون يتوقف عن الكلام ويظهر عليه التردد لفترة قليلة، تمامًا كما فعل ناثن عندما سأله والدهم وهو يُحدِّق إليه بعينيه القاسيتين في تلك الليلة المشؤومة عن هذه الفتاة اللعينة، كان كامبيرون وقتها مراهقًا في حاجة إلى المساعدة ولكنه شعر بخيبة الأمل بسبب لحظات قليلة تردد فيها أخوه قبل أن يجيب عن الأب التائر. ظلت تلك اللحظات عالقة في ذهن كامبيرون ولم ينسها. لذلك كان كامبيرون دائمًا ما يتردد قبل تقديم المساعدة لأخيه ولم يستطع الوقت أن يغير ذلك.

ظل ناثن ينظر في الخارج في اتجاه الجنوب ثم أدرك مع الوقت أن زاندار محق، كل شيء قد تغير بعد موت كامبيرون وسوف تُدار الأمور بواسطة إلسي وبوب. أدرك ناثن أن غياب كام يمكن أن يكون فرصة مناسبة لإقناع بوب وإلسي بشراء نصيبه من المزرعة العائلية، أدرك أن غياب كامبيرون ربما تنجح عملية البيع.

ثم أخذ يتخيل ما ستؤول إليه حياته الخاصة، بعد أن تنجح عملية البيع. فوجد نفسه قادرًا على التنفس بحرية على نحو مفاجئ، وشعر ببعض الارتياح للمرة الأولى منذ تلك اللحظة التي توجّه فيها إلى قمة الصخرة التي يقع فوقها قبر مربّي الماشية، منذ تلك اللحظة التي رأى فيها جثة كام مغطاة بالتراب.

- أبي.

عاد إلى انتباهه مرة أخرى داخل الجراج، كان زاندار يمسك في يده شيئًا كبيرًا مربع الشكل، وثقيلًا في الوزن، ملفوفًا في ورق سلوفان شفاف، بداخل حقيبة ورقية كبيرة.

- ما هذا؟

مسح ناثنان يده من التراب وتحرك في اتجاه زاندار ليتمكن من رؤية ذلك الشيء بوضوح. استطاع ناثنان أن يميز على جانب الحقيبة الورقية اسم إلسي مكتوبًا بحروف كبيرة وواضحة بخط يد كاميرون. تحرك زاندار في اتجاه الضوء حتى يتمكن والده من رؤية ما يحمله في يده.

كانت واحدة من الرسومات التي تخص لو، محاطة بغطاء أنيق ومصنوع باحتراف. الرسمة عبارة عن أسرة مكونة من أربعة أفراد، يمكن تمييز كاميرون يقف في المنتصف بصحبة زوجته وابنتيه الصغيرتين، الجميع يبتسم في نفس اللحظة، بداخل الصورة التي رسمتها لو.

كانت هناك بطاقة صغيرة في الداخل، أخرجها زاندار ورفعها بيده. كانت بطاقة مربعة عليها رسومات لأزهار الزنبق على طرفها الخارجي، استطاع ناثنان أن يعرف من التعبيرات التي ظهرت على وجه زاندار أنه تمكّن من قراءة محتوياتها. أمسك ناثنان بالبطاقة الصغيرة وقرأ محتوياتها المكتوبة بخط يد صغير يخص كاميرون: «اغفري لي».

الفصل العشرون

في الصباح كانت إلسي قد رحلت عن المنزل، استيقظ نااثان في وقت متأخر عن ميعاده المعتاد، فتح عينيه ليجد ضوء الصباح تسلل إلى غرفة المعيشة عبر الستائر، بقي مستيقظاً بصحبة زاندار لوقت طويل في المرأب حيث جلسا في ضوء المصباح المخروطي يُحدّقان إلى كلمات كاميرون: «اغفري لي».

في النهاية أمسك نااثان بالبطاقة الصغيرة وأعادها إلى مكانها في الحقيبة الورقية، ثم أخرجها مرة أخرى ووضعها في جيبه. سأله زاندار: «هل ستخبر إلسي عن هذه البطاقة؟».

- نعم، في الغد.

بحلول الوقت الذي استيقظ فيه نااثان، كان المنزل هادئاً. ارتدى ملابسه ونظر من النافذة التي استطاع من خلالها أن يُميّز جسدي صوفيا ولو الصغيرين وهما تلعبان في الحديقة بالخارج نوعاً غير مفهوم من الألعاب، بينما تجلس ليز وتراقبهما عن قرب.

على الرغم من المسافة الكبيرة بين ليز والنافذة حيث يقف نااثان، أمكنه أن يميز تهديل كتفيها وانحناء ظهرها. لم يكن هناك أثر لإلسي بصحبة الفتاتين، كما أنها لم تكن موجودة بداخل المطبخ حيث تباشر كاتي عملية التنظيف بمفردها.

اتجه نااثان إلى غرفة المكتب ولم تكن إلسي موجودة بداخلها كذلك. ثم سار في اتجاه غرفة زاندار فوجده نائماً ورأسه ممدد في هدوء فوق الوسادة الناعمة، بدت ملامحه أصغر في العمر مما كانت عليه في الليلة السابقة.

أغلق ناثنان الغرفة التي ينام فيها زاندار، واتجه عبر الصالة إلى الغرفة المخصصة للفتاتين، كانت هذه الغرفة تخص كاميرون -في الماضي- عندما كان صغيرًا. وقف ناثنان على باب الغرفة وتذكَّر كل المرات التي كان يقابل فيها أخاه في الصباح على باب تلك الغرفة، بعد شروق الشمس، وتتلاقى عيناها في فرحة طفولية ومرح.

منذ أن امتلك كاميرون النصيب الأكبر في المزرعة، انتقل للنوم في غرفة النوم الرئيسية في نهاية الممر، أصبحت الغرفة تخصه هو وإلسي. انتقلت ليز من تلك الغرفة وانتقلت إلى غرفة أصغر بالقرب من غرفة الفتاتين، وقالت إنها تشعر بالسعادة بشكل أكبر في الغرفة الجديدة.

كان باب غرفة النوم الرئيسية مفتوحًا، مدَّ ناثنان رأسه وتطلَّع إلى الداخل، لم تكن قطع الأثاث الكبيرة التي تخص أمه وأباه قد تغيرت، ولكن على الرغم من ذلك بدت الغرفة مختلفة، وبها شيء غير مألوف.

طلَّت إلسي الحوائط وعلَّقت صورًا للفتاتين، وأضافت بعضًا من اللمسات الشخصية الأخرى، حتى أصبحت الغرفة ذات مظهر جذاب أُخْتِيرَ بعناية.

دقق ناثنان بشكل أكبر داخل الغرفة، كانت في حالة فوضى تامة، فالسرير مرتب ولكن بشكل سيئ، وأطراف الوسادة تطل من داخل حافظتها كعلامة على عدم حصول صاحب الوسادة على كفايته من النوم طوال الليل. العديد من أكواب القهوة مرصوفة على المنضدة بجوار السرير، وبجوارها بقع ودوائر تمثل بقايا القهوة التي تركتها الأكواب كأثر لحركتها، وبجانب الأكواب زجاجة مفتوحة تحتوي أقراصًا من مضادَّ للاكتئاب، وبعض الأقراص الأخرى ملقاة على المنضدة بجوار أكواب القهوة.

عاد ناثنان للنظر مرة أخرى إلى غرفة الفتاتين، ثم نظر إلى الزجاجة الموجودة فوق المنضدة وشعر ببعض التردد، ولكنه حسم أمره ودلف إلى داخل الغرفة. أصدرت ألواح الأرضية الخشبية صريرًا مرتفعًا بينما داس عليها بحذائه الجلدي ذي الرقبة العالية، مدَّ يديه وجمع الأقراص من فوق المنضدة وأعادها مرة أخرى إلى زجاجتها، وبمنظرة سريعة استطاع أن يتعرَّف على نوع مضاد الاكتئاب. كانت الزجاجة مملأى بالأقراص، وقف في مكانه حينًا، ثم تركها في نفس المكان الذي وجدها فيه وخرج مرة أخرى إلى القاعة الرئيسية.

وبينما يسير بين الظلال اصطدم بشخص آخر بقوة فأصدر الاصطدام صوتاً مرتفعاً قبل أن يتعثر كلاهما. استغرق ناثنان بعض الوقت حتى يستطيع التعرف على الرجل الذي اصطدم به في ذلك الضوء الخافت.
- سايمون.

نظر ناثنان إلى سايمون وبادلته الأخير النظرات، ثم نظر إلى غرفة النوم المفتوحة من خلفه، وظهرت على وجهه تعبيرات كان من الصعب على ناثنان أن يفهم معناها.

قال سايمون: «لقد كنت أبحث عنك».

فأجاب ناثنان: «كنت أبحث عن إلسي».

شعر ناثنان بأن صوته يحمل لهجة دفاعية، لم يكن في حاجة إليها، فهو غير مضطر إلى أن يشرح أفعاله لسايمون، فسعل بشدة في محاولة لإخفاء نبرة صوته.

- لقد رحلت منذ ساعة تقريباً.

- حسناً، أشكرك، لماذا تبحث عني؟

- جاءتك مكالمة هاتفية.

- مكالمة لي أنا؟

لا تملك ذاكرة ناثنان شخصاً واحداً يملك الرغبة في أن يتصل به عبر الهاتف.

- من هو؟

هَزَّ سايمون كتفه: «إنه شخص كنت تحاول أن تتصل به على ما أعتقد ولكنك لم تنجح، إنه متعهد الصيانة الكهربائية».

- دايف؟

أمسك ناثنان بالسماعة وقال عبر الهاتف وهو يسمع صوت متعهد الصيانة على الطرف الآخر: «هل أصلحت غرفة التبريد؟».

- لا يا صديقي، أنا لم أفعل شيئاً، لقد ذهبت إلى منزلك في يوم الجمعة كما اتفقنا ولكنني لم أستطع الدخول.

- لم تستطع الدخول إلى حجرة التبريد؟

- لا، لم أستطع الدخول إلى المنزل.

- لماذا؟

- كان المنزل مغلقاً.

- ولكن...

ضَيِّقٌ ناثان عينيه وقال بغیظ: «اللعة».

لم يغلُق ناثان منزله إلا مرة واحدة، بسبب وجود زاندار، كانت فرصة سرقة جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بزاندان من داخل المنزل تكاد تكون معدومة، ولكنه أغلقه على كل حال حتى لا يشعر زاندان بالقلق.

كان الانزعاج واضحاً على صوت دايف على الطرف الآخر من السماعة، فقد قطع كل تلك المسافة بلا فائدة.

سأله ناثان: «على الأقل، يمكنك أن تخبرني إن كنت في الأنحاء ولم تبتعد كثيراً».

- آسف يا صديقي، كان من الواجب عليّ أن أعود إلى المنزل حتى أقضي أعياد الميلاد بصحبة أطفالتي.

- بحق المسيح.

اضطر ناثان إلى الانتظار لمدة ثلاثة أسابيع حتى يستطيع متعهد الصيانة أن يأتي إلى هذه المنطقة النائية، فقد كان يجمع عدداً كبيراً من طلبات الصيانة، حتى تصبح تلك الرحلة الشاقة على طول الطريق من سانت هيلين إلى تلك البقعة الصحراوية مُجزية بالنسبة إليه.

- ألم يمكنك أن تقتحم المنزل؟ ببساطة.

- نعم، كان يمكنني ذلك. (شعر دايف ببعض الإهانة بسبب السؤال الذي وجّههُ إليه ناثان) ولكنني لم أفعلها، لأنني لم أكن متأكداً من رد فعلك حيال ذلك.

- لا أظن أنني كنت سأمانع لو فعلت، فأنا أريد أن تعمل حجرة التبريد اللعينة بأي طريقة ممكنة.

مَنَحَ دايف الصمت فرصة قبل أن يبدأ بالرد على ما قاله ناثان حتى يُظهر استيائه من مسار الحديث، فتنهَدَ ناثان وأخذ نفساً عميقاً ثم قال: «أنا آسف يا صديقي، إنه ليس خطأك على كل حال، متي سيمكنك الحضور مرة أخرى من أجل إصلاح حجرة التبريد؟».

- لن أتمكن من الحضور قبل بداية الأسبوع الأول من شهر فبراير.

- فبراير؟

- ويجب أن يكون لدي أكثر من مهمة لإنجازها في هذه الأثناء كذلك.

- لا يمكنني أن أنتظر حتى ذلك الميعاد، يجب أن أصلح غرفة التبريد بسرعة، فإن هاري يظن أن الفيضان قد اقترب، وأنا في حاجة شديدة إلى تخزين الطعام.

- لو جاء الفيضان ربما أتأخر أكثر من ذلك.

- وما المفترض عليّ أن أفعله في هذه الحالة؟

- اسمع، يمكنني أن أخبرك ببعض الأفكار التي قد تفيدك.

- حسناً.

- هل لديك قلم؟

مدّ ناثان يده وأحضر قلمًا كان على المنضدة بالقرب من الهاتف. كان دفتر اليوميات والمواعيد الخاص بالعائلة موضوعًا بجوار الهاتف، وضع ناثان دفتر اليوميات على جانبه حتى يثبتّه ثم فتحه على صفحة جديدة وفارغة وبدأ بالتدوين.

ثم قال بعد مضي عدة دقائق: «حسناً، لقد حاولت أن أفعل ذلك بالفعل».

- في هذه الحالة...

وعاد دايف للحديث مرة أخرى، حتى توقّف ناثان عن الكتابة مرة أخرى، وقال: «ولقد أجريت تلك المحاولة أيضًا».

كان ناثان واثقًا بأن حجرة التبريد في حاجة إلى قطع غيار جديدة، ولكنه ترك دايف يستمر في الحديث حتى ملأ الكلام كلتا أذنيه.

قلب ناثان بين صفحات دفتر اليوميات. كان من المفترض على كل شخص ينوي أن يخرج خارج حدود المزرعة أن يدون ميعاد خروجه ووجهته، وميعاد العودة المتوقع. بشكل نظري، كان السجل يحتوي كل التحركات التي تمت خارج سياج المزرعة مكتوبة بشكل دقيق. ولكن من الناحية العملية التطبيقية، الأمر كان منوطاً بكل شخص على حدة لأن يتذكر رحلته ويدونها بشكل سليم. ولم يكن الجميع ملتزمًا بالتدوين على كل حال.

بدأ تركيز ناثان واهتمامه بما يقال خلال المكالمة الهاتفية يقل، بينما كان يمرر أصابعه فوق المدخلات الحديثة ويقرأها باهتمام.

كان هاري في الخارج يبحث عن بقع مناسبة لحفر آبار جديدة للمياه على ما يبدو، طبقاً لما هو مكتوب في الدفتر، بينما كانت إلسي طبقاً لتدويناتها التي مرَّ عليها ناثان بأصابعه قد رحلت بالسيارة منذ ساعة تقريباً - كما قال سايمون - متجهةً إلى حلبة تدريب الخيول، كان هذا هو نفس المكان الذي توجهت إليه في اليوم الذي اختفى فيه كاميرون. تخيّل ناثان اللحظات الأخيرة بين إلسي وكاميرون قبل أن يرحلَ ويتركها إلى الأبد في ذلك اليوم.

قال دايف بصوت عالٍ: «أنا آسف يا صديقي».

فعاد ناثان ليصُبَّ اهتمامه على المحادثة الهاتفية مرة أخرى، يبدو أن دايف في حاجة إلى إجابة واضحة على شيء ما. قال ناثان: «أشكرك على كل حال، سوف أجري محاولة أخرى لمحاولة إصلاحها معتمدًا على نفسي».

قال دايف بصوت يحمل علامات الدهشة: «لم أكن أتحدث عن غرفة التبريد، لقد كنت أقول لك إنني أشعر بالأسف بسبب ما سمعت عما أصاب كاميرون».

- أوه، حسنًا، أشكرك.

- لقد كان شخصًا جيدًا، لقد كنت أحبه كثيرًا.

- نعم، لقد كان بالفعل شخصًا جيدًا.

- لا بد من أنها كانت صدمة قوية ولعينة.

- نعم، لقد كانت كذلك.

- هل عرفت لماذا... ما السبب الذي دفعه إلى فعلها؟

قلب ناثان دفتر اليوميات حتى وصل إلى الصفحة التي تحتوي البيانات التي كتبها كاميرون في يوم اختفائه، وجد أن أخاه قد كتب بخط واضح وبحروف كبيرة «تل ليمان» فشعر بألم عنيف يعترض صدره. كان كاميرون يتوقع أن يعود في اليوم التالي بحلول وقت العشاء، كما هو مكتوب في الدفتر.

أعاد ناثان إخراج البطاقة الصغيرة التي تخص كاميرون من جيبه ونظر فيها، فوجد عبارة واحدة مكتوبة بنفس الخط: «اغفري لي».

أجاب ناثان عن سؤال الرجل: «لا فكرة لدينا حتى الآن».

كان السطر الذي يعلو مدخلات كامبيرون مملوءًا بإدخالات أخرى تخص ليز، حيث حرصت على أن تصطحب الفتاتين إلى التدريب على ركوب الخيل وخصوصًا صوفيا وعادت إلى المنزل في فترة ما بعد الظهر.

وفي السطر الأعلى كان هناك إدخال يخص هاري، بأنه سيخرج بصحبة سايمون للتنقيب عن المياه وسيعودان في وقت العشاء.

كتب بوب كلمات مرتعشة تمتلئ بالأخطاء الإملائية أنه سيبقى في الخارج عند الحقل الشمالي قبل أن يتجه إلى تل ليمان لمقابلة أخيه.

مرَّ ناثان بأصابعه على باقي المدخلات، لم يكن هناك شيء آخر مدون في تاريخ اليوم الذي فقد فيه كامبيرون، أخذ يقلب الصفحات للخلف وللأمام عدة مرات ثم أغلق الدفتر.

قال دايف: «على الرغم من ذلك يا صديقي»، وظهر نوع من الخجل في نبرات صوته، «أنا أعرف أن الوقت ليس ملائمًا بالنسبة إليك، ولكن يجب أن أرسل إليك الفاتورة، على الرغم من ذلك»، وقال بمرارة أكثر مما كان يجب عليه: «أليس كذلك؟ لقد كلفتني القيادة على طول الطريق الشمالي، أكثر من مئة دولار ثمنًا للوقود».

قال ناثان: «أعلم».

وشعر بدقات قلبه تتصارع، مثلما يحدث دائمًا عندما يطلب منه أحد بعض النقود في هذه الفترة الصعبة عليه من الناحية المادية.

- اسمع، بما أنها أعياد الميلاد، فسأتوقف عن ذكر النقود في هذه المكالمة.

- نعم؟ شكرًا لك.

- لا بأس، فقد كان عليّ أن أكون في أثرتون يوم الخميس بالصدفة، لذلك

لم تكن الرحلة خسارة تامة بالنسبة إليّ، إن كان يجب أن تعلم ذلك.

قال ناثان: «هل كنت في أثرتون؟».

شعر ناثان بفكرة ما تتكون متعثرة في عقله، ولكن هذه الفكرة تبخرت تمامًا بمجرد محاولته التعبير عنها.

- نعم، كانت هناك مشكلة في أحد المولدات الكهربائية، أكرر أسفي مرة

أخرى بسبب ما حدث لكam، للأسف الشديد لم يكن هناك أحد موجود

في الوقت المناسب لمساعدته في ذلك اليوم.

عادت الفكرة لتتكون في رأسه مرة أخرى ولكنها اختفت سريعاً.

- أشكر يا دايف.

- حظاً سعيداً مع غرفة التبريد يا صديقي.

ظل ناثن يفكر في العطل الموجود في غرفة التبريد ومدى حاجته في إصلاحها، حتى أغلق السماعة وأعادها إلى مكانها. ثم وقف ينظر إلى الهاتف لعدة دقائق، وفي النهاية أدار رأسه ببطء.

شعر ناثن بالمفاجأة عندما رأى شخصاً ما يطل برأسه من باب حجرة المكتب الخاصة بالسبي ويتابعه ببصره. كان سايمون مرة أخرى، تساءل ناثن عن طول الفترة التي قضاها سايمون وهو يراقبه من هذا الركن الخفي. سأله ناثن: «هل ترغب في شيء آخر؟».

بدأ ناثن يسير في اتجاهه، ولكن سايمون تحرك للخلف نصف خطوة، فتوقف الرجلان في أماكنهما بشكل غريب.

- هل أخبرك رجال الشرطة بمعلومات جديدة بخصوص ما حدث لكامبيرون؟

- لا، لماذا تسأل؟

- على سبيل الاهتمام، لقد كنت أحب كامبيرون كثيراً وأريد أن أعرف إن كانت الشرطة تأخذ الأمر على محمل الجد.

- أظن ذلك، ولكن للأسف الشديد لا يوجد إلا شرطي واحد في هذه الأنحاء. ضحك سايمون ضحكة متقطعة.

- أنا أعرف ذلك، ولكن هل سيأتي إلى هنا حتى يتحدث إلى جميع الموجودين؟

- لا، بالطبع لن يفعل.

فتح سايمون فمه وهمّ أن يقول شيئاً ما، ولكنه أعاد التفكير فترجع وأغلقه مجدداً. ثم وقف الرجلان يُحدّقان إلى بعضهما بعضاً.

- أخبرني مرة أخرى، كيف تعرفت إلى كامبيرون؟

- في الحانة، عندما جئنا إلى المدينة في بداية الرحلة.

- جئت من الغرب؟

- نعم، هذا صحيح.

قال ناثان: «ولكن من الصعب جدًّا الوصول إلى هنا من الطريق الغربي، في هذا الوقت من العام»، ثم أضاف: «فالطرق الصحراوية، مغلقة في الغالب».

- نعم، هذا حقيقي، لقد اضطررنا إلى أن نغير مسارنا متخذين الطريق الجنوبي الحافل بالمناظر الطبيعية، وانعطفنا في اتجاه الجنوب.

- فعلاً؟

دائمًا ما يتوافر الكثير من العمال المتجولين، في هذه المناطق النائية بحثًا عن الوظائف، مما جعل ناثان يتساءل عن السبب الذي جعل كامبيرون يختار هذا الثنائي تحديدًا. وخصوصًا أن العمل في المزرعة لا يكون مزدهرًا في هذا الوقت من العام.

أعاد ناثان التفكير في المكاملة الهاتفية التي أجراها بالأمس.

- شكرًا على اتصالك بمتجر أزهار الشمال.

- أخبرني، من أين أتيت مرة أخرى؟

- من إنجلترا، هامبشير.

- هل تقع في الشمال؟

- لا، إنها في الجنوب، لماذا تهتم؟

- لا عليك.

- هل لهذا السؤال علاقة بتلك المرأة التي تتحدثون عنها جميعًا، جينا؟

كان سايمون يتحدث بصوت منخفض، مما جعل ناثان يستدير برأسه في مواجهته.

- هل تعرف شيئًا عنها؟ ماذا تعرف عن هذا الموضوع؟

حاول سايمون أن يتحكم في صوته: «لا، بالطبع لا، لا أعرف عنها شيئًا على الإطلاق، وكيف لي أن أعرف؟».

- لماذا أثرت هذا الموضوع إذًا؟

نظر سايمون في اتجاه المطبخ حيث يتسرب صوت اصطدام الماء بأطباق العشاء التي تغسلها كاتي.

- اسمع، ربما كنت مخطئاً في الطريقة التي أتحدث بها إليك فأنت لا تعرفني وهذا شيء مفهوم، ولكن يجب أن تعلم إن كان يساورك شعور بالقلق بسبب ما حدث لأخيك. (خفض سايمون من حدة صوته بشكل أكبر من السابق) لا يجب أن تشعر بالقلق بشأنني، أو بشأن كاتي.

عبس ناثان وأخذ ينظر إلى ذلك الرجل الذي يتحدث بشكل غامض.

- ما الذي تقصده بذلك؟ هل تعني أن هناك شخصاً آخر يجب عليّ أن أقلق بشأنه؟

- أنا لم أقصد أن تشعر بالقلق تحديداً.

- ولكنك قلت ذلك بنفسك.

- أعلم ذلك، كل ما قصدته... أنا...

- بحق المسيح، لقد أثرت الموضوع يا صديقي، يجب عليك أن تكمل حديثك.

ابتلع سايمون ريقه بتوتر فارتعشت تفاحة آدم وهو يقول: «حسنًا.. كل ما في الأمر أنني سمعت كاميرون يجادل هاري في الأسبوع السابق لوفاته». قال ناثان: «حسنًا؟».

لم يكن ناثان في تلك اللحظة يستطيع أن يفكر في إجابة أخرى.

سمع ناثان صوتاً خافتاً من الخارج ينادي باسمه: «ناثان».

فالتفت إلى مصدر الصوت، كانت إلسي. استدار ناحيتها، ثم عاد ونظر إلى سايمون مرة أخرى.

قال سايمون: «اعتقدت أنه يجب عليك أن تعرف».

ثم أكمل حديثه قائلاً: «في إحدى الليالي، عندما كان هاري يستعد إلى إغلاق المولد الكهربائي، سمعتهما من حجرتي في الخارج. بالطبع لم أسمع كل شيء، فلم يكن في نيتي أن أسترق السمع إلى أحاديثهما ولكنهما تداولا العديد من الكلمات الغاضبة بصوت عالٍ».

جاء الصوت من الخارج مرة أخرى: «ناثان».

بإمكان ناثان الآن أن يشاهد إلسي وهي تخلع حذاءها وتلقيه على السلالم الخشبية أمام الشرفة.

اقترب سايمون من ناثان نصف خطوة ووقف في مواجهته مباشرة.

- حسنًا، اسمع، لقد كان كاميرون غاضبًا لدرجةٍ لم أعدها عليه من قبل، وكان هاري يصيح بأنه عاش هنا لأربعين عامًا، وقد قال شيئًا مشابهًا لأنه قد عاش في المزرعة لمدة تزيد على كاميرون، وأنه ينتمي إلى هذا المكان أكثر من أي شخص آخر، ويعرف عن المكان أكثر مما يعرف الجميع.

- ماذا تعتقد أنه كان يعني بهذا الكلام؟

هَزَّ سايمون كتفيه: «لا أعرف يا صديقي».

ثم استمر في الحديث: «ولكن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، فقد انصرف هاري غاضبًا، وأنا لم أعر الأمر اهتمامًا عندها، ولكن...».

توقَّفَ سايمون عن الحديث عندما فُتِحَ باب المنزل وظهرت إلسي عند المدخل في نهاية القاعة واقفة تحت المصباح.

قالت إلسي: «من الجيد أن أجدك هنا».

كانت تلهث قليلاً وهي تقول: «هاري ليس بالجوار، هل لديك بعض الوقت؟ أنا في حاجة إلى مساعدتك».

- نعم، ولكن انتظري بضع ثوانٍ.

استدار في مواجهة سايمون قائلاً في عصبية: «ولكن ماذا؟ أخبرني بسرعة».

- ولكن هاري لم يتحدث عن هذا الشجار مطلقاً بعد ذلك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والعشرون

تركا الشاحنة قبل الوصول إلى المكان المحدد بمسافة ثلاثة كيلومترات، بعد أن اصطدمت عجلات سيارة ناثان بعائق فوق الأرض غير المستوية.

قالت إلسي: «أمل أن أجدها عالقة كما تركتها».

فأجاب ناثان: «نعم، أرجو ذلك أيضًا».

وأشارت إلسي إلى شيء يتحرك في الأفق بالقرب من السياج السلكي المتشابك، كانت هناك بقرة صغيرة عالقة في السياج تحاول أن تتخلص من الأسلاك التي تحيط بأرجلها متسببةً في شعور رهيب بالألم في أقدامها العالقة وأجزاء أخرى من جسدها.

أشارت إلسي مرة أخرى: «نعم، ها هي ذي، يمكنني أن أراها من هنا».

ثم أخرجت يدها من زجاج النافذة الأمامية -المملوء بالغبار- للسيارة، كانت تلك هي الكلمات الأولى التي تتبادلها مع ناثان منذ خمس عشرة دقيقة.

كانت البطاقة الصغيرة الخاصة بكاميرون ملقاة بينهما ومفتوحة بحيث تظهر الكلمات بداخلها واضحة: «اغفري لي».

نظر ناثان نظرة سريعة نحو قطيع الماشية، بدأت الأبقار تتحرك واحدة تلو واحدة بمجرد أن سمعت صوت المحرك، لم يبقَ إلا تلك البقرة الصغيرة العالقة في السلك الشائك، تحاول أن تخلص قدمها الخلفية حتى تستطيع أن تلحق بالقطيع.

قالت له إلسي سابقًا عندما كانا في القاعة الرئيسية داخل المنزل: «لقد رأيتها في وقت سابق وأنا أقود السيارة، ولم أكن أملك وسيلة أستطيع أن أقطع بها السياج حتى أحزرها».

أجاب نااثان على الفور: «صحيح، هذه مهمة شخصين على كل حال، يمكنك أن تمهليني بضع ثوانٍ ثم سألحق بك إلى سيارتك».

ترددت إلسي قليلاً ثم قالت: «سيارتي لا تعمل، هل يمكن أن نذهب بواسطة سيارتك؟».

- لا مشكلة على الإطلاق، ستجدين المفاتيح فوق المقعد.

بدأ نااثان بالتفكير في شأن سيارة إلسي ذات الدفع الرباعي المختفية منذ حضر إلى المنزل.

دَوَّنَ نااثان وجهتهما في دفتر اليوميات بجوار الهاتف، ثم قطع صفحة فارغة وكتب عليها رسالة سريعة بخط مرتبك موجهة إلى زاندار قبل أن ينظر مرة أخرى إلى سايمون الذي ما زال يحوم حوله.

- هل أنت متأكد بشأن ما سمعته يدور بين هاري وكاميرون؟
ثم أضاف: «أنت لا تحاول أن تثير متاعب، أليس كذلك؟».

- لا، لا. لماذا أفعل ذلك؟

- هل أخبرت أي شخص آخر بما حدث، بوب على سبيل المثال؟
لا.

- ولماذا لم تفعل؟

- لأن بوب مقربٌ جداً من هاري.

- الجميع مقربون من هاري في المزرعة.

- ولكن ليس أنت، أنت تعتبر إلى حد ما... (وهزَّ سايمون كتفه) حسناً، اسمع، أنا لم أكن أعرف كاميرون بشكل جيد، ولكنه كان يحسن معاملتنا ولذلك فأنا أحبه. (ثم نظر إلى نااثان متفحصاً) وأفترض أنك تحبه بدورك، أليس كذلك؟

لم يكن نااثان يعرف كيف يجيب عن مثل هذا السؤال فتوقَّفَ قليلاً في مكانه ثم استدار ولحق بإلسي في الخارج تاركاً سايمون يُحدِّقُ إليه بدهشة.

كانت إلسي تجلس في المقعد المجاور للسائق بالفعل، بعد أن أدارت محرك السيارة ذات الدفع الرباعي، صعد نااثان إلى السيارة ليجد مكيف الهواء يعمل بقوة فشعر ببعض الارتياح. انطلقا بالسيارة على طول الممر في

اتجاه الخروج من محيط المنزل، حتى ابتعدا مسافة كبيرة قبل أن يتفوه أيُّ منهما بعبارة واحدة.

- إلسي، لقد وجدت شيئاً يخص كام.

- هل للأمر علاقة بسايمون؟

كان الحوار يدور بينهما بسلالة شديدة.

- هل أخبرك سايمون بشيء ما؟

قال ناثان: «لا، لقد وجدت شيئاً يخص كاميرون».

أخرَج ناثان البطاقة الصغيرة من جيبه الخلفي فسحبته بسرعة خاطفة من بين يديه. أبقى ناثان عينيه إلى الأمام ناظرًا إلى الطريق بينما كان يشرح لها كيف وجد البطاقة بصحبة زاندار، وحكى لها عن الصورة ذات الإطار التي تجمع جميع أفراد العائلة التي كانت بصحبة البطاقة الصغيرة.

مرت دقائق طويلة دون أن تنطق إلسي بكلمة واحدة، حيث اكتفت بالجلوس صامتة في مكانها ورأسها مُنحَن إلى الأسفل وشعرها الطويل منسدل أمام وجهها ليغطي عينيها، حتى قال ناثان: «إلسي؟».

سعلت إلسي بصوتٍ عالٍ وكأن شيئًا عالقًا في حلقها يمنعها من الحديث، ثم أسقطت البطاقة الصغيرة من يدها في المسافة بينهما كما لو كانت لم تعد تستطيع حملها في يدها أكثر من ذلك.

- أنا بخير، أنا بخير، كل ما في الأمر أنني كل يوم... (هَزَّتْ رأسها في حزن) كل يوم أشعر أنني لم أكن أعرف زوجي على حقيقته.

وتوقَّفَ كلاهما عن الحديث حتى وصلا إلى مكان القطيع الذي علقت به إحدى الأبقار في الأسلاك الشائكة لسياج المزرعة. أوقفَ ناثان السيارة على مسافة معقولة من البقرة العالقة حتى لا يسبب اضطرابًا إضافيًا لتلك البقرة الصغيرة وأمها التي تقف على مقربة منها وتراقب ما سينتهي إليه مصير عجلها الصغير.

خرجًا معًا من السيارة وتحرك ناثان في اتجاه الباب الخلفي وظل يفتش عن شيء ما في حقيبة الأدوات الخاصة به. ثم أخرج مقصّي أسلاك مختلفين في الحجم. استدار ليجد إلسي واقفة على مسافة غير بعيدة تراقبه، كانت عيناها تدوران داخل محجريهما بقلق، شعر ناثان بأنها لم تكن تنتظر إليه في الوقت الحالي، ولكنها كانت تحاول أن تتذكر كيف كان يبدو في الماضي.

كانت تحاول تذكّر ماذا حدث بينهما في مؤخرة تلك السيارة ذات الدفع الرباعي في هذه الليلة البعيدة، حدث هذا في يوم من الأيام منذ فترة طويلة، ربما تكون مليون عام، من يدري ومن يستطيع العد.

أغلق ناثان باب السيارة ومَرَّ بجوارها في اتجاه البقرة الصغيرة، وقفت الحيوانات تراقبه بحذر، ورفعت الأم ذيلها وبدأت تزفر وتخرج الهواء من أنفها العريض، بينما ابتعد عنهما باقي القطيع.

سألته إلسي: «لقد سمعت أن مربّي الماشية مات بهذه الطريقة»، ثم أضافت: «لقد تعنَّزَ أمام قطع من الماشية فدهسته حتى الموت؟».

- حقًا، لا إن هذا ليس...

كان ناثان يهْمُ أن يقص عليها القصة التي يعرفها عن مربّي الماشية، لكنه توقف عندما بدأت البقرة الصغيرة ترتجف، وازداد عنف أمها وحركتها، وبدأت تهز ذيلها بطريقة متوترة وجسدها يرتجف هي الأخرى.

ظل ناثان يراقب البقرة الصغيرة ثم قال: «إنها لن تحب ما سأفعله».

ثم أعطى أحد مقصّي الأسلاك إلى إلسي وقال: «هل يمكنك فعل هذا؟».

- نعم، لقد فعلتها من قبل، فقط أخبرني بالوقت الملائم وسأفعل.

اقترب ناثان من البقرة الصغيرة ولكنه ترك لها الفرصة حتى تنظر إليه في تمعن، من أجل أن تحصل على بعض الطمأنينة. كان قطع الماشية يعيش بحريته تمامًا على الطريقة البرية، ولم يرَ أشخاصًا منذ مدة طويلة، نظرت الأم إليه وهو يقترب من البقرة الصغيرة وبدأت تخور بصوت عالٍ وهي تقف خلفه.

نظر ناثان إلى السلك الشائك، لم يكن محكم الإغلاق حول قدم البقرة الصغيرة، ربما حاولت أن تحرر نفسها لعدة مرات، ولكنها ما زالت عالقة على الرغم من ذلك.

سأل إلسي: «هل البقرة الكبيرة التي خلفي هادئة؟».

قالت إلسي: «نعم، إنها تقف على مسافة بعيدة ولا تتحرك».

استطاع ناثان أن يميز آثار ثعبان كان يمر على الرمال من نفس المكان، على الأرجح فقد مضى في طريقه منذ فترة طويلة. ولكنه على الرغم من ذلك

ظل يتلفت حوله لعدة دقائق، استغرق وقتًا طويلًا، حتى يطمئن إلى أن كل شيء على ما يرام.

كان الترياق الخاص بلدغة الثعبان باهظ السعر، ومدة صلاحيته محدودة لذلك لا تحتوي العيادة في المدينة أي جرعات منه.

اعتاد العديد من الرحالة والمسافرين بشكل دائم التساؤل في استنكار قائلين: «وما الذي يحدث لمن يصاب بلدغة ثعبان؟».

ثم يديرون وجوههم في حالة من الدهشة الشديدة لعدم توفر المصل المضاد للددغة الثعبان.

كان الأمر بالفعل خطيرًا، وخصوصًا بسبب نوع الثعابين المنتشرة في تلك المنطقة القاحلة، فالثعابين تعتبرها منزلها الخاص وتكره رؤية الغرباء.

كان ناثن يجيبهم بشكل حاسم: «من يتعرض للددغة ثعبان سوف يموت لا محالة، هذه هي نهاية الرحلة بالنسبة إليه».

تقدّم ناثن من البقرة الصغيرة وهو يشعر بالرضا عما يفعله. ثم قال: «سوف أقرب منها الآن».

- حسنًا، أخبرني عندما يحين الوقت المناسب.

في حركة واحدة وسريعة وضع ناثن يده أسفل جسم البقرة الصغيرة وأحاط بساقها العالقة، وقبل أن تدرك البقرة الذي يحدث حولها، كان قد أسقطها أرضًا حيث ثبتها على جانبها وأمسك بها مستغلًا وزن جسده، شعرت البقرة الصغيرة بالصدمة وخارت لتنفث عن غضبها في وجه ناثن. وظلت ترفس بأقدامها وتصارع حتى تتحرر من قبضته، فمال إلى جسدها بشكل أكبر واستند إلى عنقها ورأسها مستخدمًا مرفقه وكوعه حتى يُثبَّتْها في الأرض بشكل قوي، حتى فقدت قدرتها على الحراك تمامًا.

قال بصوت عالٍ: «هيا، إنه الوقت المناسب».

كانت إلسي بالفعل قد اقتربت من البقرة المثبته على الأرض وفي يدها مقص الأسلاك وأمسكت بقدمها العالقة وبدأت بقص السلك.

استطاع ناثن من مكانه أن يسمع دقات قلب البقرة الذي يتحرك بسرعة داخل القفص الصدري، ويشعر بحرارة جسدها المتصاعدة وهي تحاول أن تتحرر.

صاحت إلسي على نحو مفاجئ: «اللعنة».

- ألم تقطعيها بعد.

ومال ناثن بجسده بشكل أكبر فوق البقرة الصغيرة حتى يشل حركتها بالكامل.

- كل شيء بخير، سوف أجرب المقص الآخر.

سمع ناثن إلسي تتحرك من مكانها، ثم قالت: «لا أريد أن أجرح جلدها بينما أقطع السلك الشائك».

كان ناثن يبذل جهدًا كبيرًا حتى يستطيع أن يثبت البقرة الصغيرة، لم يكن عمرها يزيد على شهرين ولكنها كانت قوية، كان ناثن أثقل في الوزن من إلسي بما يزيد على عشرين كيلوجرامًا وهو ما ساعده على تثبيت الحيوان في مكانه لفترة من الوقت، كل ذلك لم يكن مهمًا بالنسبة إلى ناثن ما دام كان قويًا بالقدر الكافي ليفعل ما يحلو له بالبقرة الصغيرة ويسيطر عليها.

ظل يستمع للذوي المخيف لقلب البقرة، وإذا به دون مقدمات يستحضر كاميرون ويسأل إلسي على نحو مفاجئ: «إلسي».

قالت: «نعم».

فسمع صوتها قادمًا من ناحية القدمين الخلفيتين للبقرة الصغيرة.

- لقد حاولت الاتصال بجينا مور في إنجلترا.

لم يكن يمكنه رؤية وجهها ولكنه شعر بأنها في حالة صدمة.

- حسنًا، وماذا بعد؟

هَزَّ ناثن رأسه على نحو مطمئن بقدر استطاعته وهو يقول: «لم أستطع أن أصل إليها، كانت بعيدة عن سكنها».

- وأين هي؟

كانت تسأله بصوت متوتر يستطيع تمييزه بسهولة، كما استطاع أن يميز صوت المقص وهو يقطع السلك الشائك بنعومة.

- حسب رواية زميلتها في العمل فهي في إجازة بمدينة بالي.

حرَّكَ ناثن رأسه بهدوء وألقى نظرة على البقرة الأم ليتأكد من أنها ما زالت تحافظ على مسافة فاصلة مناسبة بينها وبينهم.

- على كل حال مهما كان موقعها، فهي خارج تغطية الهاتف على ما يبدو.

لم يقل أحدهما شيئاً طوال دقيقة ونصف بينما علا صوت المقص وهو يقطع السلك الشائك.

- لماذا اتصلت بها؟

ما زال ناثنان لا يستطيع أن يرى مكان إلسي ولكنه استطاع بناءً على صوتها أن يحدّد أنها اقتربت منه أكثر من ذي قبل. حاول أن يدير رأسه حتى يراها ولكن البقرة الصغيرة بمجرد أن شعرت بارتخاء قبضته حاولت أن تتخلص منه فاضطر إلى أن يزيد من وزن جسده فوقها، ويصب تركيزه عليها.

أجاب بنبرة حائرة: «لا أعرف السبب».

- هل تعيد التفكير مرة أخرى فيما قالته بخصوص كاميرون؟

أجاب بسرعة: «لا، لم يكن ذلك الهدف من الاتصال».

لم يسمع منها إجابة، وظلت في مكانها حتى سمع صوت حركاتها وهي تقوم من مكانها، ثم قالت: «لقد أنهيت المهمة».

ابتعد ناثنان من فوق البقرة الصغيرة التي رفعت جسدها على الفور، وبدأت بالجري بسرعة في اتجاه أمها التي كانت تنظر إليها من على الجانب المقابل. نظرت الأم إلى ناثنان نظرة غاضبة ثم انطلقتا معاً في نفس الاتجاه الذي سلكه القطيع من قبل. ولم تُعد النظر إلى الخلف مرة أخرى. كانت البقرة الصغيرة سعيدة لأنها تحررت أخيراً من السلك الشائك الذي علق بقدمها.

جلس ناثنان على الأرض وهو يشعر بإرهاق شديد ويلتقط أنفاسه بصعوبة، كانت عضلاته مرهقة بسبب تثبيت البقرة الصغيرة على الأرض، وإلسي تقف فوق رأسه وتمسك مقص قطع الأسلاك في يديها وفي عينيها بريق من الدموع الحبيسة.

وقف ناثنان في مكانه قائلاً: «اللعنة، يا إلسي. أنا لا أعرف، لماذا فعلت ذلك؟ ربما كنت راغباً في معرفة ما لديها لتقوله هذه المرة».

ألقت إلسي بقايا السلك الشائك من يدها.

- بالي.

- هذا ما قالوه.

وقفت إلسي صامته لعدة لحظات ثم رفعت بصرها إلى الأعلى في اتجاه الأفق.

- يوجد العديد من الرحلات الجوية بين بالي وبريسبان.

ظَلَّ ناثان صامتًا بلا إجابة. ثم مضى في اتجاه سيارته اللاند كروزر ليحلب سلگًا معدنيًا جديدًا من أجل إصلاح السياج.

قالت إلسي وقد جفت الدموع من عينيها: «لا يمكنك أن تُميّز وجود شخص في هذه الأتحاء بسهولة، أليس كذلك؟ يظن البعض أن في إمكانه تحديد وجود أشخاص آخرين في صحراء مثل هذه الصحراء، ولكنهم مخطئون، ألا توافقني الرأي؟ لا تعرف بوجود شخص في الصحراء سواء كان يقف على مسافة بعيدة أو داخل سيارة متوقفة ما دام ظل ثابتًا لا يتحرك، يجب أن يتحرّك المرء أولًا حتى تدرك وجوده».

تذكّر ناثان تل ليمان، وما قاله بوب في هذا اليوم، لقد كان شيئًا مشابهاً. ثم قالت إلسي: «لقد سمعت بوب يقول إنه لا يستطيع تحديد وجود شخص ما بالجوار من عدمه».

هزَّ ناثان رأسه: «نعم، لقد قال ذلك».

ثم جلس على الأرض واستعمل الكماشة لإصلاح السلك المعدني وإضافة قطعة جديدة من السلك بدلاً من التالفة، لفَّ السلك الجديد في مكانه ثم ربطه بإحكام.

- أعتقد أن كلامه صحيحٌ.

- حقًا، هل تعتقد ذلك؟

بدت علامات الدهشة على ملامح إلسي.

- لقد كان كامبيرون يعتقد دومًا أن في ذلك نوعًا من السخف.

- أوه.

- أعتقد أنه من الممكن الإحساس بوجود شخص بالجوار حتى في حالة عدم رؤيته.

- لا أعرف، ربما، يحدث ذلك في بعض الأحيان.

لم يكن يستطيع أن يشرح لها الأمر، فهو مجرد إحساس بوجود شخص غريب على نفس الأرض، أو ثقل تشعر به في الهواء بسبب وجود أنفاس غريبة لشخص غريب يشارك الأكسجين الذي تتنفسه. كان يعرف بأن هناك تفسيرًا منطقيًا لكل ذلك، ربما كان اللاوعي يدرك أشياء لا ندركها، ربما كان اختلافًا بسيطاً في المناظر الطبيعية التي اعتدنا رؤيتها بشكل يومي، إنه شيء من هذا القبيل وهو شيء غير محدد ولا يمكن قياسه بدقة.

شعر ناثنان من قبل -لمئات المرات- بوجود شخص غريب في مزرعته، خصوصاً في السنوات الأخيرة وكان يظن أنه يرى شيئاً ما يتحرك في الأفق ولكن ذلك ليس دليلاً قاطعاً على صحة الأمر.

قال في النهاية: «لقد كان كاميرون محققاً، حسبما أعتقد».

وقفت إلسي في مكانها ثابتة وعيناها تتطلعان إلى الأفق، ثم سألت ناثنان بجدية: «وماذا عن هذه اللحظة؟ هل تظن أن هناك أحداً بالجوار».

قال بجدية مماثلة: «نعم، أظن ذلك».

- هل يوجد علم معين أو خبرة ما، تستطيع استخدامها لتعرف ذلك؟

- لا، إنه مجرد شعور.

ثم رفع بصره ونظر إليها فشعر باضطراب أنفاسها وسمع صوت الهواء وهو يداعب أطراف شعرها، لم يكن يستطيع أن يسمع ضربات قلبها في هذه اللحظة، ولكن ضربات قلبه كانت واضحة.

ثم قال لها بصوت صادق: «لا يوجد سوانا، لا تخافي».

وأدار بصره مرة أخرى وأكمل ما يفعله في السلك الشائك، شعر ناثنان بإلسي ترنو بأنظارها إليه ولكنه لم يستدر لمواجهتها وثبت تركيزه في المهمة التي يؤديها، قبل أن يفتح فمه مجدداً بعد مدة.

- حسناً، لا يمكن أن تكون جينا بالقرب من هنا، هذا أمر مستحيل، لو جاءت إلى المدينة لعلمنا بالأمر منذ وقت طويل.

- ربما لن تأتي عبر المدينة وسلكت طريقاً آخر.

- هذا مستحيل، لا يمكن أن تأتي إلى هنا دون أن تمرّ عبر المدينة، أنت تعرفين ذلك جيداً، المسافة طويلة ويجب أن تتزود بالوقود والمؤن، ولو لمحها شخص في المدينة لعرف الجميع بوجودها.

- لا، هذا الأمر يمكن حدوثه، أنت فعلت ذلك مئات المرات، وكامبيرون فعل ذلك وحتى بوب.

- نعم، ولكن كم من الأعراب قضى نحبه في سيارته، بعد أن سلك طريقاً مختصراً بعيداً عن المدينة؟ كنا سنسمع بالتأكيد، عن العثور على فتاة مفقودة في الصحراء بعد نفاذ المؤن والوقود.

لَفَّ كامبيرون السلك الشائك لفة أخيرة ودَقَّ عامود السياج في الأرض بقوة، ثم وقف وهو ينظر إلى ما فعله بعينين راضيتين، لكن نظراته تجمدت عندما لاحظ النظرة المرسومة على وجه إلسي.

- ما الأمر؟ ما الذي يدفعك إلى التجهم بذلك الشكل؟

- لقد حاول كامبيرون أن يتصل بجينا، مثلما فعلت، حاول الاتصال بها ثلاث مرات.

سألها ناتان مُحدِّقاً في دهشة: «متى فعل هذا؟».

- حاول الاتصال بها مرة واحدة منذ أسبوعين، ومنذ ثلاثة أسابيع حاول الاتصال بها مرتين أخريين، حدث كل ذلك قبيل وفاته مباشرة، لقد حاول الاتصال بها عبر هاتف المكتب وليس عبر هاتف المنزل الرئيسي، ولكنني عرفت الرقم عبر الاطلاع على فاتورة الهاتف على الإنترنت، إنها تملك محلاً لبيع الزهور في إنجلترا، أليس كذلك؟ لقد بحثت في دليل الهاتف حتى أتأكد.

رفع ناتان رأسه إلى أعلى وأشار بالموافقة.

- لا أعتقد أنه تحدَّثَ إليها على الإطلاق، فقد كانت المكالمات قصيرة للغاية، لا تزيد على ثلاثين ثانية.

- ما الذي جعله ينتظر كل هذا الوقت حتى يتصل بها؟ لقد كان يعرف منذ فترة طويلة أنها تحاول أن تتواصل معه.

- ربما هي من استغرقت وقتاً طويلاً حتى استطاعت أن تصل إليه.

ثم أضافت إلسي: «ربما أرسلت إليه رسالة إلكترونية أو شيئاً من ذلك القبيل، كيف لي أن أعرف، أنا لا أملك كلمة السر الخاصة ببيده الإلكتروني». توقفت قليلاً عن الحديث ثم قالت: «ربما لم تتواصل معه على الإطلاق وتركت القلق والفضول يأكلانه حتى يصاب بالجنون، انظر، لقد كان يشعر بالقلق

منذ عدة أسابيع، بمجرد أن عرف أنها اتصلت لتسأل عنه في مركز الشرطة، وأصبحت الأمور أسوأ مع مرور الوقت، فقد أجرى عدة اتصالات أخرى».

- بمن؟

- بالمركز الطبي في سانت هيلين على سبيل المثال.

- هل كان مريضاً؟

- لا، لم يكن مريضاً حسب معرفتي به، ولم يكن يتلقَى أي نوع من أنواع العلاج لديهم كذلك في المركز الطبي، لقد سألتهم، كما أن كامبيرون لم يتوجه إلى العيادة أو يستشير ستييف في أي شأن طبي، لأنه لا يحبه كما تعلم.

ثم أضافت: «اتصل كامبيرون كذلك بأحد الفنادق في سانت هيلين».

- ما هو اسم الفندق؟ في سانت هيلين يوجد ثلاثة فنادق مفتوحة لاستقبال النزلاء.

- اتصل بالأرخص سعراً بينها.

- وهل حجز غرفة في ذلك الفندق؟

- ربما فعل ذلك، ولكنه لم يستخدم اسمه الحقيقي. (بدأت علامات الحزن والانزعاج تظهر على وجه إلسي في هذه اللحظة) لم يكن هناك حجز في الفنادق باسم جينا مور كذلك، ولم تكن هناك حجوزات باسمها في الفنادق الأخرى.

شعر ناثان ببعض الألم يتسرب إلى صدره في هذه اللحظة، فوضع يده فوق كتفه المتعبة وبدأ بتدليكها، لم تكن كتفه مصابة ولا يشعر بشيء من هذا القبيل، ولكنه مجرد الشعور بالتعب الناجم من إصلاح السياج المعدني وكذلك من مقاومة البقرة الصغيرة وتثبيتها على الأرض.

وبينما ناثان يدلك كتفه المتعبة تلك، لاحظ أن إلسي ثبتت نظراتها عليه بتركيز شديد.

- هل تظن حقاً أن كامبيرون لديه ما يقلق بشأنه فيما يخص تلك المرأة؟

شعر ناثان بتردد حقيقي في هذه المرة، كان يشعر بالقلق والحيرة وظل صامتاً لفترة طويلة أدركت إلسي أسبابها. فأومأت برأسها: «لقد كان كامبيرون يتصرف وكأنه ارتكب خطأ ما...».

الفصل الثاني والعشرون

لَفَّ الصمت كليهما، طوال طريق العودة تقريبًا. كان ناثان يقود السيارة بينما إلسي تنظر من النافذة المجاورة لها متطلعةً في الأفق. كانت تقضم أظفارها وتقلب البطاقة البريدية الصغيرة الخاصة بكاميرون بين أصابعها. قال ناثان: «يجب عليك إخبار جلين»، ثم أكمل حديثه: «بشأن محاولات كاميرون الاتصال بجينا».

- لقد حاولت بالفعل.

كانت إلسي تتحدث دون أن تدير رأسها تجاه ناثان.

- لكنه لم يكن في مركز الشرطة بالأمس عندما حاولت الاتصال به.

- هل تركت له رسالة؟

- لا، لم أفعل، فقد حُوِّلت المكالمة إلى سنترال بريسبان الرئيسي، ولم أرغب في أن أثير...

تنهدت إلسي. ثم أكملت حديثها: «سوف أحاول الاتصال به مرة أخرى».

توقفت عن الحديث تمامًا بعد ذلك، حتى بدأ المنزل يظهر من بعيد على مرمى البصر.

قالت لناثان وهي تشير إلى حظائر الخيول: «سوف أنزل هنا. لقد كنتُ أتفقد أحد الخيول في الصباح، وأريد أن أطمئن أنه على ما يرام».

وضع ناثان قدمه على مكابح الفرامل فتوقفت السيارة، وبدأت إلسي بالخروج مسرعة...

قال وهي توليه ظهرها: «إلسي».

وقفت في مكانها ونظرت إليه، كان يريد أن يخبرها أن كل شيء سوف يصبح على ما يرام ولكنه اكتفى بالصمت، ثم قال: «لا شيء».

خرجت إلسي من السيارة وأغلقت الباب خلفها، راقبها نااثان وهي تسير مبتعدة.

عندما أوقف نااثان السيارة خارج المنزل، كان في إمكانه رؤية الفتاتين في ساحة تدريب الخيل البعيدة، تركبان فوق حصانتهما، بينما كانت ليز تجلس لمتابعتهما عن بُعد وزاندار يجلس في ركن ظليل يمسك كراسة الرسم في يديه يقلب صفحاتها.

اقترب نااثان من والدته وارتكن على السور الخشبي بجوارها في صمت، توقع نااثان أن تطلب ليز من لو أن تُبقي كعبي قدميها في وضع سفلي مناسب لركوب الخيل ولكنها لم تفعل، كان الإرهاق يبدو على عينيها الزائغتين.

سألها: «هل كل شيء على ما يرام؟».

- اتصل ستيف من العيادة، و...

تلعثمت ليز ولم تكمل كلامها.

- لقد انتهى من تشريح الجثة، يمكننا أن نبدأ مباشرةً بترتيبات الجنازة.

أخذ نااثان يفكر في المكالمات التي أجراها كاميرون للمركز الطبي في سانت هيلين.

- هل وجدوا أي مشكلات صحية في جسد كاميرون عند إجراء التشريح؟

هزت ليز رأسها علامة على النفي وهي تشعر بالارتباك، ولم تسأل نااثان عن سبب طرحه لمثل ذلك السؤال ولكن زاندار رفع بصره ناظرًا إليه.

قال نااثان: «هل ترغبين في الحصول على قسط من الراحة، سأبقى لمساعدة الفتاتين فيما يخص ركوب الخيل».

انتظر أن تجادله ليز في هذا الشأن، ولكنها هزت رأسها بمجهود شديد في إشارة إلى الموافقة واستندت إلى الحاجز الخشبي متجهة إلى المنزل.

قال زاندار بعد أن انصرفت: «لقد كانت على هذا الحال، طوال اليوم»، ثم أضاف في صوت لا يخلو من الحماس: «لقد كادت لو تسقط من فوق ظهر الحصان، منذ قليل ولكنها لم تلاحظ ذلك».

قال ناثنان: «حسنًا...»، ثم أضاف: «اسمع يا صديقي، أعتذر أنني لم أصحبك معي هذا الصباح».

- لا بأس.

لم يتوقع ناثنان أن يتقبل زاندار الاعتذار بسهولة ولكنه كان يصب اهتمامه على كراسة الرسم، ثم سأله دون أن ينظر إليه: «هل أخبرت إلسي بخصوص البطاقة الصغيرة التي تخص العم كام؟».

قال ناثنان: «نعم، فعلت».

ثم قَصَّ عليه رد فعل إلسي حيال رؤية بطاقة المعايدة، وبعد تردد قصير قَصَّ عليه كل ما دار بينه وبينها خصوصًا اتصال كام بالمركز الطبي في سانت هيلين.

عبس زاندار وسأله ناثنان: «هل كان كام يظن أن جينا موجودة في سانت هيلين؟».

- لا أعلم، ربما فعل.

أعاد زاندار بصره مرة أخرى إلى دفتر الرسم الذي يمسكه في يده وبدأ يقلب بين صفحاته، كان الدفتر مملوءًا بالرسومات التي تخص لو.

سأله ناثنان: «ما الذي تفعله؟».

أعطى زاندار دفتر الرسم إلى ناثنان وهو مفتوح مباشرةً على الصفحة التي كانت تثير اهتمامه، فحص ناثنان اللوحة باهتمام وأدار عينيه بعناية بين أجزائها. كانت اللوحة تمثل فتاتين صغيرتين، إحداهما أصغر من الأخرى، ولكلتيهما شعور شقراء ولكنها قذرة. من الصعب تمييز عُمرَي الفتاتين. ولكن أكبرهما سنًا، لها ذراع محاطة بشرائط ملونة.

كانت الفتاتان تقفان في مقدمة اللوحة وتحت أقدامهما تمتد أرض برتقالية شاسعة، ومن خلفهما الأفق الواسع يحجبه ظل أسود كبير الحجم. كانت اللوحة مرسومة من قبل شخص يملك موهبة واضحة ولكنه صغير في السن كما هو واضح، وكانت التفاصيل دقيقة ومحددة يسهل التعرف عليها.

قال ناثنان: «هذا قبر مربّي الماشية، أليس كذلك؟».

بجانِب شاهد القبر رسمت لو شكلاً آخر غير واضح الملامح، كان محاطاً بالظلال وغير مكتمل ولكنه يحمل ملامح إنسانية بشكل غريب وغامض. ظنَّ

نathan أن هذا الشكل الغامض يخص امرأة، لأسباب لا يستطيع أن يحددها بوضوح، بينما كان الشكلان الآخران حتمًا يمثلان الفتاتين اللتين يمكن التعرف عليهما بسهولة من خلال الرسم. كانت ملامح المرأة المرسومة في الخلفية بلا تفاصيل ومراوغة بشكل غامض.

رفع Nathan بصره عن اللوحة فرأى بنتي كاميرون تسييران بالخيول بالقرب من السياج البعيد. فقال: «لم أكن أعرف أنهما ذهبتا إلى قبر مربى الماشية؟». أجاب زاندار مشيرًا إلى الرسومات على ذراع صوفي المصابة: «ليس مؤخرًا على كل حال».

- أوافقك الرأي.

رفع Nathan صوته منادياً الفتاتين: «يا فتاتان».

كانت لهجة حاسمة لدرجة جعلتهما تشدان لجام الخيول بشكل فوري.

- أحضرا إلى هنا على الفور، يجب أن أتحدث إليكما.

قالت صوفي بينما وقفت أمامه مثيرّة عاصفة من الغبار: «هل نحن في ورطة؟».

- لا، كل ما أردته هو أن أسأل لو عن هذه اللوحة.

انحنى لو إلى الأمام حتى يستطيع أن تميز اللوحة بوضوح، رفع Nathan الصورة إلى أعلى فظهرت تغيرات غير مفهومة على وجه الفتاة بمجرد رؤيتها.

رفعت صوفي رأسها حتى ترى اللوحة، كان الحصان الذي تركبه مضطربًا يدور حول نفسه في دوائر ضيقة، استطاع Nathan أن يشاهد اللجام مشدودًا بإحكام بين أصابع صوفي الصغيرة تاركًا علامات حمراء فوق جلدها الرقيق.

أعاد Nathan السؤال مرة أخرى: «ما هذه اللوحة يا لو؟».

أجابت صوفي بسرعة: «من الواضح أنه قبر مربى الماشية».

اختفت علامات الثرثرة التي كانت تملأ تعبيرات الفتاة الصغيرة من ليلة الأمس، وبدا صوتها أكثر اتزانًا، كما استطاع Nathan أن يلاحظ أنها أحكمت قبضتها على لجام الحصان في مزيد من الإحكام.

- لم أكن أعرف أنكما ذهبتما إلى هذا المكان؟

- ذهبنا مرة واحدة، بصحبة ماما.

أشار Nathan إلى شبح المرأة الغامضة: «هل هذا الشكل يخص ماما؟».

قالت صوفي بسرعة، قبل أن تتمكن لو من الإجابة: «بالطبع، هي، ومن سيكون غير ماما».

سألها ناثان بلهجة صادقة: «لا أعرف، ربما تكون إحدى صديقاتها».

قالت لو: «ماما، ليس لديها أصدقاء على الإطلاق، هذه حقيقة».

عبست صوفي: «لا أحد منا يملك الأصدقاء».

سألها زاندار: «إذا فقد زهبتما إلى هناك بصحبة ماما».

قالت لو: «نعم».

- ومتى حدث ذلك؟

قالت لو: «منذ فترة طويلة جداً».

فتداركت صوفي: «لا، ليس منذ فترة طويلة لهذه الدرجة، حدث ذلك بعد

أن أذيت ذراعي مباشرة».

عاد الحصان الذي تركبه صوفي للدوران حول نفسه مرة أخرى، فاضطرت

إلى أن تميل برأسها إلى الخلف حتى تستطيع أن تواجه ناثان في أثناء تبادل

الحديث معه.

- وما الذي فعلتماه هناك؟

تبادلت الفتاتان النظرات مع بعضهما بعضاً، فشر ناثان بأنهما تراوغان

في الإجابة ولكن ليس عن عمد.

- لا شيء، ذهبنا إلى هناك في البداية، ثم...

قالت صوفي عابسة: «ثم عدنا لركوب السيارة ورجعنا إلى المنزل مرة

أخرى على الفور، قالت ماما إنها من المفترض أن تكون نزهة».

وأضافت لو: «ولم نتناول الطعام في ذلك اليوم».

قالت صوفي: «ولكننا حصلنا على الطعام لاحقاً، لقد تناولنا الطعام

بالقرب من حظائر الخيول في طريق العودة».

عبس وجه لو الصغير.

قالت صوفي: «لم نبق عند قبر مرببي الماشية إلا بضع دقائق فقط».

أضافت لو: «نعم، لم يعجبني ذلك المكان على الإطلاق».

سألها ناثان: «ولم يحدث هناك شيء آخر غير ذلك؟ هل أنتما متأكدتان؟».

هزت الفتاتان رأسيهما في ثقة في إشارة بالنفي، ووقف ناثان يراقبهما وهما تفعلان ذلك.

- حسنًا، شكرًا يا فتاتان.

كان حصان صوفي ما زال غارقًا في دورانه، حتى إن ناثان أمكنه رؤية بياض عينيه وهما تدوران حول نفسيهما. تركت صوفي اللجام فانطلق الحصان مسرعًا عبر الساحة. بينما بقيت لو في مكانها حيث كان حصانها أكثر هدوءًا، وجّهت لو حديثها إلى ناثان: «هل ستواجه ماما مشكلة بسبب ذلك القبر؟».

- لا بالطبع، لماذا تظنين ذلك؟

- لأنك تبدو حزينًا.

- هل هذا حقيقي؟ أنا أسف.

كان الحزن فعلاً يبدو على وجه ناثان، فحاول أن يعيدَ رسم تعبيرات وجهه مرة أخرى حتى تبدو أكثر حيادية، ثم أغلق كراسة الرسم الخاصة بلو. وتوقّف لحظة ثم سألها: «لماذا لم ترسمي ملامح ماما بطريقة واضحة؟».

بدأت على لو علامات الحيرة ونظرت في اتجاه أختها التي انصرفت منذ قليل. كانت صوفي ابتعدت لمسافة كبيرة عبر الساحة ولم يعد في استطاعتها أن تتدخل في المحادثة، فهمست بصوت منخفض: «اللوحه لم تعجب بابا».

- ماذا تقصدين بذلك؟

- عندما شاهد الرسم، تشاجر مع ماما مشاجرة شديدة، فلم أرغب في أن أجعل الأمور أسوأ مما هي عليه بالفعل.

انصرفت إلسي عن محيط حظائر الخيل منذ فترة طويلة، لذلك تأكّد ناثان أن البنيتين انصرفتا بأمان وأعاد الخيول إلى حظائرها.

كانت لو مشوشة بشكل واضح وكادت تفقد السيطرة على حصانها عدة مرات، لم تكن تعرف السبب الذي جعل والدها غاضبًا، لو عرفت السبب لأخبرت ناثان، ولكنها لم تكن تعرف.

تبادل ناثان وزاندار النظرات، بينما كان اضطراب لو يتزايد بشكل ملحوظ ولم يرغب في الضغط عليها بشكل مبالغ به. وخصوصًا بعد أن كادت تسقط للمرة الثانية من فوق ظهر الحصان.

طلب ناathan من زاندار أن يصطحب الفتاتين إلى المنزل، لأداء نشاط أكثر أماناً بدلاً من ركوب الخيل. ربط الخيول في الحظيرة الخاصة بها وخلع عنها أدوات الركوب بينما أخذ يفكر في كل ما يحدث حوله.

وبينما كان في طريق العودة إلى المنزل سمع صوت بكاء خفيف من خارج إحدى الحجرات الخاصة بالعمال، وقف يستمع إلى أصوات البكاء والشهيق المضطرب ثم دار حول الحجرة صاعداً السلالم الخاصة بها. شعر ناathan بالدهشة عندما رأى منظر الحجرة من الداخل، فقد عُدلت لتصبح قاعة دراسية متكاملة، تحتوي لوحة دراسية مخصصة للكتابة بيضاء اللون، ومقاعد لجلوس التلاميذ، ولوحات تحتوي حروف الهجاء والأرقام معلقة على الحوائط، كانت معظم الملصقات مصنوعة في المنزل، فغالباً شعور أن إلسي من صنعها بنفسها من أجل الفتاتين.

كانت كاتي تجلس في الركن المخصص للقراءة فوق وسادة كبيرة منقوخة، وبدأت بمسح آثار الدموع من عينيها بمجرد أن رآته يدخل الحجرة. قال ناathan: «آسف، لقد سمعت صوتاً وأنا في الخارج».

قالت كاتي: «لا بأس».

ثم مسحت أنفها بمنديل ورقي ممزق، وحاولت مع بعض الجهد البسيط أن ترفع جسدها إلى الأعلى من فوق الوسادة المنتفخة.

- يجب أن أعود إلى العمل على كل حال.

- ما الخطب؟ ماذا بك؟

- لا شيء، أنا بخير.

- هل ترغبين في أن أستدعي سايمون.

- لا، كل شيء على ما يرام.

وجد ناathan بكرة من المناديل الورقية معلقة بالقرب من الركن الخاص بالرسم فنزع منها منديلاً وأعطاه إليها.

- حسناً، انتظري دقيقة واحدة.

- شكرًا.

أمسكت كاتي المنديل بامتنان وبدأت بمسح عينيها. انتظر ناathan لبعض الوقت حتى تماكنت كاتي نفسها.

كانت القاعة الدراسية أجمل بكثير من كل القاعات التي حظي بها كاميرون وناثان وبوب عندما كانوا صغارًا، كانت معظم أنشطتهم الدراسية في زمنهم، تتم على طاولة المطبخ أو في أي مكان آخر مشابه أو حتى لا تُعقد على الإطلاق.

لاحظ ناثان على المنضدة التي تخص المعلم جهاز كمبيوتر محمولاً وبضع قصاصات ورقية تحتوي بعض الملاحظات فافترض أنها مكتوبة بخط يد كاتي.

دفتر تحضير الدروس الخاص بالمدرسين يقبع مفتوحًا فوق المكتب، جعل ناثان يتذكر الحوار الذي دار بينه وبين صوفي في الشرفة في السابق. «لا أعتقد أنها معلمة حقيقية».

بدأ ناثان ينظر في الدفتر الذي أمامه بينما كانت كاتي تمسح أنفها مرة أخرى، مرَّ بيده عبر عدد من الصفحات داخل الدفتر، كانت الدروس مكتوبة بالترتيب الذي يفترض أن يتبعه المعلمون للتدريس للأطفال في منازلهم عن بعد.

بدأ ناثان بقراءة المكتوب:

- ملخص الوحدة، ارفع الكتاب وابدأ بالقراءة للتلاميذ كالتالي:
«اليوم سوف نكتشف معًا تفاصيل القصة المصورة، وسوف نتعرف على شخصيات القصة المصورة».

- ارفع الكتاب وأظهر للطلاب الغلاف الأمامي، ثم اطلب منهم قراءة العنوان بصوت واضح.

عبس ناثان وقطب حاجبيه ثم أكمل القراءة، كانت كل التعليمات التي تخص الشرح مكتوبة بشكل واضح، لا يصعب على أحد اتباعها حتى يوصل المعلومة للأطفال بمهارة، وخصوصًا إذا اتبعها بدقة. تساءل ناثان إن كان في إمكانه أن يشرح الدروس للأطفال بشكل جيد وشعر ببعض الشك، ثم أغلق الدفتر ورفع بصره ووجد كاتي تراقبه عن بعد.

- هل أصبحت بحال أفضل؟

- نعم.

كان صوتها أكثر وضوحًا، ولكن تبرجها أصبح في حالة فوضوية، مما جعل عينيها تبدوان مثيرتين على نحو غريب.

- كل ما في الأمر أنني أشعر ببعض الحنين إلى الوطن، لكنني سوف أصبح بخير بعد قليل.

سألها: «هل ستعودين إلى المنزل؟ سوف أسير بصحبتك».

فتحت باب الحجرة ونزلت السلم، فتبعها إلى الأسفل. كان ضوء النهار ساطعًا لدرجة تسبب الشعور بالعمى.

سألته كاتي بينما كان يسير بجانبها: «هل أصبحت المسؤول عن إدارة المزرعة بعد الآن؟».

- أنا، لا، لست أنا.

- ومن سيكون إذًا؟

قال ناتان: «هذا سؤال جيد، أعتقد أنها ستكون إلسي، ولكن هذا يتوقف على سبب سؤالك؟».

نظر ناتان إليها محاولاً أن يفهم ما يدور برأسها، فشعر بوميض غامض يظهر على وجه المرأة وهي تحدثه: «حسنًا، أنا وسايمون سوف نمضي في طريقنا مرة أخرى عما قريب، ليس ذلك بسبب ما حدث على الإطلاق ولكن...»، استدركت كاتي بشكل سريع: «لقد ناقشنا أمر الرحيل مع كامبيرون بالفعل ولكن...». ثم توقفت عن الحديث.

قال ناتان: «حقًا فعلتما؟».

قالت كاتي: «نعم، بصدق».

- ومتى تتوقعان الرحيل؟

- لا أدري، ربما في وقت ما خلال الأسبوع القادم، يجب أن أرتب مع سايمون حتى نحدد الموعد بدقة.

- حسنًا، ولكن يجب أن تحرصا على إلقاء الوداع على الجميع قبل الرحيل، من المفترض أن نبلغ عن رحيل العمال المؤقتين عن المزرعة على الفور، حتى يمكن متابعتهم والتأكد من عدم حدوث مكروه لهم في

أثناء الطريق، وحتى لا يجدوا أنفسهم عالقين وسط المجهول وتائهين في الصحراء ولا يعلم عنهم أحد شيئاً، هذه التعليمات من أجل سلامتهم. قالت كاتي بطريقة متسرعة: «هذا الأمر، لا يعني أننا غير ممتنين للحصول على فرصة للعمل في المزرعة».

- لا عليك، فلا أحد يبقى للأبد، هذه طبيعة الوظيفة، هل ستعودان إلى إنجلترا؟

هزّت كاتي رأسها: «كنت أحب ذلك، ولكن سايمون ليس على استعداد بعد، إنه يحب طبيعة الحياة هنا كثيراً».

أجاب ناثن بهدوء: «حسناً...».

ولكن بداخله، كان ينمو شعورٌ بأن هناك شيئاً ما غامضاً لا يستطيع فهمه حيال كاتي.

- هل أنتما مرتبطان منذ فترة طويلة؟

- منذ ثلاث سنوات، تقريباً.

كان صوتها لا يحمل مشاعر على الإطلاق وهي تضيف: «نحن مخطوبان». ربما كانا مخطوبين بالفعل، ولكن بوب كان محقاً للمرة الأولى بشكل مفاجئ، فصوتها لا يوحي بالشعور بالسعادة مع سايمون على وجه الإطلاق. قال ناثن في نهاية الحديث: «لو كنت في حاجة إلى التحدث إلى شخص ما، أعني شخصاً ما خارج المزرعة، أعني... يمكنك الوثوق بستيف في العيادة الطبية».

سألته بحدة مفاجئة، وظهر التجهم في ملامح وجهها: «لماذا تقول ذلك؟».

- لا سبب محدد، في بعض الأحيان يكون لدى العمال المؤقتين بعض الأشياء التي لا يرغبون في مناقشتها مع أصحاب المزارع التي يعملون بها، هذا كل شيء.

بدا الارتياح يظهر على وجهها.

- أوه، أنا آسفة.

- أنا لا أتصرف بهذا الشكل طوال الوقت في العادة، ولكن لا بد من أن كل الأحداث التي تحيط بنا قد أثرت فيّ بشكل كبير.

قالت كاتي: «لا عليك، فأنا لا ألومك».

- إن ذهني مشتتٌ بسبب التفكير في العديد من الأشياء.

- أستطيع أن أفهمَ ذلك فقد كان كاميرون شقيقك، هل تعلم، لم أكن أعرف كاميرون حتى قبل بضعة شهور، ولا أستطيع أن أتوقَّف عن التفكير فيما حدث.

كانت نوافذ المنزل من الخارج تبدو مظلمة عند النظر إليها عبر الفناء على الرغم من ضوء النهار الساطع. ولم يكن هناك أي شخص آخر على امتداد الأفق حولهما فشعر ناثن كما لو كانا بمفردهما في المزرعة، وكذلك كانت سيارة هاري غير موجودة في مكانها المعتاد أمام المنزل. شعر ناثن بالتردد بعض الشيء، كما شعر بأن هناك شيئاً خاطئاً يدور حوله.

ثم سأل كاتي: «قال سايمون إنه سمع هاري وكاميرون يتشاجران ذات ليلة».

ردت كاتي: «أوه، نعم، لقد ذكر ذلك، ولكنه لم يكن شجارًا بالمعنى المعروف، كان مجرد جدال بسيط، ولكن لقد غلبني النوم في أثناء ذلك».

- هل تظنين أن سايمون فهم الموضوع بشكل خاطئ؟

- لا أعرف، في الحقيقة سايمون يحب كاميرون كثيرًا، فهو يراه مديرًا ممتازًا ويحب العمل معه وربما كان ذلك هو السبب في تفسيره الأمور بشكل غير صحيح، كما أنه...

أبطأت من وتيرة حديثها حتى سكتت عن الحديث تمامًا.

سألها ناثن: «كما أنه.. ماذا؟».

ظلت صامتة، ثم قالت في النهاية: «اسمع، أنا مجرد عاملة في المزرعة، ولا شيء أكثر من ذلك»، ثم أشاحت بنظرها مُحدِّقة عبر الفناء، «لم ألتحق بهذه الوظيفة، بهدف تكوين صداقات أو الانخراط في العائلة أو شيء من هذا القبيل، كل ما هنالك أنني كنت أطمح إلى جمع بعض المال»، ثم التفتت ونظرت إليه مرة أخرى، «ولا أعرف ما حدث على وجه اليقين، ولكنني أظن أن هناك شيئاً مريباً يتعلق بالطريقة التي انتهت بها حياة كاميرون».

انتظر ناثن أن تستطرد في حديثها، وكان للحظات الصمت وقع ثقيل على كل منهما.

قالت كاتي: «عندما رأيت كاميرون في صباح ذلك اليوم، أخبرني أنه سيعود في صباح اليوم التالي».

ثم أضافت: «لا تطلب مني أن أشرح معنى كلامه، ولكنني شعرت بأنه يعني ما يقول، وأنه يخطط بالفعل للعودة إلى المنزل، أنا لا أعرف بالضبط ما الذي حدث خلال رحلته ولكنه كان يخطط للعودة إلى المنزل، ذلك شيء أكيد، أتمنى لو سمع حديثه شخص آخر بخلاف سايمون، مثل هاري على سبيل المثال أو إحدى الفتاتين، كانت ستؤكد على ما قلته».

قال ناتان بتردد: «حسنًا، لقد كانت إلسي حاضرة ذلك الصباح».

ثم أضاف: «لا بد من أنها رأته قبل أن يرحل».

أجابت كاتي: «نعم، أعتقد أنها فعلت».

ثم واصلت كاتي السير في اتجاه المنزل.

- ربما أخبرها أيضًا أنه سيعود في صباح اليوم التالي، بالضبط كما قال لك.

هزت كتفها هزة بسيطة: «حسنًا، لا أعرف، لقد كنت بعيدة عنهما في تلك اللحظة، ولم أستطع سماع ما دار بينهما، ربما يمكنك أن تسألها بنفسك حتى تتأكد».

- أنا واثق بما تقولين.

نظرت كاتي إليه، وكأنها تفكر في الطريقة التي يتحدث بها إليها، وقالت بابتسامة منطفئة: «حسنًا، أشكرك».

ثم ابتعدت فجأة وأسرعت الخطى في اتجاه المنزل، فنظر ناتان إلى المنزل ولاحظ ظلًا يراقب ما يحدث بينهما من إحدى النوافذ، ظلًا لم يكن موجودًا من قبل عندما بدأ الحديث بينهما. كان سايمون واقفًا خلف إحدى النوافذ يراقبهما وانعكاس الزجاج الخاص بالنافذة يخفي رد الفعل الذي يظهر في عينيه.

بدأت كاتي تسير بسرعة شديدة حتى إن ناتان اضطر إلى الهرولة ليستطيع اللحاق بها.

قال ناتان: «ولكن كنت على وشك أن تخبريني بشيء آخر».

- لا شيء، إنه أمر غير مهم على الإطلاق.

- لا، لا بد أنه ذو أهمية.

- في الحقيقة، إنني لا أريد التورط في المشكلات، كل ما أطمح إليه هو أن أهتم بشؤوني الخاصة.

توقّف ناثنان في مكانه وقال: «ماذا لديك يا كاتي؟ يجب أن تتكلمي فالرجل ميت بحق المسيح».

- أنا أعرف ذلك.. ولكن.

توقفت قليلاً عن الحديث، ثم قالت: «حسناً»، ثم أضافت بتردد: «سوف أخبرك، لم يتبادل كاميرون مع إلسي الكثير من الكلام في ذلك الصباح، كان يبدو أنها لا تكثر لرحيله، حتى إنها لم تُشر إليه مودعة وهو يقود السيارة في الطريق إلى الخارج».

- وماذا يعني ذلك، هذا لا يثبت أي شيء على الإطلاق؟

بدا كأن كاتي تفكر، وتتخيل مسار الحوار في داخل عقلها قبل أن تنطق به.

- نعم، أنت محق، ولكن إلسي كانت تنظر إليّ بعينين يملؤهما الحزن والكراهية لأسباب لم أستطع أن أفهمها.

ثم واصلت حديثها: «كما أن إلسي اعتادت أن تلوح إليه مودعة وهي في الطريق إلى الخارج، ولم تفوت ذلك مطلقاً من قبل».

حدّق ناثنان إلى كاتي وحدّقتُ إليه بدورها، ثم هزّت كتفيها قائلة: «أخبرتكم أنه أمر غير مهم على الإطلاق».

ثم وضعت المنديل الورقي في جيب سروالها المصنوع من الجينز. وقالت: «بالمناسبة، أشكرك على المنديل وعلى اهتمامك السابق، لقد أصبحت أشعر بالتحسن الآن».

ثم واصلت السير في اتجاه المنزل في هدوء، نظر ناثنان مرة أخرى في اتجاه النافذة، فوجد أن سايمون قد اختفى وأصبح المكان الذي كان يشغله خاليًا وغارقًا في الظلام مرة أخرى.

الفصل الثالث والعشرون

عندما تقترب من الأشياء إلى حد مناسب تتغير نظرتك إليها كثيرًا، هذا ما اعتقده ناثان وهو يقف بمفرده في غرفة المعيشة، وأنفه في مواجهة لوحة كاميرون الزيتية الخاصة بقبر مربى الماشية، كانت اللوحة معلقة على الحائط في مستوى النظر.

بدأ الليل يزحف على المزرعة في الخارج وأصبح من الصعب عليه رؤية تفاصيل اللوحة بشكل واضح، على الرغم من الضوء الصناعي المتوجه عليها الذي يتدلى من سقف الحجرة. ولكنه على الرغم من ذلك كان يستطيع أن يميز على نحوٍ معقول الآثار التي تركتها خطوط الفرشاة فوق الرسم، والطريقة التي دمج بها كاميرون الألوان معًا للحصول على درجات جديدة.

كان ناثان على وشك الابتعاد عن اللوحة، عندما لمح بصره بقعة سوداء غامضة على الحافة اليسرى العلوية منها، كانت البقعة السوداء تمتد في الأفق بشكل واضح ولكنه لم يلاحظ وجودها من قبل حيث تقبع كبقعة ساكنة وخافتة في الركن. وتبدأ من درجات الأسود وتميل إلى الرمادي حتى تتلاشى في خفوت.

عبس ناثان ومال ببصره إلى الأمام لفحص البقعة السوداء، وقال بينه وبين نفسه: «بحق السماء، ما المفترض أن تعنيه هذه البقعة؟ هل هي شخص؟ أم أنها ظل، وربما بعض الأوساخ العالقة؟».

مدَّ إبهامه ومسح على البقعة السوداء برفق فتأكد أنها جزء من اللوحة، جزء دائم وثابت رسمه كاميرون متعمدًا.

ثم جاءه صوت من الخلف: «كان كاميرون، سيقنتك لو عرف أنك فعلت ذلك».

نظر إلى الخلف فوجد إلسي تقف عند المدخل.

- لا تلمس اللوحة مطلقاً، هذه هي القاعدة الذهبية في هذا المنزل.

رفع ناثن يده إلى الأعلى وتراجع خطوة إلى الخلف.

منحته إلسي ابتسامة مرهقة: «هذا التصرف سوف يحميك من سوء

العاقبة».

كان في إمكانه في هذه اللحظة سماع صوت أطباق العشاء تُغسل في

المطبخ، كانت وجبة العشاء صامتة في أغلب الوقت وكئيبة.

وبينما كانت إلسي تستعد للمغادرة مولية له ظهرها، قال ناثن: «إلسي».

استدارت في مواجهته مرة أخرى قائلة: «نعم».

- كنت أتحدث إلى الفتاتين في وقت سابق من اليوم وأخبرتاني أنك

اصطحبتهما إلى هنا.

ورفع يده مشيرًا إلى اللوحة.

قالت إلسي متعجبة: «إلى القبر! ما الذي أثارَ ذلك الموضوع؟».

- لقد رسمت لو لوحة تمثل ما شاهدته هناك.

عبر وجهها شبه ابتسامة خافتة.

- نعم، بالطبع.

ثم دخلت إلى الحجرة ووقفت بجواره أمام اللوحة. وتابعت: «كانت فكرة

حمقاء، أخذتهما إلى هناك لنزهة في الخلاء منذ عدة أسابيع، بعد أن تأذت

ذراع صوفي مباشرة، كنت أحاول التوصل إلى طريقة ما لإبعاد الحزن عن

قلبها، وتوقعت أن الرحلة إلى مقبرة مربّي الماشية سوف تتكفل بالمهمة،

ولكن لو فضحت الأمر برسوماتها، أليس كذلك؟».

- قالت صوفي إنكن لم تمكثن هناك لفترة طويلة.

قالت إلسي وهي تبسم: «أخبرتكَ أنها كانت فكرة حمقاء، شعرت لو

بالخوف الشديد بمجرد أن وصلنا إلى هناك، وكان الجو شديد الحرارة،

اصطحبتهما سريعًا إلى السيارة مرة أخرى، وعدنا على الفور إلى المنزل.

كانت المسافة طويلة جدًا للوصول إلى هناك ولم نمكث إلا خمس دقائق

ولكن ذلك كان أفضل للجميع، انتهى الأمر على كل حال بالتنزه بجوار حظائر

الخيول، كان يجب فعل ذلك منذ البداية».

وقفت إلسي تُحدِّقُ إلى اللوحة الخاصة بكامبيرون، ثم اقتربت منها في خطوات بطيئةً محدقةً كما فعل ناثان من قبل. ثم قالت: «لم يكن كامبيرون سعيدًا عندما عرف بذهابنا إلى هناك».

لم يكن ناثان يستطيع رؤية وجهها في تلك اللحظة، ولكنه سألها: «ولماذا لم يكن سعيدًا؟».

- لم يعجبه أنني ابتعدت بالفتاتين عن المزرعة لهذه المسافة البعيدة، قال إن القبر منعزل ومكشوف وشديد الحرارة في هذا الوقت من العام. انحنت إلسي إلى الأمام ورفعت أصابعها تفحص الطلاء الداكن الذي يغطي شاهد القبر المرسوم على اللوحة أمامها.

قال ناثان: «إنه محق، فهذه رحلة خطيرة».

حامت إلسي بسبابقتها لمسافة شبر فوق القماش الذي صنعت منه اللوحة. ثم قالت: «ولكن الفكرة بدت مائعة في البداية».

- ثم تتبينين بعد ذلك أنها غير مائعة.

جاء صوت من على مسافة لا تزيد على نصف متر من مكان وقوفهما: «لا، لا تلمسي اللوحة يا ماما».

جاء صوت صوفي من عند مدخل الغرفة محملاً بمشاعر الرعب، فاستدار ناثان لينظر إليها بقم مفتوح من الدهشة.

رفعت إلسي أصابعها على الفور من فوق اللوحة وأسقطتها إلى الأسفل لتمتد بجانب جسدها.

قالت صوفي: «غير مسموح بالاقتراب من اللوحة التي تخص بابا».

قالت إلسي: «أعلم ذلك».

وابتعدت عن اللوحة، فبدأ الغضب والارتباك يختفيان من ملامح صوفي، ثم لمحت صوفي زجاجة البيرة التي يمسكها ناثان في قبضة يده، فقالت: «غير مسموح بتناول الطعام والمشروبات بجوار اللوحة كذلك».

قالت إلسي: «حسنًا، يا صوفي، كلانا يعلم بذلك»، ثم أضافت: «نحن لم نلمس اللوحة، لقد كنا نبحث عن شيء».

- لا، إن هذا يجلب الحظ السيئ، سوف يغضب مربى الماشية.

جاهدت إلسي لتحافظ على أن تُبقي نظرة عينيها محايدة، ونجحت في ذلك بصعوبة وهي تقول: «حبيبتي الصغيرة، إن الشخص الوحيد الذي كان سيغضب عند لمس اللوحة هو بابا، وقد حان وقت النوم على كل حال، يجب أن تذهبي إلى فراشك».

ألقت صوفي نظرة تحمل تحذيرًا شديدًا في اتجاه نااثان، ووافقت على مضض على أن تنصرف تاركَةً الغرفة، ثم تبعتها إلسي للتأكد من خلوها إلى النوم.

توقفت إلسي عند باب المدخل قائلة: «إن صوفي محقة، كان كامبيرون ليقتل أي شخص يقترب من اللوحة».

- من الأفضل أن أبتعد عنها في هذه الحالة.

أومات برأسها في الطريق إلى الخارج، فوجد نااثان نفسه وحيدًا مرة أخرى، ألقى بنفسه فوق الأريكة وارتشف جرعة كبيرة من زجاجة البيرة، ثم أدار عينيه في اتجاه النافذة المظلمة، وتسمرت الزجاجاة في منتصف الطريق إلى فمه، كان المنظر في الخارج مختلفًا عما اعتاده في المساء، لم يكن الليل مظلمًا بالدرجة الكافية.

أجبر نااثان جسده على أن يقف بصعوبة، وتحرك في اتجاه النافذة لإلقاء نظرة إلى الخارج فرأى انعكاس وجهه في زجاج النافذة يبادلُه النظرات مع تعبير غريب لم يألفه في نفسه من قبل. اتجه إلى زاوية النافذة حتى يستطيع الرؤية بوضوح أكبر مُحدِّقًا إلى الخارج، استغرق الأمر منه بعض الوقت حتى تتأقلم عيناه على الرؤية في الظلام.

كان هناك زوج من المصابيح التي تنير الممر الخارجي، وينبعث مع الضوء طنين معدني خفيف، حاول نااثان التركيز بقدر أكبر فشعر بمفاجأة شديدة، لقد كانت سيارة كامبيرون تدور. كانت الأنوار الأمامية ساطعة فرفع نااثان يده إلى الأعلى ليغطي عينيه وقايةً من الضوء، حتى يستطيع الرؤية بشكل أوضح ولكن ذلك لم يشكل فرقًا على الإطلاق، ولم يستطع أن يرى في الظلام بشكل جيد.

وقف وحيدًا في الظلام على الممر أمام المنزل، دون أن يستطيع تمييز شيء على الإطلاق، لم يستطع أن يرى ما بداخل السيارة ولم يستطع أن يميز إلا الضوء الساطع المنبعث من المصابيح الأمامية ولا شيء سواها.

أجبر نفسه على أن يسير مباشرة في الطريق إلى السيارة، ويتجه مباشرة بعد ذلك إلى الباب المجاور لمقعد السائق، ثم رفع يده في اتجاه المقبض، في محاولة لفتح الباب دفعة واحدة. كان الضوء الداخلي الضعيف للسيارة في وضع التشغيل ولم يكن في حدة الضوء الخاص بالمصابيح الأمامية، ولكن الأمر استغرق من ناثنان بعض الوقت حتى تستطيع عيناه التكيف على تلك الدرجة من الضوء، ويتمكن من الرؤية بشكل واضح.

كان زاندار جالسًا خلف عجلة القيادة.

- بحق المسيح يا صديقي، لقد أرعبتني حتى الموت.

سقطت يده التي كان يرفعها تمهيدًا لفتح الباب، لم يقل زاندار شيئًا واكتفى بالنظر عبر الزجاج الأمامي للسيارة. التفت ناثنان حول السيارة متجهًا إلى الجانب الآخر وشكّل ظل جسده وهو يمر من أمام المصباح الأمامي أشكالًا عديدة.

مدّ يديه وحاول فتح الباب الجانبي للسيارة المجاور للمقعد الملاصق للسائق، لم يكن ناثنان متأكدًا من الذي يدور في ذهن ابنه في هذه اللحظة. وجد الباب مغلقًا من الداخل، مرت لحظة قصيرة ثم مال زاندار بجسده في اتجاه مفاتيح الإغلاق اليدوي القديم وحرّكه من مكانه، ثم فتح الباب ليسمح لوالده بالدخول.

قال ناثنان: «أمل أن يكون في استطاعتك أن تخفض الضوء الأمامي بعض الشيء، لقد كدت أصاب بالعمى، ولم أستطع أن أميز أي شيء».

لم يقدم زاندار اعتذارًا لوالده أو تفسيرًا بما يحدث في سابقة جديدة لم تحدث من قبل، مرّ الوقت وما زالت عينا ناثنان مشوشتين، لا تستطيعان أن تريا بوضوح.

ألقي ناثنان نظرة مطولة في اتجاه ابنه المراهق الذي يجلس متكئًا خلف مقعد القيادة وتساءل بينه وبين نفسه للمرة الأولى كذلك عن النصيحة التي كانت زوجته السابقة يمكنها أن تقدمها له للتعامل مع مثل هذا الموقف الغريب.

وجّه ناثنان سؤالًا مباشرًا لابنه: «ما الذي تفعله؟».

قال زاندار: «لا شيء».

كان ذلك صحيحًا إلى حد ما، فلم يكن زاندار يضع حزام الأمان وكانت السيارة على وضع الانتظار ولا يعمل بها شيء سوى مكيف الهواء. بدا عليه أنه لا يخطط للذهاب إلى أي مكان.

قال نااثان: «حسنًا».

وأتكأً بظهره إلى الخلف، مستندًا إلى المقعد، من خلال الوهج المتقطع للمصابيح الأمامية استطاع نااثان أن يميز جثث الحشرات وقطع الغبار الملتصقة على الزجاج الأمامي. تذكَّر نااثان في هذه اللحظة وقت ولادة زاندار وشعور الخوف الذي انتابه في هذه اللحظة، وتذكَّر كذلك والده كارل برايت والطريقة التي رباهم عليها وكيف كان يخطط ألا يربي زاندار بنفس الطريقة على الرغم من عدم معرفته طريقة سواها للتربية.

لم يخبر نااثان جاكبي وقتها عن المخاوف التي بداخله وفضل الصمت، ومنذ ذلك الحين وهو صامت في كل المواقف التي تواجهه فيما يخص تربية زاندار، تمامًا كما اختار الصمت في هذه اللحظة وجلس بجوار ابنه في هدوء.

استقر نااثان في مكانه وحاول أن يمنح جسده بعض الراحة عبر الارتكاز على المقعد الكبير الناعم للسيارة، أدار زاندار رأسه في اتجاه نااثان ولكنه لم يقل شيئًا، لم يكن نااثان يشعر بالقلق فأغلق عينيه، يمكن لنااثان أن يلتزم الصمت بطريقة أفضل من كل الأشخاص الذين عرفهم في حياته. يمكنه أن يمكث حرفيًا لعدة أسابيع دون أن ينطق بكلمة واحدة، وقد فعل ذلك عدة مرات في السابق. ولكن زاندار الذي تربى في بيئة صاخبة وتعود ضجيج المدينة لن يمكنه الصمت مثل أبيه، ولذلك كان نااثان متأكدًا من أنه سيبدأ الحديث بسرعة، وبالفعل قال زاندار: «كنت أحب العم كام كثيرًا».

فتح نااثان عينيه، مرت ثلاث دقائق منذ أن خرج من المنزل، اكتشف أنه يستطيع تمييز كل شيء حوله، بما في ذلك الأرقام الموجودة في الساعة الصغيرة على لوحة القيادة.

أضاف زاندار: «أشعر بالغرابة، كل شيء غريب هنا دونه».

قال نااثان: «أعلم ذلك».

كان نااثان يفهم ما الذي يقصده ابنه، فقد كان كل شيء يحيط به في المزرعة يذكره بأخيه، الأماكن التي لعبا بها الكريكت في طفولتهما، الحظائر

التي رُوِّضًا فيها الخيول في سن المراهقة، ومحاولتهما لإثبات النفس وتأمين مصادر دخل تخصصهما عندما صارا رجلين.

كان كاميرون طوال حياته عملياً ومنظماً في إدارة حياته، كان يفكر في كل خطوة كثيرًا حتى يصل إلى الخطة المثلى، ثم يبدأ بتطبيق هذه الخطة كما هي بدقة حتى يصل إلى النتيجة التي كان يرجوها منذ البداية. بينما كان ناثن على العكس تمامًا، كان يسير في الحياة بشكل عشوائي ويتمنى أن تنتهي الأمور لصالحه في النهاية. مرة بعد الأخرى أثبتت طريقة كاميرون في إدارة الأمور أنها الأفضل.

أوما زاندار برأسه، فظهرت ملامحه تحت الضوء الخافت.

- لقد خرجت لأجري المزيد من عمليات البحث، أريد أن أكتشف الشيء المفقود الذي كان العم كاميرون يبحث عنه، في حالة أن لو كانت محقة في حديثها السابق.

- حسنًا، أنت محق، من يعرف الحقيقة؟

هَزَّ زاندار رأسه: «ولكن ما الفائدة من ذلك؟ المكان متسع للغاية، ونحن لا نعرف ما هو الشيء الملعون الذي من المفترض أن نبعث عنه، يمكن للمرء أن يستمر في البحث إلى الأبد ولن يصل إلى شيء على الإطلاق».

- أنت محق فيما أعتقد.

التفت زاندار إلى ناثن وقال: «حسنًا، أرى أنه يتوجب عليك الرحيل».

رَمَسَ ناثن بعينه وقال: «ماذا تقصد بذلك؟».

- اترك المزرعة، ابتعد عن هنا، افعل أي شيء آخر.

- شيء آخر! ماذا تقصد؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- تعالَ إلى بريسبان.

- لا يمكنني الذهاب إلى بريسبان، ما الذي سأفعله في بريسبان؟

حاول ناثن أن يتخيل نفسه يسير في شوارع مرصوفة بالأسمت وسط مبانٍ عالية، والسيارات منتشرة في كل مكان.

أجاب زاندار: «افعل أي شيء، تستطيع أن تجد شيئًا ما ليشغل وقتك هناك، يمكنك أن تعمل في حديقة أو بستان، لا تظن أنني أطلب منك أن تلتحق بوظيفة في مكتب أو عمل إداري».

- وماذا عن مزرعتي وممتلكاتي؟

- تَخَلَّصْ منها.

- لا أستطيع.

خفض ناثان من درجة صوته وقال هامسًا، على الرغم من عدم وجود شخص آخر بينهما: «لا أستطيع، فأنا مدين للبنك بمبلغ كبير من المال، لا يمكنني أن أترك مزرعتي ببساطة وأرحل، يجب أن أعرضها للبيع حتى أسوي ديونتي».

- إذاً اعرضها للبيع.

- بحق المسيح يا زاندار، ومن سيقبل بشرائها؟

- لا أعلم، ولكن يجب عليك أن تتخلص منها وترحل، أرجوك يا أبي، يجب أن ترحل فالمكان هنا سيئٌ للغاية.

- ما المشكلة يا صديقي؟ لماذا تطرح كل تلك الأفكار في هذا التوقيت، وعلى نحو مفاجئ؟

كان ناثان يعرف السبب ولكنه رفض الاعتراف بذلك.

- لأن...

انتظر ناثان لأقل من ثلاثين ثانية هذه المرة قبل أن يجيب زاندار عن سؤاله: «لأنني لا أريد أن ينتهي بك المطاف مثل العم كاميرون».

- زاندار...!

قال زاندار معترضًا: «ماذا؟ هل ستقول إنك بخير؟ هل ستخبرني أن كل شيء على ما يرام؟ وأنت في حالة جيدة ولن تقدم على ما فعله العم كاميرون، وأنت تختلف عنه؟ هل تخميني صحيح؟».

صمت ناثان ولم يقدر على الإجابة.

قال زاندار: «لقد ظنَّ الجميع أن العم كام بخير».

- لقد كان بخير.

- نعم، ولكن ليس خلال الأسابيع القليلة الماضية، ولقد كان على الرغم من ذلك أفضل منك حاليًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها ناثان ابنه يتحدث بهذه الطريقة، فشعر ببعض الخوف.

- يعلم الجميع أنك لست بخير يا بابا، عندما آتي لزيارتك أرى ذلك، عندما أتصل بالهاتف وأحدث إلى جدتي أو إلى أي شخص آخر، يقول الجميع إنك لست بخير.

ظَلَّ ناثان هادئاً.

- أخبرني هاري أنك لم تجدد تراخيص حمل السلاح الناري الخاص بك.
- بحق المسيح، يجب على هاري أن يهتم بتدبير أموره الخاصة.
- هل ستعيد ترخيص أسلحتك مرة أخرى؟
- نعم، سوف أفعل بالتأكيد، فقد أصبح الأمر يشغل الجميع لدرجة غير مفهومة.

ثم حاول ناثان أن يضيف بصوت ناعم: «كنت أعتقد أن هذا الأمر سوف يشعرك بالسعادة، فأنت لم تكن تحب تلك الأسلحة اللعينة ولا تقترب منها».

- ليس هذا هو السبب الحقيقي، أنت لا تثق بقدرتك على التحمل في وجود الأسلحة بالمنزل، ما الذي سيجعلني سعيداً حين تتخلص منها لهذا السبب؟

ظهر التعب بشكل مفاجئ في صوت زاندار وهو يقول: «أخبرني بالحقيقة إذناً؟».

نظر ناثان إليه: «ما هي الحقيقة التي تقصدها؟».

فقال زاندار: «إنك تخشى على حياتك في حال وجود الأسلحة النارية بالجوار، أليس كذلك؟».

- لا، هذا غير صحيح، لديّ خزانة مملوءة بالبنادق والأسلحة النارية، ولا أواجه أي مشكلة في الاحتفاظ بها.
- لا أريدك أن تبقى وحيداً في المزرعة.

أجبر ناثان نفسه على أن يأخذ نفساً ببطء ويُخرجه على مهل حتى يصبح هادئاً ثم قال: «اسمع، ليس عليك أن تقلق بشأنني، أنا أسف».

أجاب زاندار: «لا تتأسف، يجب أن تفعل شيئاً حياًل مخاوفي، ابتعد، ارحل إلى مكان آخر، لا تبقى بمفردك، حاول أن تبدأ بداية جديدة، يمكن أن تقرضك ماما بعض المال، أعرف أنها هجرتك، ولكن...».

- كان قرار الانفصال مشتركاً، ولكن شكراً على كل حال.

- نعم، ولكنها أصبحت أكثر سعادة في وجود مارتن، اسمع.. أعرف أنهما سيقدمان لك المساعدة لو طلبت منهما ذلك...
- لا، لا تطلب منهما شيئاً مماثلاً، هل تفهم يا زاندار؟ لا تطلب منهما شيئاً يخصني وأنا أعني ذلك.
- بحق المسيح يا أبي، لو كنت ترفض المساعدة، فيجب عليك أن تتصرف بنفسك، هل تسمعي؟

مرّر زاندار يده بين شعره ثم قال: «أنا أشعر بالخوف، أنا خائف، حسناً. هل فهمت؟ أنا خائف من تلك المزرعة الواسعة، وخائف بسبب ما حدث للعم كاميرون»، ثم أشار بيده إلى الخارج من خلال النافذة، «كل هذا الفراغ اللعين سوف يتمكن منك بالضبط كما تمكن من العم كاميرون».

سادت فترة قصيرة من الصمت بينهما ولكنها كانت أعلى بكثير من صوت محرك السيارة الذي يدور، لم يكن ناثن يعتقد أنه بوسع أي شيء مهما كان أن يتسبب في أن يشعره بأن وضعه أسوأ مما هو عليه بالفعل، ولكنه كان مخطئاً، فقد نجح زاندار في هذا.

- حسناً، ما الذي يمكنني فعله حتى تتوقف عن الشعور بالخوف؟
- يمكنك أن تبدأ بتشغيل جهاز اللاسلكي الخاص بك، كونه بدايةً.
- هذا أمر بسيط.
- واستخدمه بين الحين والآخر، دع الناس يعرفون بوجودك، يدركون أنك على قيد الحياة.
- أنا أفعل ذلك، إن لدي نظاماً محددًا تجاه هذه الأمور.

منذ عامين حاصرت مياه الفيضان ناثن في المزرعة ولم يتمكن أحد من الوصول إليه لمدة أسبوعين، قاد هاري السيارة وذهب إلى مزرعة ناثن وزوّده بجهاز GPS متصل بالقمر الصناعي حتى يتمكن من تحديد موقعه طوال الوقت بسهولة. وقال هاري لناثن وهو يسلمه الجهاز: «لقد أرسلتُ لأعطيك هذا الجهاز، يجب أن تستعمله كل ليلة بانتظام ولن يقبل منك أي أعذار، اضغط على هذا الزر لتعرف أنك بخير، واضغط على الزر الآخر لو أصابك مكروه، وهو يرسل إشارة لنحضر لنجدتك، ناثن لا أعذار أو تهاون بخصوص الجهاز».

وبالفعل كان ناثن يستعمل الجهاز في كل ليلة.

قال زاندار: «ويجب أن تحصل على كلب أيضًا».

- أنا لا أرغب في الحصول على كلب جديد.

- لا، يجب عليك ذلك، أعتقد أن أحدًا لن يمانع لو حصلت على الكلبة الخاصة بالعم كام، يبدو أنها تحبك.

- لا أرغب في ذلك.

- لماذا؟

- لأنني لا أريد أن يدس لها أحدهم السم، كما فعلوا مع كيلي.

صمت زاندار لبعض الوقت ثم قال: «أعتقد أن كيلي لم تتعرض إلى التسمم، لقد ماتت بشكل طبيعي».

- لا، لقد دس شخص ما لها السم.

- لا، لقد قال جلين إنها لم تتناول السم أو شيئًا من هذا القبيل، لقد ماتت بفعل المرض والتقدم بالسن.

- وكيف عرفت كل هذا؟

- لقد أخبرني عندما جئت لزيارتك في آخر مرة.

نظر نااثان إلى الأمام وشعر بحدة في الحديث تسري بينه وبين زاندار بشكل لم يعتده.

- حسنًا، هذا أمر جيد.

- اسمع يا أبي، الجميع قلقٌ بشأنكم، لمعرفتهم بكيفية تطور الأمور للأسوأ في هذا المكان بشكل سريع، وأنت خصوصًا في حاجة ماسة إلى المساعدة فإن حالتك أسوأ من العم كام كثيرًا...

تنهَّد زاندار: «أنا أعني أنه لم يستطع التعامل مع الضغوط في النهاية».

- أعلم أن الأمور لم تكن تسير على نحو جيد يا صديقي، ولكن المشكلة ليست في المزرعة، ليست المزرعة فقط، في جميع الأحوال.

- وما هي المشكلة إذًا؟

لم يبادر نااثان بالإجابة.

- لا أعرف، ربما أكون قد فعلت بعض الأمور السيئة في الماضي، أو أخطأت في بعض الاختيارات، كما أن هذه الحادثة الملعونة مع جدك...

توقّف ناثنان عن الحديث ولم يكمل، عادت إليه العديد من الذكريات السيئة فأغلق عينيه، وبدأ بالتساؤل عن مصيره لو تغيّر سير الأحداث في ذلك اليوم. ماذا لو ملأ السيارة بالوقود في الليلة السابقة ولم يقابل جد زاندار في محطة الخدمة؟ ماذا لو عاد إلى منزله مبكراً قبل أن يقابل كيت بساعة واحدة أو حتى متأخراً لساعة واحدة؟ ماذا لو اختار عدم تجاهل رجل يحتاج المساعدة؟ ماذا لو كان رجلاً أفضل؟

توقّف رأس ناثنان عن العمل عند هذه النقطة، كان عقله يتوقف في كل مرة يفكر فيما حدث عند النقطة نفسها، ولا يتجرأ على الإجابة عن كل هذه الأسئلة.

قال ناثنان مرة أخرى: «إنها ليست المزرعة فقط يا زاندار».

كان ما يقوله صحيحاً، بينما علا صوت محرك سيارة أخيه، وزادت ذبذبات الراديو أمامهما.

كان ناثنان لا يستطيع أن يجد عمالة جيدة تقبل بالالتحاق بالعمل في مزرعته، ولديه بحر من المعاملات البنكية والديون، وكذلك فقد تلفت حجرة التبريد الخاصة به، ولا يستطيع إصلاح عطلها.

تذكّر كل ذلك وهو يتحدث مع ابنه، وتذكر متعهد الصيانة الذي سيرسل إليه فاتورة التكاليف، دون أن يفعل شيئاً لإصلاح العطل في غرفة التبريد سوى القيادة على الطريق اللعين جيئةً وذهاباً دون فائدة. ثم ظهرت صورة إلسي أمام ناثنان في تلك اللحظة فتوقف عقله عن العمل مرة أخرى، وظهر على وجهه العبوس.

ما الذي كان يدور في عقله في هذه اللحظة؟ هل كانت إلسي؟ هل كان يسأل نفسه عن السبب الذي دفعه إلى عدم التوقف في ذلك اليوم؟ هل كان يفكر في متعهد الصيانة؟ لم يكن يعرف. حاول أن يجبر نفسه على أن يفكر في المكالمات التي دارت بينه وبين متعهد الصيانة في ذلك اليوم.

سأله زاندار: «إذاً، أنت لن تفكر في إمكانية المغادرة؟».

وجّه زاندار السؤال بصوت بارد ومجوف إلى ناثنان، جاء السؤال بطريقة لم يعتد ناثنان أن يسمعها من قبل.

- ليس الأمر كذلك، فربما فكرت في أن أفعل ولكن...

حاول ناثن أن يجبر نفسه على التركيز في الحوار الذي يدور بينه وبين ابنه، شعر بأنه لن يستطيع خداعه، تذكر ما قاله له متعهد الصيانة، قال إنه لن يستطيع أن يصلح غرفة التبريد ولكنه سيضطر إلى أن يرسل الفاتورة إليه على كل حال نظير المسافة التي قطعها في طريق الذهاب والعودة إلى أثرتون.

سأله زاندار: «وماذا ستفعل؟ وما الذي يجبرك على البقاء هنا؟ هل هي إلسي؟ إنها إلسي، أليس كذلك؟».

قال زاندار بلهجة لا تخلو من الجدية: «حسنًا، يا صديقي، مهما كان الشيء الذي يبقيك هنا. هل هو أهم مني بالنسبة إليك؟».

- لا شيء أهم منك بالنسبة إليّ يا زاندار.

- إذاً يجب عليك على الأقل أن تفكر في طلبي، أرجوك يا بابا، مهما كان الأمر الذي دفع العم كام إلى أن يقود سيارته إلى هناك بذلك الشكل لا نريده أن يحدث لك.

عادت الأفكار مرة أخرى تتصارع في رأس ناثن، فاضطر جاهداً إلى مقاومتها ولكنه غرق في شق خفي ومظلم بداخله، غرق في دوامة لا تنتهي.

- لا أريد أن يحدث لك أي مكروه، هل توافقني على ذلك؟

سادت حالة طويلة من الصمت. ثم قال ناثن: «حسنًا».

ولكن الإجابة جاءت متأخرة للغاية.

حدّق زاندار إلى ناثن بشدة، ثم قال: «إنك لا تنصت حتى إلى ما أقوله».

- لا يا زاندار، سوف أفكر في نصيحتك، سوف أفعل يا صديقي، هذا وعد.

- لا، لن تفعل، يمكنني أن أعرف هذا. (ثم فتح زاندار الباب المجاور له وهو يصيح) كل هذا هراء.

- انتظر من فضلك.

- انس الأمر.

أدارَ زاندار مفتاح السيارة وأطفأ المحرك. فانطفأت المصابيح الأمامية بدورها وغرق كلاهما في حالة من الظلام الدامس.

- لم أعد أهتم، افعل ما يحلو لك، سوف أذهب إلى الفراش.

ثم ألقى مفاتيح السيارة في اتجاه ناثن وأغلق الباب خلفه بعنف. استقرت مفاتيح سيارة كاميرون على مقعد السائق فظل ناثن ينظر إليها لعدة دقائق وهو يفكر فيما يجدر عليه فعله في هذا الموقف، أمسك المفاتيح الباردة بيده وفكر في أن يلحق بزاندار. خرج من السيارة في الظلام وأخذ ينادي: «زاندار، هيا يا صديقي، زاندار أحب أن نتناقش في الأمر بشكل أكبر».

ولكنه كان متأخرًا للغاية، فقد اختفى زاندار في الظلام ولم يكن هناك من يجيب نداءه.

الفصل الرابع والعشرون

كان المقعد المجاور للسائق في سيارة نااثان خاليًا. فشعر بنوع من الإستغراب، اعتاد نااثان أن يشغل زاندار هذا المقعد طوال الفترة الماضية الممتدة لما يزيد على أسبوع كامل. قفزت دافي من أجل إلقاء تحية الوداع وأخذت تهز ذيلها، بينما كانت تنظر إليه من النافذة المجاورة، وعلى الرغم من ذلك لم يكن من الممكن أن تحل محل زاندار بأي شكل من الأشكال.

بينما كان نااثان يقترب من الحافة الصخرية يقود سيارته ذات الدفع الرباعي على الطريق الخالي، كانت الشمس ترتفع في السماء وتصب لهيبتها فوق السيارة المندفعة. أخذ نااثان يتذكر كل ما حدث بينه وبين زاندار في وقت الفجر، اتجّه نااثان إلى غرفة زاندار من أجل إيقاظه من النوم، في محاولة لأن يشرح له خطته ويطلب منه أن يذهب معه.

- هل تريد أن تأتيّ معي؟

ولكن زاندار أجاب بلا اكترات وهو يهز رأسه: «لا»، وقضّل أن يعود إلى النوم مرة أخرى.

ظن نااثان أن ذلك أفضل، لأن تلك المهمة لا تحتاج إلى أكثر من رجل واحد، قاد سيارته على طول الطريق حتى وصل إلى مكان الشق الضيق. استطاع أن يجد الشق الضيق بين الصخور، بسهولة هذه المرة وقاد سيارته عبره، حتى وصل إلى الصخرة العالية حيث كانت سيارة كاميرون واقفة منذ أربعة أيام ماضية.

نجح نااثان قبل شروق الشمس أن يتصل بمتعهد الصيانة عبر الهاتف ويتحدث معه لبعض الوقت، ولكن دايف لم يبدو سعيدًا على الإطلاق بسبب المكالمة نفسها، وبسبب توقيت المكالمة كذلك.

- يا صديقي، هذا يوم عطلتي، حسناً.. أنا أعتذر بشأن صيانة غرفة التبريد الخاصة بك لكن يجب أن تعلم أنني حضرت في الموعد المتفق عليه.
- دايف، أنا لا أطلبك على الهاتف للتحدث بخصوص هذا الشأن، كل ما في الأمر أنك قلت بأنك قدت السيارة إلى أترتون في يوم الخميس، أليس كذلك؟ لا بد من أنك سلكت الطريق الشمالي.
- نعم.
- هل مررت بجوار السياج الخاص بي؟
- نعم.
- في أي وقت؟
- لا أعلم على وجه الدقة، ولكنني كنت أتحرك وفق جدولي المعتاد، ربما كانت الساعة الثامنة، وربما بعد ذلك بقليل.
- حسناً، لقد كانت الشمس ساطعة في ذلك الوقت وكان بإمكانك الرؤية بشكل جيد.
- بالطبع، لا يمكنني القيادة على هذا الطريق الملعون في الظلام.
- وهل رأيت شيئاً بالقرب من منزلي؟
- شيئاً؟ أي شيء تقصد؟
- أي شيء عند الصخور العالية؟
- ابتسم الرجل ابتسامة متوترة: «أتذكر رؤية شيء هناك، ولكنني غير متأكد، لا أفهم حديثك بشكل صحيح يا صديقي، ما الذي تسأل عنه على وجه التحديد؟».
- لا بأس، أنا لا أعرف بالضبط الشيء الذي أبحث عنه، كل ما في الموضوع أنني أحاول استيضاح بعض الأمور.
- أخشى أنني مضطر إلى أن أرسل إليك الفاتورة في جميع الأحوال.
- حسناً، أنا في انتظارها.

أنهى ناثن المكالمة واتصل على وجه السرعة بجلين في مركز الشرطة. عندما رُفعت السماعة من الجانب الآخر، أتاه صوت مختلف عن صوت جلين، الضابط الذي أجاب عن الهاتف قال له إن جلين ماكينا في الخارج لمتابعة

حدث كبير وقع في منطقة ما بالشمال، وإن عودته غير متوقعة لمدة يومين لوجود العديد من الإصابات في بالامارا حيث وقع الحادث.

- وماذا عن الشرطي الآخر؟ ذلك الذي جاء من سانت هيلين، الرقيب لودلو؟

سمع ناثن صوت طرقات فوق لوحة مفاتيح، ثم عاد المتحدث يخبره بأن هناك إصابات عديدة في بالامارا، حتى إن لودلو قد استدعي لتقديم المساعدة في نفس الحادث هو الآخر، ثم أضاف الصوت: «هل يمكنني تقديم المساعدة؟».

قال ناثن: «هل يمكنك أن تخبرني عن موقع خدمتك؟».

أجاب الصوت: «بريسبان».

- إذا فأنت لست في موضع من يمكنه تقديم المساعدة، أليس كذلك؟

- أنا في موقع تلقّي الرسائل يا صديقي.

في هذه اللحظة سمع ناثن صوتًا صادرًا في القاعة التي توجد خلف الهاتف، وعندها التفت إلى الورااء ولكنه لم يجد أحدًا هناك.

قال ناثن: «حسنًا، أخبر الرقيب ماكيننا بأن جينا مورليست في المملكة البريطانية المتحدة، لا أعرف إن كان بإمكانه أن يتحرّى عن مكانها أم أن ذلك أمر صعب».

ثم أضاف بعد تردد قصير: «فقط أرجو أن تخبره أنني في حاجة إلى التحدث إليه».

قاد ناثن سيارته حتى وصل إلى المنحدر في ذلك الوقت من الصباح، ثم نزل من السيارة وترك المحرك دائرًا، وكذلك مكيف الهواء حتى تشعر دافي بالراحة. اتجه إلى مؤخرة سيارته اللاند كروزر وأخرج المجرفة والعلامات الصفراء التي يستخدمها في تخطيط أرض المزرعة الخاصة به.

أخذ ينظر من كئيب إلى الأرض، لقد اختفت كل العلامات التي كانت تدل على أن سيارة كاميرون كانت هنا، حاول أن يتذكر بدقة موضع السيارة والأماكن التي كانت عجلاتها تقف عليها. وبدأ بتثبيت الأعلام على هذه الأماكن، التي اعتقد أنها نفس أماكن عجلات السيارة الخاصة بكاميرون. مرت عشرون دقيقة وما زال ناثن غير قادر على تثبيت العلامة الرابعة فوق الأرض الصلبة، ولكنه كان يتصبب عرقًا.

تملكه الإحباط فثبته بجوار أحد الأعلام الأخرى، وتمنى ألا يحمله الهواء بعيدًا، عاد مرة أخرى ليجلس على مقعد السائق داخل سيارته، انتابه إحساس مفاجئ، شعر بأنه فعل نفس الشيء في السابق، وأنه يكرره مرة أخرى. تذكر أنه فعل ذلك عندما كان يقف بجوار سيارة كاميرون المهجورة، التي كانت تقف على نفس البقعة من الأرض، لا، إنها لم تكن نفس البقعة، لقد تذكر الآن.

ترك ناثن سيارته مرة أخرى. ثم نظر إليها، كانت سيارة ناثن تشبه سيارة كاميرون تمامًا، كان هناك شيءٌ مختلفٌ، جاهد ناثن أن يتذكر وجوده مع بوب وهاري ووجود زاندار جالسًا داخل السيارة. تذكر أنه عرض أن يقود سيارة كام في طريق العودة إلى المنزل، تذكر أنه جلس على مقعد السائق الذي كان دافئًا، تذكر أنه مَدَّ يده إلى الأسفل وأمسك بيد المقعد السفلية ليعدل من مساحته حتى يناسب جسمه، ثم توقف ناثن.

كان ناثن وكاميرون تقريبًا بالطول نفسه، لقد كانا متماثلين في الطول منذ فترة المراهقة. تساءل ناثن عن السبب الذي اضطر من أجله إلى أن يعدل من وضع مقعد السائق، هل عدلَ أحد من رجال الشرطة مكان المقعد في أثناء فحصهم للسيارة؟ اعتقد ناثن أن ذلك لم يحدث ولكنه لم يكن واثقًا بالقدر الكافي. حاول أن يتذكر الدرجة التي اضطر إلى تعديل المقعد حتى يصل إليها، هل دفعه إلى الخلف، أم دفعه إلى الأمام؟ ظل واقفًا في مكانه لفترة طويلة يفكر في الأمر ولكنه عجز عن تذكر تلك المعلومة.

في النهاية عاد إلى سيارته وأدار المحرك وهبط من فوق المنحدر، وقاد السيارة ببطء في اتجاه الفتحة التي بين الصخور مارًا من خلالها في طريق العودة.

مرت بضع دقائق وناثن يقود سيارته عبر الطريق الرئيسي، قاد في اتجاه الحدود الفاصلة بين مزرعته ومزرعة العائلة، ثم عَبَرَ الصحراء حتى تأكد أنه ابتعد بالقدر الكافي ثم سلك المنعطف الخاص بالرجوع وعاد مرة أخرى من نفس الطريق المهجور الذي كان يسير فيه منذ دقائق معدودة.

حافظ على سرعة السيارة ثابتة، كما حرص على ألا تكون سرعتها زائدة عن اللازم ولا بطيئة زيادة عن اللازم أيضًا بطبيعة الحال. كان يحاول أن يخمن السرعة التي كان متعهد الصيانة يسير عليها بسيارته من أجل إنجاز مهمتين في هذه المنطقة حتى يعود إلى منزله في الوقت المناسب للاحتفال بعيد الميلاد.

أبقى عينيه مثبتتين إلى الأمام محاولاً ألا يتعمد النظر من النافذة الجانبية في اتجاه المنحدر، وبعد مضي ثلاث دقائق لفت انتباهه وجود الأعلام، كانت طويلة ومرتفعة، ومن خلفها السماء المفتوحة، كان منظرها يسد البصر دون الحاجة إلى البحث.

كانت الأعلام واضحة على مرمى البصر لبعض الوقت، استغرق ناثنان في التنفس عدة مرات بعمق قبل أن تختفي الأعلام من أمام نظره. اختفت الصخرة والأعلام الموجودة عليها بالكامل بعد أن تجاوزها ناثنان، تبادل النظرات مع دافي التي ظهرت عليها علامات السعادة لمجرد خروجها إلى العراء بصحبته. عاد بالسيارة مرة أخرى إلى الوراء، وكرر نفس الأمر ولكنه كاد يفوت مرآها في هذه المرة، فقد أدار بصره بالكامل ثم أعاده في اتجاه الأعلام في اللحظة الأخيرة فلمحها بالكاد وبشكل خاطف. في المحاولة الثالثة، كان أكثر تأهباً، فلمحها بشكل واضح بينما كان يمر بالجوار، أحصى الوقت الذي ظهرت فيه الأعلام فوجد أنها مكشوفة بشكل كامل لمدة تصل إلى أربع ثوان. كانت مجرد أعلام صغيرة، ولكنها كانت واضحة، أدرك ناثنان أن سيارة كاميرون اللاند كروزر البيضاء كانت أكثر وضوحاً لمن يمر بالجوار من هذا الطريق. كان انتزاع الأعلام التي وضعها في مكان سيارة كاميرون من الأرض سهلاً بالنسبة إليه، كان أكثر سهولة من تثبيتها في المقام الأول.

أبطأ ناثنان من سرعة السيارة وهو يقترب من الشق الخفي بين الصخور، واتخذ طريق العودة إلى المنزل وهو يفكر في أمر سيارة كاميرون ويفكر كذلك في أمر مقعد القيادة الذي اضطر إلى تعديله حتى يناسب حجمه.

انطلقت السيارة في الطريق وناثنان جالس بداخلها، ولم تمر سوى عدة دقائق. أخذ ناثنان يفكر فيما سوف يقوله لزاندار عندما يعود إلى المنزل. «لقد كنت محقاً يا صديقي».

لم يكن واثقاً بأنه سيقول هذه العبارة، فلم يكن زاندار متحمساً لسماع نظرية ناثنان هذا الصباح، ورفض أن يترك الفراش حتى يتحقق معه من صحتها.

قال ناثنان هامساً: «اسمع»، كان صوته منخفضاً لأنه لا يريد إيقاظ الجميع في المنزل، «لقد قاد دايف سيارته في صباح يوم الخميس على طريق أثرتون، لا بد أن يكون قد لمح سيارة كاميرون هناك فوق الصخور».

فرك زاندار بعضًا من آثار النعاس من على عينيه ونظر إلى ناثان ولم يقل شيئًا. فاستمر ناثان في الحديث: «لكن دايف لم يرَ السيارة هناك».

- هل قال إنه لم يرها؟

- نعم، ما الذي يدفع متعهد الصيانة إلى الكذب حول هذا الشأن؟ إنه حتى لا ينتمي إلى هذه الأنحاء، ولا يعرف كام حق المعرفة، كل علاقتهما تقتصر على إلقاء التحية من بعيد أو الحديث باقتضاب لو جمعهما عمل أو اهتمام مشترك، لو كان قد رأى السيارة وهو يمر بالقرب من الصخرة العالية لأخبرنا بالتأكيد.

- أفترض ذلك ولكن...

دفع ناثان جسده إلى الأعلى وسند ظهره على الوسادة الخلفية، كان شعره في حالة فوضوية وصدره عاريًا.

- ربما مرَّ بجوارها دون أن يراها.

- ولماذا لم يرها، لقد أخبرنا جلين أنه رأى السيارة بوضوح عن بُعد، أليس كذلك؟

- نعم، ولكن الرقيب جلين رجل شرطة، إنه مدرب على أن يلاحظ مثل هذه الأشياء، كما أنه كان قادمًا لمقابلتنا، وبالتأكيد كان يعلم أن سيارة العم كام موجودة في مكان ما بالجوار.

قال ناثان: «لذلك يجب علينا أن نذهب لنبحث في ذلك الأمر، يجب أن نعرف درجة وضوح السيارة، ومدى إمكانية رؤيتها من أسفل الطريق».

قال زاندار بصوت قلق: «وماذا لو كانت واضحة للمارة من الأسفل؟»، ثم أضاف: «ماذا لو كانت السيارة واضحة، ولكن متعهد الصيانة لم يرها؟ هل تدرك ما الذي يعنيه ذلك؟».

سكت ناثان ولم يتكلم.

- قال الرقيب جلين إن العم كامبيرون كان ميتًا بالفعل في يوم الخميس، هل يعني ذلك أن سيارته لم تكن هناك؟

ظل ناثان صامتًا.

- هل حرك أحد السيارة ووضعها هناك بعد وفاة العم كامبيرون، من الذي فعل ذلك؟ هل هي جينا؟

لم يُجب ناثنان عن أيّ من الأسئلة التي طرحها زاندار وظل صامتًا.

- وربما كان شخصًا آخر، ربما كان أحد العاملين هنا في المزرعة، وربما أحد أفراد العائلة؟

- بحق المسيح يا صديق؟

رفع زاندار من درجة صوته: «ماذا؟».

قال ناثنان وصوته يحمل علامات كثيرة من التوتر: «اسمع، أنا لا أعرف شيئًا، لهذا أريد أن أتأكد من صحة نظريتي قبل أن أبدأ بإطلاق التفسيرات واستعراض النتائج».

- لا تفعل ذلك يا بابا.

ثم قال بعصبية وهو ينظر إليه بثبات: «إنها نظرية جنونية».

شعر ناثنان بأنه أصيب بالعمى وهو يتذكر هذه المحادثة، فنظر حوله وهو يفرك عينيه، استطاع أن يميز ملامح الطريق للمرة الأولى منذ أن انطلق بسيارته، وضع قدميه على مكابح الفرامل وضغط عليها بشدة.

- اللعنة.

كان يسير بالسيارة في الاتجاه الخاطئ، لم يُعر انتباهه للطريق وأخذته الأفكار، فانطلق في اتجاه قبر مربى الماشية بدلًا من أن يتخذ طريق العودة إلى المنزل. لم يلاحظ ذلك إلا بعد مرور وقت طويل، وبدأ يشعر بالقلق بسبب وصوله إلى تلك الحالة من عدم التركيز.

استمع إلى صوت محرك السيارة يعلو كرد فعل لما فعله من الضغط المفاجئ على مكابح الفرامل، ثم أخذ يحاول أن ينظم أفكاره ويستجمع عقله. بدأت السيارة تنزلق على الرمل الناعم فبدأت دافي تنبح في قلق وتخدش قماش المقعد بمخالبها، أمسك ناثنان بعجلة القيادة بقوة وبدأ يدور بالسيارة وهو يدوس فوق مكابح البنزين، قبل أن تصل السيارة إلى نهاية الطريق.

دارت السيارة دورة واسعة وهي تلف حول نفسها، بإمكان ناثنان من هذه النقطة أن يرى قبر مربى الماشية بوضوح، رفع بصره ليلقي نظرة عليه، ولكنه لم يرَ شيئًا، كل ما شاهده هناك لم يكن غير دوامة كبيرة من الغبار. أوقف السيارة، وخرج تاركًا خلفه اللاند كروزر ونظر إلى أعلى الصخرة، كان هناك وميض معدني يلمع من خلف سحابة الغبار.

ظل ناثنان يراقب حركة الوميض المعدني في انتظار أن تهدأ حركة الغبار حتى يتمكن من رؤية مصدره بشكل واضح. كان الوميض المعدني يتحرك مثيرًا تلك السحابة من الغبار، ولم يكن هناك إلا اتجاه واحد من الممكن أن يقصده صاحب ذلك الوميض المعدني في هذه الأثناء.

مال ناثنان إلى سيارته ومد يده إلى درج القفزات وأخرج النظارة المكبرة ثم أطفأ محرك سيارته، حتى يستطيع أن يميز صوت محرك هذه السيارة التي تتحرك عن بُعد.

بدأت دافي تتذمر بسبب ارتفاع درجة حرارة السيارة، خصوصًا بعد أن انطفأ جهاز التكييف، نظر ناثنان من طرف النظارة المكبرة، حتى استطاع أن يحدّد السيارة التي تتحرك في الأفق.

استطاع ناثنان على الفور أن يميز تلك السيارة فقد كانت موجودة في مزرعة كامبيرون منذ سنوات، كانت تلك السيارة مخصصة للاستخدام من قبل العمال الرُّحّل الذين يلتحقون للعمل بالمزرعة، وكان سايمون يستخدمها مؤخرًا بحكم وظيفته.

وقفت السيارة على بُعد أمتار من قبر مربّي الماشية وانعكس على زجاجها الأمامي أشعة الشمس وألوان السماء، ظل ناثنان ممسكًا بالنظارة المكبرة حتى يميز الشخص الموجود بداخل السيارة بعد أن توقفت بشكل كامل، ولكن ألوان الزجاج العاكسة لم تسمح له بتمييز وجه السائق.

كان السائق يتحرك داخل السيارة وكأنه يبحث عن شيء على المقعد المجاور له. استطاع ناثنان بسبب استدارة رأس السائق في اتجاه المقعد المجاور له، أن يميز شعرًا طويلًا يصل إلى كتف الشخص الجالس خلف عجلة القيادة. لم يكن هذا الشخص سايمون بالتأكيد، لقد كانت امرأة.

الفصل الخامس والعشرون

انفتح الباب المجاور للسائق فظهرت رجلان ترتديان بنطالاً مصنوعاً من الجينز وهي تتجه إلى خارج السيارة. كان وجه المرأة مخفياً خلف الباب الأمامي الكبير، وكانت النظارة المكبرة الخاصة بناتان قديمة بعض الشيء ولا تستطيع أن تميز التفاصيل بشكل جيد.

ظل ناتان واقفاً في مكانه في انتظار أن ينغلق باب السيارة، فاستطاع أن يميز جسداً أنثوياً مألوفاً بالنسبة إليه يخطو إلى خارج السيارة، ويسير في اتجاه قبر مربى الماشية. لقد كانت إلسي، لاحظ ناتان أنه يكتم أنفاسه فأخرج زفرة طويلة مشبعة بحمل ثقيل من الهواء.

الفرصة في أن يعلن عن نفسه جاءت واختفت بسرعة. فناتان لم يلوح لها في الهواء صائحاً ولم يطلق أبواق سيارته ليعلن عن وجوده. استغرق الكثير من الوقت في التفكير في هذا الأمر حتى إن فرصة الإعلان عن وجوده تأخرت كثيراً، ولم يعد ذلك ممكناً.

وقفت إلسي على مسافة بعيدة منه وهي توليه ظهرها، كانت تبدو ضئيلة في الحجم ومعزولة عن كل شيء سوى نفسها. كان هناك جسم أسود موجود بجوار قدميها، ظن ناتان أنه ربما يكون حقيبة أو شيئاً من ذلك القبيل، وتمنى ألا تستدير على نحو مفاجئ وتعرف بوجوده.

كان بعيداً عنها بمسافة كبيرة، وكانت سيارته قدرة ومغطاة بالغبار والأتربة، وهو ما جعلها تقريباً مموهة بنفس لون الصحراء، ولأن الشمس تشرق من خلف السيارة، فقد ازدادت صعوبة تحديد موقعه. لو استدارت إلسي ونظرت في اتجاهه، لكانت الشمس في مواجهة عينيها، وصعبت عليها عملية الرؤية إلى حد كبير. كانت الشمس ولون السيارة وبُعد المسافة كفيين

بأن يمنحوه الغطاء الكافي حتى لو استدارت إلسي بشكل مفاجئ ونظرت مباشرة في اتجاهه.

ترك ناثن النظارة المكبرة وهو يشعر بعدم الارتياح وعاد إلى السيارة، لم يكن بإمكانه من هذه المسافة البعيدة في الأسفل سوى أن يرى إلسي تميل بجسدها وتُخرج شيئاً ما من داخل الحقيبة السوداء.

تذمرت دافي مرة أخرى، فأخرج بعض الماء ووضعه في كأس مصنوعة من البلاستيك ودفع الكأس في اتجاهها.

كان التعب والإرهاق يظهران على وجه وعيني ناثن في تلك اللحظة، بسبب المفاجأة وبسبب ارتفاع درجة الحرارة، فبدأ يتصبب عرقاً. أخذت درجة حرارة السيارة الداخلية في الارتفاع بسرعة بسبب توقف مكيف الهواء، تملل ناثن في مكانه وأعاد ظهره إلى الخلف واستند إلى ظهر المقعد وبدأت يده تداعب مفاتيح السيارة. ربما يمكنه أن يعيد تشغيل المحرك في هذه اللحظة، فلا يمكن أن تسمع إلسي صوت المحرك بسبب بُعد المسافة بينها وبين السيارة.

أمسك ناثن بالنظارة المكبرة مرة أخرى، لقد أخرجت إلسي شيئاً ما من داخل الحقيبة ولكن من هذه المسافة البعيدة، ومن زاوية الرؤية التي ينظر منها لم يستطع تحديد ماهية الشيء الذي أخرجته من الحقيبة.

انحنى إلسي إلى الأمام مقتربةً من البقعة نفسها التي كان جسد زوجها راقدًا عليها، اختفت جزئياً خلف شاهد القبر، فأطلق ناثن زفرة كبيرة محملة بالهواء الساخن، أفرغت ما تبقى من زجاجة المياه التي في يده في الكوب الخاص بدافي. كان لديه المزيد من زجاجات المياه ولكنها في مؤخرة السيارة ومن الصعب الوصول إليها. ارتفعت درجة حرارة الأجزاء الداخلية من السيارة لدرجة جعلته يشعر بالاختناق، مد يده وفتح جزءاً صغيراً من زجاج النافذة المجاورة لمقعده، ولكنه لم يحدث أي تأثير فيما يخص درجة الحرارة.

أخبره جلين بقصة منذ عدة سنوات عن هذا السيد الذي يعيش في المدينة ويدعى جيمس بيوكانان الذي تشاجر مع زوجته شجاراً عنيفاً بشكل حقيقي لدرجة أنها طردته من المنزل وأحكمت إغلاق الباب. ظل جيمس يطرق باب المنزل، ولكنها لم تسمح له بالدخول، فجرت جنونه ودار حول المنزل وحطم مكيف الهواء بمضرب الكريكت، وظل واقفاً أمام باب المنزل ومضرب الكريكت في يده، شعرت الزوجة بخوف شديد، ففضلت ألا تفتح الباب كما أغلقت جميع نوافذ المنزل.

أخبره جلين أنها فقدت الوعي في النهاية بسبب الارتفاع الشديد لدرجة الحرارة، وكادت تفقد حياتها وهي ممددة على أرضية المطبخ. ظن ناثن أن جلين أخبره هذه القصة حتى يشعر ببعض التحسن.

قال جلين: «هل رأيت؟ يفعل العديد من الناس الكثير من الأشياء الغبية». ولكن ذلك لم يُشعره بالتحسن في ذلك الوقت على الإطلاق. تذكر هذا الموقف بالكامل في هذه اللحظة. وهو يجلس على المقعد يتصبب عرقًا وجلده ملتصق بالقميص، ظل يفكر في الأمر ولم يستطع التوقف عن التفكير. بينما كان يفتح النافذة لدرجة أكبر ناظرًا إلى دافي.

بدأ ناثن بالتساؤل عن الوقت الذي سوف تستغرقه إلسي للبقاء عند قبر مربّي الماشية، لا بد من أنها تشعر بدرجة الحرارة نفسها هناك. نظر إليها مرة أخرى فاعتقد أنه يرى كتفيتها تتحركان، وتساءل هل تبكي؟

ارتكزت على ركبتيها لعدة دقائق بينما كان يتصبب عرقًا، ثم وقفت في النهاية، أخرج ناثن نفسًا عميقًا بينما مرت بيدها فوق شاهد القبر ثم التقطت الحقيبة الخاصة بها من الأرض. ألقت نظرة أخيرة على قبر مربّي الماشية واتجهت إلى سيارتها وفتحت الباب.

بدأ ناثن يمسح على وجهه، ثم توقّف عن الحركة وتجمّد في مكانه عندما توقفت إلسي في مكانها بشكل مفاجئ، وأدارت عينيها في كل اتجاه ببطء شديد وكأنها تبحث عن شيء في الأفق أمامها. أدارت رأسها حتى وصلت إلى موضع ناثن، ثم توقفت ثابتة وهي تنظر نحوه، حبس ناثن أنفاسه وترك النظارة المكبرة من يديه، وشعر كأنها تنظر إليه مباشرة، هل تستطيع أن تشعر بوجوده على الرغم من بُعد المسافة؟ أم أنها مجرد أفكار من داخل رأسه؟

لم يجرؤ ناثن على أن يحرك عضلة واحدة في جسده، وأعاد رأسه إلى الوراء ويده فوق النظارة المكبرة، كانت دقات قلبه عالية حتى إنه يستطيع أن يسمعها بوضوح بدرجة تكاد تصم أذنيه.

هل رآته إلسي؟ لم يكن متأكدًا من ذلك. أمسك بالنظارة المكبرة ورفعها وأعاد النظر، كانت في وجه إلسي علامات تدل على الخلو من التركيز، شعر ناثن بالارتياح لرؤيتها، ربما لم ترّه على كل حال.

في النهاية صعدت إلسي إلى سيارتها، سمع ناثن صوت دوران المحرك، ظل ناثن جالسًا في مكانه يشاهد سحابة الغبار التي أثارتها السيارة في طريقها مبتعدةً عن مقبرة مربّي الماشية لتعود إلى المكان نفسه الذي جاءت منه في البداية.

ظل ناثن هادئًا تمامًا وانتظر أن تختفي السيارة عن الأنظار بشكل كامل. قبل أن يدير محرك السيارة الخاصة به. خرج الهواء فاترًا من مكيف الهواء فشهو ناثن بفعل شعوره بالراحة وملاً رئتيه بالهواء البارد، ثم خرج من السيارة وأحضر زجاجة من المياه الباردة من الخلف وبدأ يشرب بشراسة، كما منح دافي بعض الماء البارد.

نظر ناثن إلى ساعته، مكثت إلسي عند قبر مربّي الماشية ما يقرب من خمس عشرة دقيقة على الأكثر منذ لحظة قدومها وحتى وقت رحيلها، شعر ناثن بأنها قضت وقتًا أطول من هذا، ولكنها لم تفعل. عبس وهو يتذكر ما قالته صوفي: «لم نفعل شيئًا، جلسنا عند القبر لعدة دقائق ثم انصرفنا على الفور»، لقد مكثت إلسي خمس عشرة دقيقة فقط وبدأت كأنها دهرٌ كاملٌ.

شرب ناثن جرعة أخرى من الماء ونظر إلى الأفق، اختفى صوت السيارة وانقشع الغبار، رحلت إلسي ولم يعد لها أثر بعد الآن. نقل ناثن عمود الحركة إلى وضع القيادة وتحرك بالسيارة ببطء في اتجاه قبر مربّي الماشية، صعد إلى القمة وأوقف السيارة على مسافة قصيرة من شاهد القبر وخرج منها.

اختفت دائرة الغبار، وحلت محلها آثار قدمي إلسي، استطاع ناثن أن يحدد المكان الذي كانت ترتكز فيه على ركبتيها، هل كانت تصلي؟ لم تكن إلسي من هذا النوع الذي يحرص على الصلاة، ولكن الموت يغير الناس بأشكال متعددة.

لمس ناثن شاهد القبر الذي دفأته الشمس، فغمره شعورٌ غريب في المكان حوله، شعورٌ بوجود شيء لم يكن موجودًا من قبل، ولكنه لم يستطع تحديده. أخيرًا ارتكز على ركبتيه وركع، كما فعلت إلسي، فاستطاع تحديد الشيء الخاطئ الذي كان يشعر به.

كانت الحفرة التي اكتشفوها تحت جسد كامبيرون مختلفة، كادت تلك الفتحة تُغلق بالكامل في المرة الأخيرة التي كان فيها ناثن عند القبر بصحبة بوب وهاري. لكن تلك البقعة الموجودة حاليًا مختلفة تمامًا عن المرة السابقة. مدَّ ناثن يده ولمس الأرض، كانت الأرض قد قُلِّبت حديثًا. مرَّ يده بين حبيبات

التربة، لبحث عن أي شيء تركته إلسي، مَدَّ يده وفتَّش بأصابعه، لم يجد سوى أشياء صغيرة للغاية، من الممكن أن تكون بذورًا لنباتات أو أشجار.

تذكر ناثان أنه لم يكن يحب والده وكذلك أخويه، ولكنهم على الرغم من ذلك زرعوا الأشجار فوق قبره، فهل فعلت إلسي نفس الشيء تكريمًا لكامبيرون؟

كانت الشمس تصب لهيبتها فوق ظهره وظله يمتد طويلًا ليغطي قبر مربّي الماشية، شعر بالتعب الشديد. فوقف في مكانه ولاحظ أن حركته تركت آثارها بجوار القبر.

عاد ناثان مرة أخرى إلى السيارة وشعر بالراحة لبرودة مكيف الهواء، ونعومة المقعد أسفله، بدأ الدوار الذي يشعر به والتعب يخفان تدريجيًا بينما بدأت درجة حرارة جسمه بشكل تدريجي تعود للمعدلات الطبيعية. في تلك اللحظة أدرك ناثان أن كامبيرون في طقس مثل هذا لم يكن ليترك سيارته بأي ثمن وكان سيدافع عن وجوده بداخلها دفاعه عن الحياة ذاتها.

أمسك بزجاجة الماء وارتشف رشفة طويلة، كان كامبيرون يعلم معنى البقاء هنا دون قطرة ماء ودون معدات وإمدادات للنجاة، كان الأمر يشبه عقوبة بالإعدام. لو نجح أحدهم في فصل كام عن سيارته بالقوة، فهذا يعني أن هذا الشخص كان يخطط لقتله منذ البداية، لا بد من أن كامبيرون سوف يدرك ذلك وسيقاتل من أجل الحفاظ على حياته.

ألقي ناثان نظرة طويلة نحو شاهد القبر وتخيل جسد أخيه المحاصر في الشمس، وتذكر قطعة قماش القنب التي كانت تغطي جسده، لم تكن على جسد أخيه آثار عراك ولم تكن هناك جروح على يديه أو وجهه.

ارتشف رشفة أخرى من الماء ولكنها كانت رشفة بطيئة في هذه المرة، وظل جالسًا في مكانه لمدة ساعة كاملة، لا يعرف بالضبط ما الذي توصل إليه. أدرك في النهاية أن عليه العودة إلى المنزل، فسوف يجتمع الجيران في الغد لحضور جنازة كامبيرون، يجب أن يعود ناثان إلى المنزل حتى يتحدث مع ابنه مرة أخرى، ويُجري حوارًا مطولًا مع إلسي. ولكنه -وعلى الرغم من كل ذلك- بدلًا من أن يتحرك ظل جالسًا في مكانه ينتظر الشمس أن تحرك ظل شاهد القبر إلى الاتجاه الآخر ليلف حول مكانه دورة كاملة. انتظر مكانه ولم يظهر شخص آخر.

الفصل السادس والعشرون

رحل ناثان عن القبر في وقت متأخر للغاية، ولم يعد في إمكانه أن يرجع إلى المنزل في الوقت المناسب قبل أن يحل الظلام.

بينما اقتربت سيارة ناثان من المنزل، كان الضوء يسطع من النوافذ، أوقف سيارته وغادرها وصرع الباب خلفه بقوة، لمحت عيناه مشهداً تحت الشجرة الضخمة بجوار قبر أبيه عبر الفناء، فتسمر في مكانه ولم يستطع الحركة.

كانت هناك حفرة كبيرة سوداء، لم تكن عيناه لتفتوتا مثل هذا المشهد على الرغم من الظلام المخيم على المكان. مشى ناثان في اتجاه الحفرة، كانت حفرة عميقة وفارغة، فوقف عند حافتها، كانت الحفرة عبارة عن قبر كبير مُعد ليستقبل جسد كاميرون. وكان الجو حاراً والهواء كثيفاً وحيوانات الدينغو متوقفة عن العواء منذ بداية الليل.

استدار ناثان وتحرك ببطء في اتجاه المنزل، كانت الأصوات التي تبعث من داخل المنزل ضعيفة ومكتومة، فدلف إلى الداخل وأغلق الباب خلفه.

- لا، لا، لا تخبريني بذلك الهراء، لا، لقد قلت إن في إمكاننا أن نجرب.

- بحق المسيح، أعرف يا بوب، ولكن لديّ العديد من الأشياء الأخرى التي...

ارتفعت ثلاثة وجوه إلى الأعلى بينما دخل ناثان.

قال بوب موجهاً حديثه إلى إلسي التي كانت تجلس إلى الطاولة عند حافة المطبخ: «أمر رائع، ها قد أتى شخص آخر لمساندتك».

كانت إلسي ترتدي نفس الملابس التي رآها ناثان بها عند قبر مربى الماشية، وتُحدّق بشدة إلى كأس من النبيذ موضوعة أمامها.

كانت علامات التحفز تظهر على وجه بوب، بينما كانت ليز تحمل نظرات محايدة وكأنها تحاول أن تهدئ من اشتعال الموقف المحتدم بينهما.

قالت ليز: «بوب، من فضلك حاول أن تهدأ قليلاً».

ثم ألقت نظرة على ناثان وهي تقول: «لقد غبت لفترة طويلة للغاية؟».

- لقد كنت أتحقق من شيء ما، بالقرب من السياج، ما الذي يحدث هنا؟

قالت إلسي: «لا شيء».

قال بوب بغضب: «لا شيء، حقاً لا شيء».

استطاع ناثان أن يميز من صوت بوب أنه تناول بعض كؤوس من الشراب قبل أن يخوض هذا الحديث.

- أنا لن أتلقى الأوامر من أحد.

- لم يُطلب منك تلقي الأوامر يا بوب.

نظر بوب إلى ناثان: «أخبرها برأيك في خطتي لنقل الماشية، أنت تظن أنها خطة جيدة، أليس كذلك؟».

- انتظر. (بدأ ناثان يشعر بالحيرة) هل تتجادلان حول هذا الأمر؟

ارتفع صوت بوب: «أخبرها بحق السماء، أخبرها بأنك تظن أنها خطة جيدة، أخبرها».

عبس ناثان: «لم تسنح لي الفرصة بعد لفحص...».

- بحق المسيح، كنت أعلم أنك ستفعل ذلك.

ثم أغلق بوب عينيه وهو يصيح: «كل هذا هراء».

قال ناثان: «لماذا اخترت هذا التوقيت لتفعل كل ذلك يا صديقي؟»، ثم أضاف: «لنتحدث في ذلك الموضوع بعد أن ندفنه غداً، على الأقل».

فتح بوب عينيه مرة أخرى وقال: «حسناً».

ثم وجّه حديثه إلى إلسي: «ما زال هناك وقت لخوض ذلك الحديث لاحقاً، أليس كذلك؟».

صرخت ليز: «بوب، كفى».

ظلت إلسي ثابتة لم تتحرك بينما توجَّه بوب إلى الخارج، وصفح باب المطبخ بشدة في طريقه. حدَّق الجميع إليه بينما صدى صوت الباب يعلو في سكون الليل.

حاول ناثان أن يسأل: «ما الذي...؟».

ولكن ليز لم تعطه الفرصة الكافية، وبدأت مباشرة بمهاجمته: «أنت لست أفضل منه حالاً، هل تحدثت مع ابنك بعد؟ لقد كان قلقاً عليك للغاية وأراد أن يصطحب هاري للبحث عنك في كل مكان».

فتح ناثان فمه متعجباً: «ولكنني أخبرته عن وجهتي سابقاً».

- ولكنك تغيبت لساعات طويلة.

- حسناً.

- كما أن جهاز اللاسلكي الخاص بك، كان مغلقاً، مرة أخرى.

- اللعنة، لم أكن أقصد ذلك، أنا آسف.

- لا يجب أن تعتذر إليّ أنا، اذهب إلى زاندار.

وقبل أن يستطيع ناثان أن يجيب، أشاحت ليز ببصرها في اتجاه إلسي وقالت: «هل أنت بخير؟ أريد أن أطمئن عليك».

ظلت إلسي تُحدِّق إلى كأس النبيذ الموضوع أمامها على الطاولة، ولم ترفع رأسها أو تتحرك وهي تقول: «نعم».

قالت ليز بصوت يحمل علامات الانكسار: «حسناً، سوف أذهب للاطمئنان على حال بوب».

خرجت ليز من المطبخ وأغلقت الباب خلفها.

ما زالت إلسي تجلس في مكانها وهي تُحدِّق إلى الكأس الموضوع أمامها، فتح ناثان الثلجة وأخرَج زجاجة من البيرة، فتحها وبدأ يرشها ببطء ناظرًا إلى إلسي. ما زالت آثار الغبار الأحمر عالقة في قميصها وبنطالها الجينز، وكانت لديه نفس الآثار فوق قميصه هو الآخر، ولكنه بدلاً من أن يسألها، أشاح ببصره في اتجاه الباب.

- لم أكن أدري أن بوب أخذ موضوع نقل الماشية بتلك الجدية.

- أعتقد أن الأمر لا يتعلق بنقل الماشية، بل بسلطة اتخاذ القرار بعد رحيل كاميرون.

- صمت ناثان ولم يرد. فأضافت إلسي: «لقد اتصل بمحامي كاميرون».
- هل فعل ذلك؟
 - نعم، لقد سأله حول تقسيم المزرعة، وصلاحيات الإدارة.
 - وماذا أخبره المحامي؟
 - أخبره أنه سينفذ وصية كاميرون.
 - وما وصية كاميرون؟
 - كل حصته من المزرعة من نصيب الفتاتين.
 - الفتاتين، وليس أنت؟
 - بشكل عملي سأتولى إدارتها كوني وصيةً عليهما، حتى تصلا إلى السن القانونية.
 - ثم أضافت: «لقد أوصى أن تؤول الحصة بالكامل إلى الفتاتين، ولم يترك شيئاً لبوب أو لك».
 - رفعت إلسي رأسها ونظرت إليه بشكل مباشر، وسألته: «أرجوك، أخبرني أنك كنت تعرف بشأن تلك الوصية».
 - حسنًا، لا، لم أعرف، ولكن لا مانع لدي من تنفيذها.
 - بدأت عليها علامات الارتياح وحركت قدميها تحت الطاولة، فتحرك الكرسي المواجه لها من مكانه قليلًا. تحرك ناثان في اتجاه الكرسي المتحرك ورفع من مكانه ثم جلس في مواجهتها. وقال: «ينتابني شعور بالمفاجأة، كيف عرف بوب بيانات الاتصال الخاصة بمحامي كاميرون؟ وكيف تجرأ على محادثته في هذا التوقيت؟».
 - قالت إلسي: «هذا ما قالته ليز أيضًا، ولكن كما أخبرتك أن بوب يفكر بطريقة معقدة أكثر مما يحسب الجميع، وخصوصًا فيما يتعلق بأمر المزرعة وطريقة إدارتها، على كل حال. لقد كان حريصًا بشدة على معرفة مصير كل شيء».

- هل وعده كاميرون بفعل شيء مختلف؟

- لا أعلم، ولكن لقد أصبحت المزرعة مقسمة بهذا الشكل بينه وبينك، وأنا شريكة كذلك، لذلك أظن أن بوب يشعر... (ترددت إلسي ثم أخذت رشفة من الكأس الموضوعة أمامها) بالخيانة، أو شيء من هذا القبيل.

- ربما يكون قلقًا بشأن ما تخططين له بخصوص إدارة المكان.
 - أنا لم أفكر في شيء بعد، أنا لم أسعَ لهذا الأمر، وربما أفكر حتى في بيع نصيبي له لو سمح لي بالحديث معه بشكل عقلائي.
 - قال ناثان: «أظن أنه غير قادر على الشراء».
 - إذًا، ربما أبيع نصيبي لك.
 - أنا بالتأكيد لا أملك المال الكافي لشراء نصيبك من المزرعة.
 - حتى لو منحتك سعرًا خاصًا، فنحن صديقان قديمان.
 - يجب أن تكون صداقتنا قوية جدًا، فأنا لا أملك المال الكافي.
- سادت حالة من الصمت المتوتر بينهما، كان كلاهما أكثر نضجًا من أن يشعر بالحرج في موقف مثل هذا.

ظن ناثان أن أركان فمها ترتعش من الداخل، نظرت إلسي إلى زجاجة البيرة الخالية في يد ناثان ثم رفعت بصرها ونظرت إليه: «هل ستتناول زجاجة أخرى؟».

شعر ناثان بحالة من التردد الشديد، فلم يرغب في تناول الكثير من الشراب في أثناء الحديث معها، حتى يحافظ على صفاء ذهنه.

ظلت إلسي تنظر إليه وهي تجلس أمامه على الطرف الآخر من الطاولة، تمالك ناثان نفسه وحافظ على حالته مستقرة خوفًا من أن يدفع ثمن أي تجاوز يحدث بينهما لاحقًا، فقد تعلم عبر سنوات الوحدة الطويلة التي قضاها بمفرده في المنزل أنه من السهل التعامل مع الوحدة والتألف معها لو كان الشخص وحيدًا بالفعل، لا يفكر في شخص آخر وليس لديه من يشغل باله ويحرك عقله وقلبه.

عندما كان ناثان يجلس في منزله الفارغ الصامت، كانت الوحدة بالنسبة إليه أمرًا روتينيًا، لا يشعر بوطأته، بل إنها كانت أحيانًا تتلاشى وتصبح مجرد خلفية لمشهد لا يؤثر فيه في شيء، لم يبقَ منها إلا شعور قليل بالوجع الذي اعتاده بمرور الوقت.

كان في البداية رغبًا في التواصل مع الآخرين باستماتة، ثم تملك منه الشعور باليأس، لم يعد وجود الآخرين يحمل له نفس الأهمية، وتعود أن يفعل كل شيء بمفرده وأن يتحمل مسؤولية نفسه دون دعم أو مساندة الآخرين.

كان الأمر صعبًا عليه في البداية وخصوصًا بعد رحيل الجميع عنه، واستغرق وقتًا طويلًا في التعافي والتعود على أن يكون بمفرده، ولكنه استطاع مع الوقت والصبر أن يعود إلى حالته الطبيعية.

بمرور الوقت وطول الاعتياد أصبح قضاء الوقت مع الآخرين أمرًا سيئًا من وجهة نظره ومزعجًا له، ولكن كان قضاء الوقت بصحبة إلسي الأسوأ على الإطلاق بالنسبة إليه، لذلك كان هناك صوتٌ داخليٌّ وعميقٌ يرتفع من داخل ناثان ويطلبه أن يبتعد عنها، وألا يفعل بنفسه ما قد يضرها بهذا الشكل المتهور.

بدأ ينظر إليها ودقات ساعة المطبخ تعلو في بطءٍ. ثم قال لها بهدوء بعد أن أخذ نفسًا عميقًا: «لا، أشكرك، لقد اكتفيت»، قبل أن يقف فجأة ويدفع الكرسي إلى مكانه، وعيناها تتابعانه في دهشة وتساؤل.

كان ماضيًا في طريقه لا لشيء إلا ليركها وحيدة.

- من الأفضل أن أذهب للبحث عن زاندار، وأتحدث إليه.

كان ما يقوله صحيحًا، في الواقع.

فاتجهت إلسي بنظرها إلى الأسفل وحدقت أسفل الطاولة، وهي تقول: «نعم، فقد كان يبدو عليه القلق الشديد».

- هل قال لك شيئًا؟

- لا، لكنني لم أكن موجودة هنا معظم الوقت، لم أره إلا لفترة صغيرة.

قال ناثان بصوت منخفض: «أوه، نعم».

ثم حاول أن يحافظ على هدوء صوته وهو يسألها: «ماذا كنت تفعلين في الخارج؟».

هزت إلسي كفتها بلا مبالاة، بينما كانت ذرات الغبار الأحمر العالقة بمقيصها، تبدو أكثر استقرارًا داخل تجاويف القماش: «لا شيء، كنت أشعر بالضيق، فأخذتُ سيارة العمال، وخرجت في جولة».

عبس ناثان: «ما سبب الضيق؟».

كان الغريب بالنسبة إلى ناثان أن إلسي كانت مستمتعة بإجراء الحديث معه.

- لا شيء، ولكن حالة سيارتي الخاصة ليست جيدة، لقد تعطلت عدة مرات، ولم يعد من الممكن الاعتماد عليها.

- لم يكن في وسع كاميرون وهاري إصلاحها؟

- قد أصلحها عدة مرات، ولكن دائماً ما كان يظهر بها عطلٌ جديدٌ.

- هل تريدان أن أُلقيَ نظرة عليها، ولكن لا يمكنني أن أعدك بشيء، وخصوصاً إن فشل كام وهاري في إصلاحها.

اعتقد ناثان أنه سمع صوتاً ينبعث من الخارج ناحية مدخل المطبخ، فرفع رأسه ونظر في اتجاه الصوت وتبعته إلسي بنظرها إلى المدخل الفارغ. لم يظهر أحد عند المدخل فأدارت إلسي وجهها مرة أخرى، وظهر عليها تعبير غير مفهوم.

- حسناً، ما المانع في المحاولة؟

ثم أضافت: «أعتقد أن السيارة موجودة الآن، في الجراج الصغير».

تراجع ناثان إلى الخلف قليلاً: «لا تقلقي بشأنها، إلى أين اتجهتِ بالسيارة اليوم؟».

التفتت إلسي إلى المدخل مرة أخرى وكأنها تتأكد من عدم وجود أحد بالجوار. ثم قالت له: «سوف أخبرك، ولكن عدني ألا تخبر الآخرين».

- بالطبع.

- ذهبت إلى قبر مربّي الماشية، أردت أن أمضي بعض الوقت بمفردي، للتفكير في جنازة كاميرون والاستعداد إلى يوم الغد، فسوف يتحدث عنه الجميع. (ثم طأطأت رأسها إلى الأسفل) أنا أشعر أن كام... كاميرون الذي أعرفه لا يمكن أن يتوه في الصحراء بهذه الطريقة، هل تدرك ما أقصده؟

هَزَّ ناثان رأسه موافقاً، وأخذ يفكر في شعوره تجاه دفن كاميرون المخطط له في الغد، كان جزء منه يتمنى أن يظهر كاميرون في أي لحظة على أول الطريق، كان من غير المفهوم بالنسبة إليه أن يختفي شقيقه من الوجود، أن يختفي الرجل الذي نشأ معه، وأحبه، وحمى ظهره في القتال، بهذه الطريقة الغامضة.

هل ستصبح تلك الحفرة العميقة السوداء الفارغة الموجودة بالخارج هي
المكان الذي يستقر فيه كاميون إلى الأبد؟
قال ناتان: «نعم، أفهم قصدك»، ثم نظر إلى إلسي، كانت عيناها ثقيلتين
بفعل الحزن، والغبار الأحمر يعفر ثيابها، «نعم، أنا أفهم قصدك، جيداً».

الفصل السابع والعشرون

كان باب غرفة نوم زاندار مغلقًا، فطرق ناثان الباب قائلاً: «هل يمكنني الدخول؟».

انتظر، ولم يأتَه الرد من الداخل، فانتظر لفترة أطول، ثم فتح الباب. فوجد ابنه مستلقيًا في الفراش يقرأ، رفع زاندار رأسه إلى أعلى على مضض ونظر إليه.

- لقد عدتَ؟

ردَّ ناثان بعد أن جلس على حافة الفراش: «آسف، لقد غبت لفترة طويلة». أعاد زاندار رأسه إلى الصفحة التي كان يقرأها، ونظر إليها مُحدِّقًا لبعض الوقت وعيناه لا تتحركان، ثم فجأةً ترك الكتاب يسقط على صدره، وقال بلهجة لا تحمل الود: «هل أجريت اختبارك؟».

- نعم.

- وهل أمكنك رؤية الأعلام وأنت تسير بالسيارة عبر الطريق من الأسفل؟
- استطعت. رؤيتها مرتين، ومررت من الطريق ثلاث مرات، لم تكن واضحة طوال الوقت.

- وما المفترض أن يعنيه ذلك؟

- لا أعلم.

تراجع زاندار إلى الخلف والتقط الكتاب مرة أخرى.

- أخبرتني جدتك أنك كنت تشعر بالقلق.

ظل زاندار صامتًا ولم يُجب

- أنا آسف يا صديقي، أعتذر إليك بشدة.

استمر زاندار يُحدِّقُ إلى الصفحة، انتظر ناثنان على قدر استطاعته ولكنه لم يجد إجابة فاضطر إلى كسر حالة الصمت بنفسه وبدأ الحديث: «لم أقصد أن...».

قلب زاندار الصفحة.

- لا عليك.

- لا، الأمر ليس كذلك، لم أكن أقصد أن أجعلك غاضبًا.

اكتفى زاندار بالصمت.

- زاندار؟

أجاب زاندار بصوت محبط وغازب: «ما الذي تريدني أن أفعله؟ أنا أحاول القراءة».

- أريدك أن...

- قل، ما الذي تريده؟

- لا أعرف، كل ما أريده هو أن أصلح الأمور بيننا.

- لا تقلق حول ذلك الأمر.

ثم طوى زاندار صفحة أخرى من الكتاب، قبل أن يضيف: «لا جدوى من النقاش معك، كانت أُمي محقة في هذا الشأن، فأنت دائمًا تتصرف بهذه الطريقة».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- ماذا تقصد؟

هَزَّ زاندار رأسه: «لا شيء، انس الأمر».

- يمكنك أن تتحدث معي بصراحة.

- لا. (وأخفى زاندار رأسه خلف الكتاب) يمكنك أن تفعل ما يحلو لك، أنا لم أعد أهتم بهذا الشأن بعد الآن.

انتظر ناثنان لدقيقة مرت كدهر، ولكن زاندار لم يقل كلمة أخرى، انتظر ناثنان لوقت إضافي حتى قلب زاندار صفحة جديدة، فقام ناثنان من مكانه وغادر الغرفة.

كانت سيارة إلسي ذات الدفع الرباعي مغطاة بطبقة كثيفة من الغبار، ولم تكن هناك سيارة غيرها في ذلك الجراج الصغير. ترك شخص ما حمولة

من الصناديق الصغيرة أمامها، بدا من شكلها أنها في ذلك المكان منذ فترة طويلة.

تساءل ناثان عن الوقت الذي ظلت فيه السيارة عاطلة عن العمل ولم تتحرك من مكانها، بينما كان يخرج المفاتيح الخاصة بها من تحت الدواسة الموجودة أسفل مقعد السائق. بمجرد أن دخل إلى السيارة كان عليه أن يعدل من وضع المقعد حتى يناسب قياس جسده، تذكر ناثان على الفور وضع المقعد في سيارة كاميرون المهجورة.

لم يكن متأكدًا من الشيء الذي يمكن الاستفادة منه بسبب تذكر تلك المعلومة، وضع المفتاح في المكان المخصص له وأدار المحرك، ارتفع صوت المحرك مزمجراً لبعض الوقت بسبب قلة الاستخدام، ولكنه دار وعادت الحياة تدب في جسد السيارة. وأتاه صوت المحرك ثابتاً منتظماً. شغل المصباح الضوئي الذي حمله حتى يمكنه الرؤية بشكل أوضح، فقد تركت الشمس منتصف السماء وخف الضوء مع ظهور غيوم ما بعد الظهيرة.

فتح غطاء المحرك، وانحنى إلى الأمام فاحصاً مكوناته، أجرى عملية فحص تقليدية في البداية، ثم بدأ يتجه بالفحص للمناطق الأقل تعرضاً لحدوث الأعطال، مرت ساعة كاملة ولم يجد شيئاً، فبدأ يشعر بالحيرة وهو ينام على ظهره أسفل السيارة بصحبة المصباح اليدوي.

في أثناء فحص ناثان للسيارة شرد عقله في التفكير بشأن زاندار، أخذ يتذكر بعض الأحداث التي جمعت بينهما من سنوات سابقة. تجمعت أفكار ناثان حول رحلة خلوية قضاها في خيمة بالعرء بصحبة زاندار، في إحدى الزيارات الأولى له بعد الحصول على الحكم القضائي، كان زاندار يبلغ في ذلك الوقت ثماني سنوات.

استيقظ ناثان ليجد كيس النوم الخاص بابنه خالياً بجواره، ولا أثر لزاندار بالجوار. ظل راقدًا في مكانه لعدة دقائق منتظرًا أن يسمع صوت اصطدام قطرات البول على التربة الرملية الصلبة أو صوت حفيف علبة من الحبوب الخاصة بطعام الإفطار، في أثناء فتحها، ولما لم يسمع أي صوت من الصوتين، أخذ ينادي على ابنه بصوت عالٍ، دون أن يتلقى إجابة.

اعتدل ناثان في مكانه وبدأ ينادي على ابنه بصوت أعلى، وقتها استشعر علامات القلق في صوته، تلمع عليه بعض حبات العرق، ولكنه لم يتلق إجابة

للمرة الثانية كذلك. وقف يداهما الإخوف الشديد بلا انقطاع، أخذ قلبه ينبض بشكل متواصل وهو يفحص الأماكن المحيطة بخيمتهما.

لم يجد ناثن شيئاً حوله، شعر بأنه سوف يصاب بالعمى بسبب إحساس الرعب الذي تملكه. سوف تصل درجة الحرارة بحلول وقت الظهيرة إلى أربعين درجة مئوية. لن يصمد طفل في حجم زاندار لفترة تزيد على نصف يوم في هذا الطقس اعتماداً على الحظ وتوفر المياه.

لم يكن يعرف ناثن لكم من الوقت ابتعد زاندار قبل أن يلاحظ غيابه، يعلم أن الأطفال الذين يماثلون زاندار في العمر وربما الأصغر منه قليلاً، بإمكانهم السير لمسافات طويلة قد تصل إلى بضعة كيلومترات، وأن بعض الأطفال التائهين عُثِرَ عليهم على بُعد مسافة كبيرة من المنزل، والبعض منهم كان الأوان قد فات بالفعل، على أن يُنقذوا.

بدأت الشمس تتحرك في السماء، ولكن لم يكن هناك أي أثر لوجود ابنه في الجوار. فقرر اختيار اتجاه معين عشوائياً ثم ينطلق للبحث فيه جرياً، قبل أن يتراجع عن هذه الفكرة ويركب السيارة ويبدأ اللف في دوائر تتسع تدريجياً.

استطاع العثور على زاندار بعد مرور خمس عشرة دقيقة، كان يقف على صخرة عالية يراقب بقرة وعجلها الصغير يقفان على مسافة بعيدة. كان زاندار بخير ولكنه شعر بالذعر لمرأى والده يهرع في اتجاهه، كانت تلك أسوأ خمس عشرة دقيقة في حياة ناثن. عانق ناثن زاندار بقوة حتى كاد يحطم ضلوعه، ثم صرخ في وجهه صرخة عنيفة لم يصرخ مثلها من قبل في حياته ولم يصرخ مثلها مرة أخرى، بعد مرور ذلك اليوم.

كان ناثن يستلقي عابساً أسفل سيارة إلسي ذات الدفع الرباعي، ويحدّق إلى الهيكل المعدني، ثم دفع بجسده إلى الخارج وأطفأ المصباح اليدوي الصغير. سمع صوت قدمين ناعمتين تقتربان من الجراج الصغير، فاعتدل في جلسته ونظر إلى الخارج في اتجاه الباب وعيناه تومضان في الظلام.

ظهر هاري عند مدخل الجراج.

- أنت هنا والودتك تبحث عنك في كل مكان.

ثم نظر في اتجاه ناثن، والسيارة التي تملؤها الأتربة والغبار.

- ما الذي تفعله؟

- قالت إلسي إن السيارة لا تعمل بشكل جيد.

- مرة أخرى؟

- يبدو ذلك.

وقف ناثنان في مكانه، وبدأ بتنظيف يده من آثار الشحم الخاص بمحرك السيارة.

تحرك هاري من المكان الذي يقف فيه، فغمره الضوء وظهر في يده خطاف معدني متدلّ وقد علق في نهايته حبل معلق فيه فروة رؤوس عدد من حيوانات الدينغو ملطخة بالدماء، نظر هاري إلى محرك السيارة لفترة طويلة، فبدأ ناثنان يشعر بالتعب، وكان الوقت قد تأخر بالفعل.

قال ناثنان موجهاً السؤال إلى هاري: «ماذا تريد ماما؟».

- كانت تريد أن تطمئن على أنك بخير.

وقف هاري يسد المدخل، بطريقة غير ملائمة، وسأل ناثنان: «هل تشعر بالقلق بشأن الغد؟».

- أعتقد ذلك.

كان جسد هاري يحجب مشهد الحفرة العميقة في الخارج عن عيني ناثنان.

- من الذي حفر ذلك القبر من أجل كام؟

- أديتُ أنا وبوب معظم العمل، ولكن سايمون وزاندار قدّما بعض المساعدة كذلك.

شعر ناثنان بانزعاج شديد لأداء ذلك العامل المتجول عملاً كان المفترض أن يفعله بنفسه.

- كان من المفترض أن أكون موجودًا، وأقدم المساعدة.

- نعم، كان من الواجب عليك أن تفعل.

تبدو قطرات الدم المتساقطة من رؤوس الحيوانات الميتة، كأنها سوداء اللون بفعل قلة الإضاءة.

- لقد كان شقيقك، على الرغم من كل ما حدث بينكما من مشكلات.

شعر ناثنان بالإهانة بسبب الحكم الجائر الذي ألقاه هاري على مسامعه. فرد بغضب: «أنا... وماذا عنك؟ لقد عرفت أنك تشاجرت مع كام قبل وفاته بفترة قصيرة».

نظر إليه هاري بحدة: «عن ماذا تتحدث؟».

- لقد سمعنا سايمون في تلك الليلة، قبل أن تغلق المولد الكهربائي. عبت ملامح هاري وتحول وجهه إلى الجمود وهو يقول: «لا يمكن أن نسمي ما حدث في تلك الليلة مشاجرة»، وتحرك إبهامه بعصبية فوق نهاية الخطاف المعدني، «كنت أنا وكام نتبادل الحديث من وقتٍ إلى آخر، وربما كان في ذلك نوع من التشاحن، ولكن مثل هذه المشاحنات وقعت بينكما كثيرًا، أليس كذلك؟».

- وما الشيء الذي كنتما تتحدثان عنه في تلك الليلة؟

- كنا نتحدث عن الطريقة الأمثل لإدارة المزرعة، كالعادة.

نظر هاري إلى الأسفل فاخفتت ملامحه في الظلام. ثم تابع: «لقد أخبرتك من قبل أن كام كان مضطربًا في الآونة الأخيرة، وقد أثر ذلك في عمله وذهب بتركيزه إلى الحضيض، كنت مضطربًا طوال الوقت إلى ملاحقته، اللعنة.. كنت أتابع كل شيء وأتحقق من كل شيء لأكثر من مرة».

- قال سايمون إنك كنت غاضبًا في تلك الليلة؟

- هذا ادعاء كبير، كان الوقت متأخرًا وكنت مرهقًا... وربما كنت غاضبًا بعض الشيء.

- وقال إنك أخبرت كاميرون بأنك تعرف حقيقة ما يحدث هنا، في هذه الفترة.

قال هاري بابتسامة لا تحمل أيًا من علامات الدعابة: «نعم، قلت ذلك».

قال ناثنان: «أعتقد أنك صادق، فلا أحد يعلم ما يحدث هنا خير منك، لا شك في ذلك».

كان ناثنان يعلم أنه لا يوجد من يعرف عن المزرعة وأحوالها خير من هاري، وأن هاري يفهم في إدارة شؤون المزرعة أكثر منه ومن أخويه كذلك، ولكن على الرغم من ذلك فإن المزرعة ملك لهم وتحمل أسماءهم ولا تحمل اسم هاري.

أدرك ناثان في تلك اللحظة أن هاري لم يكن يشعر بالأمان طوال الوقت، فأخذ يفكر في هذا الأمر، ربما بدت المزرعة لهاري كمنزله، وربما عدّه الجميع فردًا من العائلة، ولكنه ما زال في الحقيقة موظفًا في المزرعة يتقاضى أجرًا، وهذا يثبت صحة ما قاله الرقيب لودلو بأن هاري مجرد عامل في المزرعة، يمكن أن يستغني كامبيرون أو إلسي - في هذا الوقت - عن خدماته بمجرد نطق كلمة واحدة.

قال ناثان: «هاري، هل هدّد كامبيرون بطردك؟».

- لا، يا صديقي.

كان هاري يقف في الظلام ولكن نبرة صوته عند الإجابة كانت منعومة الثقة مما زرع في ناثان بذور الشك حول صدقها.

أخذ ناثان يفكر في كامبيرون الذي كان يحافظ على المزرعة ويديرها بعناية ودقة كبيرة كربان السفينة، الجميع كان يعرف ذلك حتى هاري، هل كان كامبيرون سيسمح لأن يتحدى سلطته أحد العمال؟ حتى لو كان هذا العامل هو هاري، نظر إليه ناثان وهو يتفحصه: «هل أنت واثق بذلك؟».

- بالطبع، تمام الثقة.

ثم أضاف هاري: «حسنًا، كل ما حدث أنه ذكرني بطريقتة الخاصة، بالشخص المفترض به أن يدير الأمور في المزرعة، ذكرني بصاحب السلطة الحقيقية وقد كنت بحاجة إلى هذا التنبيه. ومن بعدها بدأت أهتم بشؤوني الخاصة، ولا أتدخل في القرارات الإدارية، وظلت الأمور على هذا الوضع لفترة كبيرة، ولكن عندما بدأت أحواله تتدهور وتركيزه ينصرف عن العمل، شعرت أن من واجبي أن ألفت نظره إلى ذلك، وأن أثير الموضوع أمامه، ففعلت».

- ولماذا لم تخبرني عن ذلك من قبل؟

- أنا، لم أخبرك عن ماذا؟

ثم أضاف هاري: «حسنًا، أنا لم أخبرك بالمشاحنة التي دارت بيننا، لأنني شعرت بالسوء حيال نفسي، لا أعرف إن كنت قد فعلت التصرف السليم، ربما كنت قاسيًا بعض الشيء فيما قلت له، لقد كنت مصممًا على أن أخبره بكل ما يدور بعقلي، ولم أكن أعرف شيئًا عن محاولات تلك المرأة المدعوة جينا أن تصل إليه، ولم أكن أعرف أنه يشعر بالتوتر بسبب محاولاتها، كان يجب أن

أسمعه وأعرف منه سبب المشكلة الحقيقي، وكان يجب عليه إخباري بحقيقة الأمر بلا مواردية».

صمت ناثان لبعض الوقت قبل أن يبادر بالسؤال: «وما هو السبب في ذلك الذي جعله قلقًا بشأنها إلى هذا الحد؟».

نظر هاري مباشرة إلى ناثان: «لا أعرف، قال كاميرون في الماضي إنه لم يرتكب أي خطأ في حقها، والجميع صدق ذلك»، ثم أضاف: «وأنت دافعت عنه وقلت إنه لم يرتكب خطأ، أليس كذلك؟».

- إنها ليست في إنجلترا، لم تكن هناك منذ أسبوعين، يبدو أنها في رحلة إلى مدينة بالي.

ردَّ هاري بثبات شديد: «هل هذا صحيح؟».

وسادت بينهما فترة من الصمت، ثم قال هاري بصوت لطيف: «اسمع، ربما يبدو ما حدث بيني وبين كام شيئًا عنيفًا وكبيرًا، ولكن لو فكرت فيه لبعض الوقت لوجدته خلافًا عاديًا، كثيرًا ما يتكرر».

- هل تظن ذلك؟

- نعم، على كل حال فلم يكن سعيدًا على الإطلاق، وقد كان على هذا الحال منذ مدة طويلة حسب ظني.

ثم أضاف هاري وهو يتنهد: «يجب علينا أن نمضي قدمًا، حتى تنتهي عملية الدفن ومراسم الجنازة، بعدها سيزول كل هذا التوتر».

- أظنك محققًا.

نظر هاري إلى سيارة إلسي، ثم قال: «هناك دائمًا ما يعكر صفو الحياة، صدقني يوجد دائمًا ما يعكر صفو الحياة».

ثم صمت لبعض الوقت قبل أن يضيف: «هل ستمكث هنا لفترة أطول، يمكنني أن أترك المولد يعمل لفترة إضافية إن كانت تلك رغبتك؟».

هزَّ ناثان رأسه: «لا، سوف أكتفي بهذا القدر».

- هل أصلحت العطل الموجود في السيارة، ماذا وجدت؟

- لا، لقد فعلت كل شيء في حدود قدرتي، ولم أصلحها بعد.

أجرى ناثان كل الفحوصات الممكنة ولم يستطع أن يجد العطل في السيارة، حتى إنه ظنَّ أن السيارة في حالة جيدة ولا تعاني خطبًا ما.

- نعم، أنت محق، دائماً ما كنت أحاول أن أكتشف سبب العطل، ولم أستطع مطلقاً، ولكنها دائماً كانت تعاني خطباً ما.

ثم ألقى هاري نظرة على محرك السيارة المكشوف وقال: «لديّ فكرة يا صديقي».

- حسناً، أخبرني عن فكرتك.

تردّد هاري وهو يتحرك في طريقه إلى الخروج من حيز الظلام، ثم سمع الاثنان صوت قدمين تتحركان في الشرفة بالخارج وعلا صوت ليز وهي تنادي: «هاري».

قال هاري: «لا يهم، الوقت ليس مناسباً الآن، يجب عليّ أن أفحصها مرة أخرى بنفسي، حتى أقرر، على كل حال، فإنّ إلسي تكره هذه السيارة ولا تحب قيادتها، لا داعي للاستعجال، فهي لن تذهب بها إلى أي مكان في وقت قريب».

علا صوت ليز في الخارج مرة أخرى: «هاري».

قال هاري: «سوف أخبرها أنك على ما يرام»، ثم نظر إلى رؤوس الحيوانات التي تقطر دمًا في نهاية الخطاف الذي يحمله، وقال: «ويجب أن أفعل شيئاً بخصوص هذه الأشياء اللعينة كذلك».

- هل تخلصت منها بنفسك؟

- نعم، أردت أن أجهز المكان قبل أن يحضر الجميع في الغد، فقد شعرت بحرية كبيرة في التجوال بقرب المزرعة كثيرًا في الفترة الماضية.

- ظننت أن بوب هو من سيفعل ذلك الأمر.

مرّ تعبير سريع على وجه هاري، يوحي بظنه أن بوب شعر هو الآخر بحرية كبيرة في الفترة الماضية. ثم قال: «لقد وجدت الفرصة مواتية، فاستغللتها»، ثم أضاف: «لو انتهيت من العمل فيجب أن أغلق المولد الكهربائي في تمام الساعة العاشرة، يجب أن أحصل على قسط من النوم»، بدأ هاري يهز الخطاف الذي يمسكه في يده فتساقطت قطرات من الدم على الأرض، «سيكون الغد يومًا حافلًا».

الفصل الثامن والعشرون

استيقظ ناثان يحكه العطش في حلقه مع نسيمات الصباح الأولى، اعتدل في مكانه ومد يده إلى زجاجة الماء بجوار الأريكة. كانت فارغة تمامًا، لا بد من أنه شربها بالكامل في الليل، على الرغم من عدم تذكره بأنه فعل.

شعر بأن آثار ما بعد شرب الكحول اجتمعت كلها على رأسه بشكل عنيف، حاول أن يتذكر كم الماء الذي شربه الليلة الماضية، لم يكن كثيرًا بما يكفي، حسب ظنه. قام من مكانه بسرعة، فشعر بدوار شديد، اضطر إلى أن يتراجع حتى يستند إلى الحائط، ورأسه يدور حول نفسه بسرعة.

انتظر في مكانه وأخذ يغمض عينيه ببطء حتى استعاد توازنه مرة أخرى، في هذه اللحظة التقطت عيناه اللوحة التي رسمها كاميرون فظهر على وجهه بعض العبوس. كانت اللوحة معلقة في نفس مكانها المعتاد، ولم يتغير فيها شيء عما رآه في السابق، ولكنه كان يشعر بأن هناك شيئًا ما حولها قد اختلف بطريقة ما.

اقترب قليلًا من اللوحة، ما زال رأسه يدور ولكن على نحو أقل من السابق، كان المشهد بالكامل مألوفًا بالنسبة إليه، ما زال كل شيء كما هو، بنفس الألوان والأشكال الموجودة. يتمدد القبر المظلم أمام عينيه، ومن فوقه تتسع السماء اللامعة. وفي الخلفية بقعة شفافة غير واضحة المعالم ولم تتغير كذلك.

لماذا شعر بأن هناك شيئًا مختلفًا؟ هل ضوء الأفق أصبح أكثر سطوعًا؟ لم يكن واثقًا من السبب وراء ذلك الشعور، اقترب من اللوحة خطوة أخرى، زادت الأمور سوءًا عندما انزلق إطار اللوحة إلى الأسفل في الاتجاه المعاكس، مدَّ يده محاولًا ضبط مكان الإطار، حتى يستقيم وضع اللوحة مجددًا.

جاء صوت من عند المدخل: «كن حذرًا».

كانت ليز تقف هناك ترتدي ملابس سوداء بالكامل، وعيناها مخضبتان باللون الأحمر.

- كاميرون، كان يعيش هذه اللوحة.

- ربما يمكننا أن نحركها من مكانها اليوم، يمكنني نقلها إلى مكان آخر.

- ماذا؟ وما يدفعنا إلى فعل ذلك؟ لا يمكن أن ننقلها.

ثم دخلت إلى الغرفة واقتربت من اللوحة ومدت يدها بلطف وعدلت من زاوية الإطار حتى استوى وضع اللوحة، استطاع ناثن أن يدرك أنها أدت عملاً متقناً.

فقال: «أريد أن أنقلها من مكانها حتى لا يفسدها الحضور».

- ولكن سوف يرغب الجميع في رؤيتها، إنها تنتمي إلى مكانها فوق ذلك الحائط، كاميرون يحب ذلك المكان.

- نعم، أنت محقة، ولكنني رغبت في الحفاظ عليها.

- لكنها لوحة جميلة للغاية.

مسحت ليز الدموع من فوق خدها بطرف أصابعها، لم يكن ناثن قد لاحظ أنها تبكي قبل هذه اللحظة.

أضافت ليز: «مهما ارتكب كاميرون من أخطاء فإنه كان يجيد الرسم بشكل رائع، هذه اللوحة سوف تذكرني بكل الصفات الجيدة التي كان يتحلى بها، وأنا لا أريد أن أخفي صفاته الجيدة بعيداً عن عيون الآخرين».

هزَّ ناثن كتفه وهو يقول: «حسنًا، أنت محقة، لقد كانت مجرد فكرة ليس أكثر».

رفعت ليز رأسها ونظرت إليه: «هل يتأقلم زاندار على كل ما يحدث؟».

- لم أتحدث إليه منذ ليلة البارحة، لقد كان غاضبًا بسبب غيابي بالأمس لفترة طويلة.

- وهل تشعر بالمفاجأة بسبب ذلك؟

فكَّر ناثن قليلاً في السؤال، وخالجه شعوره بالمفاجأة بالفعل، فلم يكن من المفترض أن ينزعج زاندار لهذه الدرجة، لم يكن من المفترض أن ينزعج من الأساس.

- لم يكن هناك ما يستدعي قلقي بشأنه، فعندما أكون في المنزل أقضي كل الوقت وحيداً، ولا يوجد ما يستوجب القلق.

أجابت ليز: «هذا جزء من المشكلة الحقيقية يا نااثان»، وأدارت رأسها في اتجاهه بالكامل، «اسمع، أريدك أن تُجري اليوم حديثاً لبعض الوقت مع ستيف، اتفق معه على حجز ميعاد في العيادة لمقابلتك».

- لماذا؟ ما السبب الذي يدفعني إلى أن أقابله في العيادة؟

- ربما يتمكن من إعطائك دواءً ما حتى تستطيع أن تشعر بالتحسن.

- أنا لست في حاجة إلى الدواء.

- أنت في حاجة ماسة إلى الدواء، لو كنت لا تدرك أن هناك خطباً ما في عقلك فأنت مريض لدرجة كبيرة. إنك لا تشعر بأنك ارتكبت خطأ بالغياب طوال هذا الوقت، ووصلت الأمور إلى درجة أن ابنك شعر بالقلق عليك وخاف من أن تضر نفسك بشكل من الأشكال.

رفعت ليز رأسها إلى الأعلى ونظرت إليه بحسم. ثم أضافت: «أرجوك يا نااثان، يكفي أنني فقدت واحداً منكم بالفعل، اليوم هو أسوأ أيام حياتي ولن أستطيع أن أتحمل أن يتكرر الأمر مرة أخرى».

لم يتحمل نااثان النظرة التي كانت ترمقه بها فاضطر إلى أن يوميء برأسه قائلاً: «حسنًا، سوف أفعل».

سمعا صوت ضوضاء في القاعة الخارجية فأدارا رأسيهما لرؤية ما يحدث، كان بوب يقف عند المدخل. كان بوب يسير بلا اتزان، أدرك نااثان بأنه قد تناول بضع كؤوس من الشراب بالفعل قبل بداية النهار، أو ربما على الأرجح لم يتوقف عن الشراب منذ الليلة الماضية.

وقف بوب عند المدخل واستند بيده إلى الباب الخشبي وهو يقول: «ما الذي تفعله هنا؟».

- كنت أبدي إعجابي بالقطعة الفنية الرائعة التي رسمها كاميرون.

شعرت ليز بحالة شديدة من السوء بسبب تهكم ابنيها على اللوحة، وخصوصاً أن بوب كانت تظهر عليه آثار الشراب والسكر الشديد. حاول نااثان أن يلطف الأجواء: «لقد كنا نتناقش في أنه كان من الواجب علينا أن نضعها في مكان آخر اليوم بعيداً عن العيون».

صاح بوب: «لا، اللعنة عليك، لا يجب أن تعبت بلوحة كاميرون، حتى لا يعود كاميرون من العالم الآخر ويطاردك جزاءً على تلك الفعلة».

كاد بوب يضحك وهو يلقي بهذه الدعابة، فزادت حدة تعبيرات ليز لدرجة أن ناثنان شعر بها.

سأل ناثنان: «ماذا تريد يا بوب؟».

أجاب بوب: «حسنًا، لقد اتصل الشخص المسؤول عن تنظيم الجنازات للتو».

- وماذا يريد؟

- جثمان كاميرون في الطريق إلى هنا.

اضطر ناثنان إلى أن يرتدي بذلة والده القديمة، سحبته ليز من خزانة الملابس وأعطته إياها دون أن تنطق كلمة واحدة. كان عمر البذلة يزيد على خمسة وعشرين عامًا، ولكنها كانت ذات ملمس خشن يدل على أنها لم تستخدم مطلقًا في السابق.

مقاس البذلة مناسب لجسد ناثنان، ولونها أسود. مدَّ ناثنان يده إلى جيب البذلة فوجد قائمة من المشتريات التي تستخدم في المزرعة مكتوبة بخط يد والده، جعد الورقة في قبضة يده دون أن يقرأ محتوياتها، وقاوم رغبته في أن يخلع السترة ويلقيها بعيدًا.

دخل بوب إلى غرفة المعيشة، وبمجرد أن لمح ناثنان، ترك زجاجة البيرة من يده.

- اللعنة، لقد ظننت لوهلة أنك شخص آخر.

تراجع بوب ثم مد يده وتناول الزجاجة مرة أخرى، وهو يحاول أن يتمالك نفسه، سقطت بضع قطرات من الزجاجة فوق الأرضية فأمسك منديلًا ورقياً، وبدأ بتنظيفها متحاشياً النظر في عيني ناثنان.

- هل رأيت نفسك في المرآة يا صديقي؟ إنك تشبهه تمامًا وأنت ترتدي هذه البذلة اللعينة.

استدار ناثنان على عقبه ونظر إلى انعكاسه المُشوَّه غير المكتمل عبر شاشة التليفزيون، لم يستطع ناثنان أن يتعرف على نفسه، وشعر فجأةً بأن ملابس كارل برايت أصبحت ضيقة على جسده ولم يستطع أن يلتقط أنفاسه بسهولة، فخلع المعطف بعنف وطوَّحَهُ بقوة، فاستقر المعطف أسفل الأريكة.

في هذه اللحظة دخل زاندار إلى الحجرة وهو يرتدي البذلة الوحيدة التي كانت تخص كاميرون، كانت البذلة تناسبه تمامًا، وكأنها فصلت خصيصاً على مقاس جسده. بدأ ناثن وبوب بالتحديق ناحيته في ذهول، شعر ناثن أن زاندار أصبح أطول وأكثر عرضاً ونضجاً في تلك اللحظة مما كان عليه في السابق.

قال زاندار: «طلبت مني جدتي أن أرتدي هذه البذلة»، ثم طأطأ رأسه إلى الأسفل، «ربما كان ذلك...».

قال ناثن: «لا بأس، تناسب مقاسك».

عَقَدَ زاندار بعد ذلك ربطة عنق بوب، ثم ناثن، حتى يظهر بمظهر جيد في الجنازة، وقف ناثن وجهاً لوجه أمام ابنه وأخذ يتأمله في إعجاب وهو يعقد ربطة العنق بإحكام. كان ناثن يسمع صوت أنفاسه، بينما كان يحصي الشعيرات التي تركها على وجهه وهو يخلق ذقنه في الصباح.

يستطيع ناثن من هذه الزاوية رؤية الندبة الواقعة في مفرق رأسه، التي خَلَّفَهَا وقوعه عن الحصان عندما كان صغيراً في الخامس من عمره. أخذ ناثن يتأمل عيني زاندار اللتين كانتا زرقاوين في الماضي وتشبهان عيني جاكى عندما كان صغيراً، ولكنهما مع الوقت بدأتا تتحولان إلى اللون البني تماماً مثل لون عينيه.

غمره شعور مفاجئ برغبته في أن يعود بالزمن إلى الوراء حتى يتحول زاندار طفلاً مرة أخرى، فيمكنه حينها رفعه عن الأرض وتقبيله. كان يفكر في كل ذلك وهو يقف أمام ابنه ويشعر بعدم الراحة لارتدائه تلك البذلة المستعارة التي كانت تخص أباه.

- حسناً، يا زاندار أريد أن أتحدث معك بخصوص ما حدث بالأمس.

أجاب زاندار: «دعني أنهى ما أفعله».

ثم أَحْكَمَ شد ربطة العنق وخطا إلى الوراء خطوة واحدة، وحوَّلَ نظره بعد ذلك في اتجاه بوب، الذي كان يمعن النظر في لوحة كاميرون.

- اسمع، هل تظن أن هذه اللوحة من الممكن أن تثير اليوم مشاعر الانزعاج في نفوس الموجودين، بسبب القصة المتعلقة بمربي الماشية والشبح الذي يتجول في الليل؟

أجاب بوب: «لا أحد يصدق هذه السخافات».

ولكنه لم يلتفت إليه وظل معلقًا بصره في اتجاه اللوحة، تناول بوب رشفة أخرى من زجاجة البيرة، ثم أمسك بعنق الزجاجة ورفعها مشيرًا إلى اللوحة. - لقد اغتصب هذا اللعين واحدة من بنات السكان الأصليين وقد قُتل جزاء فعلته، لا أعرف لماذا أصبح صيته شائعًا بهذا الشكل؟

نظر زاندار إلى ناثنان في دهشة وسأله: «هل هذه القصة حقيقية؟». هَزَّ ناثنان رأسه، حدثت العديد من القصص الحقيقية المشابهة، فقد اغتصب العديد من الرجال البيض فتيات ينتمين إلى سكان أستراليا الأصليين، وفعل الكثيرون غيرهم ما هو أسوأ من ذلك، ولكن ناثنان لم يكن متأكدًا من أن مربى الماشية قد ارتكب جريمة مماثلة، فتح ناثنان فمه ليبدأ بالإجابة، قبل أن يقاطعه صوت ضوضاء منبعث من الخارج. نظر بوب من النافذة، ثم قال: «لقد وصلت...».

وقف زاندار وناثنان بجانبه خلف اللوح الزجاجي. كانت أمامهم تقترب على الممر المؤدي إلى المنزل سيارة متعهد الجنازات السوداء ذات الدفع الرباعي، عُدلت السيارة حتى تتسع الجهة الخلفية منها لتابوت خشبي كبير يصل طوله إلى مترين. ربما كانت السيارة نظيفة ولامعة عندما خرجت من سانت هيلين، ولكنها في الطريق إلى مزرعة العائلة اعتلاها الغبار والأوساخ مثل كل شيء آخر في هذه الأنحاء.

بالقرب من السياج الخشبي، وقفت إلسي تراقب السيارة وهي تقترب وابنتاها تحيطان بها من الجانبين، كجسمين صغيرين باهتَي الملامح. كُنَّ ملتحمتات معًا كسرب صغير من الطيور، وتنانيرهن السوداء تتحرك بفعل الريح كأجنحة من الريش.

على مسافة قصيرة من السيارة المقتربة استطاع ناثنان أن يميز سحابة أخرى من الغبار فتأكد أن الجيران في الطريق يقتربون بدورهم.

كانت الجثة مجهزة في دقة وسرعة بواسطة العامل المختص بالجنازات في سانت هيلين، كان الرجل يعرف بأنه لا فائدة من المبالغة في تلميع جثة كاميرون برايت، وتغيير شكلها فسوف تفعل الشمس الحارقة اللازم من أجل تسريع عملية الدفن، ولن يستطيع أحد أن يلقي عليه نظرة وداع طويلة. القبر المخصص لكاميرون كان مفتوحًا والتراب حوله مكوم في كتلة عالية وجافة.

لم يكن الظل الذي تلقيه شجرة الصمغ الأحمر العجوز المشرفة على مقابر العائلة كافيًا ليستظل به كل هذا العدد من الزوار الذين أتوا إلى المزرعة على غير عاداتهم، يرتدي الحاضرون أزياء ربما لا يرتدونها إلا مرة واحدة في كل سنة.

وقف ناثن مرتديًا القميص وربطة عنقه المربوطة بعناية وهو ينظر إلى الحشد المقرب باهتمام شديد وشعور بالدهشة. وصل إلى المزرعة أربعون شخصًا، حرص ناثن على أن يعدهم، وهو واقف يشاهدهم ويتأملهم بدقة وهم يرتدون أفخر ما يملكون من ملابس يرتديها سكان المدينة وأغلى القبعات.

كان العدد كبيرًا بشكل واضح، لم يكن في الحقيقة قد قابل معظمهم منذ سنوات ولكن استطاع أن يتعرف على ثلثي الموجودين معتمدًا على ذاكرته، كان هناك توم الكبير، وابنه توم الصغير، وكيلي التي تعمل في محطة الخدمة -تصطحب معهما طفلين يبلغان من العمر عامين تقريبًا- وجيوف الذي كان في الماضي صديقها، لكن من الواضح أنهما قد تزوجا الآن.

كان هناك أيضًا ذلك المهندس الأحمق الذي لا يستطيع ناثن أن يتذكر اسمه، ولكنه يعرف أنه يعمل في أثرتون منذ سنوات عديدة. هناك العديد من الحمقى الذين يعملون في أثرتون، هذه معلومة يستطيع ناثن أن يتذكرها بسهولة، جاء ستيف من العيادة الطبية لحضور العزاء، بينما غاب جلين، ولكن ذلك كان أمرًا متوقعًا بالنسبة إليه.

اتصل ناثن في الصباح بمركز الشرطة مرة أخرى، ما زال الرقيب جلين مشغولًا في الخارج بأمر الحادثة الكبيرة التي وقعت في مكان ما بالشمال، طلب منه المتحدث مجددًا أن يترك رسالة أخرى، ولكنه اكتفى بقوله: «أرجو أن يعاود الاتصال بي»، بعد فترة من الشعور بالتردد ثم أنهى الاتصال.

لم يكن ناثن يعرف القس الذي حضر بصحبة متعهد الجنازات، ولكن تصرفاته توحى بأنه ما زال في مرحلة التعلم، وكان من الواضح أنه لم يقابل كاميرون من قبل، لم يُعر ناثن اهتمامًا كبيرًا بتفاصيل الجنازة وقضى معظم الوقت يُحدِّق إلى جيرانه، ويتحدث معهم عن ظهور الشعر الأبيض في مفرق رؤوسهم والكيلوجرامات الزائدة في الوزن التي اكتسبوها بمرور الزمن.

لم تستطع ليز أن تتمالك نفسها حتى نهاية مراسم الجنازة، وبدأ صوت الخرخرة يتصاعد من مؤخرة حنجرتها عندما أوشك القس على الانتهاء من تلاوة الصلوات، ثم تزايدت حدة الصوت حتى أصبح مخيفًا مع الوقت.

طلبت إلسي من صوفي ولو زراعة نبتة صغيرة عند رأس القبر.

بدأت ليز تشعر بالثقل يعتري جسدها، وارتفعت كتفها إلى الأعلى فدفنت وجهها خلف مرفقها، همس هاري بشيء ما في أذنها وأمسك يدها بلطف وحاول أن يصطحبها بعيدًا عن المكان ولكنها دفعت يده في عنف رافضة التحرك.

اتسعت عينا لو الصغيرة وبدأت تبكي ثم علا صوتها ولحقت بها صوفي وشاركتها البكاء. اتجهت إلسي إليهما بخطوات مسرعة وضمتهما بين ذراعيها، وحاولت أن تعود بهما إلى المنزل.

عوت صوفي وهي تقول: «وماذا عن الشجرة؟»، ثم قالت بصوت تزداد حدته بفعل الدموع: «من المفترض أن نزرع الشجرة».

دون أن تنطق كلمة واحدة انحنت ليز وجلست على ركبتها وأمسكت المجرفة الصغيرة، وأخذت تحفر الأرض مكان زراعة النبتة الصغيرة، حتى تزيد من عمق الحفرة التي صنعتها الفتاتان في السابق.

كانت تحفر في قوة وسرعة وكأنها تطعن التربة الرخوة بينما ذرات الغبار والرمال تلتخ القماش الخاص بفستانها الأسود، كان حزنها عنيفًا ومضطربًا لدرجة أن ناثن لاحظ نظرات غامضة في أعين الموجودين تُظهر الضيق وعدم الارتياح.

تحوّل التآبين إلى نوع من التعذيب بالنسبة إليه ولم يستطع التحمل أكثر، تقدم في اتجاهها وأمسك مجرفة أخرى وبدأ مشاركتها الحفر، بمجرد أن أصبحت الحفرة عميقة بالدرجة الكافية أمسكت ليز بالنبتة الصغيرة ووضعتها في الداخل وبدأت بتغطيتها بسرعة وبشكل عشوائي.

أدرك ناثن أن هذه النبتة لن تعيش لفترة طويلة، فلم تكن مغروسة على عمقٍ كافٍ ولكنه اكتفى بمساعدتها دون أن يصرح بذلك.

بعد أن انتهت ليز وقف ناثن ومد يده ليرفعها من على الأرض وساعدها من أجل العودة إلى المنزل، متجاهلاً العيون الفضولية لجيرانه التي لاحقتهم وهو يترك الجنازة وينصرف.

الفصل التاسع والعشرون

بعد مرور ساعة واحدة، كانت ليز مستلقية في غرفتها المظلمة بعد أن أعطاهما ستيف عقارًا مهدئًا جهزه في العيادة الطبية وأحضره بصحبته. وجد نااثان نفسه واقفًا بمفرده عند مدخل غرفة الاستقبال، كانت الغرفة مزدحمة لدرجة لم يسبق حدوثها، وعلى الرغم من ارتفاع درجة الحرارة وقف البعض في الشرفة بالخارج وجلس البعض الآخر في غرفة داخلية أخرى. لاحظ نااثان أن البعض تجمّع بمزيج من الفضول والخجل يشاهد اللوحة الزيتية المعلقة التي رسمها كامبيرون.

سمع نااثان صوتًا بجواره: «على الأقل لم يلمس أحد اللوحة».

كانت إلسي تقف بجانبه وتتنظر في اتجاه اللوحة.

- أظن أنه كان من الأفضل أن ننقلها من مكانها.

قالت إلسي: «لا.. لا يمكن نقلها يوم جنازة كامبيرون، لو فعلنا ذلك لسألنا عنها الحاضرون، فاللوحة هي ميراثه الذي كان يرغب في أن يراه الجميع».

ثم قالت شيئاً آخر لم يستطع تمييزه بسبب الصخب الذي يسببه الزحام.

أجاب نااثان: «لقد اتفق بوب معك في الرأي».

- هل فعل ذلك؟

- نعم، بالطبع وكذلك ماما.

- إنهما محقان في ذلك.

شعر نااثان بأنهم محقون على الأرجح، فقد اهتم جميع الحضور بالنظر إلى اللوحة بنظرات متباينة، تتنوع بين الاهتمام والفضول، مع اتفاقهم جميعاً على الحفاظ على احترام مسافة فاصلة بينهم وبين اللوحة.

لمح ناٲان كاتي تدخل من الباب وتتحرك إلى منتصف غرفة الاستقبال، كانت كاتي تحمل صينية تحتوي بعض السندوتشات في يدها، ولكنها بدلاً من أن تقدمها للموجودين، اتجهت مباشرة إلى المنضدة وتركتها عليها.

كانت إلسي تقف بجوراه، وتضيق عينيها وهي تنظر إليها.

- يا إلهي، إنهما عديما الفائزة، كلٌّ منهما لا فائدة منه.

ساد بعض الصمت.

- سوف أطردهما.

- إنهما يخططان للرحيل على أي حال.

- ولكن يمكن أن أطردهما قبل...

- نعم، أعتقد أن ذلك بإمكانك.

عبر الحجرة كانت هناك امرأة بيضاء ذات شعر أشقر يصل إلى حد كتفيها وبخدين أحمرين بلون ثمار الفراولة تشير إليهما بتلويحة قصيرة.

سألته إلسي: «من هذه؟».

قال ناٲان: «لا أعرفها، أظن أنها تلوح إليك».

- لا أظن ذلك.

لوّحت المرأة مرة أخرى، فسادت حالة من التردد والارتباك بين إلسي

ونائان.

ثم قالت إلسي: «من الأفضل أن أخلط بالحضور وأتحدث إليهم، سوف

أكمل حديثي معك لاحقاً».

ارتشف ناٲان رشفة كبيرة من زجاجة البيرة ثم راقب إلسي وهي تشق

طريقها في اتجاه المرأة المجهولة في زاوية الحجرة. مدت إلسي يدها إليها

بالسلام وتبادلتا بضع كلمات. اقترب رأسهما من بعضهما بعضاً وبدأت

الثرثرة، ولكن ناٲان لم يستطع أن يميز شيئاً من كلامهما بسبب صوت الحشد

المرتفع.

نظرت إلسي في اتجاه ناٲان وقالت شيئاً ما، فنظرت المرأة إلى ناٲان

بدورها وهزت رأسها وشقت طريقها بين الزحام متجهةً إليه.

- مرحباً يا ناٲان، لقد كنت أُلوح إليك في الحقيقة.

تحدثت المرأة إليه بمجرد أن أصبحت في مواجهته، ثم نظرت في عينيه، ابتسمت ابتسامة خجولة وهي تقول: «أنت لا تتذكرنني، لا بأس، هذا شيء طبيعي، أنا ميلاني بيرتس من أثرتون».

جاهد ناثان أن يتذكر، بلا فائدة.

- ميلاني؟

- نعم، ميلاني من أثرتون، أو هكذا كنت، فقد انتقلت منذ بضع سنوات على كل حال ولكنني عدت مؤخرًا.

ثم ضحكت ضحكة داخلية خجولة. وتابعت: «كنت أعرفك في الماضي، ولكن ذلك كان منذ فترة طويلة، فلا داعي للقلق بشأن تذكرك هذا كله، ربما لم تلاحظ وجودي وقتها، فقد كنت صديقة جاك، عندما كنا نتواعدان في الماضي».

- حسنًا، أنا لا أتذكر بالفعل.

ما زال ناثان يحاول أن يعتمر ذاكرته لعله يتذكر شيئًا ما ولكنه لم ينجح، وحاول أن يحافظ على ابتسامته في نفس الوقت.

- لقد تطلقنا، أقصد أنا وجاكي منذ زمن بعيد ولذلك... ضحكت.

- وأنا كذلك طلقت، إن الزواج بين أبناء المدينة غالبًا لا ينجح، يا لها من مفاجأة... وبعد الانفصال سافرت لعدة سنوات وتنقلت في الغرب، ثم عدت إلى هنا مؤخرًا، وما زلت أعمل في تجارة الخيول.

- حقًا؟

بدأ ناثان يسترجع هذه الفتاة الصغيرة التي كانت تحوم في دائرة أصدقاء جاك، كانت جميلة في هذا الوقت ويعلو وجهها نمش أحمر، وتضع أحمر شفاه من اللون نفسه، وترفع شعرها على شكل ذيل حصان.

لم تكن جاك تحفظ بالعديد من الصداقات الشابة في ذلك الوقت، ولكن كان هناك عدد منهم يظهر ويختفي بين الحين والآخر بتتابع غير مفهوم في أماكن الدراسة والعمل وغيرها من الأماكن الأخرى.

لم يكن ناثنان متأكدًا من أنه كان يذكر اسمها في السابق، هل كانت تُدعى ميلاني؟ كان كل اهتمامه منصبًا على جاكى في ذلك الوقت. كانت ميلاني جميلة في الماضي وما زالت تحافظ على جمالها حتى اليوم.

قالت ميلاني بصوت يشبه الهسهسة: «أنا آسفة لما حدث بينك وبين جاكى، كنت أعتقد أن الأمور بينكما سوف تسير على نحو جيد، فقد كنتما تبدوان في غاية السعادة معًا».

كانت تتحدث بطريقة توحى بالشعور بالتردد وكأنها تفكر فيما يجب أن تقولهُ وما لا يجب أن يخرج عنها، وعندما أنهت حديثها منحتهُ ابتسامة جانبية صغيرة.

- كنا جميعًا نشعر بغيرة شديدة منها، فلا يوجد عدد كبير من الرجال الجيدين، كانت دائمًا تحكي لنا حول قدرتك على إسعادها وعن الطريقة التي كنت تستطيع أن تضحكها بها في كل الأوقات.

- حقًا، لا أعتقد أن هذه هي طريقة جاكى في الحديث عني، ربما كانت تفعل ذلك في البداية ولكن بعد ذلك تغيرت حكاياتها عني كثيرًا.

كانت الذكريات التي تركها ناثنان وجاكى مدفونة بشكل عميق في الماضي، ربما حدث ما تحكي عنه لميلاني في بداية علاقتهما، ولكن كل شيء تغير بعد ذلك، ربما حكى ناثنان لأصدقائه في البداية عن جاكى العديد من القصص اللطيفة هو الآخر.

نظر ناثنان إلى ميلاني بعناية هذه المرة وسألها باهتمام: «حسنًا، هل أنت سعيدة بالعودة مرة أخرى؟».

- لقد كدت أنسى، كم هي هادئة هذه الأنحاء!

- نعم، المكان هنا هادئ جدًا، إنه هادئ إلى أبعد الحدود.

كان عقل ناثنان فارغًا للغاية ولا يستطيع أن يفكر في شيء جدي ليقوله لها.

عبر الغرفة استطاع ناثنان أن يلاحظ أن إلسي تنظر إليهما في اهتمام، وعندما أدركت إلسي أنه ينظر إليها أدارت وجهها على الفور، وبدأت بالحديث مع سيدة عجوز لا يعرفها ناثنان.

قالت ميلاني بادئة الحديث: «على كل حال.. حزنت كثيرًا لما حدث لكاميرون، وربما لا يكون هذا وقتًا مناسبًا لما سأقوله، ولكنني جئت لرؤيتك

في الحقيقة، كنت أريد أن ألقى عليك التحية، فأنا لا أعرف إن كنت سأقابلك في المدينة في يوم من الأيام؟ هل تذهب إلى المدينة؟».

- في الحقيقة لا، لا أذهب إلى هناك مطلقاً.

مرت رعشة سريعة في طرف عينها، ولكنها تماكنت نفسها سريعاً وهي تقول: «حسناً، إن صادف في يوم من الأيام وكنت في طريقك إلى المدينة أعلمني بذلك، ربما استطعنا تناول بعض الشراب معاً في مكان هادئ أو شيئاً من هذا القبيل، يجب أن تتصل بي لو جئت إلى المدينة، اتفقنا؟».

- حسناً.

- يمكنك أن تتصل بي في أي وقت في أثرتون، اطلب ميلاني.

- ميلاني.. نعم، لقد حفظت الاسم.

- حسناً إذًا، كل شيء على ما يرام.

ثم ابتسمت له ابتسامة ساحرة ووضعت يدها على مرفقه في لمسة تمييز باللطف والرقّة، رقّة لم يعتد أن يلمسه أحد بمثلها منذ فترة طويلة. شعر ناثان بحرارة أصابعها الرقيقة فوق جلده، كان ملمس أصابعها واضحاً ومؤثراً لدرجة أنه شعر ببعض الألم.

شاهدها ناثان وهي تختفي مرة أخرى بين الزحام، واستغرق في التفكير بينما اقترب منه هاري على نحو مفاجئ وظهر بجانبه، فقفز في مكانه.

- دعني أكون صريحاً معك يا صديقي، إن وضعك لا يسمح أن تتصنع عدم الاهتمام في هذه المرحلة.

وناوله زجاجة أخرى من البيرة.

- بحق المسيح يا هاري، أنا حتى لا أتذكر اسمها، ولا أعرف عنها شيئاً.

قال هاري مبتسماً: «ولن تعرف شيئاً إلا لو بادرت بالمحاولة، من الأفضل أن تتصل بها لاحقاً، ويجب عليك أن تظهر في المدينة بين وقت وآخر».

- قد كانت متغيبية عن المدينة لفترة طويلة، إنها لا تعرف شيئاً عما حدث بيني وبين كيث.

- إن كانت تقيم في أثرتون منذ مدة طويلة، فبالتأكيد سمعت شيئاً ما عن هذه القصة، لا شك لديّ في ذلك.

- ما زلت لا أعرف ماذا سأفعل، يجب أن أفكر في الأمر.

- يجب أن تفعل ذلك، فأنت لا تسهل الأمر يا صديقي.

- أسهل الأمور من أجل من؟

- من أجل الجميع. (وأشار هاري إلى الحشد) من أجلهم ومن أجلك، يجب أن تعطيتهم الفرصة حتى يمكنهم مسامحتك.

- لقد بذلت أقصى ما في استطاعتي منذ عشرة أعوام، ولكن ذلك لم ينجح.

- لم يطلب منك أحد أن تفعل الكثير، كل ما عليك فعله هو أن تقطع منتصف الطريق إليهم وربما أكثر من ذلك قليلاً، لقد مر الكثير من الوقت منذ تلك الحادثة والوقت كفيل بتغيير كل شيء.

- ولكنهم نفس الأشخاص.

- لا، لم يعد الجميع موجودين الآن.

ثم نظر هاري إليه وقال بصوت منخفض: «وقد اهتم بعض الموجودين بالسؤال عنك والاطمئنان على أحوالك، توم الصغير على سبيل المثال وجيوف كذلك، يعرف الجميع أن الأمور لم تكن سهلة بالنسبة إليك، انظر إليهم، إنهم يشعرون بما تمر به بسبب وفاة شقيقك الأصغر، مثل هذه الحوادث تدفع الجميع إلى إعادة النظر في كل الأمور، فطقوس الدفن تذكر الجميع بالموت، ويفكرون في نهايته وهو ما يجعلهم يميلون إلى الغفران أكثر من أي وقت آخر».

- حسناً، هذا أمر جيد بالنسبة إليهم.

- أنا فقط أخبرك كيف تسير الأمور يا صديقي.

هَزَّ ناثان رأسه واكتفى بالصمت، عبر الحجرة أمكنه رؤية بوب يتجاذب أطراف الحديث مع مجموعة من الأشخاص في مثل عمره، وفي الركن الآخر كانت إلسي تخلصت بالفعل من المرأة العجوز، وبدأت بالمناقشة مع ستيف في شيء يبدو مهماً.

كانا يقفان بعيداً عن الجميع، بالقرب من اللوحة التي رسمها كاميرون، يتهامسان بصوت منخفض ورأس إلسي يقترب من رأس ستيف حتى كاد يلامسه. كانت تخبره بشيء ما وعلى وجهها علامات هياج غير معتادة، بينما كان ستيف يضم شفتيه في صمت. عندما توقفت إلسي عن الحديث،

بدأ ستيف بهز رأسه ثم فتح فمه للإجابة، ولكنها لم تعطه الفرصة وعادت للحديث هامسة مجددًا ولكن بمزيد من الحدة.

كان الأشخاص يتحركون بشكل عشوائي، وينتقلون من مكان إلى آخر حتى فقد ناثان القدرة على متابعتهم بعد مرور بعض الوقت. عاد ناثان خطوة إلى الخلف واستند إلى الحائط، كانت الغرفة ساخنة بشكل لا يتحمله، خصوصًا مع ارتفاع أصوات الثرثرة في المكان، فترك زجاجة البيرة من يده، وأخذ يبحث عن أقرب دورق للماء ولكنه وجده فارغًا، دار ببصره في الحجرة كان هناك دورقان آخران يستطيع أن يراهما ولكنهما كانا فارغين بدورهما.

نظر إلى هاري وهو يقول: «سوف أذهب لأملأ هذا الدورق بالماء».

هز هاري كتفه في غضب: «لقد أخبرتك يا صديقي، ما الذي يجب عليك أن تفعله، ولا داعي لأن تختبئ اليوم من الموجودين، هذا التصرف لن يفيدك مطلقًا».

ناثان لم يُجب ولكنه انصرف، لم يكن المطبخ أكثر برودة، ولكنه كان هادئًا على الأقل.

كانت كاتي تقف بمفردها في الداخل بجوار النافذة، تنظر في الخارج. جفلت في مكانها بينما وضع ناثان الدورق على طاولة المطبخ، ثم نظرت إليه وقالت: «أسفة، ظننتك سايمون».

- لا عليك، أين ذهب سايمون على كل حال؟

- لا أعلم.

فتح ناثان الثلاجة ونظر بداخلها، لم يجد أيًا من زجاجات المياه في الداخل، رفع الدورق وتوجّه إلى الصنبور وأداره، انساب الماء منه ساخناً ولكنه كان يفي بالغرض.

قال ناثان وهو ما زال حاملاً الدورق بينما يملؤه بالماء: «حسنًا، ربما كنتم تخططان للرحيل عن المزرعة في أقرب وقت، ولكنكما ما زلتما تعملان هنا ويجب عليكم أداء أعمالكما التي تتقاضيان عليها أجزًا».

قالت كاتي: «سوف أفعل هذا، إنني أسفة»، ثم مالت بجسدها واستندت إلى طاولة المطبخ وهي تقول: «ولكنني لست بخير، إنني متعبة».

نظر ناثان إلى وجهها، كان شاحبًا بما يوحي بأنها مريضة بالفعل، فأدرك أن تقديمها الطعام للضيوف وهي بهذا الشكل ليس بالفكرة الصائبة.

- هل أنت على ما يرام؟

- ربما كان ذلك من تأثير درجة الحرارة.

- الممرض ستيف موجود في الخارج، هل ترغبين في أن يلقي نظرة عليك؟

- لا داعي لذلك، أشكرك.

ثم اعتدلت وأمسكت بصينية من الشطائر ورفعتها إلى الأعلى، لاحظ ناثان أن وجهها زاد شحوبًا على الفور فاضطرت إلى إعادة الصينية إلى مكانها مرة أخرى.

قال ناثان: «حسنًا، نستطيع أن نتدبر أمرنا دون مساعدتك، يمكنك أن تذهبي للراحة إن كنت تشعرين بالمرض».

- من الذي يشعر بالمرض؟

ظهر سايمون عند باب المطبخ وفي يده صينية فارغة.

قالت كاتي: «لا أحد، كل ما في الأمر أنني لا أحتمل تلك الحرارة العالية، من الأفضل أن نعود إلى العمل».

وأخذت الصينية الفارغة من يد سايمون وأعطته الصينية الأخرى.

- خذ أنت هذه الصينية وأعطني التي بيدك.

ثم التقطت دورقًا ورسمت على وجهها ابتسامة، بدت الابتسامة حقيقية وكأن الجميع يشعر بالسعادة. خرجت من المطبخ وبعد لحظات قصيرة من الصمت تبعها سايمون مباشرة، وقف ناثان في مكانه يراقبهما ثم خرج هو الآخر من نفس المدخل الذي جاء منه.

كان صوت الثرثرة في الخارج عاليًا للغاية لدرجة أن ناثان استطاع سماعه وهو ما زال في منتصف الطريق لصالة الاستقبال. كان السبب في علو الصوت على ما يبدو هو خروج عدد من الحضور من غرفة الاستقبال وانتشارهم في طرقات المنزل هربًا من الزحام.

استطاع ناثان أن يرى بعض الوجوه المألوفة بالنسبة إليه، وفكر في أن بإمكانه أن يذهب للتحدث معهم، وفكر في أن بإمكانه على الأقل أن يذهب للبحث عن ميلاني والتفكير في شيء مناسب يتحدث إليها بشأنه هذه المرة.

ربما كان هاري محققًا، ربما كان الناس أكثر قدرة على التسامح في هذا التوقيت، ربما كانوا مستعدين لمسامحته، ربما كان هو نفسه لا يستطيع التفكير بوضوح في هذا الوقت نتيجة الضغوط الواقعة عليه. كل ما بداخله من أفكار ومشاعر يميل إلى السوداوية، وربما لم يكن كذلك، لم يكن هو نفسه يعلم شيئًا عن حقيقة مشاعره، قد استغرق ناثن سنوات عديدة حتى يستطيع التعود على نمط حياته الجديد ويتأقلم مع الشعور بالوحدة كما هو.

كان شعوره برفض الجميع له ونبذهم لوجوده قاسيًا في البداية كان مثل السكين الحاد الذي يقطعه بسرعة ونعومة ويخلف جرحًا كبيرًا ولم يكن لديه استعداد ليتعرض لمثل هذا الموقف مرة أخرى.

كانت هناك مجموعة من الرجال تقف في الممر المؤدي إلى غرفة الاستقبال، بدأ بعضهم بالنظر باتجاهه، ففتح ناثن بسرعة أقرب الأبواب الموجودة في الممر ودخل بسرعة فوجد نفسه بداخل حجرة المكتب التي تخص إلسي.

أغلق الباب خلفه بسرعة ووقف مستندًا إليه وهو يطلق زفرة عميقة، كان المكان في الداخل هادئًا للغاية، الأصوات العالية والضوضاء المنبعثة من الممرات، غرفة الاستقبال كانت تبدو مجرد غمغمة منخفضة، شعر ناثن بارتياح وسلام يسري في داخله، ظل واقفًا في مكانه لدقيقة كاملة يستمتع بحالة السكون.

ثم اتجه إلى النافذة المطلّة على الشرفة، كانت صوفي تلعب مع طفلي كلي، ولو تراقبهم عن بُعد باهتمام، بينما زاندار يقف على مسافة غير بعيدة مستندًا إلى عمود الشرفة يتبادل الحديث مع فتاة تقاربه في العمر، وكانت الفتاة تبتسم.

على الطرف الآخر من ساحة المنزل الخارجية كان هناك شخص ما، يقف وحيدًا أمام القبر، كان بوب يولي ظهره للمنزل واقفًا أمام القبر بمفرده، ظن ناثن أن بوب سمح لنفسه أخيرًا أن يطلق مشاعره، ولكنه عندما دقق النظر إليه وجد أنه لم يكن ينظر إلى القبر على الإطلاق، كان ينظر إلى الأفق في اتجاه السياج، ظل يتابعه من كذب لدقيقة أخرى، ثم استدار ونظر إلى المخطط المعلق على الحائط حيث خطة بوب لنقل الماشية مكتوبة بالتفصيل، ومشطوب على كل تفاصيلها بحزم.

جلس ناثنان على المقعد المواجه للمكتب ومد يده ليمسك دفتر اليوميات الخاص بالمزرعة الموضوع على المنضدة، جميع الأيام تبدو متشابهة في المزرعة، أيام مشحونة وملأى بالعمل، اليوم الذي مات فيه زوج إلسي كان يشبه كل الأيام على مدار الأشهر الستة السابقة بالنسبة إليها، أيام عادية ومزدحمة بتفاصيل العمل.

انتقل إلى جزء من اليوميات وضعت عليه إلسي علامة مميزة. كان الجزء الخاص بخطة بوب لنقل الماشية، قرأه ناثنان بعناية لعدة مرات متتالية، كان كلٌّ من بوب وكامبيرون محققاً في وجهة نظره، فالخطة الخاصة بالنقل كانت جيدة وتوفر الكثير من الوقت والمال، ولكن تواجهها العديد من المخاطر والتحديات التي تجعل أضرارها تكاد تكون مساوية لمنافعها.

كانت التفاصيل مدروسة بعناية ومدونة بدقة، مما يعني أن كامبيرون تناول الأمر باهتمام شديد، وأن بوب قد أخذ فرصته بالكامل في الدفاع عن مخططه، ولم يكن مستخفاً بكلامه ووجهة نظره على الإطلاق كما يتصور، ولكن في النهاية، كامبيرون كان محققاً.

قرر ناثنان أن يغلق دفتر اليوميات ولكنه توقّف فجأة وعدل عن قراره، قلب بين الصفحات حتى وصل إلى الأسبوع الحالي، لم يجد الكثير مدوناً، فقد توقف العمل بسبب اقتراب أعياد الميلاد وجنازة كامبيرون.

كانت الصفحات خالية، وما كتب بها من كلمات قليلة يبدو أنه أضيف منذ عدة أسابيع كونه تذكيراً بخطط مستقبلية يجب تنفيذها. قلب الصفحات مرة أخرى، حتى وصل إلى التاريخ الذي اختفى فيه كامبيرون، كان هناك العديد من السطور المدونة في تلك الصفحة أغلبها بخط إلسي، أرقام تليفونات وأسماء أشخاص يجب عليها أن تتصل بهم.

أخذ يقلب المزيد من الصفحات في كل الاتجاهات، كل ما كتبه إلسي، كان يخص أعمال المزرعة التقليدية، كان يؤدي مثل هذه الأعمال في المزرعة الخاصة به، ولكنه لم يكن يدون كل شيء بهذه الطريقة الاحترافية المنظمة.

من الواضح أن إلسي، لم تكن تخطط لإدارة المزرعة في المستقبل، ولكنها كانت جيدة في شؤون الإدارة كما هو واضح من دفتر اليوميات، على الرغم من أن بوب لا يعترف بذلك ولا يريد أن يحدث، ولكن من الواضح أن هذا هو الخيار الصحيح على حسب اعتقاد ناثنان بناءً على ما شاهدته في الدفتر.

أوشك ناثنان على أن يغلِق دفتر اليوميّات مرة أخرى عندما لفت نظره شيء مكتوب في أسفل إحدى الصفحات، لاحظ ناثنان علامة صغيرة في نهاية الصفحة قرب الركن، ومكتوبًا بجوارها توقيت ما.

قلب ناثنان الصفحات مجددًا فوجد علامة مشابهة في كل صفحة، ولكن التوقيت كان مختلفًا، قلب ناثنان في دفتر اليوميّات مرة أخرى، كانت تلك الإشارة موجودة في كل الصفحات لما يقرب من عام كامل وفقًا لما هو مكتوب أمامه. لم تكن تحمل أي معلومات، مجرد علامة صغيرة غامضة في الركن، والأرقام التي تشير إلى التوقيت، كانت كل الأرقام المكتوبة تشير إلى توقيتات تقع بين ساعتين فقط من اليوم، الساعة السابعة مساءً والساعة التاسعة مساءً.

نظر ناثنان إلى هذه العلامات والتوقيتات المكتوبة وشعر بداخله أنها تعني شيئًا، ربما يستطيع تمييزه على نحو غامض. ظل يحاول التفكير في حل هذا اللغز حتى سمع ضوضاء على مقربة منه، رفع بصره إلى الأعلى، كانت إلسي تفتح باب غرفة المكتب، في طريقها إلى الدخول ودافي تجري بين قدميها. بمجرد أن رآته دافي يجلس في مكانه قفزت في اتجاهه بفرحة، شهقت إلسي بمجرد أن وجدته بالداخل ووضعت يدها فوق صدرها.

- يا إلهي، لقد أخفتني.

قال ناثنان: «متأسف، كنت فقط...»، ورفع بيده دفتر اليوميّات.

قالت إلسي: «حسنًا، لا عليك، إنه خطئي.»

وأغلقت الباب من خلفها ومالت نحوه وعلى وجهها علامات الحزن.

- ما الأمر؟

- إنها جنازة زوجي، الموقف يؤثر فيّ كثيرًا.

وعضت على شفثيها، رمش جفنا ناثنان في سرعة، فهو لم يسمعها تتحدث بهذه الطريقة من قبل.

- ولكن هناك شيئًا آخر؟

تحركت إلسي عبر الحجرة وارتمت على المقعد خلف المكتب الخشبي وهي تقول: «كم مرّ من الوقت وأنت مختبئ هنا؟»

- لم تمر فترة طويلة.

هزت رأسها قائلة: «الوضع غريب في الخارج، أليس كذلك؟ هل سمعت ما يقوله الجميع عن كاميرون وفضائله، وكيف سيفتقدون وجوده بينهم؟». ثم هزت رأسها. وتابعت: «هل تعلم أنني لا أستطيع أن أتعرف على العديد منهم، ولا أستطيع أن أميز هويتهم، أما الباقيون فأنا لم أرهم منذ سنوات عديدة، لم يكن الجميع يتصل بكاميرون على الإطلاق، لم يكن أحد يزور كاميرون ويطمئن على أحواله، لم يكن أحد يعرفه على حقيقته».

- أنت محقة، لا أعتقد أنهم عرفوه بشكل جيد.

كات دافي تحوم بداخل حجرة المكتب، تتمسح في قدمي ناثان وتشم يديه، نظر ناثان إليها مداعباً وهو يعرف أن إلسي تتابعه ببصرها بتركيز شديد.

ما زال ناثان يشعر ببعض الدوار وجفاف الحلق جراء الإفراط في الشرب في الليلة الماضية. هل شرب العديد من زجاجات البيرة؟ لا يمكنه أن يتذكر ولكنه بالتأكيد أقل من العدد الذي كان يرغب في شرايه، بسبب وجوده مع إلسي بمفردهما لوقت طويل.

همّ ناثان بالوقوف وهو يقول: «آسف، ربما من الأفضل أن أتركك بمفردك».

- نعم، ربما يكون ذلك أفضل.

كان صوتها حاداً وقاطعاً لدرجة أنه تجمّد في مكانه لبضع ثوانٍ. حدّق ناثان مباشرة إلى عينيها وحدّقت هي إليه بدورها. ثم أشارت برأسها في اتجاه باب المكتب: «هيا اذهب، لا داعي لأن تفعل شيئاً ضد رغبتك من أجلي». ثم وجهت رأسها إلى الأسفل وهي تضيف: «كم من الوقت بقيت معي، لقد كان كثيراً، أليس كذلك؟»، وأضافت بحدة: «نحن هنا منذ دقيقتين كاملتين، إنها مغامرة ضد طبيعتك، يتوجب عليك الذهاب فوراً».

وقف ناثان يفكر لبضع ثوانٍ، ثم قال في النهاية: «هل ترغبين في أن أبقى؟».

ظل ناثان واقفاً في مكانه في انتظار إجابة، ولكن إلسي لم تتفوه بكلمة واحدة لفترة طويلة، لم تفعل شيئاً سوى التنفس بصوت مرتفع.

بدأ ناثان الحديث قائلاً: «هل تحدث إليك ستيف بشأن كاميرون و...». رفعت إلسي نظرها وقالت: «وبشأن جينا، أليس كذلك؟».

- هل قال شيئاً أغضبك؟

أجابت إلسي بصوت يحمل بعض المرارة: «لا، على العكس تمامًا».

ثم نظرت مباشرة إلى ناثان: «لقد أردت أن أعرف منه معلومات بخصوص تلك الحادثة في الماضي، أردت أن أعرف منه حقيقة ما يظن أنه حدث في تلك الليلة، ولكنه تهرب من الإجابة ورفض إخباري بأي تفاصيل، لماذا فعل ذلك من وجهة نظرك؟ لقد قلت في السابق إنه كان يأخذ شكواها بجدية شديدة؟ ما الداعي لكل هذه السرية في هذا التوقيت؟».

- حسنًا، إن الأمر كما كنت تقولين في السابق. (وهزَّ كتفيه) إنها جنازة زوجك، ربما كان يرغب في حمايتك.

- حمايتي.. أنا؟

تحوَّلَ اللون الأحمر في وجهها من الدرجة الموحية بالحزن إلى الدرجة الموحية بالغضب.

- الأمر لا يخصني، الأمر يخص كاميرون، اليوم هو يوم جنازته، والكل يرقص حول جثته، ويرغب في الحفاظ على صورته البراقة دون مساس، يطالبني الجميع بألا أتحدث عن خطة بوب، ألا ألمس لوحة كاميرون، وألا أتحدث عن... (ثم سكتت وأطرقت برأسها إلى الأسفل) أنا آسفة، لقد كان اليوم شديد الصعوبة بالنسبة إليّ.

- أعرف هذا، اليوم كان شديد الصعوبة بالنسبة إلى الجميع. أخذت نفسًا عميقًا.

- حسنًا، تجاهل كل ما أقوله، يمكنك الانصراف متى أردت ذلك.

- إلسي، الأمر ليس كذلك.

- أنا أعلم. (وأشاحت برأسها) أستطيع أن أفهم ما يحدث، لا عليك.

ثم أشارت بيدها ناحية الخارج. وتابعت: «أعتقد أنه من الأفضل بالنسبة إليك أن تكون في الخارج، يحب أن يراك الناس ويتعرفوا عليك مرة أخرى».

- طلب مني هاري أن أفعل ذلك، هو الآخر.

- نعم، يجب عليك أن تستمع إلى نصيحته.

ثم سكتت لبعض الوقت.

- من يعلم ما الذي يحدث في الخارج، ربما يكون هناك صديق قديم موجود بين هؤلاء الأشخاص الموجودين يبحث عنك ويرغب في لقاءك.

- هل تقصدين ميلاني؟

- هل هذا اسمها؟

- أعتقد ذلك، فأنا لا أتذكر أنني كنت أعرفها من قبل.

- ولكن هي تتذكر بشكل واضح.

ابتسم ناثان وهز كتفه في تباه: «حسنًا، ومن يمكنه أن يلومها».

فبادلته إلسي الابتسامة على مضض.

أزاح ناثان مقعده جانبًا وهو يقول: «على الأرجح، إنني يجب أن أعود على الفور، وإلا سيلاحظ هاري وزاندار غيايبي ويبدأ بتداول الأقاويل نفسها بهذا الشأن».

قالت: «حسنًا، أتمنى لك الحظ السعيد في ذلك، وإن لم تكن في حاجة إلى الحظ كما يظن الجميع».

- ربما لست في حاجة إلى الحظ ولكن... (سمع صوت ضوضاء مرتفعة على الجانب الآخر من باب حجرة المكتب) الأمر كما قلت من قبل، لم أرَ معظم هؤلاء الأشخاص منذ أعوام عديدة، ولا أتذكر إن كنت أعرفهم من البداية أم أنهم غرباء عني تمامًا. ربما كان في استطاعتهم مسامحتي على ما فعلت من قبل في الماضي، ربما كان من الأفضل أن أبدأ أنا بمسامحتهم على ما ارتكبهه بحقي كبداية، لقد مرت عشر سنوات كاملة، لقد عانى زاندار غيايبي، وتدهورت أحوال ماشيتي وألقى أحدهم السم إلى كلبتي وقتلها.

رفعت إلسي نظرها إليه في دهشة: «هل هذا حقيقي؟ إنَّا فقد ماتت كيلبي بهذه الطريقة البشعة، لم أكن أعرف».

قال ناثان: «نعم، هذا ما حدث، ولكن لم يصدقني أحد».

- لماذا؟

- لأنني لم أكن في موضع يسمح بتوجيه الاتهام إلى أحد، حتى إن جلين وزاندار ظنَّا أنني مصاب بجنون الارتياب.

أخذت إلسي تتأرجح في مقعدها لبعض الوقت ثم سألته: «هل يمكنك أن تتذكر متى وقعت هذه الحادثة؟».

- منذ ثمانية عشر شهرًا.
- هل كنت تعلم أن بوب تعرض إلى العض من قبل حيوان الدينغو في هذا الوقت تقريبًا.

- حقًا، هل هذا صحيح؟

- نعم، كان بوب يصطاد حيوانات الدينغو البرية من أجل الحصول على أموال المكافأة، كانت لديه رغبة في الانتقال إلى مكان آخر ويرغب في توفير بعض المال ليساعده على ذلك، ولكن كاميرون طلب منه ألا يُجري عمليات الصيد ووضع الفخاخ المسممة، بالقرب من المزرعة وقطيع الماشية الخاص بها، وقد امتثل لأوامره. ولكنه كان يعود دائمًا ورؤوس الدينغو تتدلى من خطافه، لا بد من أنه كان يصطاد في مكان آخر.

ثم توقفت عن الحديث.

- كنت أظن أن كام أخبرك بذلك.

- لا، لم يخبرني كاميرون شيئًا من هذا القبيل.

مرت لحظات ثقيلة من الصمت شعر خلالها نااثان بأن عضلات ظهره ورقبته تمر بحالة عنيفة من التشنج، والدم يتصاعد في رأسه بسرعة عالية.

- سوف أصاب بالجنون، يمكنني أن أفقد عقلي لو كان هذا الأمر حقيقيًا.

نظرت إليه إلسي وهزت رأسها ببطء: «لا.. لا أظن أنه أقدم على مثل هذا

الفعل، أعتذر إليك يا نااثان».

- وهل ستخبريني أن كاميرون نسي أن يخبرني عما يفعله بوب، دون قصد.

- لا، لم أكن لأقول شيئًا مثل هذا.

- فعلاً؟

أضافت في خجل: «في الحقيقة، أتوقع أن كاميرون تعمّد أن يخفي عنك

هذا الأمر تحديداً، لسبب لا أعرفه».

واستطردت إلسي في الحديث بوضوح وحزم: «كان كامبيرون يتعامل معك بطريقة غريبة إلى حد ما، مما يدل على أنه لم ينس أن يخبرك عن هذا الأمر المهم من قبيل الصدفة».

لم يستطع ناثنان إيجاد إجابة تناسب ما قالته للتو.

اعتدلت إلسي في جلستها على المقعد. وتابعت: «ولكن يجب عليك أن تسمع ما سأقوله لك، يجب عليك أن لا تشعر بالغضب من أجل ما فعله بوب، فقد ندم على فعلته، فتوقف بشكل مفاجئ عن صيد حيوانات الدينغو وصنع الفخاخ المحشوة بالسم، من أجل القضاء عليها، دون أن يفصح عن سبب ذلك، لقد توقف عن إيذائها على نحوٍ فاجأ الجميع».

شعر ناثنان بالألم يمتد إلى كامل ظهره وعنقه، ونظر من النافذة باحثاً في الخارج عن بوب ولكنه لم يجده في أي مكان على مرمى بصره. كان السياج المقابل للقبر خالياً تماماً، لم يثق ناثنان بعثورته على الكلمات المناسبة لمثل هذا الموقف فظل صامتاً، ثم قال في النهاية: «يجب عليّ أن أنصرف».

قالت: «يمكنك أن تبقى إذا أردت».

- لا، أنا بخير، شكرًا على كل حال.

- ولكن...

- ولكن، ماذا؟

- أيًا كان رد الفعل الذي يخطر ببالك في تلك اللحظة، أرجو أن تؤجله قليلاً، انتظر حتى ينصرف هؤلاء الناس، ولا تفعل شيئاً في وجودهم.

وقف ناثنان عند الباب.

- أرجوك يا ناثنان، لا تفعل شيئاً الآن، أرجوك، من أجل خاطري.

خرج ناثنان من حجرة المكتب وأغلق الباب من خلفه ودافى تتبعه، انحنى إلى الأسفل فبدأت دافى بلعق وجهه. أخذ يفكر في اليوم الذي قتلت فيه كلبته كيلي. تذكر كيف كان هذا اليوم بداية النهاية في تواصله مع الآخرين بطرق متعددة، فمنذ هذا اليوم توقف عن استكمال إجراءات تجديد رخصة أسلحته النارية. وبدأ بإغلاق جهاز اللاسلكي لساعات طويلة، كما توقف نهائياً عن أن يجيب عن الاتصالات التليفونية الواردة، لدرجة أن هاري اضطر إلى أن يعطيه جهاز تعقب مرتبطاً بالقمر الصناعي وطلب منه أن يستخدمه بشكل يومي

ودون نقاش، منذ ذلك اليوم كان ظاهرياً في حالة جيدة، ولكنه لم يكن في حالة جيدة على الإطلاق.

يعرف الجميع أن ناثان لم يكن في حالة جيدة، وهو نفسه كان متأكداً من أنه منذ وفاة كيلبي وحالته النفسية متدهورة بشكل كامل، وأن قبضة يده لم تعد قوية مثلما كانت في الماضي. ظل يحاول الحفاظ على تماسكه لفترة طويلة، ولكن الأحوال تراجعت به شيئاً فشيئاً، وأصبح الأمر أكثر صعوبة حتى أصيب بالتعب واستسلم نهائياً.

استطاع ناثان أن يدرك ما يحدث له، ولكنه لم يستطع المقاومة، يوماً بعد يوم وساعة تلو الأخرى وهو ينهار بشكل تدريجي، لم ينهر ناثان دفعة واحدة، ولم ينهر برغبته ولكنه انزلق في نفق مظلم ولم يستطع العودة لما كان عليه من قبل.

وبينما حدث كل ذلك، كان شقيقاه الملعونان يعرفان سبب ما أصابه منذ البداية. عندما وصلت الأفكار بناثان إلى هذه النقطة، تحرك مسرعاً في الطريق المؤدي إلى خارج المنزل، متجهاً إلى الساحة الخارجية. لم يكن يملك طريقة لمواجهة كاميرون الملعون والثأر منه بعد وفاته، ولكن يمكنه البحث عن بوب وإيجاده والبدء من هناك.. ألقى نظره إلى الخلف، كان باب حجرة المكتب مغلقاً، كما تركه منذ لحظات قليلة، أخذ يفكر فيما قالته إلسي قبل أن يتركها ويخرج: «أرجوك يا ناثان، من أجل خاطري».

بدأ يتخيلها وهي ما تزال جالسة على المقعد خلف المكتب، وبدأت الأفكار تتدافع إلى رأسه مرة أخرى. أدرك ناثان أن إلسي فاجأته بدخولها إلى حجرة المكتب في ذلك الوقت، وأن إلسي تقضي ساعات من ليلتها في كل يوم داخل حجرة المكتب، تكتب الملاحظات وتدير الأعمال وتملاً دفتر اليوميات.

وفجأة، استطاع ناثان في تلك اللحظة أن يفهم معنى تلك الإشارات والمواعيد المكتوبة في نهاية كل صفحة من دفتر اليوميات. اعتقد ناثان طوال الفترة الماضية أن ليز هي من أرسلت هاري بجهاز التعقب المربوط بالقمر الصناعي من أجل متابعته، اعتقد أن ليز هي من طلبت من هاري أن يجعله كل ليلة يضغط على زر الإرسال.

لم يكن هناك سوى زرین للإرسال، أحدهما يرسل رسالة إلى المتلقي أنه بخير، والآخر يرسل رسالة أخرى تخبر المتلقي بأنه ليس بخير، وكان في كل

يوم طوال السنة الماضية يضغط على نفس الزر، كما طلب منه هاري وأخبره أنه لن يقبل أعذارًا.

كان ناثن يعتقد في داخله أن هذا الجهاز لا يراقبه أحد، فلم يسأله أحد في أي مناسبة عنه، ولكنه استمر في الضغط على الزر نفسه في كل ليلة بلا توقف كما طلب منه. كان يضغط الزر ليقول إنه بخير، ربما كان ناثن هو نفسه الشخص الوحيد الذي يتلقى الرسالة ولكن ذلك لا يهم، كانت الرسالة تشق طريقها عبر السماء إلى القمر الصناعي، ثم تعود وتشق طريقها في طريق العودة إلى الأرض حتى تصل إلى الطرف الآخر.

كان يُجري اتصالًا عبر آلاف الكيلومترات فقط حتى يطمئن أحدهم أنه بخير، وأنه ما زال على قيد الحياة، أدرك في تلك اللحظة وهو يقف خارج حجرة المكتب والسي تجلس في داخلها على الطرف الآخر، أنه لم يكن وحيدًا طوال الفترة الماضية، أدرك أنه لم يعد وحيدًا كما كان من قبل.

الفصل الثلاثون

وقف ناثنان أمام حجرة المكتب ينظر إلى الباب، وضع يده على المقبض وأخذ يتناقش مع عقله حول إمكانية عودته مرة أخرى إلى الداخل. لم يكن واثقًا بما ينبغي له أن يقوله لإلسي في حالة عودته، ربما كان عليه أن يشكرها، أو أن يفعل شيئًا من هذا القبيل.

ظل في مكانه مكبلاً بالتردد، حتى سمع صوت سعال مألوفًا إليه، قادمًا من الخلف، نظر ناثنان إلى الخلف، ثم رفع بصره إلى الأعلى، كانت ليز تقف عند مدخل غرفتها، وهي تتكئ على السلم حتى تستطيع أن تقف بشكل متوازن، ولا ترتدي شيئًا يحفظ قدميها العاريتين. تسمرت في مكانها برهة عندما رأت ناثنان في الأسفل، ثم قالت: «لقد أصبحت تشبه أباك في هذا الزي». كانت تنظر إليه بعينين غائمتين ولا تركزان بالقدر الكافي. تقدّم في اتجاهها.

- ما زال الجميع في المنزل، لم ينصرفوا بعد.
- أوه.. ظننت أن كل شيء قد انتهى.
- لا، لم ينتهِ بعد.
- أخذ ينظر إليها وهو يفكر في نوع العقار الطبي الذي منحها إياه ستيف حتى تحافظ على هدوئها.
- ربما يمكنك أن تعودى للنوم مرة أخرى.
- لا أستطيع أن أفعل ذلك، كلما أغمضت عينيّ أفكر في كاميرون، وكلما فتحت عيني أفكر في كاميرون أيضًا، أشعر أنني سوف ألق الحق به.

في نفس الوقت كان هناك شخص ما، يمر عبر نهاية الطرف الآخر من الممر، امتد ظل الشخص أمامه لمسافة كبيرة قبل أن يظهر وجهه، إنه توم الكبير. وبمجرد أن رأى توم ليز رفع يديه مشيرًا إليها بالتحية.

قالت ليز: «يجب عليّ أن أخرج وألقي التحية على الحاضرين». ولكنها لم تتحرك من مكانها.

- لا أظن أن أحدهم سوف يشعر بالضيق لو لم تخرجي إليهم.

- سوف يشعر كاميرون بالضيق لو لم أفعل.

نظرت ليز في اتجاهه وعلى نحو مفاجئ أصبحت عيناها صافيتين.

- هل تحدثت إلى ستيف بعد؟ هل حددت موعدًا في العيادة؟

- ليس بعد.

- ولكنك وعدتني يا ناتان.

أمسكت ليز بذراعه، وشعر بأصابعها تعصره بقوة مفاجئة.

- نعم لقد وعدتك، وسأنفذ وعدي.

- حسنًا، دعنا نتحدث إليه الآن و...

- جدتي...

كان زاندار يقف في نهاية الممر بصحبة الفتاة التي رآها ناتان تتحدث معه سابقًا في الخارج. أمسك زاندار مرفق الفتاة برفق وقال لها: «سوف ألق بك بعد دقائق قليلة».

ظهر على وجه الفتاة بعض الإحباط، ولكنها أومأت برأسها في علامة على الموافقة، وغادرت.

نظر ناتان إلى جدته وسألها: «هل أنت بخير يا جدتي؟».

- نعم، نحن نبحت عن ستيف.

- إنه بالخارج.

سأله ناتان: «وأين بوب؟ هل هو بالخارج أيضًا؟».

كانت مجموعة من الأسئلة والعبارات تتكون داخل عقل ناتان حول ما حدث للكلبة كيلي.

قال زاندار على نحو يحمل بعض علامات التردد: «لا، كان مخمورًا بقدر بسيط، فاضطر العم هاري إلى أن يصحبه إلى المنزل».

قالت ليز: «هيا لنبحث عن ستيف يا ناثن».

قال زاندار وهو يشعر بالقليل من الإحراج: «جدتي، أنتِ لا تنتعلين حذاءك».

شعر ناثن أن زاندار يلومه على الحالة التي كانت فيها جدته لسبب ما.

قالت ليز وهي تنظر إلى الأسفل وكأنها تبحث عن حذائها في الأنحاء لعلها تجده: «أوه، لم أكن أشعر بذلك».

قال ناثن: «لا بد من أن الحذاء الخاص بك في غرفة النوم، من فضلك يا زاندار ساعد جدتك، بينما أذهب إلى الخارج وأبحث عن ستيف».

سأله زاندار: «هل ستحدث معه بالفعل؟».

بينما تركتهما ليز متجهةً إلى حجرتها، انتظر زاندار حتى ابتعدت، وقال: «أم أنك تقول هذا حتى تسكتها؟».

- لا، سوف أتحدث إليه بالفعل، هل هذا كافٍ بالنسبة إليك؟
نظر إليه زاندار: «لا، ليس كافيًا في الحقيقة».

تنهَّد ناثن. فسأله زاندار: «هل فكرت فيما قلته لك؟».

- في ماذا يا صديقي؟
- في الانتقال من هنا؟
- لا، لم أفكر بعد.

- لن أستطيع أن أمكث هنا كثيرًا، ربما أرحل خلال ثلاثة أيام، لست واثقًا بالتوقيت الذي سأرحل فيه، ولا أريد أن تخدعني بالموافقة، ثم تعود لنمط حياتك المعتاد بعد أن أرحل مباشرة.

- لن أخدعك في شيء.
- إنك مخادع، اللعنة...

صدر صوت خافت من غرفة النوم، وكأنه حذاء يُلْقَى على الأرض فرفع الاثنان بصرهما إلى الأعلى، وتعلقت عينا ناثن بباب غرفة النوم.

- سوف أذهب إليها.

أوقفه زاندار قائلاً: «يا صديقي، من الأفضل أن تتخذ القرار السليم». ثم انصرف زاندار، وترك نااثان واقفاً في مكانه لعدة لحظات يفكر فيما حدث.

اكتشف نااثان أنه أب محظوظ فلسنوات عديدة ماضية، لم يُعِره زاندار اهتماماً، ولم يمنحه لحظة تعاطف أو مشاركة.

كان زاندار فتى جميلاً وتلميذاً مجتهداً يتعامل بأدب مع من هم أكبر منه، لم يكن يشرب الخمر أو يتعاطى المخدرات، على حد معلومات نااثان. كان طيب القلب بشكل فطري فاجأ نااثان نفسه، فهو لا يشبه أمه جاكى على الإطلاق، ربما كان الصبي يتعامل معه بعنف ولكنه عنف نابع من طيبة قلبه ورغبته في حمايته. ما زال نااثان يتذكر ما حدث منذ ستة عشر عاماً، عندما جاءت جاكى لتخبره بأنها حامل، كانت عيناها تلمعان بالدموع وحاول كلاهما لفترة طويلة من الوقت التظاهر بأن زواجهما على ما يرام وليس واقفاً على أرضية هشة توشك على الانهيار.

في هذه اللحظة سمع نااثان صوت الماء يندفع من الحمام الصغير في نهاية الممر، ما زالت أصوات الثرثرة تتصاعد من غرفة المعيشة، ولكنها أقل حدة، شعر بأن اليوم أوشك على نهايته، وأن الحاضرين قد أوشكوا على الانصراف. كانت هناك صينية تحتوي بعض الشطائر موضوعة بإهمال على المنضدة قرب الهاتف، ويبدو أنها قد تتعرض إلى السقوط فحملها إلى المطبخ.

لم تكن جاكى تبتسم طوال فترة حملها، فقد كان حملاً صعباً، كانت تعاني في الصباح الغثيان الحاد وتقيأ خلال اليوم، ولا يمكنها أن تأكل بشكل جيد إلا الأرز الأبيض المسلوق، وفقدت خلال فترة الحمل أغلب وزنها. كانت تجلس طوال اليوم فوق الأريكة وهي تضع دلوًا بجانبها وتشيح بيدها في غضب كلما أعطاها نااثان شيئاً يظن أنه قد يخفف عنها.

بينما كان نااثان يمر بجوار الحمام، سمع صوت المزلاج يتحرك وفتح الباب، كانت كاتي في الداخل نظر إليها، كان وجهها شاحباً وتمسك بكتلة من المناديل الورقية في يدها. سألتها وهو ينقل نظره بينها وبين الصينية التي تحمل الشطائر: «كيف حالك؟ هل أنت بخير؟».

تجشأت كاتي بطريقة لم يرَ مثلها منذ ستة عشر عامًا، فزفر ناثن بصوت واضح: «أوه».

وتبادل كلُّ منهما النظر إلى الآخر لدقيقة لكنها مرت وكأنها فترة طويلة. أدرك ناثن من النظرة التي ظهرت في عينيها بأن تخمينه صحيح. فقال: «تهانينا؟».

لم تُجِب كاتي على الفور، واهتمت بمسح شفاهها بالمنديل الورقي. قال ناثن: «يجب أن تذهبي لترتاحي، سوف أحضر سايمون حتى يعتني بك».

ردت في سرعة وتوتر: «لا».

ومدت يدها وأمسكت بيده حتى تمنعه من الذهاب، أحكمت قبضتها حول معصمه بقوة حتى كاد يتألم.

- لا تذهب لإحضار سايمون.

- ولمَ لا أحضره؟

لبرهة حاول ناثن أن يقنع نفسه أن هذا الجنين ربما يخص بوب أو حتى هاري، ولكنه استبعد الفكرة تمامًا وسألها في النهاية: «هل هو كاميرون؟». فأومأت برأسها.

- هل أنت متأكدة من ذلك؟

- نعم.

- ألا يمكن أن يكون سايمون؟ هذا احتمال وارد، أليس كذلك؟

أجابت والرعشة تسري فوق شفتيها: «لم أعد على توافق مع سايمون منذ فترة طويلة».

وتسرب خيط طويل من العرق فوق جبهتها.

- هل كان كاميرون يعرف بشأن الحمل؟

- نعم.

لاحظ ناثن أن الحشد يتحرك داخل غرفة الاستقبال، وأن الأصوات المختلطة ترتفع وتنخفض دون نمط معين فنظر إليهم لبعض الوقت ولاحظ ظلال رؤوسهم السوداء وهي تتبادل أماكن الوقوف.

ثم سألتها في النهاية: «هل ترغبين في الحديث مع الممرض ستيف؟». هزت رأسها بالنفي، فعاد ليسألها: «هل ترغبين في الحديث مع شخص آخر».

ابتسمت ابتسامة ساخرة ولكنها متعبة، وقالت: «شخص آخر؟ من هو الشخص الآخر الذي أستطيع أن أتحدث معه، لا يوجد شخص آخر يمكن الحديث معه في هذا الأمر، لا يوجد أحد».

شعر ناتان ببعض التردد ثم أمسك بذراع كاتي برفق وسحبها إلى حجرة الاستقبال. ثم توجه إلى حجرة زاندار وطلب منها أن تدخل ثم فتح الباب.

- ادخلي إلى هنا وأخبريني بكل شيء.

جلست كاتي على الفراش، وقف ناتان مستندًا إلى الحائط في انتظار أن تبدأ حكايتها، بينما كانت تمسح بيديها على غطاء الفراش الوردي الناعم. ثم فتحت فمها أخيرًا وبدأت بالحديث: «إن سايمون غارق في الديون، فقد كان يعمل في وطننا في مجال السباكة، كنت أعرف أن أعماله لا تسير على نحو جيد، ولكن الأمور كانت أصعب مما توقعت، وأسوأ بكثير مما حكى لي، إنه مدين بمبالغ طائلة من المال لعدد كبير من الأشخاص، ولا أعرف كيف يمكنه التصرف لحل تلك الأزمة. (ثم هزت رأسها في حالة من الخزي والإحباط) الخلاصة، إننا في حاجة شديدة إلى المال، أو إنه في حاجة شديدة إلى المال على كل حال...».

- أكملني.

- لم أكن أرغب في المجيء إلى هنا والالتحاق بهذا العمل.

مررت كاتي يدها مرة أخرى على النسيج الناعم لملاء الفراش، قبل أن تقول: «أعتذر إليك، فأنا أشعر بالوحدة الشديدة مؤخرًا، الأمر أننا لم نكن نملك شيئًا في الوطن، ولكنني كنت أرغب في العودة وسایمون كان يرفض دائمًا، كان يخبرني أنه من الواجب علينا أن ندخر أكبر قدر ممكن من المال، حتى نستطيع أن نعود إلى الوطن ونحن نملك ما يمكننا أن ندبر به أمور حياتنا».

سكتت عن الكلام قليلًا، ثم أضافت: «لا أدري إن كان هذا صحيحًا أم لا، لا أدري إن كان يجب عليّ أن أثق به بعد الآن، لقد أصابتنى الحيرة».

- حسنًا، إذًا فقد التحقت بالعمل في هذه المزرعة بناءً على رغبة سايمون؟

- نعم، هذا صحيح، لقد قابلنا كامبيرون في حانة بالمدينة كما أخبرتك من قبل ولكن...

ثم توقفت عن الحديث ونظرت في اتجاه الأرض، وهي تمرر يدها على المفروش الناعم.

- متأسفة، أعلم أنه شقيقك، ولكنني لم أكن أظن أنه شخص جيد.
- وما الذي دفعك إلى ذلك الظن؟
- مجرد انطباع...

ثم قالت بنظرة عابسة: «لقد استأجر سايمون في البداية ليساعده في أعمال المزرعة، ثم نظر إليّ بطريقة معينة أدركت من خلالها أنه يعرف بأني لست مدرسة في حقيقة الأمر»، ثم رفعت بصرها إليه، «وقد أخبرت كامبيرون عندها بحقيقتي ولم يمانع».

ثم أضافت: «غضب سايمون في البداية وأخبرني بأنه كان من الواجب عليّ أن أكذب حتى أضمن الحصول على الوظيفة».

وأضافت كاتي: «لم يمانع كامبيرون على الإطلاق، قال إن الوظيفة بسيطة وإنه يرغب في الحصول على أي قدر من المساعدة فيما يخص بنتيه، وطلب مني أن أخبر الجميع وخصوصاً زوجته أنني مؤهلة لشغل الوظيفة، وأضاف بأن الحصول على عمالة جيدة أمر عسير للغاية».

ضمت كاتي قبضة يدها في غضب وهي تقول: «ولذلك أصبحت مدينة له بخدمة، حتى من قبل أن أباشر العمل».

بدأ ناثان يفكر في أخيه وفي الأسباب التي دفعته إلى إجراء ذلك الفعل، هل كان يفكر في استغلالهما بطريقة غير واضحة؟ ثم قال: «لن يجد كامبيرون صعوبة في دفعك على رد الخدمة في الوقت المناسب».

- كان سايمون في حاجة شديدة إلى المال، وقد عرض علينا كامبيرون أجرًا كبيرًا في مقابل خدماتنا، كان الأجر أكبر مما كنا نتقاضى من قبل، كما كان يعطينا أموالاً إضافية مقابل النفقات اليومية، لذلك وافقنا على الفور، حسنًا، كنت أعتقد... كنت أعتقد أنها مزرعة عائلية وبوجود زوجته بالجوار وبنتيه تلعبان في كل مكان، سيكون كل شيء على ما يرام، وقد استمرت الأحوال جيدة لمدة ثلاثة أسابيع، وهي مدة كبيرة بالنسبة إلى المخاوف التي كانت تنمو بداخلي منذ جئت إلى المزرعة.

عبس ناثان: «وما الذي حدث بعد ذلك؟ هل حاول كامبيرون أن يتقرب منك؟».

- لا، لم يحاول أن يفرض نفسه بشكل فج، كان دائماً ذكياً فيما يفعله.
ثم أضافت: «كان يسألني العديد من الأسئلة ويطمئن على أحوالي، وكان يستمع إليّ باهتمام ورغبة واضحة في المشاركة، لدرجة أنني بدأت أتساءل إن كان انطباعي الأول عنه خاطئاً في البداية، ولكنه بعد مرور بعض الوقت أصبح يعرف عني كل شيء. أصبح يعرف الأشياء التي أحبها، الأشياء التي تشعرني بالسعادة، وأصبح يعرف نقاط الضعف في شخصيتي والأشياء التي تجعلني حزينة مثل الحنين إلى الوطن. كنت أجد نفسي بصحبته في كثير من الأوقات، لم يكن يحدث بيننا ما يسوء ولكنني كنت أجد ذلك غريباً بعض الشيء، لأنه كان دائماً ما يجد سبباً يبرر وجودي معه بمفردنا».

- وهل أخبرت أحداً بذلك؟

- سايمون، كان من الضروري أن أخبر سايمون ولكن سايمون...

- نعم، كان سايمون في حاجة ماسة إلى المال، أستطيع أن أدرك هذا.

- طلب مني سايمون أن أتعامل مع كامبيرون باحترافية، وأن أحاول ألا أقضي كثيراً من الوقت بصحبته، ولكنه كان يرى أنه لم يحدث ما يستدعي القلق.

صمتت كاتي لبعض الوقت.

- لقد حدثت لنا مشكلة فادحة في المكان الذي كنا نعمل فيه سابقاً، لقد كانت أسوأ مما حدث هنا في هذه المزرعة، فقد حاول شخص ما الاعتداء عليّ وعندما منعته وتدخل سايمون طردونا، لذلك فضل سايمون أن نُبقي الأمور هادئة في هذه المرة، لم تكن هناك مشكلة فيما يفعله كامبيرون من وجهة نظره، وأنا لم أستطيع أن أشرح له مخاوفي فتوقفت عن أن أحكي له ما يحدث وتوقف هو عن السؤال.
- حسناً.

- بدأ كامبيرون بعد ذلك بمغازلتي، يطلق النكات، والتعليقات الجنسية كما تعلم، عندما كنت أبدي الضيق مما يحدث كان يتصرف على نحو مفاجئ وكانني يجب أن أوافق على ما يفعله وأن أرى ذلك طبيعياً يمكن حدوثه بيننا.

ثم أضافت: «ولكن ذلك لم يكن طبيعياً ولم يكن من المفترض أن يحدث بيننا».

وبدأت كاتي تمسح بأصابعها على غطاء الفراش مرة أخرى. وتابعت: «كما أنني فتاة وحيدة على مسافة كبيرة من المنزل ومن السهل استغلالها، مثل العديد من العمال المتنقلين، إنهم يعيشون في ظروف صعبة ويبحثون عن المال ولا يعرفون لمن يلجؤون ويقدمون شكواهم، عندما يقع الضرر عليهم».

كان كاميرون يعلم كل ذلك، وناثان يعلم ذلك أيضاً وقد مارس الحب مع فتاة من هؤلاء العمال المتنقلين، منذ سنوات عديدة في تلك الليلة بالخلاء، واستمتع كما يستمتع الكثير من سكان المدينة بهذه العلاقات العابرة التي تمنحها له طبيعة حياتهم.

قالت كاتي: «عندما أخبرت كاميرون بأنني غير مهتمة، أخذ يضحك وكأنني ألقي عليه نكتة جيدة، أو كأنني كنت أمثل دوراً لا يليق بي، وتصرف بطريقة توحى بأنني كنت أعرف نهاية الأمر منذ اللحظة الأولى، ولا يجب أن أتراجع بعد كل ما حدث».

تذكّر ناثان تلك الليلة في المخيم وكيف اشتعلت العلاقات بين الشباب والفتيات، على ضوء نيران الأمسية الملتهبة وزجاجات الخمر فظهر عدد لا نهائي من الفرص والاحتمالات للحصول على بعض المتعة.

قالت كاتي وهي تكمل حديثها: «لقد طلبت من سايمون أن نرحل. ولكنه رفض، فكرت في أن أترك المزرعة وأرحل بمفردي، ولكن ذلك كان مستحيلاً فكل شيء كان يخصه حتى السيارة التي تنتقل بها، لم يكن من السهل عليّ أن أتركه فنحن على علاقة منذ ثلاث سنوات وهو يحبني حباً كبيراً. كل ما في الأمر أنه لم يدرك طبيعة الموقف، كان يظن أن كاميرون مديرٌ جيدٌ وأنه يجاملني ويحاول أن يكون لطيفاً، لا شيء أكثر من هذا، ويجب عليّ أن أتقبل الأمر ببساطة».

هزت كاتي رأسها وهي تضيف: «كان الأمر صعباً للغاية، كاميرون أصبح محيطاً بي طوال الوقت، ويلقي الدعابات والنكات الجنسية بغزارة، ثم أصيب بالإحباط عندما وجد أنها لا تجدي نفعاً، شعرت بأنه ندم على أنه عرض علينا هذه الوظيفة، وشعرت بأنه لن يستمر في تنفيذ الجزء الخاص به من الاتفاق وسوف يطلب منا الرحيل».

قال ناثان لنفسه: لقد رأيت مثل هذا الموقف من قبل.

لم يكن الموقف مشابهًا تمامًا لما حدث تلك الليلة في المخيم قرب النيران المشتعلة، ولكن كانت هناك توقعات مرتفعة وقبلات متبادلة وزجاجات من الخمر في كل يد، لا لم يكن مشابهًا تمامًا، كانت نسخة أقل حدة، وأكثر نضجًا حول النار في تلك الحفلة وسط الصحراء، ولكنها تشبه ما تحكي عنه كاتي إلى حد كبير، فتاة عابرة ومحاولات للمغازلة وضحكات تختلط بتلميحات جنسية، وبعد مرور عدة ساعات تنشأ علاقة بين الشاب والفتاة وتزداد التوقعات حول ما يمكن أن يحدث في نهاية الليلة.

قال ناثان: «لقد رأيت مثل هذا الموقف من قبل. أنا آسف».

لم يكن ناثان واثقًا في السبب الذي يعتذر من أجله، رفعت كاتي رأسها فكانت الدموع تنهمر من عينيها.

- كنت حزينة ومجهددة وأشعر بالوحدة، تبعدني آلاف الكيلومترات عن مدينتي وعن كل الأشخاص الذين من الممكن أن ألبأ إليهم، كنت في أضعف حالاتي وكل من حولي يريد أن يستغلني في الحصول على شيء ما.

توقفت قليلًا عن الحديث، ثم قالت: «كان سايمون يريدني أن أبقى كاميرون سعيدًا حتى نحتفظ بالوظيفة، وكان كاميرون يريد أن يحصل على شيء في مقابل استمرار وجودنا في المزرعة، وفي النهاية».

وبعد برهة من السكوت، مسحت بمؤخرة يدها فوق عينيها وأضافت: «وفي النهاية، وجدت أن الموافقة على تحقيق رغبته سوف تكون أسهل كثيرًا من الرفض، وسمحت له أن ينفذ رغبته، ويمارس الحب معي، مارسناه في حجرة الدرس المخصصة لبنتيه، مارسناه ست مرات كونه عددًا إجمالياً».

ساد الصمت في داخل الغرفة لبعض الوقت ولم يسمع ناثان خلال الصمت إلا أصواتًا متقطعة تأتي من الخارج.

قال ناثان مرة أخرى: «أنا آسف».

كان متأكدًا من أنه يقصد كاتي بحديثه في هذه المرة.

ضمت كتفيها وقالت بصوت متقطع: «لماذا تعتذر؟ إنه ليس خطأك، أنا الشخص الذي يجب أن يلام على ما حدث فقد سلمت نفسي بسهولة».

ثم أضافت: «هل تعلم أن بعد كل هذا لم يتحسن الوضع بالنسبة إليّ، كان كامبيرون في كل مرة بعد ممارسة الحب يشعر بالخجل ويلومني على ما يحدث، ولكنه لا يكتفي منه على الرغم من ذلك. فبمجرد مرور فترة قصيرة يعود لطلب المزيد، كانت مشاعره غريبة تجاه الأمر، ولكن ذلك لم يمنعه من ممارسته، ولم يساعدني ذلك على أن أتوقف عن الشعور بالذنب والعار، توقعت أن يتوقف لكنه لم يفعل حتى بدأ يشعر بالسوء بسبب تطور حالتي وازداد نفورًا وتعاسة».

- متى أخبرته بأمر حملك؟

- بمجرد أن عرفت بأمر الحمل، كان ذلك من أسبوعين قبل...

ابتلعت ريقها في صعوبة ثم أكملت الحديث: «قبل وفاته، شعر كامبيرون بغضب شديد وطلب مني أن أتخلص من هذا الجنين، وقد وافقت على ذلك، فلم أكن أريد الحصول على طفل منه، وافقت على الفور، كان هذا هو الموضوع الذي تحدثنا بشأنه في صباح اليوم الذي فُقد فيه قبل أن يرحل مباشرة إلى تل ليمان، لقد أخبرني أنه حجز لي ميعادًا في أحد المراكز الطبية في المدينة في بداية الأسبوع القادم».

بدأت الدموع تجف وأصبحت عيناها صافيتين على نحو مفاجئ. وتابعت: «لذلك أنا واثقة، من أنه كان يخطط للعودة إلى المزرعة مرة أخرى، فقد كان حريصًا على أن أذهب إلى المركز الطبي، وكان يعلم برغبتني في أن أتخلص من الجنين على كل حال، لو كان يخطط لأن يؤذي نفسه بأي شكل من الأشكال، ما الذي دفعه إلى الاهتمام بسؤالني في ذلك الصباح؟».

قال ناثان لنفسه: هذا سؤال جيد.

وعاد ليسألها: «هل كان يقصد المركز الطبي الموجود في سانت هيلين؟».

- نعم، إنه هو.

- وكان يخطط أن يحجز لك مكانًا للإقامة هناك؟

- نعم، كان من المفترض ليلتان في أحد الفنادق هناك.

- واتصل كامبيرون بالفندق ليرتب إقامتك؟

أومأت برأسها بالإيجاب.

استعاد ناثان مشهد فاتورة الهاتف والمكالمات اللتين كانتا لسانت هيلين قبل وفاة كاميرون بأسبوعين.

سألها ناثان: «هل أنت متأكدة من أن سايمون لا يعرف شيئاً حول هذا الموضوع؟».

- لا، لم يعرف بعد. (ثم مسحت شففتيها وأضافت) أتمنى ألا يعرف شيئاً في وقت قريب.

- وكيف ستخبرينه عن الموعد المحدد لك في المستشفى؟

- لا شيء، إنه شخص شديد الحساسية ولذلك لا يهتم بالتفاصيل، ولذلك سأخترع حجة غياب بسيطة، ولكنه ليس غيباً كذلك، لو اكتشف شيئاً عما حدث سوف ينهي علاقته بي على الفور.

فتح ناثان فمه ليقول تعليقاً ما، ولكنه أغلقه مرة أخرى واكتفى بالصمت.

ولكن ظهرت نظرة عابرة من اليأس والحزن على وجه كاتي فتشجع وسألها: «هل سيكون انفصالك عنه أمراً سيئاً لهذه الدرجة؟».

شعر ناثان بالاستهجان عندما نظرت إليه نظرة تحمل علامات المفاجأة كرد فعل على سؤاله.

- لماذا يبدو عليك المفاجأة؟ أنت لا تدينين لسايمون بأي شيء.

- ربما من وجهة نظرك، ولكننا مرتبطان منذ ثلاث سنوات، إنني أعتبر نفسي خطيبته.

منحها ابتسامة صغيرة وقال: «وهل هذا سيحدث فرقاً؟ بإمكان الناس أن تغير أفكارها في أي وقت، لقد كنت متزوجاً لفترة أولى من ذلك قبل أن تقرر زوجتي السابقة أن ترحل وتهجرني».

ثم أضاف: «وقد تحسنت أحوالها كثيراً بعد الانفصال، لم تكن أفضل حالاً معي، ولكنها أصبحت تشعر بالسعادة بعد الرحيل».

شعرت كاتي ببعض التردد قبل أن تجيب: «لا أعلم، ربما أفكر في الأمر».

دفع ناثان جسده إلى الأمام، وابتعد عن الحائط، وهو يقول: «لا تشغلي بالك بأمر العمل في المزرعة في الفترة القادمة، نستطيع أن نتدبر أمورنا بشكل جيد حتى تشعري بالتحسن».

- يجب عليّ أن أشكرك على الاستماع إليّ بهذه الطريقة، لا أعرف كيف حدثت كل هذه التطورات في تلك الفترة القصيرة، كنت مشوشة ووحيدة وأشعر بالحزن، أشكرك مرة أخرى لأنك صدقت حكايتي.

ربما لم يكن ناثان قد صدق قصتها بالكامل، فقد شعر في قرارة نفسه أن أصدق جزء فيما سمعه هو الحوار الذي دار بينهما في الخارج قبل الدخول إلى حجرة نوم زاندار، شعر ناثان أن عليه أن ينتبه بشكل أكبر إلى الإشارات المحيطة به ويتعلم الاعتماد على حدسه أكثر مما يفعل، فقد جاءت الكثير من الإشارات في الفترة الماضية ولكنه لم يكن منتبهاً إليها، ربما لن يمكنه تعويض ما فاتته، ولكن يمكنه أن يكون أكثر انتباهاً في المستقبل. لقد حان الوقت، يجب عليه أن يبدأ بالبحث عن ستيف.

الفصل الحادي والثلاثون

نظر ناثنان إلى ستيف نظرة تحمل معاني الجدية والحزم وهو يقول: «ما الذي تقصده يا صديقي؟ هل تعتقد أن كاميرون قد اغتصب تلك العاملة المتجولة، بعد أن قضى بصحبتهما الليل بطوله خلف الكتبان الرملية يشربان الخمر في تلك الحفلة؟».

رد ستيف بحزم أكبر وبنظرة ثابتة أجبرت ناثنان على أن يشيح بعينه بعيداً: «لا يا صديقي، بحق المسيح أنا لم أقل شيئاً كهذا».

وضع ناثنان راحة يده فوق رأسه ثم مرَّر أصابعه بين خصلات شعره وأخذ نفساً عميقاً، فشعر بالهواء يخرج ثقيلًا من صدره.

كان ستيف يقف في غرفة المعيشة فمدَّ ناثنان يده وجذبه من ذراعه، وهو يلمح ليز بطرف عينه، تتابع الموقف، وفي نظراتها بصيص من الأمل والشعور بالارتياح.

لم يترك ناثنان يد ستيف إلا بعد أن خرجا إلى الشرفة، ثم دارا حول جانب المنزل حيث يمكنهما تبادل الحديث في خصوصية وهدوء، قال ناثنان وهو يشعر بصعوبة شديدة في إجراء هذه المحادثة مع ستيف: «يجب أن تخبرني بحقيقة ما حدث في ذلك اليوم ولا تُخفِ عني شيئاً».

قال ستيف: «لا يمكنني أن أخبرك بذلك يا صديقي»، ثم رفع يده محاولاً إسكات ناثنان، «اسمع، يمكنني أن أخبرك بما قلته من قبل لإلسي، فلا أعتقد أن كليكما سألني نفس السؤال اليوم من قبيل المصادفة، على كل حال، أنا لا أعرف عما حدث في تلك الليلة أكثر مما تعرف أنت».

قال ناثنان بصوت محبط: «ولكنك في ذلك الوقت...».

- نعم، في ذلك الوقت كان لديّ رأي حول ما حدث، كما كان للجميع
أراؤهم.

- نعم، هذا ما أسألك عنه منذ البداية.

- حسنًا، ولكن يجب أن تفهم شيئًا...

- نعم، أنا أفهم، ادخل إلى صلب الموضوع.

أشاح ستيف ببصره، كان الضوء في هذه الفترة بعد الظهيرة عنيقًا، ولكن
كان بإمكانهما رؤية القبرين المجاورين لبعضهما بعضًا في ساحة المنزل،
قبر حديث وآخر قديم، نظر إليهما ستيف نظرة سريعة ثم لعق شفثيه بلسانه.

- كانت هناك كدمات خفيفة بين فخذَي جينا وأسفل مرفقها.

وأشار ستيف بيده إلى أسفل ذراعه في مكان الكدمات التي يحكي عنها،
ثم تابع: «ربما ليست لذلك دلالة مؤكدة، ولكنها بالتأكيد علامات مقاومة».

- هل تقصد أن الأمر تم دون موافقتها؟

- لا أقصد شيئًا، ولكن الأمر تم بشكل عنيف، هذا مؤكد.

ثم أضاف: «ربما كان كاميرون في هذا الوقت مجرد شاب أخرج عديم
الخبرة، ولذلك ترك بعض الآثار العنيفة على جسدها، لا يمكن حسم الشك من
تلك الناحية»، ثم لعق ستيف شفثيه مرة أخرى، «والشك في مثل هذه الأمور
يُصَبُّ بالقطع في صالح كاميرون».

انتظر ناثان أن يضيف ستيف شيئًا يبعث في نفسه بعض الارتياح، ولكن
الأخير لم يفعل، ثم بدأت الأصوات ترتفع مرة أخرى من أمام المنزل، حيث
خرج بعض الحضور في طريقهم إلى الرحيل.

نظر ناثان إلى ستيف: «وماذا حدث أيضًا في تلك الليلة؟».

- لا شيء، لقد جاءت إليّ ورَوَت القصة من وجهة نظرها.

نظر ستيف إلى المزيد من الأشخاص وهم في طريقهم إلى المغادرة،
توقف البعض منهم في الهواء الطلق بالخارج يحاولون أن يمنحوا أجسادهم
نصيبيًا من حرارة الشمس.

- صديقها، ذلك الفتى الإنجليزي ذو الجلد الناعم، هو من أقنعها بأن
تأتي إليّ وتبلغ بما حدث، اتفق الجميع أنه فعل ذلك بدافع من الغضب،
ولكن تلك لم تكن دوافعه من وجهة نظري، فقد كان قلقًا على سلامتها،

وكان حائزاً، لا يعرف كيف يتصرف في موقف مثل هذا، كان خائفاً إلى حد كبير. هذا الشاب كان يدرس علم النباتات أو شيئاً من هذا القبيل، لا أعرف على وجه التحديد. أتذكر أنه استمر في النظر إليّ برجفة من خلف نظاراته الزجاجية وكأنني قادر على أن أصلح كل شيء.

ثم ارتعش ستيف وهزَّ رأسه. وتابع: «على كل حال، طلبت منه الانتظار في الخارج حتى أنتهي من فحص جينا والحديث معها، ولذلك أنا متأكد من أن كل ما حكته لي في ذلك اليوم لم يكن بدافع الخوف منه، كما أنني أظن أنهما لم يكونا مرتبطين لفترة طويلة».

- وماذا قالت لك جينا؟

أجاب ستيف: «لكنك تعرف بالفعل، لقد سمعت بكل شيء مثلما سمع الجميع».

ثم تنهَّد قائلاً: «قالت إنها كانت مخمورة، وإنها كانت تقضي وقتاً جيداً بصحبة ذلك الفتى الصغير لأنها لم تكن تعرف أحداً من الموجودين في الحفلة، وخصوصاً أنها كانت تشعر بالغضب لأن صديقها فضّل البقاء في محطة الوقود ولم يأتِ بصحبته إلى الحفلة».

قال ناثان متعجباً: «هل كان كاميرون صغيراً إلى هذا الحد؟».

وبدأ يسترجع مظهر كاميرون وسنه الحقيقية في تلك الليلة.

- لقد أخبرتني أنها ظنت أن طفلاً صغيراً مثله لن يسبب لها الأذى بأي شكل من الأشكال وأنها ستقضي وقتاً لطيفاً بصحبته، وأنها فضلت صحبته لهذه الأسباب على وجه التحديد. وتجاهلت كل الموجودين في الحفل، أتذكر أنها قالت لي إنه بدا مسالماً ولا ضرر من تمضية بعض الوقت بصحبته.

زاد عدد الأشخاص المتجمعين أمام المنزل، واستطاع ناثان سماع صوت أبواب السيارات وهي تُفتَح ثم تنغلق وصوت محرك يدور، ولكن ذلك لم يصرف انتباهه عن ستيف والقصة التي يحكيها.

تحول صوت الممرض إلى الجدية وكأنه يلقي ملاحظة مهمة وشائكة: «ثم عرض كاميرون على جينا أن يوصلها إلى المدينة، كانت مخمورة وتشعر بالدوار، فوافقت على عرضه وتبعته في اتجاه السيارة، ولكنها أدركت بعد مرور القليل من الوقت أنها تتجه خلف الكتيبان الرملية في مكان مظلم ومنعزل

بصحته، بدأ كامبيرون بتقبيلها والتقرب إليها في محاولة لتعويض ما فاتته في المخيم أمام النار المشتعلة، أخبرته جينا أنها لا ترغب في الاستمرار وطلبت منه أن يتوقف»، نظر ستيف نظرة صارمة في اتجاه نااثان، «لم يرغب كامبيرون في التوقف، كان يبلغ من العمر وقتها سبعة عشر عامًا، وهو ما لا يجعل منه طفلًا على الأقل من الناحية الجسدية».

تذكّر نااثان في هذه اللحظة البقرة الصغيرة التي كان يرقد فوقها بجوار السياج الشائك، كانت تجاهد لإبعاده عنها، ولكنها فشلت، ونجح نااثان في السيطرة عليها عن طريق وضع ركبته في المكان المناسب ووضع مرفقه في مكان آخر وبقليل من الجهد لم تعد مقاومتها مجدية.

- ألم تستطع جينا أن تتخلص منه؟

- بصراحة، لقد أخبرتني أنها لم تحاول التخلص منه، لقد كانت تشعر بالدوار، كما أنها كانت بمفردها في العراء والظلام يحيط بها من كل اتجاه مع هذا الفتى الملح ذي الجسم الضخم، لقد أخبرتني بعدم مقاومتها له وهي تشعر بالعار والخزي الشديد ولكن هذا رد فعل طبيعي فالعديد من الأشخاص يعجزون عن المقاومة عند التعرض إلى موقف مشابه.

ثم نظر إلى نااثان وقال بثقة: «البعض يقرر في مثل هذه المواقف أن يستسلم حفاظًا على نفسه وحياته، والبعض يقرر أنه من الأفضل أن يجاري الشخص الذي يحاول أن يجبره على شيء لا يرغب في حدوثه من أجل سلامته الشخصية، إنها مجرد اختيارات محدودة لشخص ضعيف في مثل هذا الموقف».

هَزَّ رأسه وقال: «إن الأمر مثل الوقوع في فخ، لا يمكن الخلاص منه».

بدأ نااثان يفكر في حكاية كاتي التي قصتها عليه منذ دقائق قليلة، لقد أخبرته كاتي أنها وجدت أن الموافقة أسهل من الرفض.

نظر إليه ستيف قائلاً: «أنا آسف، أعلم أن هذه الأمور من الصعب عليك سماعها خصوصًا في يوم مثل هذا».

ارتفعت أصوات ضحكات محملة بالسرور والسعادة في الجوار يحملها النسيم الحار، نظر نااثان في اتجاه الحاضرين، حيث تزايدت أعدادهم خارج

المنزل بشكل ملحوظ، لمح ناثنان ميلاني تقف وشعرها الأحمر يتوهج تحت أشعة الشمس، نظرت ميلاني في اتجاهه ولوحت بيدها في مرح.

قالت ميلاني: «سوف أرحل، أتمنى أن أراك قريبًا».

وأشارت إلى سيارة لاند كروزر كبيرة الحجم بداخلها اثنان من سكان أثرتون، كانا قد ركبا بالفعل.

- لقد سعدت حقًا بلقائك يا ناثنان.

- وأنا سعدت بلقائك.

نظرت إليه مبتسمة مرة أخرى، فتذكر رؤيتها تمنحه نفس الابتسامة في الماضي، تساءل هل حضرت تلك الحفلة وشاركتهم المرح خلف الكتيبان الرملية في هذه الليلة البعيدة؟ ظل ناثنان يفكر في الأمر ولكنه لم يصل إلى نتيجة محددة، حتى لاحظ أنها ما زالت تنظر إليه فأطلق سعالًا خفيفًا، ثم قال لها: «نعم، يجب أن نتقابل في وقت قريب».

بدت السعادة واضحة على وجهها، ولوحت له مرة أخرى وتحركت في خفة في اتجاه السيارة ذات الدفع الرباعي وهي تقول: «أتمنى ذلك».

نظر ناثنان مرة أخرى إلى ستيف الذي كان يتابع الموقف في اهتمام حتى انصرفت الفتاة.

قال ستيف: «يجب عليك أن تعاود الاتصال بها، سوف تساعدك كثيرًا على تحسن حالاتك النفسية، لدرجة لن أستطيع أن أقدمها لك».

لوّح ناثنان بيده في حالة من نفاذ الصبر وقال: «لقد أخبرني الجميع بذلك». ثم قال: «حسنًا، لو كانت جينا خائفة من كاميرون إلى هذه الدرجة، ما الذي دفعها إلى السماح له بتوصيلها إلى المدينة بعد كل ما حدث؟».

- كم كانت تبلغ المسافة بين المدينة ومكان الحفلة؟

- قرابة اثني عشر كيلومترًا.

- هذه مسافة طويلة جدًا لتقطعها امرأة خائفة وحيدة مشيًا في ظلام الليل.

- نعم، ولكن كان من الممكن أن تطلب من أي شخص أن يقلها إلى المدينة بدلًا من كاميرون.

- هذا صحيح، ولكنها لم تكن تعرف أي شخص من الموجودين في الحفلة.

لم يتفوه نااثان بكلمة واحدة وتذكَّر أن جينا لم تكن تعرف أحدًا من الموجودين في الحفلة بالفعل سوى جاكى التي رحلت بصحبته في وقت مبكر وتركتها وحيدة، وبدأ يتخيل الوقت الطويل الذي قضته في سيارة كاميرون في الطريق إلى المدينة حيث تركها كما أفاد روب صاحب الحانة في شهادته لاحقًا.

قال نااثان بعد فترة من التفكير: «لقد شهد روب صاحب الحانة أنه رآها تُقبِّله عندما وصلا إلى المدينة».

- هل شهد بذلك، أم أنه رأى كاميرون يُقبِّل جينا التي منعها الخوف من أن ترفض حتى يسمح لها بمغادرة السيارة في سلام؟
كان التركيز والصرامة ظاهرين في ملامح ستيف ونظرة عينيه.

- اللعنة يا ستيف، بحق المسيح، كيف يمكن أن يحدد المرء شيئًا مثل هذا؟

- لا يمكن التأكد من صحة هذه الرواية، لا يمكنك أن تجزم بأن جينا صادقة ولا يمكنني أن أكون متأكدًا من حقيقة روايتها عما حدث، لم يكن روب وهو ينظر من نافذة الحانة يستطيع أن يلاحظ شيئًا مختلفًا عما شهد به أمام الجميع، إنها مجرد رواية مختلفة للحادثة نفسها، كما قلت لك يا صديقي، وهذا أفضل ما يمكنني أن أقدمه لك.

في هذه اللحظة استطاع نااثان أن يرى هاري، كان يقف وسط الحشد بجوار ليز التي تتعلق في ذراعه، كما يتعلق الغريق بقارب النجاة، وهو يسحبها من يدها لتودع الحضور وتعانقهم، يودعها الجميع ويقدم لها التحية في تعاطف وإجلال شديد.

لمح هاري نظرات نااثان القادمة من مسافة بعيدة، فأومأ برأسه إليه ولكن نااثان تجاهل إشارته تمامًا بشكل متعمد. ثم عاد ينظر إلى ستيف قائلاً: «لماذا استغرقت جينا كل هذا الوقت قبل أن تبلغ عما حدث؟».

شعر نااثان ببعض الغرابة من النبوة الدفاعية التي ظهرت في صوته وهو يطرح هذا السؤال.

- كانت تحاول أن تتظاهر أن كل شيء بخير، حتى توفر على نفسها عناء ما سيحدث في المستقبل.

كاد ستيف يبتسم وهو يقول عبارته، ولكنه تمكن من منع نفسه من ذلك. قال ناثان بلهجة مُلحة: «وما الذي كانت تخشاه إلى هذه الدرجة؟». قال ستيف: «كانت تخشى أن يُبدي الناس رد الفعل نفسه الذي تفعله الآن، يجب أن تعلم يا ناثان أنه من الطبيعي أن يدّعي جميع الناس أنهم بخير في كل الظروف ومهما ساءت الأمور، ويستمرّوا في ذلك الأداء بشكل يومي متكرر، حتى تتحسن الأمور بالفعل، حتى لو استغرق الأمر منهم عدة سنوات». أدار ناثان نظره في اتجاه الحشد الذي يستعد إلى الرحيل في طريق العودة إلى المدينة. يرتدون ملابسهم الجنائزية الرسمية التي يعلوها الغبار ويانتظارهم ساعات طويلة من القيادة.

فأضاف ستيف: «الحياة هنا صعبة للغاية والجميع يحاول أن يحسن من ظروف معيشته بشكل أو بآخر، ولكن يجب أن تصدّقني، كل شخص يكذب على نفسه في شيء ما، حتى يستطيع أن يتحمل مشقة تلك الحياة».

ظهر رأس إلسي من بين الجمع، كانت خصلات من شعرها تتطاير على جانب خديها اللذين اكتسبا اللون الأحمر بفعل ارتفاع درجة الحرارة وفعل الزحام.

نظر إليها ستيف نظرة استغرقت بضع ثوان ثم أطلق زفرة عميقة قادمة من أعماق رئتيه وكأنه يرغب في أن يخبرها بشيء ما، ثم أدار بصره في الاتجاه الآخر وكأنه يتراجع عن ذلك، ووجّه حديثه إلى ناثان: «هل تعلم أنك واحدة من الشخصيات التي تدعي طوال الوقت أنها بخير، ولكنها ليست كذلك. أنت تخاف من أن تعترف بأن هناك خطبًا ما بداخلك، حتى لأقرب الناس إليك بما فيهم والدتك وابنك، وهذا يجعل الأمر أكثر سوءًا، هل تعلم أن كليهما طلب مني أن أتحدث إليك وأن أرتب ميعادًا في العيادة لاستقبالك لأقدم لك بعض المساعدة».

- حسنًا، أنا أعرف ذلك، ومستعد إلى أن أذهب إلى العيادة.

- حقًا ستفعل؟ بهذه البساطة ودون جدال.

هزّ ناثان رأسه في علامة للموافقة، وفي قرارة نفسه يعلم أن هذا هو التصرف الصحيح الأنسب له، فقد تجاوزت حالته الحدود الآمنة في وقت ما لا

يستطيع تحديده، ربما حدث ذلك منذ عدة ساعات وربما حدث ذلك على مدار الأيام الماضية، لا يمكنه أن يحدد على وجه الدقة، ولكنها كانت فترة طويلة وسببت له الكثير من الضرر. كان ناثان يشعر بعدم الرغبة في أن يظل وحيداً ويائساً، يرغب في العودة لممارسة الحياة الطبيعية مثل سائر البشر ويتمنى أن ينجح في تحقيق ذلك قبل فوات الأوان.

خرج المزيد من الأشخاص من داخل المنزل، كان سايمون يسير بينهم وكاتي تسير خلفه بعدة خطوات، وقف كلاهما على مسافات متباعدة عن بعضهما بعضاً من ناحية وعن باقي الموجودين من الناحية الأخرى.

كانت كاتي تنظر إلى سايمون بنظرات حائرة وكأنها تفكر في شيء ما يصلح العلاقة بينهما، وبين الوقت والآخر كانت ترمق إلسي بنظرة عابرة، وكانت إلسي تنتقل بدورها بين مجموعات الأشخاص الراحلين ومستغرقة في وداعهم.

قال ناثان: «أظن أنه من الأفضل أن يتعامل الناس مع مشكلاتهم في بدايتها قبل أن تتفاقم وتكبر، لو فعل الجميع ذلك لكان أفضل لهم».

ثم نظر إلى قبر كاميرون القابع عبر الساحة وحيداً وصامتاً. لم يكن هناك أحد حولهما الآن، فقد سكتت كل الضوضاء برحيل الموجودين بما فيهم كاميرون الذي رحل واختفى عن المزرعة صوته إلى الأبد.

قال ستيف: «أفكر في بعض الأحيان في أنه كان من الواجب عليّ وقتها، أن أشجع جينا على توجيه اتهام رسمي، للحفاظ على حقوقها ولكنني للأسف لم أفعل، كنت صغير السن في ذلك الوقت، وكانت تلك أول مشكلة حقيقية تقابلني بعد أن تسلمتُ العمل في هذه العيادة. ولم تكن لديّ الخبرة والمهارات الكافية للتعامل مع ذلك الموقف، ربما لو تعرضت إلى موقف مشابه بعد ذلك بفترة كافية كنت تصرفت بطريقة مختلفة، أخبرت جينا أنني قدمت لها قدرًا كبيرًا من المساعدة، وأخبرتني أنها سوف تفكر في تقديم بلاغ لمأمور الشرطة ولكنها لم تفعل، لقد رحلت بعد يومين ولم يرها أحد بعد ذلك واختفت المشكلة برحيلها».

هَزَّ ستيف كتفيه وأضاف: «لا يمكن أن تكون على علم بالسبب الحقيقي وراء رحيلها المفاجئ، أليس كذلك؟».

قال ناثن بنظرة عابسة: «ما الذي تتحدث عنه؟ وكيف لي أن أعرف السبب الحقيقي وراء رحيلها؟».

جاء الدور على ستيف ليبداله النظرات العابسة وهو يسأله: «ألا تعرف حقًا؟».

- بالطبع لا أعرف، وكيف لي أن أعرف ذلك؟

كان آخر الموجودين متوجهاً إلى سيارته بحلول ذلك الوقت وبذلك انتهت مراسم توديع كامبيرون إلى ماثوا الأخير.

قال ستيف وهو يشير إلى القبرين الراقدين تحت الشجرة الكبيرة العجوزة: «ربما تظن أنك لا تعرف يا ناثن، ولكن ألا يمكنك أن تخمن السبب وراء رحيلها؟».

فتح ناثن فمه معترضاً، ولكنه توقف وسكت وهو يسمع أصوات أبواب السيارات المتبقية تُغلق تباعاً، فأغلق فمه ببطء مفضلاً التزام الصمت.

تذكّر ناثن تلك الليلة منذ ثلاثة وعشرين عاماً ماضياً، كان ناثن وكامبيرون يلعبان في تلك الساحة وتحديداً في نفس البقعة، كان ناثن يلقي بالكرة وكامبيرون يتمرن على ضربها باستعمال مضرب الكريكت، كانت الساحة مختلفة بعض الشيء، حيث لم تكن مملأى بكل هذه الحشائش الخضراء، وقف كامبيرون وناثن بجوار السياج وتبادلا الأدوار في اللعب بالكرة ومضرب الكريكت. تغير الوضع تماماً بمجرد أن دق جرس الهاتف، وكان الاتصال قادمًا من الرقيب المسؤول عن شرطة المدينة، بعد أن أنهى والدهما المكالمة طلب من كامبيرون وناثن القدوم ووجدا نفسيهما واقفين أمام أب غاضب يطلب إجابات في حجرة الاستقبال، وكانت تلك بداية ذلك اليوم العصيب.

تذكر ناثن ذلك اليوم الذي تأخر فيه عن الدفاع عن أخيه، وتوقف بعدها كامبيرون عن الحديث إليه بسبب غضبه مما فعل.

في اليوم التالي خرج كارل برايت بسيارته القذرة ذات الدفع الرباعي وانطلق في الطريق يصحبه صوت زئير المحرك.

حاول ناثن أن يتخلص من المشكلة ويبقي نفسه على مسافة مما يحدث كعادته دائماً في الظروف المماثلة، اختفى كارل طوال اليوم ولم يعد إلى المنزل وكان هذا أمراً معتاداً بالنسبة إليه، كما كان من المعتاد أيضاً ألا يدون تحركاته بدقة في دفتر اليوميات.

عندما عاد كارل برايت إلى المنزل كان غاضبًا وأغلق باب سيارته بقوة وعنف لدرجة أن السيارة اهتزت من وقع الارتطام.

كان من المفترض أن يطلق ناثن إشارة تحذيرية مُتَّفَقًا عليها حتى يختبئ كاميرون ولا يظهر في مواجهة أبيه الغاضب ولكنه لم يفعل، وبدلاً من أن يختفي كاميرون حتى تهدأ العاصفة، خرج من المنزل ليجد أباه الغاضب واقفاً أمامه وقبل أن يتمكن من أن يستدير ويعود إلى الداخل، نظر كارل برايت إليه نظرة حادة، ثم أشار برأسه إليه حتى يقترب منه، فتحرك كاميرون المسكين في اتجاه والده ونال ما كان يتوقعه.

الفصل الثاني والثلاثون

نال كامبيرون ما كان يتوقعه، هذا ما حدث في ذلك اليوم، لم يتعود كارل برايت أن يشير إلى أبنائه، لم يكن يلوح لهم بالتحية، ولم يكن يثني عليهم عندما يفعلون شيئاً جيداً.

اختفى كارل برايت عن المزرعة لعدة ساعات وعندما عاد كان يستشيط غضباً، ولكن في صباح اليوم التالي أخبرت جينا وصديقها صاحب المزرعة اللذين كانا يعملان فيها أنهما سوف يتركان العمل ويرحلان.

لم يخبراً أحداً عن سبب رحيلهما ولم يتركا رسالة إلى أحد، مجرد أنهما أعلننا عن رغبتهما في الرحيل ثم خرجا في طريقهما دون تباطؤ. حاول كيث أن يثنيهما عن الرحيل كما أخبرت جاكى ناثان لاحقاً، بالطبع قد سمع كيث عما حدث في تلك الليلة في الصحراء بين الكئيبان الرملية.

سألتهما كيث إن كانت لرحيلهما المفاجئ علاقة بما حدث خلال الحفلة، ولكن جينا أجابته بالنفي، على نحو مرتبك وقالت إن كل هذا مجرد سوء تفاهم وإن الأمور تطورت على نحو سريع بلا سبب حقيقي.

جلس ناثان على الأريكة المريحة في غرفة الاستقبال مُحدِّقاً إلى أضواء شجرة عيد الميلاد الخافتة مع اختفاء شمس ما بعد الظهيرة المحتضرة. وأخذ يحصي بعينيه الأكواب الفارغة والأطباق المتناثرة في كل مكان نتيجة الزحام الشديد الذي ملأ المنزل.

كان ستيف من آخر الراحلين عن المنزل. وحرص قبل رحيله على أن يضع ورقة مكتوبة في كف ناثان تحتوي ميعاداً سابقاً في العيادة الطبية.

عندما رحل آخر الموجودين، تفرق أفراد الأسرة في أرجاء المنزل الذي بدا على نحو مفاجئ وكأنه كبير جداً وفارغ من البشر. تغيرت معاملة كيث

مع ناٲان على نحو واضح بمجرد أن رحلت جينا بهذه الطريقة المفاجئة، لم يكن ناٲان وكيٲ يتقابلان كثيراً لذلك استغرق بعض الوقت حتى يتمكن من ملاحظة ذلك.

كان كيٲ في العادة هادئ الطباع، يميل إلى التحفظ إلى حد البرود، ولكنه تغير على نحو مفاجئ وأصبح حاد المزاج، سليلٲ اللسان. وزادت درجة عدائيته تجاه ناٲان إلى الدرجة التي دفعت ناٲان إلى أن يطلب من جاكى أن تتوقف عن دعوته إلى الحضور إلى منزلها.

ظل ناٲان وجاكى يتقابلان ويقضيان لحظات من المرح ويتبادلان الضحكات، ولكن شيئاً ما في علاقتهما تسم بسبب الرفض المعلن لتلك العلاقة من قبل كيٲ.

ما زال ناٲان يستطيع أن يتذكر وجه كيٲ ونظراته إليه في محطة الخدمة على الرغم من مرور كل تلك السنوات. يتذكر ناٲان حين قال كيٲ له: «أنا أعرف كيف يتصرف الرجال الذين هم على شاكلتك».

غرق ناٲان في الذكريات بينما كان جالساً على الأريكة، وأدرك أن كيٲ كانت لديه وجهة نظر يجب أخذها في الاعتبار، وربما كان محقاً في سوء ظنه تجاه العائلة التي انحدر منها ناٲان.

ارتفع صوت عند مدخل حجرة الاستقبال، فرفع ناٲان رأسه في اتجاه المدخل ليجد بوب يرتدي ملابس متسخة وغير مهذمة.

قال بوب: «أين ذهب الجميع؟».

- لقد رحلوا، لقد انتهت مراسم العزاء.

- بالفعل؟

- هل كنت نائماً، طوال هذه الفترة؟

ألقي بوب بنفسه على الأريكة وقال: «أوه».

استطاع ناٲان أن يشم رائحة الخمر تنبعث من فم بوب، بينما فرك بوب عينيه بيدين مرتعشتين، ثم نظر إلى ناٲان وسأله في اهتمام: «ماذا حدث؟ هل أصابك مكروه؟».

لم يستطيع ناٲان أن يحدد النقطة التي من المفترض أن يبدأ بها حديثه إلى أخيه، وأخذ يتذكر جثة الكلبة كيلي وهي ترقد بين ذراعيه، حاول جاهداً

أن يبعد تلك الصورة عن عقله خلال الساعتين الماضيتين، ولكنها نجحت في أن تشق طريقها إلى السطح مرة أخرى بمجرد أن ظهر بوب.

فتح ناثن فمه وجاهد في أن يقول شيئاً ما، ولكنه لم يقدر فأطلق زفرة عميقة وهو يقول: «لا شيء؟».

- لا يبدو الأمر كذلك؟

هَزَّ ناثن كتفيه في استسلام، فتثاءب بوب بصوت مرتفع ودار بعينه داخل الحجرة.

- هل حضر إلى المنزل هذا العدد الكبير من الناس، يا صديقي؟

- نعم.

- هل تظن أن مثل هذا العدد من الأشخاص سوف يحضر من أجل توديع أيّ منا؟

- لا أظن ذلك.

- أوافقك الرأي.

أضاف بوب بطريقة توحى بالإحباط: «اللعنة على كام، لم يكن أفضل منا في شيء، لا، لقد كان أسوأ مني ومنك ولكنه كان ناجحاً في إخفاء ذلك عن عيون الجميع».

- هل تظن ذلك حقاً؟

- بالطبع، هذه هي الحقيقة.

ظل بوب يُحدِّق إلى الحائط لبعض الوقت، كانت آثار الخمر واضحة في عينيه وطريقة كلامه.

- هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟ لقد كان أبي وغداً، وأنت وغد بدورك، وكذلك أنا، وكامرون كان وغداً مثلنا جميعاً، لا يمكن الجدل في ذلك الشأن.

- أنا لا أقصد أن أجادلك يا صديقي، لكن بعض الحماقات أقل ضرراً من غيرها، هذا كل ما أقصده.

- هل هذا رأيك الحقيقي؟

كافح بوب ليمنع نفسه من التجشؤ.

- نعم، هذا ما أراه.

قال بوب: «ليكن كذلك، الأمران سيان بالنسبة إليّ».

رفع بوب رأسه بصعوبة عن الأريكة واتجه ناحية شاشة التلفاز.

- حسنًا، إن كاميرون كان وغدًا كبيرًا، ولكنه نجح بطريقة ما في أن يجعل الجميع حزينًا على وفاته.

ثم أضاف: «ولكنك محق، فهو لم يترك عجوزًا مسنًا، يموت على قارعة الطريق في منتصف الصحراء».

- نعم، ولكن ذلك العجوز لم يمُت، ومَرَّ على هذه الحادثة عشر سنوات كاملة.

- بالفعل، لم يمُت ذلك العجوز الأخرق ولكن الفضل في ذلك لا يعود إليك، نحن عائلة من الأوغاد يا صديقي، لا يستطيع أحد أن يغير تلك الحقيقة مهما حاول جاهدًا.

وقف بوب أمام شاشة التلفاز، وبدأ بحل أسلاك لعبة الفيديو الإلكترونية الموصلة بها، قال ناثان: «لا شيء يبقى على حاله».

- حسنًا.

قال ناثان: «اسمع، يجب أن تعرف أنني أفضل من كاميرون، يجب أن تعرف أن كام كان أسوأ مني بدرجة غير قابلة للمقارنة».

قال بوب دون أن يرفع عينيه عن الأسلاك: «حسنًا، حاول أن تتذكر ذلك قبل أن تطردني أنت وإلسي من هذه المزرعة».

- بحق المسيح يا بوب، لن يحاول أحد أن يطردك من المزرعة.

- سوف نرى ماذا سيحدث.

- يا صديقي. (ثم خفض ناثان من درجة صوته وسأله) أخبرني ما مشكلتك؟

قال بوب بحدة: «أنا لا أعرف ما هي مشكلتي، يمكنك أن تعتبر أن جهلي بما سيحدث في ملكيتي في المستقبل هو مشكلتي الأولى، ويمكنك أن تعتبر أن عدم وجود من يعير اهتمامًا بما أقول وبما أفكر هو مشكلتي الثانية، ولكن مشكلتي الثالثة كونك أنت وكاميرون شقيقي الأكبرين سنًا».

- حسنًا، لم يعد هناك غيري، أعتقد أن الأمور تحسنت بالنسبة إليك إلى حد ما.

- كان ناثان يتحدث إلى بوب والغضب ينمو بداخله، ففضل أن يقوم من مكانه ويغادر المكان.
- حسناً، قبل أن أرحل أريد أن أعرف، هل لديك ما ترغب في أن تخبرني به بشأن كلبتي؟
- أي كلبة؟
- أنت تعرف أنني أقصد كيلي، كلبتي.
- استمر بوب في العبث بأسلاك التلفاز وهو يقول: «لا، لا أرغب في أن أخبرك بشيء، ما الذي تقصده يا صديقي؟».
- لا ترغب في أن تخبرني بشيء؟
- لا.
- ألا ترغب في أن تخبرني بشأن السم الذي كنت تدسه لحيوانات الدينغو البرية حول مزرعتي... ألا يذكرك ذلك بشيء؟
- ثم تحرك ناثان باتجاه بوب وجذبه من ذراعه بقوة، صرخ بوب وهو يسحب ذراعه بغضب: «اللعة عليك».
- لا، اللعة عليك أنت، لقد شعرت كيلي بالآلم شديدة قبل أن تنتهي حياتها، وقد اضطررت إلى مشاهدة كل ذلك، ووقفت مكتوف اليدين، لم أقدر على أن أقدم لها المساعدة.
- شعر ناثان بالدموع تتجمع في مؤخرة عينيه وكافح لمنعها.
- لقد كانت مجرد كلبة.
- لكنني كنت أحبها، لقد كانت صديقتي الوحيدة.
- ربما عليك الخروج والتعرف على المزيد من الأصدقاء.
- أجبر ناثان نفسه على أن يسحب نفساً عميقاً حتى يكتم الغضب بداخله، فقد كان يعرف أن هذا الغضب له أسباب كثيرة وليس بسبب بوب وحده، حتى وإن كان أمامه في هذه اللحظة.
- حسناً، لا عليك، ولكن تذكّر عندما أجلس أنا وأنت وإلسي للحديث عن مستقبل هذه المزرعة الملعونة، سوف أتذكر ما فعلته بكيلي وسوف أنظر في عينيك مباشرة وأفكر في الطريقة الأمثل لكي أنتقم منك جزاء على ما فعلت.

ثم اقترب ناثان من أخيه خطوة أخرى وقال: «هل تعرف لماذا لم يكن كام يثق بك، بشأن المزرعة وبشأن المال وبشأن كل شيء آخر؟ حسنًا، انظر إلى نفسك، وأعد التفكير مجددًا، ربما كان كاميرون وغدًا، وربما كان أسوأ من هذا، ولكنه على الأقل لم يكن يضع صخرة محل عقله».

لم يشعر ناثان بالضربة إلا حين أصابته بالفعل، لقد لكمه بوب مباشرة بين ضلوعه، ثم سدد له لكمة أخرى في رأسه جعلته يتراجع مترنخًا، ثم انقض بوب عليه وأحاط عنقه بذراعه.

- اللعنة عليك وعلى كام، اللعنة على الجميع. (كانت أنفاس بوب المختلطة برائحة الكحول تصطدم بوجه ناثان) هل تظن أن بإمكانك أن تأتي إلي هنا وتتحكم في أفعالي؟ هل تظن أنك تعرف ما هو الأفضل بالنسبة إلي الجميع أيها الأحمق؟

شعر ناثان بأن الهواء يكاد ينفد من صدره، فدفح جسده في اتجاه الحائط ليرتطمًا معًا بقوة ويفقدًا اتزانهما، ثم يسقطا على الأرض محدثين صوتًا عاليًا.

ارتطمت قبضة قوية للمرة الثانية بذقن ناثان فرفع يده عاليًا في محاولة لأن يحمي وجهه.

قال بوب: «أنت وكاميرون لطالما كنتما تظنان أنكما أفضل مني حالًا، ليس كذلك؟ ولكن تلك ليست الحقيقة، هذا كاميرون وقد أصبح جثة هامدة، أما أنت فحالتك المزرية يعرف عنها الجميع».

دفع بوب قبضته الغاضبة في اتجاه عين ناثان، ولكن ناثان نجح في أن يفلت منها، ولمح علامات التهور في عيني بوب فشعر بالخوف، كان بوب هائجًا ومتعرقًا ويطوح قبضته في كل اتجاه ليصيب ناثان إصابة موجهة.

قال بوب بغضب: «هل تظن أن في إمكانك أن تحل محل كام، وتتصرف مثله حتى تكسب احترام الناس؟».

- لا يا بوب.

حاول ناثان أن يدفع بوب بعيدًا ويتخلص من قبضته التي تلاحقه، ثم بدأ يزحف على الأرضية. سمع ناثان صوتًا يتحرك في اتجاه مدخل الحجرة.

- هل تظن أن الجميع سيفرحون بعودتك ويقبلون بذهابك إلى المدينة ومكوثك بصحبتهم؟

صرخ ناثنان: «ابتعد عني».

ومال بجسمه في اتجاه بوب، فدار الاثنان على الأرض دورة كاملة واصطدما بالأريكة وطاولة القهوة، فسقط شيء ما وتناثرت أجزاؤه على الأرضية.

- ما الذي يحدث؟

علا صوت هاري، كما ارتفع صوت ليز قادمًا من مكان ما بجملته لا يمكن تمييزها.

دس بوب فمه بجوار أذن ناثنان وقال: «إنهم يتجاهلونك يا صديقي وسيبقى الحال على ما هو عليه، لن يمكنك أن تصبح مثل كام مهما حاولت، هل تعلم لماذا؟».

ثم أحكم قبضته حول جسد ناثنان وهو يكمل قائلًا: «لم يكن السبب أنك تركت هذا الوضع يموت في الصحراء أيًا كان اسمه، لا، إنهم يتجاهلونك لأنك خاسر لعين، أنت أحرق وخاسر يا صديقي، ولا يرغب أحد في أن يحيط نفسه بالخاسرين من أمثالك».

ثم لَکَم ناثنان لكمة قوية في جانبه، كانت اللكمة قوية حتى إن ناثنان بدأ يتلوى من الألم وحاول أن يلف في مكانه حتى يتخلص من قبضة بوب، ولكنه فشل وبدأ الاثنان يدوران مرة أخرى على الأرض، حتى اصطدما بشيء آخر. كان ناثنان يرتعش بفعل الألم وضيق التنفس عندما سمع صوت صيحة عالية قادمة من اتجاه المدخل.

سقطت شجرة عيد الميلاد مُحدِثَةً دويًا عاليًا، وتناثرت زينتها في كل مكان، اصطدمت حافة الشجرة بطرف اللوحة الزيتية التي رسمها كامبيرون فارتعشت اللوحة ودارت حول محورها مُحدِثَةً صريرًا مرتفعًا.

نظر بوب إلى اللوحة وقال: «أوه، اللعنة».

ثم تلاشى صوت بوب تمامًا بينما كانت ليز تدخل الحجرة في سرعة وعصبية شديدة.

وصل هاري إلى الحجرة قبل وصول ليز بلحظات معدودة، ومدَّ يده بسرعة ليلحق اللوحة في الوقت المناسب قبل أن تُتِم دورانها حول محورها ثم تسقط على الأرض.

قال هاري: «بحق المسيح! كادت اللوحة تتلف».

اقتربت ليز من اللوحة وأخذتها من يد هاري، وبدأت تفحص إطارها بعناية باحثة عن أي آثار للتلف.

استطاع ناثنان من مكانه على الأرض أن يلاحظ كتفيها تتحركان في عصبية وأنفاسها تتسارع وكأنها تجاهد في منع نفسها من معاودة البكاء مرة أخرى. بعد أن انتهت ليز من فحص اللوحة والاطمئنان على حالتها علقتها مرة أخرى في مكانها فوق الحائط.

صاح هاري: «بحق المسيح! اليوم بالذات، ما الذي تفعلانه؟ هل تعرفان أن أخاكما مات؟ ألا يمكنكما احترام الجنازة لخمس دقائق لعينة؟».

قال ناثنان وهو يدفع بجسد بوب من فوقه: «أعذر».

ثم قام من مكانه واتجه إلى اللوحة سائلاً: «هل اللوحة سليمة؟».

دفع هاري ذراع ناثنان بعيداً.

- لا تلمس اللوحة، عليك اللعنة.

- ماذا تفعل؟ كنت أحاول فقط أن...

- لا تحاول فعل المزيد، لقد أوقعت الكثير من الضرر بالفعل.

قالت ليز على نحو مفاجئ: «توقفوا».

ونظرت إليهم وقد انفجرت الدموع من عينيها أخيراً. ثم أدارت وجهها لتتنقل عينيها اللتين كانتا تنظران إلى ناثنان وبدأت بالتحدث إلى بوب الذي كان مستلقياً على الأرض لم يتحرك بعد، ويمسح آثار التراب العالقة من فوق ملابسه: «ألم يكن اليوم سيئاً بدرجة كافية لكما حتى الآن؟ لتجعل الأمر أسوأ مما هو عليه بالفعل»، ثم قالت والدموع تغليها: «ما الشيء الذي أصاب كلاً منكما؟ ألم تكتفيا من التعاسة والشقاء الذي أصاب العائلة، حتى تنقلبا على بعضكما بعضاً؟».

قال ناثنان: «أنا آسف يا أمي».

اكتفت ليز بالصمت وبدأت بمسح عينيها من الدموع المتدفقة.

قال ناثنان مرة أخرى في محاولة لتحسين الموقف: «أنا آسف يا أمي، سامحيني».

وتجاهل النظر إلى بوب الذي بدأ بالوقوف مرة أخرى على قدميه.

قال بوب: «سوف أصلح كل شيء».

قالت ليز بحزم: «لا تحاول أن تصلح شيئاً، لقد اكتفيت منكما الليلة، ناثن لا أريد أن أراك الليلة مرة أخرى، وأنت كذلك يا بوب».

قال ناثن: «ولكن...».

- كفى، أنت وبوب انصرفا واتركاني بمفردي حتى الصباح.

ثم استدارت ليز ونظرت في اتجاه اللوحة وبقيت على هذا الوضع حتى تأكدت أن كلاً من بوب وناثن قد خرج من الغرفة وانصرف بعيداً.

الفصل الثالث والثلاثون

كان المكان مظلمًا، في الوقت الذي كان فيه ناثنان يجلس في الشرفة يعزف بعض الموسيقى مستخدمًا جيتار صوفي، لم يكن ناثنان يعرف شيئًا عن المكان الذي توجّه إليه بوب ولم يكن يهتم بذلك.

قبل أن يخرج ناثنان إلى الشرفة ألقى نظرة على زاندار في غرفته فوجده مستغرقًا في النوم، ولم يرغب في إيقاظه. جلس على السلالم الخشبية يتبع الضوء القادم من عربة النوم الخاصة بالعمال المتجولين والخيالات التي تتحرك في الداخل، بينما يداعب أوتار الجيتار مُصدرًا لحنًا موسيقيًا مألوفًا، حينما جاءه صوت من الخلف: «هذا جميل».

رفع ناثنان نظره إلى الأعلى فوجد إلسي تقف أعلى السلم وفي يدها زجاجتان من البيرة.

- هل يمكن أن أجلس بجوارك؟

- بالطبع.

ثم سكت لبرهة قصيرة قبل أن يضيف: «يمكنك الجلوس بجواري في أي وقت».

وضعت إلسي الزجاجتين بجانبه، بدأت قطرات الماء البارد بالتكثف على جانب الزجاجتين، بينما أمسكت إلسي بزجاجتها وفتحتها بأطراف أصابعها وهي تجلس في مواجهة ناثنان وعلى وجهها ابتسامة.

- أتمنى لك عامًا سعيدًا، على ما أعتقد.

- عامًا سعيدًا لك أيضًا يا إلسي.

مدت إلسي يدها واتكأت على جدار الشرفة، ثم دفعت برأسها إلى الخلف. وأخذت تنظر إليه، كان من الواضح أنها أخذت حمامًا ساخنًا، قبل أن تستبدل بالفستان الأسود قميصًا وبنطالًا قصيرًا، كان شعرها مبتلًا ولامعًا بطريقة جذابة أسفل مصباح الشرفة الكهربائي.

لم يكن نااثان قد استبدل ثيابه بعد، فشعر على الفور بعد أن تمعن في النظر إليها بأنه قذر وملبد بالغبار.

قالت إلسي وهي تشير إلى الجيتار: «لم أكن أقصد... أن أجعلك تتوقف عن العزف، أرجو أن تستمر».

أمسك نااثان الجيتار بقوة وأخذ يداعب الأوتار وهو يفكر في لحن ليعزفه، استقر في النهاية على اختيار لحن ريفي قديم، اعتادت أمه أن تغنيه له هو وأخويه عندما كانوا صغارًا في الماضي.

بدأ نااثان يتذكر ما كان عليه كاميرون في الماضي عندما كانا يلعبان الكريكت في ساحة المنزل تحت أشعة الشمس، ويستمران في اللعب بشغف حتى تصرخ ليز من داخل المنزل طالبةً منهما أن ينتقلا للعب في مكان ظليل.

مدت إلسي ساقها العاريتين أمامه وتنهدت ثم ارتشفت رشفة قصيرة من زجاجة البيرة.

سألها نااثان: «كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام؟».

قالت إلسي: «لقد كان يومًا عصيبًا، ولكنه انتهى، أشعر أنني...»، صممت إلسي وأخذت تفكر فيما سوف تقول، «أشعر أنني أفضل حالًا، ماذا عنك؟ هل أنت بخير؟».

قال نااثان: «نعم، أنا بخير».

أدرك نااثان أن ما يقوله هو الحقيقة، فكرر عبارته مرة أخرى: «نعم، أنا بخير، هل خلدت الفتاتان إلى النوم؟».

- لقد نامتا في غرفة الجدة، توجّه الجميع إلى النوم مبكرًا في هذا المساء.

- أوه، نعم.

جلسًا معًا، واستمر ناثان في العزف برقة لبعض الوقت، بدت إلسي بالفعل في حالة جيدة، ولكنه لم يستطع أن يعرف السبب وراء ذلك التحسن السريع، ظهرت الراحة على ملامحها بطريقة لم يعهدها من قبل.

نظرت إلى الكدمة الزرقاء حول عينه وسألته بابتسامة خفيفة: «من الواضح أنك قررت التحدث إلى بوب على الرغم من كل شيء».

- أوه.

مدَّ يده ليتحسس موضع الكدمة فشعر ببعض الألم.

- في الحقيقة، هو الذي تحدث معي في بعض الأمور.

- هل انتهيتما من تلك الأمور؟

- لا، لم نفعل، ربما نكمل حديثنا في الغد.

- حسنًا، إنها أعياد الميلاد، ربما يكون في مقدوركما أن تُظهرًا بعض التسامح.

- نعم، أعتقد أن في إمكاننا أن نفعل ذلك فكلبتي قد ماتت في جميع الأحوال ولا سبيل إلى عودتها مرة أخرى.

- أعلم ذلك.

ثم مدت يدها وقوست ظهرها لتلمس بأطراف أصابعها مقدمة حذائه الطويل. وهي تقول: «وستظل على الحال نفسه، سواء سامحت أخاك أو لم تسامحه».

- نعم، ولكن ربما...

قالت بوذ: «ناثان، هذه حقيقة مؤكدة لا يمكن أن تتغير».

تسربت ابتسامة على شفطي ناثان، فاعتدلت إلسي وحركت قدميها فوق درجات السلم التي أصدرت بدورها صوتًا خشبيًا مميزًا.

- لكم من الوقت سوف تبقى معنا في المزرعة؟

- سوف أبقى إلى بعد الغد، زاندار لديه حجز على متن الطائرة، في اليوم السابع والعشرين من الشهر.

- يجب أن نتحدث قبل أن ترحل وتعود إلى منزلك، حول مصير هذه المزرعة، وحول بوب بالطبع؟

- نعم، بالطبع.

عادت برأسها إلى الخلف وأغمضت عينيها.

- ولكن ليس الآن، بالطبع.

فقال ناتان: «لا، ليس الآن، لا يجب أن نفعل ذلك الآن».

- حسنًا، كل ما عليّ فعله أن أجلس هنا وأستمع إلى الموسيقى.

- نعم، يبدو هذا اختيارًا جيدًا.

كانت أضواء خافتة ترتعش في داخل عربة النوم الخاصة بالعمال المتجولين، نظر الاثنان في اتجاه الغرفة، ولكن كان الظلام حالكًا ولا يمكن تمييز شيء بالداخل. لم يكن ينير الليل سوى نجمة واحدة معلقة فوق رأس ناتان.

قالت إلسي: «حسنًا، إنهما يفكران في الرحيل على كل حال».

- هذا حقيقي، كاتي سوف ترحل، هذا أمر مؤكد، ولكن يجب أن تعرفي...

شعر ناتان ببعض التردد قبل أن يستأنف حديثه، لم يُرد أن يخوض هذا الحديث مع إلسي، ليس الآن على أقل تقدير. ثم تابع: «لقد كنت أتحدث معها...».

قاطعته إلسي على نحو مفاجئ: «أعتقد أنها حامل، تبدو عليها أعراض

الحمل».

اكتفى ناتان بهزُّ رأسه في علامة على الموافقة، ثم طالت بينهما لحظة من الصمت، لم يقطعها إلا صوت إلسي وهي تسأله: «هل هو شخص آخر، بخلاف سايمون؟».

- يبدو أنه شخص آخر.

- أوه...

ارتعش وجه إلسي وخرجت الكلمة من فمها تحمل مرارة، ربما كانت تشك في شيء في الماضي ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك.

قال ناتان: «أعتقد أنها تخطط للتخلص منه».

- لا أظن أن ذلك سوف يُحدث تغييرًا كبيرًا، لهذا السبب أجرى كام هذه المكالمات الغامضة إلى سانت هيلين؟

- يبدو ذلك.

نظرت إلسي نظرة طويلة إلى غرفة العمال المظلمة، ثم قالت: «لا أظن أنها الأولى».

قال ناتان بتردد: «هل هذا حقيقي؟».

- أنا لا أعني مسألة الحمل بالطبع.

ثم رفعت يدها ووضعتها على رأسها قبل أن تضيف: «هل تتذكر ماجدة؟». كان ناتان يتذكر ماجدة، تلك الفتاة البولندية الرقيقة ذات اللهجة المضحكة التي كانت تعمل في المزرعة منذ عدة سنوات وحضرت احتفالات عيد الميلاد، لقد رحلت تلك الفتاة قبل أن ينتهي تعاقدها مع المزرعة بشهرين بشكل مفاجئ.

أضافت إلسي: «وكانت هناك فتاة أخرى، لم تكن من العمال الرحل، كانت قريبة من هذه الأنحاء، كانت من بيرث حسبما أتذكر، أعتقد أنه فعل ذلك معها، وربما كانت هناك أخريات».

قال ناتان بصعوبة: «كام، لم يكن...»، جاهدًا ناتان في أن يختار كلماته بشكل غير مزعج، «لم يكن جيدًا في العديد من النواحي».

ظهرت نظرة غير معتادة على وجه إلسي، لم يستطع ناتان أن يفهم معناها، واعتصرت زجاجة البيرة بين يدها، حتى إن أصابعها تركت علامات فوق بخار الماء المتجمع فوق سطح الزجاج.

ثم سألتها: «هل تظن أن هذه البطاقة الصغيرة التي أحضرتها لي، كانت في الأصل موجهة إليها، هل تظن أنه كان يقصد أن يقول لكاتي اغفري لي؟».

- لا أعرف، لا يمكن التأكد من ذلك الأمر، ولكن ربما كان ذلك صحيحًا.

مدت يدها بزجاجة البيرة.

- أنت محق، لا يمكن التأكد من ذلك الأمر، فكامبيرون يمكنه فعل العديد من الأشياء السيئة.

قال ناتان: «نعم، تمكنت من اكتشاف ذلك».

بدأ الليل يزداد ثقلاً وظلامًا قبل أن يضيف ناتان: «لقد تحدثت اليوم إلى ستيف عن جينا».

ردت إلسي وهي تثبت أنظارها إليه: «حسنًا، وماذا قال لك؟».

- لقد قال لي إنه أخبرك بكل شيء، وإنه لن يخبرني بشيء جديد.

عادت إلى الخلف بجسدها في علامة على الشعور بالإحباط.

- ألم يخبرك بشيء مختلف؟ ألم يكن لديه دليل ملموس على صحة أقوالها؟

- لا أعتقد أنه كان يملك مثل هذا الدليل، كان كلامه حاسماً بالنسبة إليّ.
- حقاً؟

- أعتقد ذلك، خصوصاً أنني أدركت متأخراً حقيقة ما حدث في تلك الليلة، ولم أكن أفهم الأمور على حقيقتها من قبل.

ثم صمت ناثان قليلاً، قبل أن يضيف: «لكن كام أخي، وأنا صدقته في ذلك الوقت».

قالت إلسي وهي تنظر إليه بتركيز شديد: «نعم، أنا أعرف ذلك، ولكن ما ظنك اليوم؟».

- أظن أنه أجبرها.

- وأنا أظن هذا.

تبادلا النظرات إلى بعضهما بعضاً لمدة طويلة من الوقت. حاول ناثان أن يقول شيئاً، ولكنه توقف عندما سمع صوت خطوات على الجانب الآخر من الشرفة.

- يبدو أن هاري في طريقه إلى إغلاق المولد الكهربائي، هل ترغبين في العودة إلى المنزل قبل أن يصبح المكان شديد الظلام لدرجة أكبر من هذا؟

ارتشفت إلسي رشفة من زجاجة البيرة ببطء وقالت دون أن تنظر إليه: «هل ترغب أنت في دخول المنزل؟».

- لا.

نظرت إليه إلسي نظرة أخيرة قبل أن يسمعا صوت المولد الكهربائي وهو يرتعش قبل أن يهدأ تماماً ويسود الصوت في أرجاء المزرعة ثم سمعا صوت خطوات هاري وهو يتحرك في الطريق إلى غرفته ثم صوت قدميه تصعدان فوق السلم الخشبي.

وضع ناثان الجيتار جانباً وأخذ يراقب إلسي، التي كانت تجلس في صمت تتأمل سماء الليل المظلمة، قبل أن تقول إلسي دون أن توجّه نظرها إليه: «كنت أخطط لأن أهجره».

شعر ناثان بحزن يعتصر قلبه.

- هل هذا حقيقي؟

- - نعم، كنت أخطط للرحيل بصحبة صوفي ولو، لم يكن تنفيذ ذلك الأمر سهلاً في مكان مثل هذا، ولكنني كنت أخطط لأن أفعل، أعني أنه لا يمكنك أن تستيقظ في الصباح وترحل، هذا مستحيل، في الحقيقة كان من الممكن أن أفعل ذلك ولكن...

أشارت بيدها إلى المساحة الواسعة الممتدة إلى مئات الكيلومترات حولها، وقالت: «إلى أين أستطيع الذهاب؟».

أراد ناثان أن يقول: تعالي إليّ...

تكونت العبارة بداخل ناثان، ولكنه منع نفسه من قولها بصوت مرتفع، واكتفى أن تدور بداخل عقله.

كان يمكنكِ المجيء إليّ.

وسألها بدلاً من ذلك: «هل كنت تخططين للرحيل بسبب ما حدث لكاتي والفتيات الأخريات؟».

- لا، لم يكن ذلك هو الدافع الوحيد، كان لدي سبب آخر أكثر أهمية.

ثم قالت بعد فترة من الصمت المتوتر: «من الصعب الزواج لهذه الفترة الطويلة بشخص لا يحبك».

تذكّر ناثان جاكى وشعر ببعض التعاطف بشأنها. لقد كان زواجهما صعباً بالنسبة إليه ولكنه كان صعباً بالنسبة إليها كذلك.

نظر ناثان إلى إلسي وقال: «أشعر بالأسف من أجلك».

ابتسمت إلسي ابتسامة خفيفة، ثم ارتشفت القليل من زجاجة البيرة وهي تقول: «إنه ليس خطأك يا ناثان، ولكنني كنت أتمنى أن...».

- ماذا؟

كانا يجلسان في الشرفة في وضع متقابل، تحت ستار الليل، بدأت زجاجات البيرة تفقد برودتها بين أيديهما والجيتار يقف مستنداً إلى مسافة قريبة فوق درجات السلم.

قالت إلسي بحسرة بعد فترة طويلة من الصمت: «لم أكن أعرف أن كاميرون أخوك عندما تعرفت عليه في البداية، هذه هي الحقيقة».

- إلسي، لا عليك، لم يعد الأمر مهماً الآن.

- لا، يجب عليك أن تسمعني، كان من الممكن أن أكتشف حقيقته ولكن الأمور كانت صعبة بالنسبة إليّ، كان الحفاظ على وظيفة في البار أمراً بالغ الصعوبة، وكنت وحيدة في المدينة بلا أصدقاء، كما أنك اختفيت على نحو مفاجئ، ولم أكن أعرف ماذا سيحدث بيننا في المستقبل.

توقفت عن الحديث فشعر ناثن بالآلم يعتصر قلبه على هذه الفرصة التي ضاعت منه.

أكملت إلسي حديثها: «كنت أجلس في البار حزيناً ومشتتة فجاء كاميرون إليّ، كان شاباً وسيماً وحديثه فائتاً»، بدأت علامات الذنب تظهر في صوتها، «كان يحدثني بلطف، ويضحك على دعاياتي الصغيرة، شعرت بأنني لن أحظى بفرصة مع شخص مثله، كنت صغيرة، وحمقاء».

قال ناثن متنهداً: «نعم، يمكنني أن أفهم هذا الشعور، لقد كنت في سن صغيرة عندما أفسدت حياتي، أستطيع أن أتفهم عذرك وأتقبله جيداً».

رأى ناثن ابتسامة خاطفة في الظلام، لم يستطع أن يتبين ما يحدث، ولكنه سمع صوت خطوات وشعر بأن إلسي أصبحت أقرب بالنسبة إليه.

- تعرفت إلى كام، وفجأة اعترف لي بأنه يحبني، وفجأة أصبحت أحمل طفله، وفجأة تزوجنا وبعد مرور عدة أعوام، أجلس هنا في المزرعة مثلما تستطيع أن ترى، كل ما في الأمر أنني كنت أقف هنا في نفس الشرفة في بعض الأحيان وأتساءل... (أصبح صوتها أكثر رقة وهي تقول) لو لم أكن صغيرة وغبية إلى هذا الحد، لتصرفتُ بطريقة مختلفة واخترت اختيارات مختلفة.

- أ طرح على نفسي هذه الأسئلة طوال الوقت.

- هل تفعل ذلك؟

- في كل ليلة.

كانت يدها تقترب من يده في الظلام، لدرجة شعوره بأطراف أصابعها الناعمة تلمس خصلات الشعر التي تنبت فوق ذراعه.

نطق اسمها بنعومة: «إلسي».

سمع صوت حركة فوق درجات السلم الخشبية واقتربت منه بدرجة أكبر، كان العطر الذي يفوح من شعرها يشبه في رائحته رائحة المحيط.

- إلسي، أريد أن أقول لك...

قالت: «ناتان، لا تقل شيئاً».

قالت بصوت هادئ.

- ولكن، يجب أن...

- أرجوك يا ناتان.

- أنا آسف، بسبب كل ما حدث.

مدت أصابعها ولمست أصابعه.

- أعرف هذا.

- لقد حاولت أن أعود إليك مرة أخرى، حاولت أن أقابلك عدة مرات، ولكنني كنت أشعر بالخجل بسبب ما فعلت، وكنت أخشى من رد فعلك تجاهي عند رؤيتي، كنت أتمنى أن أحاول بدرجة أكبر مما فعلت، فقد كنت أرغب حقاً في الحديث إليك في ذلك الوقت.

خرجت الكلمات من داخله مع إحساس عميق بالارتياح بعد أن صرح بها بعد مرور هذه الفترة الطويلة.

- أنا آسف على كل ما حدث وأشعر بالندم.

- لا يجب عليك أن تشعر بذلك.

- بل إنه من الواجب عليّ، كما أنه من الواجب عليّ أن أعترف إليك لأنني استغرقت كل هذا الوقت في أن أخبرك بكل ذلك ولم أستغل أيّاً من الفرص السابقة.

كانت عيناها تلمعان في الظلام واستطاع أن يشعر بدفء أصابعها وهي تلمس أصابعه.

- أشعر بالأسف الشديد بسبب كل ما حدث، أشعر بالأسف على نفسي وعلى الأخطاء التي ارتكبتها في الماضي، وأشعر بالأسف عليك وعلى

الفرصة التي حرمتك منها، وعلى اختفائي بذلك الشكل دون أن أخبرك بالحقيقة.

اقتربت منه وهمست في أذنيه: «حدث ذلك منذ وقت طويل».

- أعرف هذا، ولكنني كنت أرغب في أن أخبرك بكل شيء منذ البداية.

- وهل انتظرت عشرة أعوام حتى تخبرني بكل ذلك؟

- نعم.

استطاع أن يشعر بأنفاسها الدافئة تقترب من شفثيه.

- ناثنان، وهل ستنتظر أكثر من هذا؟

ثم مالت في اتجاهه.

الفصل الرابع والثلاثون

التحم جسدهما حتى اختفى الهواء من المسافة الضيقة بينهما، ثم وقفا في مكانهما وجلودهما تشتعل بفعل الاحتكاك وتبادل القبلات، إلى أن شعر ناثان بيد إلسي تسحبه في اتجاه المنزل الغارق في الصمت والنوم. أحاط ناثان جسدها بذراعه بقوة، وأخذ يفكر في أن يتوجه معها إلى الأريكة في غرفة الاستقبال أو يتوجه إلى حجرتها، ولكنه شعر ببعض التردد فهذه الحجرة كانت تخص كاميرون.

ولكن إلسي سحبتة من يده وقالت: «لا، ليس هنا».

شعر بهمستها الحانية تنساب داخل أذنه. فسألها في هدوء: «أين؟».

استمرت في سحبه من ذراعه وهي تقول في نعومة: «من هذا الاتجاه».

تحركا بأقصى سرعة وهما يحيطان بعضهما بعضًا بذراعيهما، يمكنهما التحرك بها بسبب الظلام الذي يلف المنزل، حتى دارا حول الناحية المقابلة ووصلا إلى الممر الخلفي.

تذكر ناثان فجأة كل ما حدث بينهما منذ عشر سنوات، تذكر كيف دفعها على جانب سيارته ذات الدفع الرباعي، وكيف كانت شفتاها ناعمتين ودافتين وحلوّتي المذاق في نفس الوقت، تذكر كيف كانت يداها تداعبان جسده قبل أن يفتح الباب الجانبي للسيارة ويُخْرِج بطانية ثقيلة من وسط المُعدات الموجودة في الداخل ويلقيها على الأرض ويبسطها أمامهما.

زادت حرارة اللقاء بينهما بينما تلاقى جسدهما، وبدأت أنفاسهما الحارة تتعانق تحت ضوء القمر، مدت يدها ولمسته في نعومة فشعر بثقل السنين الماضية يتساقط من فوق كتفيه. وبدأت أنفاسه في الانتظام لأول مرة منذ

مدة طويلة لدرجة لا يمكنه تحديدها، كان جسد إلسي دافئًا وناعمًا ويتصرف في حنان، بشكل مفاجئ. فتجمعت في رأسه كل الذكريات الماضية بينهما.

تذكر كل ما حدث بينهما في ليلة اللقاء الأولى، التمدد بجوارها طوال الليل في سلام وراحة، تذكر العمر الذي كان ممتدًا أمامه والاختيارات التي كان من الممكن أن يتبعها قبل أن يتغير كل شيء. تذكر إحساسه لأول مرة في حياته البائسة بأنه في المكان الوحيد الذي يجب عليه أن يكون موجودًا فيه.

ثم أدرك أنه معها في تلك اللحظة ويحيطها بذراعه تحت النجوم الساطعة في ليلة عيد الميلاد، نظر إلى السماء الممتدة فوقه، وشعر بأنه في المكان الصحيح، نظر إلى السماء الممتدة فوقه وشعر بأنه منح فرصة ثانية لإصلاح كل شيء.

في وقت لاحق، عندما بدأت خيوط الفجر الزرقاء الأولى تتجمع في صباح يوم عيد الميلاد، تكثفت أنفاسهما الساخنة على زجاج السيارة ذات الدفع الرباعي وهما يحتضنان بعضهما بعضًا في حنان ودفء ويرفعان بصرهما إلى السماء لمتابعة درجات الألوان اللامعة التي تتغير مع تغير شدة الضوء. وظلا صامتين لوقت طويل، حتى قطعت إلسي الصمت قائلة: «لا أظن أن صوفي أصيبت بسبب السقوط من على ظهر الحصان؟».

- هل هذا حقيقي؟

- نعم، أظن أن كاميرون هو من تسبب لها بهذه الإصابة؟

- بالفعل؟

- لقد رأيت ذلك في تعبيرات وجهه بعد إصابتها، أنا واثقة من ذلك.

ظل ناثان صامتًا يُحدِّق إلى السماء.

- لم يكن هناك شخص غيرهما في حظيرة الخيل عندما وقع الحادث.

ثم ارتكزت إلسي على مرفقها ونظرت مباشرة إليه. وأضافت: «إن صوفي تميل في بعض الأحيان إلى الكسل، لا بد من أنها لم تنظف حسانها في ذلك اليوم أو ربما نظفته بشكل غير جيد، وكان كاميرون في مزاج سيئ طوال اليوم، ربما كان مزاجه أسوأ من المعتاد، لم ألاحظ أنها معه بمفردها في حظيرة الخيل، وإلا كنت...».

صمتت لبعض الوقت.

- لا أعرف ما الذي كان يجب أن أفعله، على كل حال عادا إلى داخل المنزل وصوفي تبكي بحرارة وهي تمسك مرفقها المصاب، وكامبيرون لا يتوقف عن ترديد حكاية الحصان الذي ألقاها من على ظهره، من الممكن أن تسقط من على ظهر الحصان، هذا أمر طبيعي، ولكنها فارسة ماهرة على الرغم من صغر سنها، كما أنها تعرف الطريقة الصحيحة للسقوط من على ظهر الحصان حتى لا تؤذي نفسها، إن كام هو من فعل بها ذلك، لقد رأيت علامات الخوف في عينيه، لقد كان خائفاً عندما أدرك الدرجة التي يمكنه أن يصل إليها.

ظل ناثان صامتا، يُحدِّق إلى السماء الممتدة بلا نهاية.

قالت إلسي: «ما أقوله هو الحقيقة، يجب عليك أن تصدقني».

مدَّ يده ببطء وربت على كتفها: «أنا أصدقك ولكن كل ما في الأمر...».

بدأ ناثان يفكر في نفسه وفي أخيه كامبيرون، وتذكر والده وكيف كان يعاملهما في الصغر وكيف أصبحتا عندما تقدم بهما العمر في النهاية، ثم قال: «كل ما في الأمر أنني أشعر بالحزن الشديد».

بدأت ألوان السماء تميل إلى الدرجات الفاتحة، بينما واصلا النظر إلى بعضهما بعضاً.

مد ناثان أطراف أصابعه ومسح على ذراعها ثم توقف عند كدمة زرقاء بارزة توجد في أسفل مرفقها.

نظرت إلسي في عينيه وقالت: «لم يكن هو السبب في هذا، لقد أصابتنى تلك الكدمة بسبب البقرة الصغيرة قرب السياج عندما كنا معاً».

حرك أصابعه وأمسك كفها الناعمة، كانت هناك علامة جرح قديمة، يبدو أنها ناتجة عن حرق بمكواة ساخنة. نظرا إلى بعضهما بعضاً لفترة طويلة، وتجمعت قطرات صغيرة من الدموع في عينيها، ثم استدارت فأشارت إلى كتفها حيث توجد ندبة أخرى ولكنها أقدم وعلى شكل مختلف، ثم استدارت مرتين، وظهر المزيد من الندوب والعلامات وكأنها صفحات من الألم مكتوبة بعنف فوق جلدها الرقيق.

تذكر ناثان رؤية زجاجة الباراسيتامول الكبيرة الموضوعة بجوار فراشها وقال: «أنا آسف».

- إنه لم يفعل كل هذا في مرة واحدة، لم يكن يضربني في كل يوم، ربما كان يحدث ذلك الأمر مرة واحدة في كل شهر، أو شيء من ذلك القبيل، ولكنه في بعض الأحيان...

- ماذا؟

- كانت الأمور تتطور لتصبح أسوأ من ذلك.

وجد ناثن نفسه مضطراً إلى أن يسألها: «هل لاحظ أحد ما يحدث بينكما؟».

مكتبة

t.me/soramnqraa

- لا أعتقد ذلك.

- بالفعل؟

- نعم.

ثم نظرت في عينيه مباشرة وسألته: «هل لاحظت أنت شيئاً مما يحدث؟». شعر ناثن بأن عليه أن يتجاهل هذا السؤال بطريقة غريزية، ولكنه أجبر نفسه وهو راقد بجوارها وينظر إليها مباشرة أن يفكر في الأمر، كان ناثن يعتمد طوال السنوات السابقة أن يخرج من أي حجرة تدخل إليها، وإن اضطر إلى أن يتبادل معها الحديث يجعله سطحياً ومصطنعاً. تعتمد ألا ينظر إليها إلا من خلال إحساسه بالشفقة على نفسه والراء لذاته، تذكر أنه لم يكن ينظر إليها طوال هذه السنوات وكان يتجنب حضورها.

فهزَّ رأسه وقال: «لا، لم ألاحظ شيئاً، عليك أن تصدقيني».

- لا عليك فالجميع لم يلاحظ شيئاً، ربما يكون هاري قد لاحظ شيئاً، ولكنه كان مشغولاً بالعمل طوال الوقت، ولم يكن كاميرون يترك له مساحة للراحة وبوب...

ثم هزَّت كتفها في يأس: «كان بوب ينال حظه من التمر والعقاب ولكن بطريقة كاميرون الخاصة، المسكين لم يكن يدري بما يحدث له، لقد ضغط عليه كاميرون كثيراً، حتى شعر بأن ما يقاسيه هو نمط الحياة الطبيعية».

- وماذا عن ماما؟

ظهرت علامات الضيق على وجه إلسي.

- ماذا؟

- لقد حاولت أن أصارحها بما يحدث في يوم من الأيام، ولكن الحوار لم ينته بشكل جيد.

- ما الذي حدث؟ ماذا قالت لك؟

- لم تهتم في البداية، كانت تعتقد أنه نوع من الخلافات الزوجية التقليدية، لم أكن أعرف إن كانت بالفعل لا تفهم حقيقة الموقف أم أنها كانت تتجاهل ما يحدث بشكل متعمد. حاولت أن أتحدث معها مرة أخرى بعد مرور فترة كافية وفي هذه المرة...

توقفت إلسي عن الحديث لفترة قصيرة، ثم قالت: «في هذه المرة شعرت بالانزعاج الشديد وقالت لي إن إدارة المزرعة أمر شديد الصعوبة وإن عليّ أن أساعد كامبيرون وأدعمه وأن أتوقف عن اختلاق المشكلات، بعدها شعرت بخوف شديد وقلق مضاعف، فلو أخبرته بما قصصت عليها لكان عقابه أسوأ مما يمكنني تخيله، ولذلك توقفت عن الشكوى، ولم أفتح معها هذا الموضوع نهائياً بعدها».

لاذ ناثان بالصمت مرة أخرى، ولكن صمته طال في هذه المرة وهو يراجع كل ما حدث في هذه المزرعة طوال السنوات الماضية، وفي النهاية أخذ نفساً عميقاً وبدأ بالحديث: «كان أبي في الماضي...».

لم يكن يعرف إن كان من المفترض أن يخبرها بمثل هذه القصة، ولكنها قاطعته قائلة عندما لمحت التردد في ملامحه: «أعرف...»، ظهرت على وجهه علامات التعجب، «لقد أخبرني كامبيرون عن الطريقة التي كان يسيء بها معاملتكم».

- هل أخبرك بذلك؟

تضاعفت علامات الدهشة على وجه ناثان، فهو لم يتحدث مطلقاً في ذلك الموضوع، لم يخبر زاندار، ولم يخبر جاكبي ولم يتناقش مع كامبيرون وبوب حول ما حدث لهم في الماضي مطلقاً، لم يتحدث ناثان وشقيقاه عن ذلك الأمر ولا حتى لمرة واحدة منذ وصولهم لسن البلوغ، وحتى هذه اللحظة.

قالت إلسي: «أراد كامبيرون أن يكون مختلفاً عن والده، كان يريد أن يصبح زوجاً جيداً وأباً عظيمًا ولقد حاول بالفعل أن يفعل ذلك، حاول جاهداً ولكن شيئاً ما بدخله لم يكن يسمح له بذلك، فأخذ يتحول شيئاً فشيئاً، في البداية

كنت أساعده، وظللت أشعر بالخوف عليه لفترة زمنية طويلة وراقبته وهو يتغير. وفي النهاية، استيقظت في يوم من الأيام وأنا أشعر بالخوف منه». نظر إليها ناثان في تعاطف.

- هل تعرف ما هو الغريب في الأمر؟ الغريب في الأمر أنه كان يعرف ما سيصبح عليه قبل أن أبدأ بملاحظة ذلك؟

ضربت إلسي بيدها فوق جبهتها بحسرة. وتابعت: «لقد تغير بمرور السنوات حتى أصبح شخصًا مختلفًا تمامًا، ولم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، ولم أكن أملك شيئًا لأدافع به عن نفسي، حتى الحساب البنكي كان باسمه، هل كنت تعرف ذلك؟».

اكتفى ناثان بالصمت.

نظرت إلسي في اتجاه الجراج وسألته: «هل استطعت أن تحدد سبب العطل في سيارتي؟».

- لا.

- أظن أن كاميرون كان يخرب السيارة متعمدًا.

- هل هذا حقيقي؟

- لم يكن يفعل ذلك كثيرًا، ولكنه فعل ذلك بما يكفي، حتى أعلق في الخارج مرة أو مرتين، ولا أقدر على الخروج بمفردي دون علمه، كان يعرف ما الذي يفعله، كانت السيارة تسير لبضعة كيلومترات حتى تتوقف عن الحركة، هل تعرف أنها تعطلت بي في العام الماضي في قلب الصحراء؟ واضطرت إلى أن أنتظره في نقطة وسط المجهول لخمس ساعات كاملة حتى يأتي ويصحبني، لقد جرتني في طريق العودة إلى المزرعة مثل الحيوانات، أصبحت لا أثق بسيارتي، وبالطبع لا أستطيع قيادتها، كان يعرف أنني لو توقفت عن الثقة في سيارتي ولم أعد أستطيع قيادتها سوف أعجز عن اصطحاب الفتاتين في داخلها والرحيل بشكل مفاجئ دون أن يعلم.

استلقت إلسي على ظهرها ونظرت إلى السماء، كانت النجوم خافتة إلى حد بعيد. ثم أضافت: «لم أكن أستطيع الرحيل على كل حال، فقد انتهت صلاحية جواز السفر الخاص بي، ولم يسمح لي بتجديده، ولم تكن الفتاتان تملكان جوازات سفر من الأساس، كما أنه طلب مني أوراق إقامتي حتى يحفظها

وسط الأوراق في الخزانة، وعندما بحثت عنها بعد ذلك لم أستطع أن أجدها، وكذلك رخصة القيادة الخاصة بي اختفت، ولم أكن أحصل على دخل ثابت منذ أن تركت العمل في الحانة، لم تكن لي عائلة ولا أصدقاء حقيقيون لألجأ إليهم، وكان الجميع يحبون كاميرون، ولن يساعدني أحد لو اضطرروا إلى الاختيار بيننا، ثم أدارت رأسها في اتجاهه، «تمامًا، مثلما حدث في الماضي مع جينا مور».

- وماذا عن جلين؟ إنه رجل صالح وشرطي جيد، كان يستطيع حمايتك؟
- وكيف يفعل ذلك؟

نظرت إليه إلسي في جدية، أدرك ناثان أنها تتساءل بشكل حقيقي ولا تسخر من اقتراحه.

- كيف يستطيع أن يحميني؟ إنه على بُعد ثلاث ساعات بالسيارة عن هنا، وهذه المسافة على اعتبار أن الحظ حالفني ولم يغادر مركز الشرطة، كيف يمكنه أن يحميني من زوجي الموجود في الغرفة المجاورة؟ هل تعلم ما الذي يمكن لشخص غاضب أن يفعل في ثلاث ساعات؟

لم يقل ناثان شيئاً فقد كان يعلم ما الذي يمكن أن يحدث في هذه الفترة الطويلة.

- هل تعلم أن الحوادث يمكن أن تقع هنا بمنتهى السهولة، ربما أكون أنا من يسقط عن حصاني في المرة التالية، ولكن بدلاً من أن تُكسر يداي، سوف يدق عنقي وربما أتعرض إلى حادثة سيارة أو ربما أفقد ذراعي بسبب إحدى الآلات الزراعية، وربما أنجو من كل ذلك، ولكن ماذا عن صوفي وماذا عن لو؟

بدأ ناثان يفكر في ما تقوله ثم أجبر نفسه على التوقف عن التفكير في ذلك الأمر.

استمرت إلسي في الحديث: «تطورت الأمور للأسوأ خلال الشهور القليلة الماضية، منذ أن اتصلت به جينا مور في مركز الشرطة، لذلك اضطررت إلى أن أضع خطة بديلة في حالة الطوارئ، فربما اضطررت إلى أن أرحل في عجالة، بدأت بجمع النقود، كنت أخفي كل ما يمكنني الحصول عليه من عملات نقدية صغيرة، كنت أخفي بعض الملابس والألعاب التي تخص الفتاتين، كنت أتصرف بحذر حتى لا يلاحظ كاميرون ما يحدث، ولكن لو

أثارت الأمر فاضطرتت إلى أن أعيد الكثير من الأشياء إلى مكانها الأصلي، وبدأت البحث عن بعض المستندات والأوراق المهمة، كشهادات ميلاد الفتاتين وأوراق الإقامة الخاصة بي، وعندما حصلت على ما أريد. اضطرتت إلى أن أتجه إلى مكان بعيد من أجل إخفائها عن الأنظار».

بدأ ناثن يتخيل منظر إلسي وهي تحفر التربة الحمراء بجوار قبر مربى الماشية تحت أشعة الشمس الحارقة حتى تنجح في إخفاء أشياءها.

- هل أخفيت تلك الأشياء عند قبر مربى الماشية؟

- نعم، إنه بعيد عن هنا وفي الطريق إلى المدينة، شعرت بأنه أفضل مكان لإخفاء مثل هذه الأشياء، حتى لو نجح كاميرون في العثور عليها...

ثم توقفت عن الحديث.

- على كل حال، وضعت كل شيء في مظروف ووضعته داخل حقيبة بلاستيكية ثم دفنتها.

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- أذى كاميرون صوفي، كانت تلك هي المرحلة الأخيرة، أو هكذا كنت أردد داخل نفسي دائماً، كنت أقول لنفسي إن إيذائه لي ربما يكون خطأً، ولكن إيذائه للفتاتين فهو أمر مختلف تماماً لا يمكنني السكوت عليه.

ثم اعتدلت في جلستها.

- في صباح اليوم التالي اصطحبت لو وصوفي في السيارة المخصصة للعمال وانطلقنا في طريقنا ولكنها كانت خطة في منتهى الحماسة، لم أكن قد ادخرت ما يكفي من المال، ولم يكن الوقود المتوافر في السيارة يكفي لأن يوصلنا إلى أي مكان بعيد، كان عليّ شراء الطعام والماء وتوفير مكان للإقامة من أجل الفتاتين عوضاً عما تركناه في المزرعة، وربما اضطرتت إلى أن أحصل على استشارة قانونية أو استخراج مستندات وأوراق حكومية، لم يكن معي ما يكفي لأن أوفر سبل المعيشة حتى لفترة قصيرة من الوقت.

ثم أشاحت بنظرها للخارج لمتابعة ألوان الأفق الممتد الذي اكتسب ألوان الفجر الذي بدأ يتكون.

- لذلك عدت مرة أخرى، أليس كذلك؟

- كان تصرفاً غيبياً للغاية، وكرهت نفسي بسببه لفترة طويلة، ووقفت لبعض الوقت أمام ذلك القبر اللعين، ولم أحفر حتى لأستخرج المظروف المدفون في أسفله، ثم وضعت الفتاتين في السيارة مرة أخرى، وقدت السيارة في طريق العودة إلى المنزل، كانت هذه أصعب رحلة خرجتها في حياتي، شعرت الفتاتان بالحيرة الشديدة ولم أستطع أن أجد عذراً مناسباً يقنعهما. مكتبة سر من قرأ

- وماذا حدث بعد ذلك؟

هَزَّتْ إلسي رأسها بأسى: «بعد ذلك بدأت بجمع الأغراض التي أحتاجها بسرعة شديدة»، ثم هزت رأسها مرة أخرى، «لاحظ كاميرون ما يحدث، أنا متأكدة من هذا، لذلك كان يراقبني طوال الوقت، ولم يدعني أغيب عن نظره، في يوم من الأيام اضطر هاري إلى أن يتشاجر معه من أجل أن يذهب لإصلاح برج تقوية الإرسال اللاسلكي، في طريق تل ليمان، فقد أهمل إصلاحه لفترة طويلة من الوقت، في صباح ذلك اليوم الأخير، عندما توقف كاميرون بالسيارة أمام المنزل قبل أن يرحل...»، ضمت حاجبيها وكأنها تتذكر شيئاً ما، «كان كاميرون يشعر بتوتر شديد وكأنه يشعر بأن مكروهاً سوف يصيبه، سألت هاري إن كان سيذهب لإصلاح برج الإرسال بصحبة بوب، فأخبرني بأنه سيفعل، ولكنه نظر إليّ بطريقة غريبة فعرفت أنه يكذب».

استرخت إلسي مرة أخرى وفردت ظهرها فوق أرضية السيارة. وتابعت: «كان ينظر في الليلة السابقة إلى دفتر الرسومات الخاصة بلو، أظن أنه رأى لوحتها لقبر مربى الماشية، وربط وجودي مع الفتاتين هناك بما يحدث هنا في المزرعة وتوصل إلى شيء ما، عندما عرفت بأنهم وجدوا جثته في ذلك المكان، انتظرت أن يسألني أحدهم عن ذلك المظروف المخبأ هناك».

تذكر ناثنان في تلك اللحظة جسد كاميرون الممدد في تلك الحفرة المظلمة العميقة تحت أكوام من التراب، ثم قال: «لم يجدوا معه شيئاً عندما وجدوا جثته، وبالتأكيد لم يكن معه مظروف مغلف يحتوي النقود والوثائق الرسمية». ردت إلسي: «أعرف هذا، ولكنني شعرت بالخوف، ظننت أن المظروف ما زال مدفوناً هناك، وكنت أخشى أن يعثر عليه أحد ما وفي هذه الحالة ربما يعتقد أنني...».

- ماذا؟

- أن لي علاقة ما بما أصابه هناك.

ظهرت على وجهها بوضوح علامات الإرهاق والنمش مع زيادة الضوء الساطع، السماء أصبحت مضاءة الآن بنور الصباح وسوف تستيقظ العائلة في أي وقت.

- في اليوم السابق للأمس، كانت فرصتي الوحيدة للذهاب إلى هناك فأخذت السيارة وتوجهت إلى مقبرة مربي الماشية وحفرت الأرض في نفس البقعة التي كنت أخفيت فيها المظروف.

تذكر ناثنان رؤيتها راكعة على ركبتيها ويدها ممدودة في اتجاه الأرض وكتفها تتحركان في حركة بسيطة ولكن واضحة.

- إذا فقد استرجعت أشياءك المدفونة هناك؟

هزت إلسي رأسها وقالت: «لا، لم أجد شيئاً، اختفى المظروف من مكانه». حَدَّقَ إليها ناثنان بدهشة: «هل أنتِ واثقة من هذا؟».

- واثقة تمامًا.

قال ناثنان بدهشة: «ولكن، إن لم يكن هناك، ولم يكن بصحبة كاميرون، فأين هو؟».

ألقت الشمس المتكونة في السماء ضوءها الساطع على وجه إلسي وهي تقول: «لا أعلم».

الفصل الخامس والثلاثون

وقف ناثان يتأمل لوحة كاميرون الزيتية، لم يزل المنزل هادئاً ولم يصحُ أحد بعد. حرص ناثان على أن يقضي في أحضان إلسي أطول وقت ممكن. فظلاً مرتخيين تحت الغطاء في مؤخرة سيارته يتهامسان ويتأملان النجوم. ثم تحركا، كلُّ في طريق مختلف، من المتوقع أن تصحو الفتاتان في أي وقت لأنه صباح عيد الميلاد.

قال ناثان وهو يغلق سحاب بنطاله الجينز: «ربما كان دينغو».

ونظر إلى إلسي فشعر بحنين دافئ يسري بين عروقه.

قالت إلسي وهي تمرر أصابعها بين خصلات شعرها: «نعم، ربما يكون دينغو. أعرف أن حيوان الدينغو يستطيع أن ينبش في الأرض ويحفر مثل هذه المسافة بمخالبه القوية، ولكنني ما زلت أشعر بالقلق».

قال ناثان: «لعله ألقاها في مكان ما وسط الصحراء عندما لم يجد بداخلها شيئاً يثير اهتمامه، لعل المظروف مدفون تحت كتلة كبيرة من الرمال في هذه اللحظة».

- نعم، لقد قال بوب إنه شاهد دينغو يشم الأرض في تلك المنطقة.

- نعم، هذا صحيح.

ثم استغرقا في هدوء لعدة لحظات، قبل أن يقطعه ناثان قائلاً: «أعلم أن بوب قضى بعض الوقت بمفرده بجوار قبر مربى الماشية، أقصد.. قبل أن يصل إليها شخص آخر، ولكن...».

وقف ناثان يتخيل المشهد مرة أخرى، كان وجه بوب متربباً بالفعل، ولكنه كان متفاجئاً بوجود تلك الحفرة بجوار جثة كاميرون الملقاة مثل ما حدث للجميع.

استغرق ناثنان في التفكير لبعض الوقت، وقال لنفسه: ربما أخذ بوب بعض الأشياء من جيب كاميرون، ولكنه حرص على ألا يصرح بذلك في صوت عالٍ.

- أعتقد أن بوب كان سيخبرني بشيء، لو عثر على المظروف بداخل تلك الحفرة.

قالت له إلسي بصوت منخفض يكاد يكون همساً وهما يقتربان من المنزل: «ذلك صحيح، وخاصة بعد انزعاجه مما قد تؤول إليه إدارة المزرعة في المستقبل».

شعر ناثنان ببعض الانزعاج ثم قال بصوت متردد: «لا أعتقد أن جينا مور قد عثرت على هذا المظروف».

- في الواقع، لا فرصة لديها لتعثر عليه مطلقاً؟

توقفاً في مكانهما للحظة. ثم قال ناثنان: «هل تظنين ذلك حقاً؟».

هزّت إلسي رأسها مؤكدة: «أؤكد لك».

- حسناً، وأنا كذلك أوافقك الرأي.

وقفا ينظران إلى بعضهما بعضاً لعدة لحظات أخرى في صمت، ثم صعدا السلالم الخشبية المؤدية إلى الشرفة، فتح ناثنان باب المنزل وتسللت إلسي إلى الداخل على أطراف أصابعها. ثم نظرت إلى ناثنان وقالت بابتسامة ودودة: «أشكرك يا ناثنان».

- أنا ممتن لك يا إلسي.

كان يمكنه أن يلمح ابتسامتها المشرقة وهي تختفي مبتعدة في نهاية الممر.

جلس ناثنان على الأريكة يتطلع إلى لوحة كاميرون الفنية، استطاع أن يحدد المكان الذي وُجدت فيه الحفرة الحقيقية فوق اللوحة المرسومة، كانت تلك البقعة ممهدة وناعمة لم يلمسها أحد، كما كانت شجرة عيد الميلاد واقفة تلمع بعد أن أعادها أحدهم إلى نفس مكانها في الركن بعد ما حدث لها بسبب مشاجرة الأمس.

سمع ناثنان أصوات خطوات صغيرة تقفز في الممر ثم ظهرت الفتاتان عند مدخل الحجرة، كانتا تحملان بعضاً من صناديق الهدايا بين ذراعيهما

والحماسة تبدو ظاهرةً على وجهيهما على الرغم من حالة البكاء التي انتابتها بالأمس.

استطاع ناثن أن يسمع صوت المياه المنسابة من الحمام في نهاية الممر وبعد مرور دقيقة واحدة ظهر بوب وهو يسير في الممر مترنحًا ويمسك في يديه زجاجة من البيرة.

قال بوب: «ما هذا؟ هل هذا صباح عيد الميلاد؟».

ظهرت ليز وعلى وجهها ملامح العبوس وهي تقول: «أين زاندار؟».

أجاب ناثن: «سوف أذهب للبحث عنه».

قالت صوفي بصوتٍ لا يخلو من الحماسة، وناثن يجاهد ليقف في مكانه: «سوف نبدأ بفتح الهدايا أيها العم ناثن ولن ننتظر عودتك».

كان زاندار مستغرقًا في نومٍ عميق، وشعره الأسود الناعم مفرد فوق الوسادة، استرجع ناثن ذكريات الماضي عندما شاهد ابنه نائمًا في ذلك الوضع. اعتاد زاندار في الأعوام السابقة أن يوقظ ناثن في صباحات أعياد الميلاد التي يقضيها معه.

تذكر ناثن أن ذلك هو عيد الميلاد الأخير الذي سيقضيانه معًا، وأن ابنه سوف يصبح بالغًا مكتمل النمو في العام القادم. تفقد ناثن أرجاء الحجرة فوجدها شبه خالية حيث حزم زاندار بعض أمتعته استعدادًا للرحيل.

- ما الذي تفعله هنا؟

- كنت أشاهدك وأنت نائم يا ابني ووريثي.

ابتسم زاندار ابتسامة عذبة: «يا له من تصرف عجيب».

- حسنًا، ها أنت ذا قد استيقظت مبكرًا، عيد ميلاد سعيد.

نظر ناثن في اتجاه زاندار بتركيز فوجد ملامحه أقل غضبًا مقارنةً بالليلة الماضية، فشعر ببعض السعادة.

- يبدو أنك حظيت بنوم جيد.

- نعم.

ثم أضاف زاندار وهو يتأمل الكدمة التي حول ملامح ناثن: «ما الذي أصابك؟».

- هذا.. إنه لا شيء، يجب عليك أن ترى ما الذي حدث للطرف الآخر.

- نعم، لقد رأيت بوب بالأمس، لقد كان على خير حال.
ظل ناثن ينظر إلى زاندار بطريقة مربكة، ثم سأله: «ما الذي تخطط له بعد ذلك؟».

- ماذا تقصد...؟

قال زاندار: «لا أقصد شيئاً محدداً، ولكن لماذا تظهر عليك علامات السعادة؟».

- أوه.. نعم، هذه احتفالات أعياد الميلاد، أليس كذلك؟

- نعم، إنها كذلك.

- حسناً، هيا بنا إلى الخارج، فالفتاتان بدأتا في فتح الهدايا بالفعل.

اعتدل زاندار في مكانه واتكأ بيده على طرف الوسادة.

- هل تفعلان ذلك؟ هل يتظاهر الجميع بأنه لا شيء حدث، ويحتفلون بعيد الميلاد؟

قال ناثن ببساطة: «يا صديقي، إنهما مجرد فتاتين صغيرتين، لقد كنت في مثل حماسهما عندما كنت صغيراً»، ثم نظر في اتجاه الباب، «على كل حال، ارتدِ ملابسك وانضم إلينا عندما تصبح جاهزاً. سأنتظرك بالخارج».

قال زاندار متلعثماً: «أبي، لا أظن أن صوفي كسرت ذراعها بسبب السقوط من فوق ظهر الحصان»، جلس ناثن في مكانه ونظر إليه، «كنتُ أتحدث معها بالأمس وكادت تخبرني بشيء ما، ولكنها توقفت عن الحديث وظهرت عليها علامات التردد والندم وكأنها سوف تبوح بسر من غير المفترض أن تبوح به».

أدرك ناثن أن الجنازة فتحت بوابات الكلام على مصراعها كالفيضان، وأن الجميع سوف يتحدث عن كاميرون بصراحة لم تكن تواتيهم الجراءة على الحديث بها عندما كان بينهم.

نظر ناثن بحمبة إلى ابنه الذي أصبح راشداً في العديد من النواحي، وظهرت عليه علامات الذكاء الشديد، لم يعد طفلاً صغيراً واستطاع أن يكشف بمفرده العديد من الأسرار والخفايا المخبأة داخل ذلك المنزل.

قال ناثن: «نعم، لقد تسبب لها كاميرون بذلك، لقد أخبرتني إلسي في الليلة الماضية».

ظل زاندار صامتًا لبعض الوقت ثم قال: «ولكنها مجرد طفلة صغيرة، كيف استطاع أن يفعل ذلك؟».

- لا أعرف يا صديقي.

- هل تظن أن كاميرون شعر بالندم على ما فعله؟

- أتمنى ذلك.

- ربما كان ذلك هو السبب الذي دفعه إلى ترك السيارة والابتعاد عنها.

- نعم، ربما يكون كذلك.

- وهل الفتاتان في حالة جيدة؟

سمع نااثان صوت الفتاتين وضحكتهما في نهاية الممر، على مسافة غير بعيدة من قبر كاميرون. فنظر إلى زاندار قائلًا: «إنهما بخير الآن، لماذا لا نذهب وننضم إلى الجميع في الخارج؟».

رفع زاندار جسده ووقف في مكانه، ثم قال: «أبي».

- نعم زاندار.

- أعتذر عن كل ما حدث خلال اليومين الماضيين.

وبدأ زاندار بترتيب الفراش بنفس الطريقة التي اعتادها منذ كان صغيرًا.

- لقد كنت أشعر بالقلق حيالك.

قال نااثان في حماس: «لا عليك، لقد كنت محقًا، لقد تحدثت مع ستيف بالأمس وسوف أذهب لزيارته في العيادة، كما أنني سوف أبدأ في التفكير في إجراء تغييرات جذرية في حياتي، ولكنني لن أستطيع أن أعدك أن أنتقل من هنا يا صديقي، يجب أن تعرف ذلك».

ظهرت خيبة الأمل على وجه زاندار، ولكن نااثان أراد أن يكون صريحًا معه، فهو لن يستطيع أن ينتقل ببساطة إلى المدينة لأسباب مختلفة. بعضها يتعلق بالظروف المادية، وأخرى متعلقة بظروف العمل في المزرعة، وهناك أسباب أخرى لا تقل أهمية بالنسبة إليه، فالحقيقة أن نااثان يحب المعيشة في المزرعة ويحب الظروف القاسية المحيطة بها.

يحب نااثان أن يشعر بحرارة الشمس الحارقة وهي تراقب الجميع من أعلى، وتضرب غضبها على كل شيء، يحب مراقبة قطعان الماشية وهي تتحرك في بطء ويحب مراقبة ألوان المحاصيل وهي تكبر وتتغير مع مرور الوقت،

ويحب مشاهدة ذرات الغبار المتطايرة في الأنحاء. كانت هذه الأشياء البسيطة هي أقرب الأشياء التي تُدخِل بعض السعادة على قلب نااثان ولم يكن مستعدًا إلى الابتعاد والتخلي عنها بأي ثمن. لو لم يستطع زاندار أن يدرك ذلك فإن نااثان لن يشرح ذلك له، إنها أشياء بسيطة وغير ملحوظة ولكنها كانت كل ما يمثله الوطن بالنسبة إليه.

مد نااثان يده وأحاط ابنه بذراعيه وهو يقول: «سوف يصبح كل شيء على ما يرام، أعدك بذلك».

بادل زاندار الحزن، فأضاف: «يمكنك أن تثق بي».

قال زاندار: «أعلم ذلك».

ثم تفرقا وترك نااثان زاندار حتى يستعد ويرتدي ملابسه.

في الطريق إلى غرفة المعيشة كان يستطيع سماع الأصوات الناتجة من تقطيع الأوراق الملونة التي تغلف علب الهدايا، كان الصوت لطيفًا ومبهجًا. اتجه نااثان إلى مصدر الصوت ولكنه في الطريق لمح الهاتف الأرضي فتوقف أمامه ثم استدار وأعاد النظر إلى غرفة زاندار، واتجه بلا تردد تجاه الهاتف ورفع السماعة وبدأ يطلب رقمًا. في البداية لم يكن يتذكر الرقم بشكل صحيح، إذ لم يتصل به منذ فترة طويلة ولكنه فعل في النهاية.

- مرحبًا.

جاء الصوت من الطرف الآخر قريبًا، ولكنه مألوفٌ بالنسبة إليه.

- جاكى، هذا أنا نااثان.

ساد صمت مرتبك ولكن جاكى قالت في النهاية: «هل حدث مكروه لزاندار؟».

- لا، إنه بخير حال.

ثم أطلق نفسًا عميقًا وهو يضيف: «في الحقيقة، كنت أرغب في التحدث إليك».

أطلقت جاكى زفرة تنم عن الشعور بالارتياح.

- أوه.

ثم عادت للصمت مرة أخرى.

- حسنًا.

كان صوتها متفاجئاً مما يحدث، ولكنه أقل عدائية من الطريقة التي كانت تخاطبه بها خلال الفترة الماضية أو عبر المحامين.

- حسنًا، أريد أن أعتذر إليك عما فعلته بوالدك في ذلك اليوم، كان ذلك خطأً كبيرًا ولم يكن عليّ أن أتخلى عنه في هذه اللحظة مهما كان حجم المشكلات بيني وبينك. لو كان بإمكانني أن أعود إلى الوراء وأغير ما حدث لفعلت.

- أوه.

سادت فترة من الصمت المرتبك مرة أخرى، ثم قالت: «أشكرك».

- وأريد أن أعتذر مرة أخرى لأنني لم أكن زوجًا جيدًا بالنسبة إليك، وأبًا مثاليًا بالنسبة إلى زاندار.

توقع أن تصمت لفترة أطول هذه المرة ولكنها لم تفعل وأجابت على الفور: «لقد كنت دائمًا تمنح زاندار ما يحتاج إليه».

ثم أضافت بعد لحظة من التردد: «اعذرني يا ناثان، هل عملت فحوصًا للتأكد من إصابتك بسرطان الجلد؟ هل كانت النتيجة سيئة؟».

- ماذا؟ لا، لا، ليس الأمر كذلك.

- حسنًا، ولماذا تثير كل تلك الأمور؟

- كل ما أردته... حسنًا، اعتقدت أن ذلك هو الوقت المناسب.

كان هذا حقيقيًا، فقد اكتشف ناثان أن البقاء غاضبًا لعشر سنوات متواصلة أمرٌ بالغ الصعوبة بالنسبة إلى الإنسان.

بدأت جاكى بالاستسلام وتحديثًا لبعض الوقت، كان الحديث قريبًا ومتقطعًا، كان الأمر يشبه إعادة تشغيل ماكينة قديمة عاطلة عن العمل منذ وقت طويل. سألتها ناثان عن أحوال مارتن فأخبرته بأنه بخير، ويحقق نجاحًا هائلًا في مجال عمله، وأخبرته أنها تخطط لأن تعيد تزيين غرفة زاندار وتجدها أثاثها.

بدأ ناثان بالتجول بعينه في أرجاء المكان فلاحظ وجود مفاتيح سيارة كاميرون معلقة وسط باقي مفاتيح العائلة في نفس المكان الذي كان قد تركها به منذ يومين.

انقطع الصوت فجأةً في الطرف الآخر من المحادثة التليفونية، فأدرك ناثان أنه فَوَّتَ شيئاً في المحادثة فقال: «آسف، ماذا هناك؟».

شعر ناثان بحالة من الإحباط وخيبة الأمل تسود الناحية الأخرى من الهاتف مما أثار لديه العديد من الذكريات الماضية، ولكنه تجاهل كل ذلك.

- آسف، لم أسمع بوضوح.

- كنت أشكرك بسبب تفهّم موقف زاندار وحاجته إلى البقاء في المنزل الفترة القادمة بسبب الدراسة والامتحانات.

- نعم، لا عليك.

- أعلم أنك تشتاق إليه.

- أشتاق إليه كثيرًا.

- وهو يشتاق إليك أيضًا طوال الوقت.

- هل هذا حقيقي؟

- بالطبع، فأنت والده.

شعر ناثان بشيءٍ من الود والحنين يسري بينهما وتذكر الأسباب التي جعلته يهيم عشقًا في الماضي بهذه الفتاة ذات الشعر الذهبي على الطرف الآخر من السياج.

- إن الفترة التي أقضيها بصحبة زاندار، هي أفضل ما يحدث لي خلال العام، إنه رائع حقًا، يجب أن تشعري بالفخر تجاهه.

- ويجب أن تشعري بالفخر كذلك يا ناثان.

لاحظ ناثان شيئًا يتحرك، فنظر في اتجاهه، كان زاندار خارجًا من غرفته فأشار إليه وهو يقول: «حسنًا ها هو زاندار، سوف أعطيه الهاتف ليتحدث إليك، عيد ميلاد مجيد يا جاكبي».

أمسك زاندار سماعة الهاتف، تغمره دهشة شديدة مما يحدث للدرجة التي جعلت ناثان يشعر بالزهو الشديد والخجل الشديد في نفس الوقت.

وبينما كان يسير في الطريق مبتعدًا لمحت عيناه مفاتيح سيارة كامبيرون مرة أخرى، وأخذ على طول الطريق إلى القاعة الرئيسية يحاول تذكر ما إذا كانت المفاتيح قد احتوت على ذرات من الغبار الأحمر عندما قاد السيارة في طريق العودة إلى المنزل في ذلك اليوم المشؤوم، وهل نظّف المفاتيح من

الغبار الأحمر أم أنها كانت نظيفة بالفعل. وبدأ يسأل نفسه عن السبب الذي جعل كاميرون يلقي المفاتيح بلا اكتراث على المقعد المجاور له بطريقة لم يعتد فعل مثلها من قبل، فهمس صوت بداخله بأن أخاه لم يكن ليترك مفاتيحه ملقاة بهذا الشكل.

قطع أفكاره صوت صوفي وهي تضحك بمرح وتجري في اتجاهه ولو تلحق بها. وخلفهما خرجت ليز من غرفة الاستقبال وهي تحمل كيسًا من البلاستيك الأسود يحتوي شرائط ملونة وبقايا الأوراق اللامعة الخاصة بتغليف الهدايا.

أمسك ناثان بمفتاح سيارة أخيه ووضعها في جيبه بسرعة وبادلها بالابتسامة، ثم نظر في اتجاه ليز فوجدها في حال أفضل مما كانت عليه بالأمس. شعر بالسعادة لتحسّن حالتها، خصوصًا عندما مرت بجواره في طريقها إلى المطبخ وأمسكت بمرفقه في رفق ونظرت إليه مبتسمة، فشعر وقتها بأنها سامحته على كل شيء.

- سوف أذهب لإعداد طعام الغداء مبكرًا، يمكنك أن تقدم المساعدة إذا أردت، سوف أمنح العمال الرحل اليوم إجازة من العمل.

ثم ندهت بصوت عالٍ: «صوفي...».

فجاءها صوت عبر المنزل: «نعم يا جدتي».

- هل يمكن أن تخبري سايمون وكاتي أن طعام الغداء سيُقدّم في الساعة الثانية عشرة؟

رد الصوت: «نعم، سوف أفعل».

وسمع صوت أقدام صغيرة تهرع في اتجاههما.

ثم ظهرت صوفي وهي تقول بمرح: «هل يمكن أن أساعد على تحضير الباف⁽¹⁾؟».

فظهرت لو من خلفها: «لا، سوف أساعد أنا».

قالت ليز بابتسامة وعيناها تدوران في محجريهما: «يمكن لكليكما تقديم المساعدة، ولكن ما زال الوقت مبكرًا على تحضير الباف».

(1) باف بهاجي، طبق هندي يتكون من الخبز والخضراوات المتنوعة والبهارات الحارة. (المترجم).

واتجهت ليز بصحبة لو إلى المطبخ، بينما هرعت صوفي إلى الخارج لتنفذ المهمة الموكلة إليها.

سادت فترة قصيرة من الصمت، ثم عادت صوفي مرة أخرى مسرعة وعلى وجهها علامات القلق والانزعاج الشديد. قالت في حالة من الارتباك: «لقد غادرت».

ظهر هاري من خلف ناتان.

- من الذي غادر؟

- سيارة العمال الرحل، لقد غادرت.

قال هاري: «هل رحلا؟».

- سيارتهما غادرت ولكن عربة النوم الخاصة بهما ما زالت موجودة في مكانها.

اتجه هاري إلى الخارج وناتان يسير في أعقابه مسرعًا.

كانت السيارة الخاصة بالعمال الرحل قد اختفت بالفعل، وأصبح واضحًا أنهما غادرا ولم يعد لهما وجود في المزرعة.

السيارة كانت موجودة في مكانها في الليلة السابقة، بجوار عربة النوم الخاصة بهما، وكذلك في الليالي السابقة، كانت تقف دائمًا في نفس المكان بلا حراك، ولكن الآن لم يعد للسيارة وجود وكان مكانها شاغراً.

هرعت صوفي إلى المكان الذي كانت تقف فيه السيارة، وأشارت بيدها وهي تقول: «لقد قلت لكم، لقد غادرت».

وفجأة فتح باب عربة النوم الخاصة بالعمال الرحل وظهر رأس سايمون، نظر الجميع إليه في دهشة، وبادلهم النظرات بعينين منتفتحتين وشعر بلا تصفيف مما يدل على أنه استيقظ من النوم للتو.

لاحظ ناتان في تلك اللحظة خروج كل من إلسي وبوب إلى الشرفة في محاولة لمعرفة السبب وراء كل هذه الضوضاء التي تحدث بالخارج.

أغمض سايمون عينيه بسبب الضوء الشديد في الخارج ورفع ذراعه عاليًا ليحجب أشعة الشمس، وهو يقول: «هل كاتي داخل المنزل؟».

ثم وقف في مكانه لعدة لحظات قبل أن يدرك أن الجميع يوجه أنظاره إليه في دهشة بالغة. بدأت عيناه تتحركان في توتر واختفت منهما كل آثار النعاس قبل أن يصيح: «أين سيارتي اللعينة؟».

هرع إلى خارج عربة النوم، وأخذ يدور في الأثناء بثيابه الداخلية القصيرة بحثًا عن السيارة ولكنه لم يجدها.

سأله هاري: «أين كانت مفاتيح السيارة يا صديقي؟».

توقف سايمون عن البحث وهرع إلى الغرفة باحثًا عن مفاتيح السيارة، أخذ يبحث في كل مكان بهلع شديد ولكنه لم يجد شيئًا. خرج سايمون إليهم فسأله هاري بسرعة قبل أن يبادر هو بالأسئلة: «هل هناك أي علامة على مكان كاتي بالداخل؟».

- لا، لقد اختفت كذلك، وقد أخذت حقيبتها...

ثم توقف في مكانه، وظهرت عليه علامات الإدراك لما يحدث حوله.

- ما هذا؟ هل أخذت كاتي سيارتي ورحلت؟

أجاب هاري: «يبدو أن ذلك ما حدث».

ظهر الذهول على وجه سايمون وقال: «ولكن لماذا تأخذ سيارتي؟ اللعنة عليها»، ثم نظر إلى ناثان، وكأنه يوجه إليه السؤال على وجه التحديد، «إنها سيارتي، كيف أمكنها أن تفعل بي هذا؟».

قال ناثان بصوت مرتعش جاهدًا في جعله محايدًا: «لقد أخبرتني أنها تخطط للرحيل».

- حسنًا، كنا نخطط للرحيل، ولكننا لم نحدد بعد الوقت المناسب لذلك، ما الذي حدث؟

ثم استدار بسرعة مرة أخرى بحثًا عن السيارة، ونظر بحسرة وغضب إلى مكان الانتظار الفارغ وهو يقول: «اللعنة.. اللعنة.. اللعنة.. لا أستطيع أن أصدق ما فعلته».

سأله هاري وهو يبدو مستمتعًا إلى حدٍّ ما بما يحدث: «ألم تسمعها وهي تجمع أشياءها وترحل؟».

قال سايمون بغضب: «لا، أنا أتناول أقرصًا منومة في المساء، فقد كنت أشعر بتوتر شديد في الفترة الأخيرة، اللعنة...».

ثم سألهم بحدة: «وهل سمعها أحدكم؟».

تذكر ناثنان في تلك اللحظة صوت محرك خافتاً سمعه بالأمس وهو ينام بين أحضان إلسي، ولكنه تجاهل الصوت وظن أنه صادر من المولد الكهربائي، ونظر إلى إلسي التي ترقد بجواره ونسي الأمر في نفس اللحظة. نظر إلى سايمون فوجده يهمس إلى نفسه حانقاً بأصوات غير مفهومة، فحاول أن يركز في حركة شفثيه حتى نجح في فهم بعض الكلمات مثل: «العاهرة الغبية.. كيف فعلت ذلك...؟ ترحل في جناح الظلام، إنني أستحق من هي أفضل منها، كنت أخطط لكل شيء في المستقبل، ولكنها لم تمهلني الوقت الكافي»، ثم صرخ سايمون بصوت عالٍ: «كيف يفترض أن أخرج من هذا المكان القذر من دون سيارتي؟».

كانت صرخات سايمون حادة وقصيرة تشبه أصوات الفئران، فلم يستطع بوب أن يمنع نفسه من الضحك وهو واقف في الشرفة يتابع ما يحدث. لمح ناثنان ابتسامة سخرية في عيني هاري الذي قال لسايمنون بطريقة غير ودية: «يمكنني أن أوصلك في الغد إلى المدينة بسيارتي يا صديقي». قال سايمون بصوت متقطع بفعل الغضب: «وما الذي سيحدث بعد ذلك؟». قال هاري: «لا أعرف، يمكنك أن تتدبر أمرك هناك، أو تبحث عن عمل آخر».

نظر إليهم سايمون مرة أخرى ونظر في اتجاه البقعة الخالية التي كانت تشغلها سيارته، ثم استدار وعاد إلى الغرفة، حيث كان يقيم بصحبة صديقه، ثم أغلق الباب خلفه في عنف.

عاد بوب مرة أخرى إلى المنزل وهو يضحك بمرح ولحقت به إلسي، ثم عادت الفتاتان إلى المطبخ، وتبادل ناثنان وهاري نظرات تحمل نوعاً من السخرية المصحوبة بالشعور بالمتعة.

قال هاري: «هيا، من الأفضل أن نعود إلى المنزل».

فقال ناثنان بحزم: «هاري، لم يكن هناك عطل في سيارة إلسي».

قال هاري وهو ينظر إليه بجدية: «لا»، ثم أضاف: «ظننت إلسي أن كامبيرون يعبت بسيارتها، فلم تستطع الاعتماد عليها».

- وهل تظنه فعل ذلك؟

تردد هاري لبعض الوقت ثم قال: «نعم، أعتقد أنه فعلها، فأنا خبير في إصلاح السيارات، ولكن تلك السيارة اللعينة كانت تتعطل دائماً بلا سبب واضح».

ثم هزَّ رأسه، فسأله نااثان: «تقول إلسي إنه كان يفعل العديد من الأشياء الغريبة الأخرى، بخلاف تعطيل سيارتها متعمداً».

فسأله هاري باهتمام: «وما تلك الأشياء الغريبة؟».

قال نااثان: «أشياء مثل الأشياء التي كان يفعلها أبي».

سكت هاري للحظة. فأضاف نااثان: «لا يبدو أن الأمر مفاجئ بالنسبة إليك».

قال هاري: «الأمر ليس مثلما تظن»، ثم نظر في اتجاه المنزل، «اسمع، كارل كان وغداً، عنيفاً، وأحرق، لا شك في ذلك، وربما كان كاميرون عنيفاً مثله ولكنه لم يكن بنفس الغباء. أقصد، أن كارل لم يكن يهتم بأن يعرف الجميع بشأن ما يفعل، ولكن كاميرون كان نكياً وكان يهتم بإخفاء آثاره جيداً. كان كاميرون حريصاً على أن يحبه الجميع وأن ينال الاحترام اللازم وقد نجح في مسعاه، أليس كذلك؟ ولكن تحت هذا الغطاء المزيف...».

ظل هاري صامتاً لفترة طويلة حتى ظن نااثان أنه لن يكمل حديثه.

- كنت أشك طوال الوقت في سلوك كاميرون وبدأت بالتساؤل إن كان مثل والدك، ثم أدركت مع الوقت أنه أسوأ منه كثيراً، فهو أذكى، وقادر على فعل أشياء لم يكن كارل قادراً على فعلها.

- ألم تره مطلقاً يفعل شيئاً من هذه الأشياء بنفسك؟

- لا، ولكنني كنت أستطيع الشعور بما يفعله في الخفاء، وكان هناك العديد من الشواهد مثل رسومات لو الملأى بالحزن والكآبة وذراع صوفي المكسورة بسبب الهراء المتعلق بالسقوط من على ظهر الحصان، ومحاولتهما الدائمة لإخفاء الحقيقة.

- بحق المسيح يا هاري، كان يجب عليك أن تفعل شيئاً حيال ما يحدث.

قال هاري وهو يشير بإصبعه في اتجاه نااثان: «حسبك، أنت لم تظهر في المزرعة منذ مدة طويلة، ربما تزيد على العام، كيف يمكنك أن تطلب مني أن أفعل شيئاً، أو ألا أفعل شيئاً آخر؟ هل تعلم أنني كنت أخفي مفاتيح خزانة الأسلحة عنه حتى لا يفعل شيئاً نندم عليه جميعاً؟ هل تعلم أنني كنت

أرسله في مهمات شاقة وبعيدة طوال الوقت، حتى تحظى الطفلتان بوقت آمن بعيداً عنه؟ هل تعلم أنني كنت أتحدث إليه كثيرًا، عندما بدأ يتوقف عن العمل مؤخرًا؟ وعندما لم يُجدِ ذلك نفعًا تشاجرتُ معه كما أخبرك أصدقاؤك الملاعين من العمال الجوالين».

- كان يمكنك أن تطلب الشرطة.

أجاب هاري بسرعة وبصوت غاضب: «وكان يمكنك فعل ذلك، ولكنك لم تفعل».

ثم أضاف: «في كل الأوقات العصبية التي مرت بينك وبين أبيك، وبينه وبين أخويك وحتى بينه وبين أمك، كان يمكنك أن ترفع سماعة الهاتف وتطلب الشرطة أو تستنجد بشخص ما، ولكنك لم تفعل، ولم يفعل كاميرون وبوب، على الرغم من أنكم كبار بما يكفي لإجراء فعل مماثل، فلماذا لم تفعلوا ذلك؟». فتح ناثن فمه باحثًا عن إجابة مناسبة ثم أغلقه مستسلمًا. وبعد مرور عدة لحظات قال: «لا أعرف».

لم يخطر مطلقًا على بال ناثن أن يطلب المساعدة من أحد، أو أن يتصل بالشرطة وكانت هناك قاعدة غير مكتوبة تمنعه من أن يخبر أحدًا بما يحدث أو أن يطلب المساعدة من الآخرين، لم يكن يتحدث مع أخويه بخصوص الأمر، كان الجميع يعلم أنه من العبث الاستنجد بشخص غير موجود، لم يفكر ناثن في ذلك الأمر من قبل ولكنه شعر بالشعور نفسه الذي كان يعتره طوال الفترة الطويلة التي قضاها في مزرعته بأنه وحيد ولا يوجد من يستطيع الاعتماد عليه سوى نفسه.

قال هاري: «حسنًا، دعني أخبرك بشيء، هل تعلم أنني اتصلت بالشرطة في إحدى المرات؟»، ظهرت على وجهه تعبيرات غير واضحة قبل أن يكمل حديثه: «ولكن الأمور ساءت أكثر».

- لم أكن أعلم بأنك فعلت ذلك.

- لا، ولكن بوب يعلم ذلك جيدًا، في إحدى المرات ساءت الأمور بين كارل برايت وبين والدتك، بينما كنت أنت وكاميرون في المدرسة الداخلية، اتصلت بالشرطة لأطلب المساعدة، ولكن الموقف تعقّد بشكل كبير، وخصوصًا عندما استمر الرقيب يزور المزرعة بشكل متكرر بعد ذلك.

- هل ساءت الأمور إلى ذلك الحد بالنسبة إلى أمي؟

- لا، لقد نال بوب كل الضرر.

صمتا، والتفتا عبر الساحة إلى القبر الواقع على الطرف الآخر.

قال هاري: «أعرف أن بوب ربما يكون عنيدًا، وربما يكون عنيفًا بعض الشيء، ولكنه لاقي الكثير منذ الصغر، لم تكن أنت وكاميرون من تضرر من أفعال والدكما بالقدر الأكبر ولكنه كان بوب، صدقني... فبعد أن كبرت أنت وكام صب عليه كل غضبه، يجب أن تضع ذلك في اعتبارك عندما تتعامل معه، اتفقنا؟».

ظل ناثان صامتًا لفترة قصيرة.

- نعم، أعرف ما حدث له.

بدأ هاري يتحرك في اتجاه المنزل، فتبع ناثان خطواته وعاد إلى الداخل، لمح ليز واقفة في المطبخ، كانت تبتسم وهي تنظر إلى الأسفل وتحرك شفيتها، من الواضح أنها تتحدث إلى إحدى الفتاتين، نظر إليها هاري بارتياح وعاد الهدوء ظاهرًا في عينيه مرة أخرى. وهدأت ملامح هاري، عندما شاهد ليز مبتسمة، واختفى الجمود المعتاد الذي كان يسيطر على وجهه، لأول مرة منذ زمن طويل، كما لاحظ ناثان.

نظر ناثان إلى والدته في المطبخ وأعاد النظر إلى وجه هاري ثم تساءل للمرة الأولى في حياته إن كان هناك سبب آخر دفع هاري إلى البقاء في المزرعة والعمل بها طوال هذه السنوات بخلاف العناية بالأرض والخيول وقطيع الماشية.

في هذه اللحظة تحركت ليز من مكانها فاخفتت عن الأنظار فاخفتت النظرة الهادئة من عيني هاري، ف شعر ناثان بأنه ربما يكون هناك شيء صحيح، بين الأفكار التي تتدافع في رأسه.

خرج الرجلان إلى الساحة مرة أخرى، ووقفوا أمام الشجرة العتيقة التي تظلل المقابر. ثم قال ناثان: «تحدثت إلى ستيف في الليلة الماضية، يعتقد أن كاميرون قد هاجم جينا في تلك الليلة الملعونة ولكنه لا يستطيع تأكيد ذلك.».

اكتفى هاري بهزُّ رأسه.

تحسَّس ناثان مفاتيح سيارة كاميرون المستقرة في جيب بنطاله، ثم سأل هاري: «ماذا تظن السبب وراء اتصالها؟ هل كانت ترغب في أن تقول له شيئًا ما؟».

- لا أعلم، كان يمكنها أن تقول العديد من الأشياء.

- نعم، ولكن هل تعتقد...؟

- اسمع، سوف أخبرك بما أعتقد. في الحقيقة يا صديقي...

فضّل هاري أن يختصر الحديث ويدخل مباشرة في صلب الموضوع: «في بعض الأحيان تنتهي الأمور بطريقة عادلة للجميع، قد يحدث ذلك عن طريق المصادفة أو قد يكون مدبرًا، ولكن الأمور انتهت على نحو ما، ربما يكون جيدًا. إن حفر القبور ليس شيئًا سيئًا في جميع الأحوال، هل تفهم قصدي؟».

ظل هاري مثبتًا أنظاره على القبرين لمرّة أخيرة بينما كانت تيارات الهواء تحمل أوراق الأشجار المتساقطة وتلاعب بها، فتحملها وتطير حولهما. ثم قال هاري بحسم: «والآن، هل ستعود إلى المنزل وتنضم إلى الآخرين؟».

شعر ناثن أن المعدن المصنوعة منه مفاتيح سيارة كاميرون يحك جلده، وتزاحمت في عقله الأفكار، سرق المظروف الخاص بإلسي حيوان الدينغو، كما أن جينا مور ليست قريبة من هذه الأنحاء. أخذ ناثن يحرك المفاتيح بأصابعه وهي في جيبه، وينظر إلى سيارة كاميرون المتوقفة في الممر ولا شيء بجوارها.

ثم نظر إلى هاري وأجاب: «لا، ليس بعد».

الفصل السادس والثلاثون

ما زالت سيارة كامبيرون اللاند كروزر متوقفة في المكان نفسه الذي تركها فيه ناثان وزاندار منذ عدة أيام.

اتبعت دافي خطوات ناثان وهي تشم عقب قدميه ثم لحقته إلى السيارة التي تألفها منذ زمن طويل، وهي تشعر بالسعادة.

جلس ناثان على المقعد الخاص بالسائق، كانت المسافة بين المقعد ومكابح السيارة تناسبه تمامًا، بالضبط كما تركها في المرة السابقة. أخرج المفاتيح من جيبه وأدار المحرك، دار المحرك على الفور كما كان يدور في كل المرات السابقة.

لم يكن هناك أي أعطال في سيارة كامبيرون، على عكس سيارة إلسي المهملة في الجراح، ردد ناثان أن ليس ثمة عدل في ذلك، انتظر ناثان داخل السيارة حتى عمل مكيف الهواء بقوة وكفاءة، ثم خرج من السيارة ليلقي نظرة على مؤخرتها بينما كانت دافي تراقبه.

أخرج ناثان زجاجات المياه وبقايا الطعام المتعفن، وأخرج كذلك المبرد الصغير، بحث في أرجاء السيارة عن شيء مغلف، أو مظروف صغير. فك المسامير التي تثبت الإطارات الاحتياطية وبحث في الجانب الخلفي من الإطار وكل الأجزاء الأخرى المخفية.

فتش رجال الشرطة السيارة مرتين بالفعل، ولكن ناثان كان يظن أن الأمر مختلف هذه المرة فهو الوحيد الذي يعرف ما هو الشيء المفترض البحث عنه.

مد يديه يتحسس سقف السيارة وأسفل المقاعد، ثم مسح على أرضيتها الداخلية بحثًا عن شق صغير يصلح لإخفاء المظروف الذي يبحث عنه. ثم

مد يده لصندوق الأدوات واستخرج مفك براغي وفك مسامير الأرضية للبحث تحتها ثم نزل إلى أسفل السيارة، وبحث في الأجزاء السفلية بعناية. وفي النهاية خرج من أسفل السيارة وفتح غطاء المحرك ليبحث أسفله، عن شيء مُخبأ في الداخل في ركن من الأركان.

ولكن بعد مرور ساعة كاملة بدأ يشعر بخيبة الأمل بعد فشله في الوصول إلى شيء. ففتح إحدى معلبات الطعام المحفوظة وزجاجة من الماء وشارك دافي وجبة غذائه، وبعد مرور نصف ساعة أخرى فتح إحدى زجاجات البيرة الموجودة داخل المبرد، وعاد ليجلس على المقعد الأمامي مستمتعاً ببرودة مكيف الهواء، وأعطى دافي بعضاً من قطع البسكويت التي كان كاميرون يخزنها في صندوق القفازات.

نظر نااثان إلى الفوضى التي نتجت عن عملية البحث، وتأكد من عدم وجود المظروف داخل السيارة، كما تأكد من استحالة اختباء أحد في السيارة دون علم كاميرون.

ارتشف نااثان رشفة من زجاجة البيرة وشعر بالانزعاج، لقد كانت شديدة الحرارة مثل فنجان من القهوة الساخنة، ظل نااثان جالساً في مكانه لفترة طويلة يتجرع البيرة ويفكر في كل ما حدث خلال الفترة الماضية. حتى سمع وقع أقدام تقترب وشاهد خيالاً يتحرك في الطريق إليه. كان بوب هو صاحب الظل المتحرك.

قال بوب: «لقد سمعت صوت المحرك فجئت إلى هنا».

ثم صعد إلى المقعد المجاور للسائق، ظل نااثان صامتاً.

- حسنًا، كنت أبحث عنك.

- هل هذا حقيقي؟

ثم ناوله إحدى زجاجات البيرة الخمس التي وجدها في الجزء الخلفي من السيارة.

ابتسم بوب وقال: «هذه هدية جيدة، ما الذي تفعله هنا؟».

- الحقيقة أنني لا أعرف.

فتح زجاجة البيرة بأصابعه وهو يقول: «لا عليك، جئت لتقديم اعتذاري يا صديقي».

نظر إليه ناثان في دهشة حقيقية: «بالفعل، جئت لتعتذر؟».

- نعم، أنا أعتذر بشأن كيلى، لقد كان خطي ويجب أن أعترف بذلك، ولكنه كان خطأ غير مقصود، أقسم لك، لقد كانت كيلى كلبة رائعة وأنا كنت أحبها كثيرًا، ومن المستحيل أن أحاول إيذاءها ولكنه كان حادثًا غير مدبر، شعرت بندم كبير بعدها، يجب عليك أن تُصدّقني.

أجاب ناثان على الفور وهو يعني ما يقول: «أنا أصدقك».

نظر بوب بخجل إلى زجاجة البيرة المفتوحة بيده وأكمل الحديث: «شعرت بالحزن الشديد بسبب تلك الحادثة، كنت أضع الفخاخ المسممة من أجل اصطياد الدينغو، ولم أكن أعرف بوجودك بالقرب من المكان الذي أصطاد فيه، بعد أن انتهيت من عملي ظننت أنني رفعت كل الفخاخ المسممة ولكنني لم أفعل، عندما علمت بشأن كيلى، قررت أن أتى إليك مباشرة وأشرح لك ما حدث، ولكن كاميرون طلب مني ألا أفعل، وأقنعني أنه سيتولى ذلك الأمر حتى لا تغضب بشأنى. ثم أخبرني بالفعل أنه تحدث معك وأنت شعرت بغضب شديد، ولكنك في النهاية تفهمت أنها حادثة وأخبرني أن حالتك... أنت تعرف ما قاله، أخبرني ألا أتحدث معك مرة أخرى في ذلك الأمر، حتى تتجاوز المشاعر السلبية التي تشعر بها، ويمكنك بعدها أن تسامحني بشكل حقيقي».

ارتشف ناثان رشفة طويلة وحارة من زجاجة البيرة قبل أن يقول: «لم يحدثني مطلقًا في هذا الأمر».

- نعم، لقد أدركت ذلك بالأمس فقط، لقد كان تصرفًا غيبًا مني وأنا أشعر بالندم والحسرة منذ ذلك الوقت، ولكنني وثقت بكام اللعين وقد خان ثقتي، كان يجب أن أتحدث إليك وأعتذر بنفسى في ذلك الوقت.

أدرك ناثان في تلك اللحظة أن إلسي كانت محقة فمسامحته لأخيه أو عدم مسامحته له لن تعيد كيلى إلى الحياة مرة أخرى.

قال ناثان: «لا عليك يا بوب، أشكرك لأنك أخبرتني بكل ذلك»، ثم أضاف: «اسمع، في الحقيقة أنا من يجب عليه الاعتذار، يجب أن أعتذر لك على كل ما فعله أبى في الماضي، وعن اختفائي طوال الوقت، وعدم تقديم أي مساعدة في ذلك الشأن».

- اللعنة يا ناثان، إنها ليست غلظتك بحق المسيح، لقد حاولت أن تساعدني وكذلك حاول كاميرون، لا يمكنني أن أنكر محاولاتي كما.
- ولكن كان يجب علينا بذل المزيد من الجهد.
- ماذا..؟ لا، لم يكن في إمكانكما فعل المزيد حيال شخص سليلط ووضع مثلي.
- على كل حال لقد كانت الأمور صعبة بالنسبة إليك، وأنا أشعر بالأسف لذلك.

ثم أضاف: «كما أنني وكام كنا نحمي ظهور بعضنا بعضًا مما جعل الأمور أسهل بالنسبة إلينا».

جلسا صامتين لبعض الوقت داخل السيارة، يشربان البيرة ويتأملان المنظر في الخارج من خلال الزجاج الأمامي الذي كان الغبار يعتليه والرؤية من خلاله غير واضحة.

ثم قال بوب في النهاية: «أنا أكره هذا المكان يا ناثان، ولا أرغب في أن أستمر بالعيش هنا، كل ركن من أركانه يذكرني بأشياء لا أرغب في التفكير فيها، لذلك كنت أصطاد حيوانات الدينغو حتى أحصل على المال اللازم للرحيل بعد أن رفض كام مساعدتي، لهذا السبب وضعت تلك الفخاخ المسممة، ولهذا السبب كنت أحمق طوال الفترة الماضية».

ثم أضاف متتهذاً: «المسألة ليست شخصية يا صديقي، ولكن أن أتخيل أن أعيش هنا مرة أخرى في ظل أخي لعشر سنوات جديدة أمر بالغ الصعوبة بالنسبة إليّ، أنا أرغب في أن أستقل بحياتي في مكان مختلف».

- وهل الصيد بالبنديقية في ديولستير فيلا هو الحل؟

نظر بوب في عيني ناثان مباشرة وأجاب بثقة: «نعم، هذا هو الحل، فالحياة هناك مناسبة بالنسبة إليّ، سوف أصنع شيئاً لنفسني وأتعرف على أشخاص جُدد، وأؤسس مكاناً خاصاً بي، كما أن هناك العديد من الفتيات الجميلات، وهذا أمر رائع».

قال ناثان بابتسامة بسيطة: «نعم، لقد سمعت ذلك».

- اسمع.. عند وفاة كاميرون، ظننت أن الفرصة مواتية بالنسبة إليّ لأن أظل في المزرعة وأجري بعض التغييرات قبل أن أرحل، ولكن...

فتح بوب زجاجة جديدة من البيرة وهو يقول: «لم يتوقع أحد أن أدير المكان، كان الجميع ينتظر أن تأتي أنت وتدير المزرعة، وتقدم المساعدة لإلسي، وهذا ما أثار غضبي كثيرًا».

عبس ناثان: «لا أعتقد أن تلك هي رغبة إلسي، فسوف تستعين بمدير للمزرعة أو شخص من هذا القبيل».

قاطع بوب: «يا صديقي، هذا ما يخطط له الجميع، لقد سمعت هاري يقول ذلك وكذلك أمي، وإلسي، إنها خطتهم بلا شك».

- هل هذا حقيقي؟ لم يخبرني أحد بذلك.

- نعم، لقد كانوا يشعرون بالقلق لضغطهم عليك أكثر من اللازم بعد كل ما حدث، وبعد وفاة كامبيرون، لذلك كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة.

- ولكنني.

- أعرف.

- أنا أدير مزرعتي الصغيرة بصعوبة بالغة.

شعر ناثان فجأة بأنه يجلس مسلوب الإرادة داخل السيارة، بينما كان بوب يهز رأسه. فقال ناثان: «التورط في إدارة هذا المكان نوعٌ من الهراء، لا يستطيع أحد أن يحقق ربحًا من إدارة تلك المزرعة، لقد قال هاري ذلك وقد أخبرني كام أيضًا بذلك في مناسبات عديدة، أعتقد أنك محق في رغبتك في الرحيل عن هنا وبدء حياة جديدة».

ومدَّ ناثان يده وفتح زجاجة بيرة جديدة، كانت زجاجة البيرة باردة إلى حد طفيف بفضل مكيف الهواء فشعر ببعض الراحة. ثم نظر إلى بوب وقال: «ولماذا لا تدير أنت المزرعة؟».

قال بوب بحسرة: «ناثان، أنا لا أرغب في إدارة المزرعة، فهناك العديد من المهام الشاقة بالنسبة إليّ، كما أنني لا أحب الأعمال الكتابية المتعلقة بالإدارة، يمكنني فقط أن أؤدي بعض المهام المطلوبة مني، وهذا كل شيء».

- هل ترغب حقًا في الرحيل عن هنا؟

- نعم، أرغب في ذلك بشدة.

- بحثًا عن الفتيات الجميلات؟

- نعم، يا صديق، بالضبط.

قال ناثان مبتسمًا: «من الجيد أن تسعى وراء حلمك، وخصوصًا لو كان من هذا النوع».

رد بوب بحماس: «هو كذلك، هل ستحدث مع إلسي بخصوصي؟ أرغب في أن أبيع لها حصتي بالمزرعة، أو جزءاً منها على الأقل».

- يمكنك أن تتحدث معها مباشرة يا صديقي، لا شيء يمنعك الآن.

- نعم، أنا أعرف ذلك.

ثم رمق ناثن بنظرة ذات مغزى، وهو يقول: «ولكن عندما دخلت إلى حجرة الاستقبال في الثالثة من فجر اليوم، لم أجدك نائماً على الأريكة كالمعتاد، ولذلك أظن أنك تستطيع أن تقنعها بذلك بمنتهى السهولة».

ابتسم ناثن من شدة المفاجأة، ولم يقل شيئاً.

فأضاف بوب: «حسناً، هناك فكرة أخرى، لماذا لا تشتري أنت حصتي، أنا لست في حاجة إلى كل المال دفعة واحدة، يمكنك أن تدفع لي دفعة قليلة في البداية وسوف أنتظر حتى يزدهر العمل وتتمكن من دفع المزيد».

نظر ناثن مرة أخرى عبر الزجاج الأمامي للسيارة الذي تراكم عليه الغبار بشكل أكبر وتعثرت الرؤية من خلاله.

- حسناً، أيّاً كان الحل المناسب، فسوف أتدبر توفير ما تحتاج إليه من الأموال.

قال بوب بمرح: «هذا عظيم، أشرك يا صديقي».

ثم تفحص وجه ناثن وقال: «أعتذر كذلك عما أصاب وجهك».

- لا عليك، لم يقع ضررٌ كبيرٌ، أخبرني، هل أنت على ما يرام؟

ضحك بوب: «نعم، أنا بخير، أنت بالكاد استطعت أن تلمس جسدي، ولكنني أديتك بشكل كبير وقد كان خطأ يتوجب أن أعتذر عنه».

- لا عليك.

- إذًا، هل انتهى الخلاف بيننا؟

- بالطبع، كل شيء على ما يرام.

- هذا رائع، أشرك يا صديقي.

وفتح بوب باب السيارة وخرج منها.

- سوف أعود إلى المنزل، هل انتهيت من عمك هنا؟

تنقل ناثن ببصره سريعاً بين الأركان الداخلية للسيارة، فلم يستطع أن يحدد مكاناً آخر يمكنه البحث فيه، فقال مستسلماً وهو يفتح باب السيارة: «نعم، لقد انتهيت».

الفصل السابع والثلاثون

- أنا لا أستطيع العثور على الوتر الصحيح، الأمر بهذه البساطة؟

أمسك ناثنان بيد صوفي وحركها بنعومة على عنق الجيتار الخاص بها، ثم ثبتها فوق أحد أوتاره، شدت صوفي الوتر وعاودت العزف مرة أخرى ولكن النغمة لم تخرج بالشكل الصحيح، كانت مشوبةً بالقليل من النشاز ولكنها كانت أفضل من المحاولة السابقة.

نزعت صوفي ضمائمها ووضعتها بالقرب من حافة الشرفة، فقد سمح لها ستيف أن تنزعها لمدة ساعتين في اليوم وتمارس نشاطها بشكل عادي، وكانت تحاول أن تستغل تلك الفترة بأكبر قدر ممكن.

شعر ناثنان بحرارة الشمس الدافئة تمسح ظهره، فأعاد ضبط أصابع صوفي فوق أوتار الجيتار مرة أخرى.

- يمكنك المحاولة مرة أخرى. نعم... هذه المرة أفضل من سابقتها.

بدأت لو تتجه إلى مصدر الصوت ونظرت إليهما في صمت ثم جلست محافظةً على صمتها، وفتحت دفتر الرسم الخاص بها وبدأت باستكمال رسوماتها.

تسربت رائحة طعام الغذاء من نافذة المطبخ إلى الخارج، فعرف ناثنان أن ميعاد الغذاء قد اقترب، وهو يسمع ليز تضع الأطباق على المائدة وتجهز القدور والصواني. حاول هو وبوب المساعدة ولكن ليز لم تحتمل وجودهما في مطبخها أكثر من عشرين دقيقة وصرخت فيهما لتطالبهما بالخروج.

لم يمانع بوب في الخروج، فقد كان سعيدًا جدًا بالحصول على مضرب كريكت جديد كهدية في عيد الميلاد، وأجبر هاري على الخروج معه واللعب في الساحة الخلفية للمنزل.

اتجه ناثن إلى الشرفة وجلس ليحصل على الراحة ولم يكن في استطاعته من مكانه أن يتابع ما يحدث بين هاري وبوب، ولكنه كان يسمع بين الحين والآخر بعض الصياح وصرخات التشجيع.

فتح باب المنزل، واتجه زاندار إلى الخارج يحمل في يده مجموعة كبيرة من الأوراق المطوية، واتجه ليجلس بالقرب من ناثن.

قال زاندار: «إن عزفك جيدٌ يا صوفي».

قالت وهي تبتسم: «أشكرك».

لم ترفع صوفي عينيها عن أوتار الجيتار وبدأت عليها علامات الاستمتاع، لم يكن الأمر يتعلق بالعزف فحسب، كان من الواضح أنها تحاول أن تتخطى تأثير الجنازة التي حضرتها.

مد زاندار يده بقطعة الورق وأعطاهها ناثن قائلاً: «تفضل، إنها ليست هدية مناسبة لعيد الميلاد، ولكنني أرغب في أن أعطيها إياك».

قال ناثن: «ما هذا يا صديقي؟».

وبدأ بفك الأوراق المطوية، ليجد قائمة من التواريخ المكتوبة بخط اليد.

- حسناً، هذا جدول الحصص الدراسية ومواعيد الامتحانات، طوال العام. (ثم أشار زاندار إلى مجموعة أخرى من الأرقام) وهذه قائمة بمواعيد كل الإجازات والعطلات المتاحة بالنسبة إليّ، حتى يمكننا التخطيط لقضائنا معاً.

لمعت الفرحة في عيني ناثن وهو يقول: «أوه، أشكرك يا صديقي»، ثم أضاف وهو ينظر إلى جدول العطلات: «ولكن ينبغي لك أن تبقى في باريسبان لتركز في دراستك، لو كنت في حاجة إلى ذلك»، ثم ابتسم قائلاً: «من يعلم، لو كانت علامتك الدراسية جيدة إلى حد كبير يمكنك أن تلتحق بعالم الإنشاءات مثلما فعل مارتن».

- إمام... لا، أنا لا أخطط لذلك.

ثم أضاف: «حسناً، أنا مضطر فعلاً إلى قضاء الكثير من الوقت في المنزل بهدف المذاكرة، ولكن يمكنك أن تأتي لزيارتي في باريسبان».

تراجع ناثن مدهوشاً: «حقاً؟».

- نعم.

بدأ زاندار بشرح وجهة نظره حتى لا يسمح لنانان بالتردد كثيرًا حول الموضوع: «لقد كانت فكرة ماما».

- حقًا؟

- نعم، سوف أطلب منها أن تقيم معنا في أثناء الزيارات في المنزل، لقد شيدَ مارتن منزلًا مستقلًا للضيوف في الحديقة.

- حقًا؟

- نعم، لقد صمم المنزل بنفسه، ولكنه استأجر أحدًا لتشبيده. (وضحك زاندار) إنه ليس ماهرًا في العمل اليدوي بقدر مهارتك، في جميع الأحوال يجب أن تأتي لزيارتي، سوف أكون سعيدًا جدًا بتلك الزيارة.

- حقًا... إذاً يجب عليّ أن أشكرك، فسوف أحب أن أراك كثيرًا في كل وقت.

وقف زاندار وهو يقول: «حسنًا، اتفقنا. إن احتجت مساعدة في تجهيز السيارة قبل الرحيل، يمكنك أن تنادي عليّ بصوت مرتفع وسأتي على الفور».

- أيها الماكر، لن نرحل قبل الغد.

- أعرف ذلك ولكنني لا أريد أن أفوت رحلة الطائرة المتجهة في الغد إلى باريسبان، أنا متشوق إلى العودة.

لمح نانان إلسي وهي تتحرك من نافذة غرفة المكتب وعندما لاحظت وجوده توقفت في مكانها ولوحت بيدها إليه.

- نعم، أعرف ذلك.

قال زاندار: «ولكنني أحب المكان هنا».

- أجد صعوبة في تصديق ذلك.

- من الأفضل أن تصدق.

ثم انصرف زاندار وأغلق الباب خلفه.

أدرك نانان أن بوب وهاري ما زالوا يلعبان بسبب أصوات الصياح المستمرة، ثم نظر مرة أخرى في اتجاه الفتاتين، كانت صوفي تعزف على الجيتار بتركيز شديد محاولةً ضبط النغمات، بينما لو تحني رأسها فوق دفتر الرسم، تنهي آخر أعمالها الفنية.

- هل تريدان أن أعلمك العزف على الجيتار يا لو؟

- لا، فأنا مشغولة بالرسم.

انتقل ناثنان من مكانه وجلس بجوارها ليطالع الشيء الذي ترسمه. جلس ناثنان أمام لو وأخذ ينظر في دفتر الرسم الخاص بها، كانت تحاول محاكاة اللوحة الزيتية الخاصة بقبر مربى الماشية التي رسمها أبوها، ولكنها أعادت رسم الشكل نفسه مرات عديدة.

- هل تحاولين رسم قبر مربى الماشية؟

- نعم، ولكنني لا أرسمه بشكل متقن.

- يبدو جيدًا من وجهة نظري.

نظرت إليه لو نظرة غاضبة، وكأنها تقول له بأن آراءه الفنية ليست على القدر الكافي من الحرفية على الرغم من شعوره بأنها سعيدة بما قال ولكنها تحاول إخفاء سعادتها. ولكن ناثنان كان صادقًا في التعبير عن رأيه، فقد كانت الرسومات الخاصة بلو متقنة بالنسبة إلى طفلة صغيرة، حتى إنها أبرزت زوايا الإضاءة على جوانب قبر مربى الماشية على عكس لوحة كامبيرون التي كانت تركز على الخطوط والظلال المظلمة.

سألها ناثنان: «هل تفتقدين والدك؟».

تبادلت لو نظرة سريعة مع أختها صوفي ثم قالت: «هل تظن أن بابا كان خائفًا وهو يجلس وحيدًا بجوار قبر مربى الماشية؟».

قال ناثنان دون تفكير: «لا، كان يحب أن يجوب في أنحاء المزرعة».

ثم قال وهو يشعر بالرغبة في ذكر الحقيقة: «ولكن، أظن أنه لاقى بعض الصعوبات الأخرى في حياته».

أخذت الفتاتان تفكران فيما يقصده عمهما بتلك العبارة. صممت الفتاتان لبعض الوقت، ثم قالت صوفي في النهاية: «أنا لا أحب قبر مربى الماشية، إنه مخيف للغاية».

هزَّ ناثنان رأسه: «لا داعي للخوف، هناك العديد من القصص الغريبة تدور حول قبر مربى الماشية ولكنها غير حقيقية».

قالت لو: «وكيف تعرف ذلك؟».

- لقد ذهبت إلى المكتبة العامة في يوم من الأيام، وبحثت في الأمر.

قضى ناثان بالفعل عدة ساعات منذ سنوات طويلة في المكتبة العامة بباريسبان يبحث في ذلك الأمر، كان زاندار صغيرًا وقتها، وكان ناثان يجد صعوبة في أن يعيده إلى أحضان جاكبي ويرحل كما يفعل كل مرة.

كان تسليم زاندار إلى جاكبي صعبًا جدًا في ذلك اليوم بالنسبة إليه لدرجة أنه فوّت رحلة العودة بالطائرة. أخذ يسير في شوارع المدينة دون هدف محدد حتى قادته قدماه إلى المكتبة العامة فدخل وطلب المساعدة على البحث عن حقيقة قبر مرببي الماشية. كان ناثان مغمورًا بشعور أن الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يشعر بالوحدة أكثر منه هو مرببي الماشية فصمم على أن يتعرف على حقيقته. كانت قاعة المكتبة مكيفة فأخذ يقرأ الصحف التي أحضرتها له مسؤولة المكتبة غارقًا في سلام وهدوء لم يشعر بهما منذ فترة طويلة.

سألته صوفي: «وما هي الحكاية الحقيقية لمربي الماشية؟».

- كان مرببي الماشية رجلًا يُدعى وليم كارلايل. والحقيقة أنه كان يعيش في الماضي في هذه المزرعة مع زوجته وأبنائه، كان لديه طفل يبلغ من العمر عشرة أعوام وطفل أصغر منه في السابع من العمر على ما أظن.

قالت لو: «هل كان يعيش في المنزل نفسه؟».

- لا، لم يكن هذا المنزل مبنياً بعد. كان منزلهم في مكان آخر، بالقرب من الموضع الحالي للقبر، على كل حال خرج جميع أفراد العائلة معًا في نزهة على ظهر الخيول، وعندما حان وقت الغذاء أو شيء من هذا القبيل تركوا خيولهم وجلسوا لتناول الطعام، ولكن فاجأتهم عاصفة ترابية شديدة ظهرت دون سابق إنذار.

قالت صوفي: «لا.. أنا أكره العواصف الترابية، إنها سيئة للغاية».

أجاب ناثان: «وأنا أكرهها كذلك».

ثم عاد ليكمل الحكاية: «تحول لون السماء إلى اللون الأحمر، وارتفع حائط من الغبار والرمال الكثيرة مسرعًا في اتجاههم، ثم أحاطت بهم الرمال من كل اتجاه، أصبح التنفس صعبًا والرؤية أكثر صعوبة، وامتلاً الهواء بكتل صغيرة من الحجارة المتطايرة، واختفى سريعًا قطع الماشية الذي يخصهم».

قالت صوفي: «العواصف الرملية تتحرك بسرعة شديدة».

- نعم، هي كذلك، وضع مربى الماشية زوجته وأولاده الصغار على ظهور الخيول وطلب منهم العودة إلى المنزل في أسرع وقت، لكن الابن الأكبر شرد منهم، ربما ساوره الفضول، أو ربما فقد القدرة على السيطرة على الحصان الذي يركبه، فركض مربى الماشية خلف ابنه وظل يصرخ منادياً عليه، ولكنه لم يكن يستطيع أن يراه بسبب العاصفة الترابية التي كانت تقترب منهم بسرعة شديدة، كما يمكنني أن أتصور. في تلك اللحظة تذكر ناثن تلك المرة التي تاه فيها زاندار منه في الصحراء عندما كان يبلغ من العمر ثمانية أعوام. وكيف شعر بقلق شديد وظل يدور بالسيارة حول نفس المكان والخوف يعصر قلبه من أن يفقده إلى الأبد، أو يجده وقد قضى عليه من الخوف ودرجة الحرارة، وتذكر كيف كان يتمنى أن يجده بخير بأي ثمن. فأدرك أن موقفه في ذلك اليوم يشابه الكابوس الذي مر به مربى الماشية عندما كان يبحث عن ابنه الصغير في قلب العاصفة.

سألته صوفي: «وهل وجد الفتى الصغير؟».

أجاب ناثن بحسرة وتردد: «نعم، وجده في النهاية ولكن كان ممدداً على الأرض بعد أن أسقطه الحصان من فوق ظهره عندما شعر بالفزع. كان الفتى بخير ولكن الحصان هرب ولم يكن موجوداً بالجوار».

- حسناً، وماذا فعل الرجل في هذا الموقف الصعب؟

- لقد قرّر أن حصاناً واحداً لن يستطيع أن يشق العاصفة بمفرده وهو يحمله على ظهره بصحبة الطفل، لذلك وضع ابنه فوق ظهر الحصان وطلب منه أن ينطلق إلى المنزل بأقصى سرعة، ووعد ابنه أنه سوف يعثر على الحصان المفقود ويأخذه إلى المنزل، وأنه سوف يكون خلفه مباشرة، على الرغم من علمه بعدم قدرته على تنفيذ وعده.

سألته صوفي: «وهل عاد الفتى إلى منزله بسلام؟».

- نعم، لقد عاد.

- ولكن مربى الماشية لم يعد إلى المنزل؟

- لا، لم يعد إلى المنزل، وقد كان يعرف ذلك منذ البداية.

- هذا أمر محزن للغاية.

- نعم، هذا حقيقي.

ثم صمت ناثان لبعض الوقت وأضاف: «وإن كنت أظن أن هذا الأمر ليس حزيناً لهذه الدرجة، فقد أنقذ ابنه الصغير على الأقل، واطمأن من عودته إلى المنزل سالمًا».

قالت صوفي: «نعم، لقد فعل ذلك حتى ينقذ أسرته».

قال ناثان: «نعم، وهذه هي القصة الحقيقية».

ثم نظر إلى لو وقال: «أعلم أن المكان هناك كئيب ومخيف إلى حد ما، ولكن لا يجب أن تشعرني بذلك، ولا داعي للخوف من مربي الماشية».

أخذت لو تفكر في الأمر، ثم ظهرت على وجهها علامات الارتياح، وأطلقت نفساً عميقاً في إشارة إلى اقتناعها بما سمعت. ثم قالت: «لم أكن خائفة من مربي الماشية، كنت خائفة من بابا».

أمسك ناثان بيدها: «أوه».

- إنه لن يعود مرة أخرى، أليس كذلك؟

- لا، لن يعود يا صغيرتي، اطمئني يا لو.

ثم مد يده إليها وضمها إلى صدره. كان جسدها صغيراً للغاية ودافئاً.

- سوف يصبح كل شيء على ما يرام، يمكنك أن تتأكدي من ذلك، فالجميع هنا يحبك وسوف أحرص على سلامتك.

ثم نظر إليها بمرح وقال: «وهناك شيء آخر، أراهن أنك ستصبحين رسامة ماهرة عندما تكبرين، سوف تكونين أمهر من أبيك».

ابتسمت ابتسامة صغيرة. ثم قالت بغضب مصطنع: «لا، لقد فازت لوحة أبي بجائزة».

- هذا لا يعني شيئاً، فأنت ماهرة مثله تمامًا ويمكنك التفوق عليه.

- لا، هذا ليس صحيحاً، لا داعي لأن تقول أشياء سخيفة.

- ما أقوله هو الحقيقة.

ثم وقف وهو يقول: «انتظري قليلاً».

ثم عاد ناثان إلى المنزل، اضطربت عيناه في البداية بسبب تغير شدة الإضاءة ولكنه استعاد القدرة على الرؤية سريعاً، ما زال بوب وهاري في الخارج يلعبان الكريكت ورائحة الطعام الشهية تفوح من المطبخ، كان مكتب إلسي مفتوحاً لذلك فكر ناثان في أن يدخل ويتحدث إليها. فكر في أن يدخل

إلى غرفة المكتب ليخبرها بأنه مشتاق إليها وسعيد بما حدث بينهما، ولكنه شعر ببعض التردد فهو لا يرغب في أن تنتظر الفتاتان في الخارج لوقت طويل.

اتجه ناثان مسرعاً إلى غرفة الاستقبال ومد يده إلى اللوحة الزيتية التي رسمها كاميرون وتحسسها بأصابعه، ثم أمسك الإطار ورفعها عن الحائط وانتظر لبعض الوقت، ولكن لم يحدث شيء، لم يظهر شبح كاميرون ليعاقبه على فعلته. أمسك اللوحة بحذر حتى لا يترك آثار أصابعه فوق الألوان الزيتية كما حذّر من قبل فهو لا يريد أن يفسد اللوحة على كل حال.

حمل ناثان اللوحة عبر المنزل بحذر وهو يتأملها، دار ببصره بين أجزاء اللوحة المختلفة وتأمل ألوان الأرض والسماء والمقبرة. أدرك في تلك اللحظة أنه كان محقاً فيما قاله للصغيرة لو، لم يكن هناك شيء مميز في تلك اللوحة، كانت جافة وخالية من المشاعر كرجل أعمى لدرجة لا يدرك بها كل الأشياء الجميلة التي يملكها وتحيط به من كل اتجاه.

خرج باللوحة إلى الشرفة وترك الباب الأمامي للمنزل ينغلق خلفه ببطء، قابلته الفتاتان بنظرات تحمل ملامح الدهشة العارمة وغرقتا في صمت عميق. فتحت لو فمها حرفياً على اتساعه وبقيت صوفي صامتة في دهشة لفترة طويلة حتى إن ناثان شعر بأن أصوات لعب الكريكت وارتطام الكرة بالمضرب قد توقفت بدورها.

ثم قطعت صوفي الصمت وهي تصيح: «يا إلهي، ماذا تفعل؟».

ولكن ظهر في عينيها بريق غريب يحمل علامات الفرح بشكل لا يمكن إخفاؤه.

قال ناثان: «نعم، لقد لمست اللوحة».

قالت لو وهي تضع يدها فوق فمها بصوت متقطع، وكأنها تخفي ضحكات متقطعة: «سوف تقع في مشكلة كبيرة؟».

قال ناثان بحزم وثقة: «لا، لن تقع مشكلة على الإطلاق، إنها مجرد لوحة عادية، ولكن لديّ سؤالاً»، ثم نظر إلى صوفي، «إنها لوحة جيدة، لا يمكن إنكار ذلك، ولكن هل هي أفضل من لوحات لو؟».

اشتعل الحماس في جسد لو وبدأت تحرك قدميها بسرعة وكأنها تنقل وزن جسدها من مكان إلى آخر من فرط القلق والترقب.

قال ناثنان: «حسنًا يا لو، اختاري أفضل رسوماتك وارفعيها بيدك عاليًا، حتى نعقد مقارنة».

وبعد فترة من التردد القصير اختارت بالفعل أحد رسوماتها.

- هيا يا صوفي، لتكوني أنت الحكم، أيهما أفضل؟

رفع ناثنان لوحة كاميرون عاليًا ووضعها أمام وجهه بحيث أصبحت الأشكال المرسومة في مواجهة صوفي، لم يكن يستطيع أن يرى الفتاتين في هذه اللحظة، ولكنه استطاع أن يسمع ضحكاتهما القصيرة.

قالت صوفي: «إن لوحة لو هي الفائزة، تحصل على عشر درجات كاملة بلا نقصان».

كان صوت صوفي يبدو بعيدًا بالنسبة إليه وعندما هتفت لو بصيحة النصر كان صوتها مشوشًا وكأنه قادم من تحت الماء، حاول ناثنان أن يشير برأسه إليهما ولكن شعر بثقل وعدم اتزان، لاحظ أن الفتاتين تنظران إليه في انتظار أن يقول شيئًا ما.

قال ناثنان: «نعم، هذا صحيح».

ولكن لسانه كان يتحرك بصعوبة شديدة، ابتسمت لو وهي تنظر إليه ولكن ناثنان لمحا بعينين غائمتين.

في هذه اللحظة شاهد ناثنان شيئًا ما، شيئًا ملتصقًا في خلفية اللوحة، شيئًا يعلوه غبار أحمر مثبت بشريط لاصق داخل حافظة بلاستيكية. شعر ناثنان بأن الأرض تتأرجح تحت قدميه إلى حد ما، فقال: «يا فتاتان، الجو شديد الحرارة هنا، لماذا لا نعود إلى المنزل، ونحضر بعض الماء؟».

- حسنًا.

سمع ناثنان وقع أقدامهما، وصوت الباب وهو يُغلق من خلفهما.

ارتعشت يد ناثنان وهو يضع اللوحة الزيتية على أرضية الشرفة، كان المظروف ملصوقًا بعناية على ظهر اللوحة، في المنتصف تمامًا. مد يده وانتزعه بقوة، غير عابئٍ من أي ضرر قد يحدث للوحة نفسها ثم رفعه بيده ووقف.

استطاع أن يرى في داخل المظروف أوراقًا مالية وشهادات حكومية مختلفة مطوية بعناية وجوازات سفر، شعر ناثنان بقلبه يقفز في مكانه وكأنه

ينفجر، وكأن فجوة عميقة ظهرت في صدره بلا مقدمات. لم يكن ناثان يتوقع أن يجد المظروف وخصوصًا بهذه الطريقة، تذكر فجأة عبارة: «لا تلمس اللوحة». التي كان يسمعها تتردد طوال الوقت، نظر ناثان حوله فلم يرَ أحدًا ولم يكن يستطيع أن يسمع أصوات لعب الكريكت على الجانب الآخر من المنزل ولا هتافات بوب وتشجيعه لنفسه.

اللعنة، لا يجب العبث بلوحة كام الفنية الرائعة.

أمام عينيه كانت تقع حجرة هاري مظلمة ومغلقة بإحكام ولكنها خالية. لا تلمس اللوحة، اللعنة عليك، لقد تسبب في قدر كبير من الضرر بالفعل. كان المنزل بالكامل يقع خلف ظهر ناثان بلا صوت أو حركة، اختفت أصوات ليز وإلسي، كان الهواء ثقيلًا ونوافذ المطبخ وغرفة المكتب مغلقة بلا صوت ولا حركة خلفها. لم يكن هناك صوت أو حركة في أي مكان من حوله، وكأن الجميع اختفى دفعة واحدة.

وفجأة ودون سابق إنذار شعر ناثان بخطوات أقدام تتحرك خلفه، شعر بها ولكنه لم يسمع شيئًا، ولم يجرؤ على الالتفاف لمصدر الحركة ومعرفة ما يحدث خلفه.

هناك قاعدة ذهبية في هذا المنزل: لا تلمس اللوحة، من الذي أخبره بهذه القاعدة؟ من الذي حذره من لمس اللوحة؟ الجميع أخبره بذلك، والجميع حذره.

اقتربت الخطوات منه، وأصبح الصوت واضحًا للغاية. ثم خرج صوت من العدم: «لقد حذرتك من قبل يا ناثان، ولكنك لم تسمع التحذير».

التفت ناثان ونظر إلى مصدر الصوت.

الفصل الثامن والثلاثون

- لقد حذرتك من قبل يا نااثان، ولكنك لم تسمع التحذير.

كان نااثان يعرف صاحبة الصوت تمام المعرفة، كان يعرف صاحبة الصوت كمن يعرف نفسه. استدار نااثان، على بُعد خطوات قليلة منه، كانت تقف ووجهها محاطً بالظلال، ولكن نااثان لم يكن في حاجة إلى أن يرى ملامح وجهها بشكل جيد حتى يعرف هويتها.

كانت أمه تقف في الشرفة على بُعد خطوات منه، تنقلت عينا ليز بسرعة بين اللوحة الزيتية الملقاة على الأرض وبين المظروف الذي يمكسه نااثان بين يديه، ثم رفعت بصرها ونظرت إليه، كانت عينا ليز حاسمتين كما لم يعهدا نااثان على مر سنوات عمره كاملة.

قالت ليز: «حكاية رائعة، أليس كذلك؟ استطعت أن أسمعك من نافذة المطبخ».

نظر إليها نااثان مرتبگًا.

- الحكاية التي أخبرتها للفتاتين عن قبر مربى المشية.

كان صوتها مخفضًا، بينما كانت يد نااثان ترتعش لدرجة أنه شعر بأن المظروف يكاد يسقط من بين أصابعه. قال بصوت متقطع: «إنها قصة حقيقية».

التقت عينا ليز عيني نااثان فقالت له: «حسنًا، هل تسمح لي بأن أخبرك قصة حقيقية أخرى؟».

ارتفع صوت خطوات الفتاتين من داخل المنزل وهما تقتربان فتحررت ليز بسرعة خاطفة وخطفت المظروف من يده وهي تقول: «لا داعي لأن نتحدث هنا، تحرك معي يا نااثان».

أمسكت بذراعه بقبضة قوية، وببيدها الأخرى عدلت من وضع اللوحة لتقف في مواجهة المنزل ثم وضعت المظروف في جيب ملابسها المنزلية.

تحت ضوء الظهيرة الساطع، سارت ليز بجوار ناثان الذي أخذ يتابع ظلها ينكمش على الأرض. ثم عبرا ساحة المنزل متجهين ناحية شجرة الصمغ الأحمر العتيقة، وتحت فروعها المتهدلة، توقفت خطواتهما. حيث رقدت تحت أقدامهما قبران متجاوران في صمت مميت.

شعر ناثان بالدم يندفع إلى أذنيه مسرعًا، فنظر إلى الأسفل في اتجاه القبرين الموجودين أمامه، ولاحظ اختلاف شكل التراب على قمة القبر المحفور حديثًا، عن شكل التراب فوق القبر القديم. اندفع إلى رأسه العديد من الأسئلة ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية ليختار سؤالًا منها ويبدأ الحديث.

قالت ليز: «لقد خرجت لركوب الحصان في ذلك اليوم، قررت أن أفعل ذلك مباشرة بعد أن أخبرتني صوفي عن قصة سقوطها من فوق ظهر الحصان وإصابة ذراعها. كان عليّ التأكد من سلوك ذلك الحصان بنفسه وخصوصًا لأن صوفي فارسة ماهرة وتستعد للمشاركة في مسابقات ركوب الخيل، لم يكن من الممكن أن نستخف بأمر مثل هذا وكان عليّ أن أتصرف سريعًا».

شعر ناثان في هذه اللحظة أنه لا يرغب في معرفة المزيد، فأغلق عينيه ولكنه استسلم للقصة التي كانت ليز تقصها عليه.

عندما عادت ليز إلى المنزل أخبرت كامبيرون أنها كانت بالخارج في نزهة بالحصان. اعتادت ليز طوال سنوات زواجها أن تخرج لركوب الخيل بشكل يومي، لساعات طويلة، كانت تلك هي الفترة الوحيدة خلال اليوم التي تشعر خلالها بسرعتها وقوتها وقدرتها على البقاء آمنة وبعيدة عن الأذى.

في ذلك اليوم خرجت ليز في نزهتها على ظهر الحصان المخصص لصوفي، كان الحصان بحاجة إلى التدريب، وصوفي مصابة لا تقدر على ذلك. استغرقت ليز في ذلك اليوم فترة أطول من المعتاد. حاولت أن تكتشف سلوك الحصان، كان الحصان مطيعًا وسريع الاستجابة ولم يكن به عيبٌ واضحٌ. زودت ليز من سرعة عدوها حتى تضغط على الحصان لأقصى درجة ممكنة لتكتشف دافعه إلى هذا الخطأ. جربت كل ما تعرفه من حيل وأفكار حتى خيم الظلام وشعرت بالتعب.

قالت ليز والشجرة العتيقة تلقي بظلالها الداكنة فوق وجهها: «لم أجد عيبًا واحدًا في هذا الحصان الغبي، لقد جربت كل شيء بلا فائدة، لم أستطع أن أفهم الأمر، ما حدث كان غير منطقي على الإطلاق».

تذكر ناثنان سيارة إلسي التي تقبع ساكنة في الجراج بلا حركة، كان عطلها غير منطقي بالنسبة إليه وظل عاجزًا عن تفسير سبب العطل لوقت طويل، حتى حصل على تفسير مناسب.

أكملت ليز حديثها: «أكملت طريقي بالحصان، وبدأت بمعاقبته بلا فائدة». كانت صوفي تبكي بعد أن كُسرت ذراعها وكانت عيناها شاحبتين والخوف يظهر عليهما، ولكنها قفزت سريعًا عائدة إلى ظهر الحصان بمجرد أن سمح لها الطبيب بذلك، مدحها الجميع على شجاعته ولكنها لم تستجب للمديح، ولم يكن لديها رد مناسب لما تسمع من مديحهم.

قالت ليز إنها شعرت بألم عنيف في معدتها عندما اقتربت بالحصان من قبر مربى الماشية، بدأ الألم يزداد عندما لاحظت وجود رجل بجوار القبر، كان الرجل من بعيد يبدو مألوفًا بالنسبة إليها. اقتربت قليلًا محاولةً أن تتبين هوية هذا الشخص، ولكن نظرًا لم يعد قويًا بما يكفي كما كان في الماضي، وخصوصًا تحت أشعة الشمس الحارقة. ولكن هذا الشخص كان يشبه من على بعد تلك المسافة الكبيرة شخصًا آخر كانت تعرفه في الماضي.

توقفت ليز حتى تنظر بتمعن ثم قررت أن تقترب بالحصان، عندما اقتربت لمسافة كافية استطاعت أن تميز تلك السيارة ذات الدفع الرباعي فتتنفس في ارتياح.

لم يكن الشخص الواقف بجوار قبر مربى الماشية، هو الشخص نفسه الذي كانت تفكر فيه، بالطبع. كان هذا أمرًا مستحيلًا، ولكنه كان في النهاية شخصًا تعرفه بالفعل، كان كامبيرون ابنها.

فتح ناثنان عينيه في هذه اللحظة وسألها: «ما الذي كان يفعله هناك؟». كان كامبيرون يحمل فأسًا في يده ويحفر الأرض الرملية، أكملت ليز حديثها ببطء شديد وقالت إن كامبيرون لم يبدو مسرورًا لرؤيتها. ولكنها قادت الحصان للأعلى على كل حال، لم يكن كامبيرون في حالة جيدة مؤخرًا وكان يحفر الأرض بعنف وصبر نافذ.

ترجلت ليز عن ظهر الحصان واستندت بقبضتها قرب مرآة السيارة ذات الدفع الرباعي، وقف كاميرون ينظر إليها وهو يحمل الفأس بكلتا يديه. لمع المعدن البراق تحت أشعة الشمس، فعادت ليز لتتذكر ذلك الرجل الآخر، كان شيء ما في نظرات كاميرون يذكرها به.

قالت ليز: «هل يمكنني أن أحصل على بعض الماء من أجل الحصان؟». ثم تحركت متجهة إلى الجانب الخلفي للسيارة حيث يحتفظ بالطعام والماء وباقي الأغراض.

أشار إليها كاميرون بيده في علامة على الموافقة، وعاد يصب تركيزه مرة أخرى على الحفرة التي كانت تحت قدميه.

أمسكت ليز بالدلو وملأته بالماء، ونظرت خلسة إليه لتعرف ما الذي يفعله من خلف الحصان وهو يشرب.

- ما الذي تفعله؟

أجابها وهو منحني إلى الأمام: «أبحث عن شيء ما».

- ما هو الشيء الذي تبحث عنه؟

- أبحث عن السبب الذي دفع زوجتي الملعونة إلى أن تجر طفلي الصغيرتين طوال الطريق إلى هنا.

قالت ليز وهي تشعر بالتردد: «كنت أظن أنك في الطريق لإصلاح برج تقوية الإشارة اللاسلكية».

- سوف أذهب إلى هناك لاحقًا.

- ولكن بوب ينتظرك هناك.

- لا عليك، سوف أنتهي مما أفعله أولاً، ثم ألحق به.

ضرب كاميرون الأرض بالفأس مرة أخرى، ثم أصدر صوتًا غريبًا من داخل حنجرته، لقد وجد شيئًا ما مدفونًا في باطن الأرض.

كان صوت ليز منخفضًا لدرجة يصعب سماعها. لم يكن الصوت الذي خرج من قاع حجرة كاميرون علامة على الانتصار، كان صوتًا مخيفًا ومظلمًا. تمنت ليز لو أنها اتجهت هذا الصباح في الاتجاه المعاكس حتى لا تشهد هذه اللحظة.

انتهى الحصان من شرب الماء فالتقطت الدلو وعادت مسرعة إلى مؤخرة السيارة لإعادته، ثم نظرت في اتجاه كاميرون الذي انتهى من الحفر ثم وقف حاملاً بين يديه مظروفًا ملفوفًا في حقيبة بلاستيكية يغطيها التراب. سألتها ليز: «ما هذا؟».

ابتسم كاميرون بطريقة جعلت ليز ترتعش وتشعر بالرهبة، ثم قال: «إنه الكنز المدفون، هل عرفت؟».

شمرت ليز ذراعها في تلك اللحظة فظهرت مجموعة من علامات الجروح التي أصابتها بسبب سرطان الجلد اللعين، وكان هناك جرحان كبيران في ذراعها، لم تتحدث عنهما مطلقًا مع أحد من أبنائها، ولكنهم جميعًا يعلمون أن جسدها يحمل العديد من العلامات المشابهة. الحقيقة أنهم جميعًا كانوا يحملون علامات مماثلة: ليز، نااثان، بوب، وكاميرون. كانت لهم جميعًا علامات مخفية لا يتحدثون عنها، ولا يعرف عنها أحد.

قالت ليز: «عرفت على الفور ما الذي يحتويه المظروف الذي عثر عليه كاميرون».

ثم أضافت بحسرة: «كان لدي شيء مماثل في الماضي».

كانت لدى ليز في الماضي نسخة مماثلة من مظروف إلسي، على هيئة علبة بسكويت قديمة مصنوعة من الصفيح وكانت تخفيها في الوعاء الضخم الذي تطعم فيه حصانها، ظلت علبة البسكويت في مكانها حتى عثر عليها كارل برايت في أحد الأيام. صفعها كارل بعنف حتى إن قوة الصفعة أثرت في طبلة أذنها اليسرى، ولم تعد تسمع بها من وقتها بشكل جيد ولكنها تعلمت يومها درسًا قاسيًا من هذه الصفعة، ولم تكرر تلك المحاولة مجددًا.

كان أولادها صغارًا في هذا الوقت وكانت خائفة جدًا من عواقب المحاولة للمرة الثانية، ولكنها أدركت في هذه اللحظة وهي تنظر إلى ابنها الأوسط الواقف بجوار قبر مربى الماشية وفي يده هذا المظروف المغلق، بفداحة خطئها وكم الضرر الذي تسبب فيه لهم بمرور الوقت.

قالت ليز: «يجب أن تترك هذا المظروف كما وجدته».

خرجت العبارة من فم ليز بشكل مفاجئ، حتى بالنسبة إليها، وشعر كاميرون كذلك بالمفاجأة بسبب ما قالت والدته.

- اتركه مكانه، أنت لا تعرف ما الذي يحتويه هذا المظروف.

أجاب كامبيرون: «ولكنني أعرف يا أمي، أعرف بالتأكيد».

- حسنًا، إذًا فأنت تعرف أنه لا يحتوي على شيء يخصك.

اعتدل كامبيرون في وقفته وكأنه يستعرض جسده بالكامل أمامها، كانت الفأس بجانبه واقفة على نصلها، فمد يده وأمسك مقبضها أو ربما كان ممسكًا به من البداية ولم يتركه، لمع النصل الحاد المعدني تحت أشعة الشمس الحارقة، لم تكن نية كامبيرون تهديد ليز بالفأس ولكنه أمسك بالفأس ورفعها على كل حال.

في تلك اللحظة، بينما ليز تنظر إلى جسد كامبيرون المشدود ويده الممسكة بمقبض الفأس. عرفت أنه لم يعد ابنها الصغير، عرفت أنه لم يعد ابنها وحدها، أدركت أنه يذكرها بشخص آخر ورث عنه صفاته وعرفت من هو هذا الشخص. لقد أصبح كامبيرون يذكرها بأبيه، أصبح كامبيرون ابن كارل برايت وخليفته كذلك.

أدركت ليز في هذه اللحظة كل الأشياء التي كانت تتجاهلها طوال الوقت، أدركت مخاوف إلسي ومحاولاتها السابقة في الحديث معها بخصوص كامبيرون، أدركت أسباب قلق هاري وتحذيراته المستمرة، أدركت السبب وراء الحزن المنتشر في رسومات لو وأدركت كذلك الطريقة التي كُسرت بها ذراع صوفي، والأسباب التي جعلتها متكئمة حول الأمر. أدركت ليز في هذه اللحظة أن الماضي يبعث من جديد ولكن بشكل أسوأ مما كان عليه من قبل.

شعرت ليز بتوتر شديد وكامبيرون يتجه ناحيتها وهو يحمل الفأس في يده، ولكنه تجاوزها متجاهلاً وألقى الفأس في الجزء الخلفي من السيارة وأغلق الباب بعنف.

ارتجف الحصان الخاص بليز فقالت شيئًا في أذنيه لتهدئته، ألقى كامبيرون المظروف المغلف داخل السيارة على المقعد المجاور للسائق، بينما سيطرت ليز على الحصان تمامًا، ثم قالت: «يجب أن أرحل يا كامبيرون، لدي العديد من الأمور لأفعلها».

لم يلتفت كامبيرون إليها.

- هل ستتجه الآن إلى إصلاح برج الإشارة؟

شعرت ليز في هذه اللحظة أن وقع كلماتها ونبرة صوتها غريبة جدًا، ولم تتحدث بنبرة مثلها من قبل.

مشى كامبيرون مرة أخرى في اتجاه قبر مربي الماشية وبدأ يعيد التراب
بقدميه مرة أخرى إلى الحفرة.

- كنت في طريقي إلى هناك بالفعل، ولكن... (ظهرت علامات الغضب
واضحة في صوت كامبيرون وهو يضيف) يجب أن أعود أولاً إلى المنزل،
فهناك ما يجب أن أخبره لإلسي...
- كامبيرون، أرجوك.

بدأ الخوف يظهر في صوتها كفيضان متدفق.

- الفتاتان في المنزل أيضًا.

لم يقل شيئاً في البداية، ثم رفع بصره بحزم لينظر إليها: «حسنًا، هذا
شيء جيد، ربما كانتا في حاجة إلى سماع ما لديّ أيضًا».

من خلال نظرة عينيه الغاضبة وأشعة الشمس المنعكسة على وجهه، عاد
الزمن بليز لثلاثين عامًا مضى. وعرفت تحديدًا ما الذي يفعله هذا النوع من
الرجال عندما يعود إلى المنزل غاضبًا.

رفعت يدها إلى الأعلى وهي لا تدري ما هو الشيء الذي يجب أن تبحث
عنه، ثم أجرت بعض الحسابات العقلية، دون أن تدري حتى أن عقلها يفكر
بهذه الطريقة. كانت تتصرف بنحو غريزي، وبطريقة لم تجرؤ على فعلها
منذ ثلاثين عامًا مضى.

لم تكن أمامها اختيارات كثيرة، لا اختيارات سوى المقاومة أو الهرب، هذه
هي الاختيارات التي كانت يجب أن تختار أحدها في الماضي ولكنها لم تفعل.
كان كامبيرون يبعد عنها بخمسة أمتار أو ربما ستة، وكان ينظر في
الأسفل في اتجاه الحفرة. كان مشغولاً بدفع الرمال إلى الداخل ليخفي آثار
الحفر الذي فعله منذ قليل، قبل أن تلتقط ليز أول أنفاسها كانت داخل السيارة
جالسة فوق مقعد السائق، وقبل أن تلتقط النفس الثاني كانت تدير المفتاح
والمحرك يعمل بصوت عالٍ.

رفع كامبيرون بصره إلى الأعلى ولكنها كانت قد داست بالفعل على مكابح
الوقود، وقبل أن تفعل فكت لجام الحصان الذي كانت قد ربطته من قبل بمرآة
السيارة الجانبية، وانطلقت ليز بالسيارة، يتبعها الحصان. قادت ليز السيارة
بسرعة، يتبعها الحصان راكضًا في الطريق إلى المنزل الذي يعرفه جيدًا. لم

تكن ليز في حاجة إلى زيادة السرعة، فحسان يركض في الصحراء يمكنه أن يسبق الرجل الذي يلاحقه بمنتهى السهولة.

قالت ليز بصوت مختلط بالرعب والأسى: «حاول كاميرون أن يلحق بنا، حاول بشدة ولكن...».

أضافت ليز: «ركض كاميرون خلف السيارة بأقصى ما يمكنه من سرعة، وصرخ بأعلى صوت لديه، كان يعرف ما الذي يحدث في تلك اللحظة، كان يعرف ما يعنيه أن أتركه وحيداً في الصحراء بذلك الشكل».

بذلت ليز أقصى طاقتها للسيطرة على مشاعرها، حتى لا توقف السيارة وتعود إليه، بذلت أقصى طاقتها حتى تتجاهل صرخاته المروعة. كانت ليز مصممة على أن تصم أذنيها وتُبقي أنظارها للأمام وهي تنطلق بالسيارة محافظةً على مسافة كبيرة بينه وبينها.

وفي النهاية وبعد مرور فترة من الوقت، عندما تماكنت أعصابها وهذأت من سرعة السيارة، نظرت في المرآة الخلفية، لم يكن أحدٌ يلحق بها، كانت وحيدة تماماً في منتصف الصحراء.

الفصل التاسع والثلاثون

نظر ناثان إلى الأسفل في اتجاه القبور الممددة أمامه لفترة طويلة من الوقت، قبل أن يستطيع أن يبدأ بالحديث.

- لم تكن سيارة كاميرون فوق الصخرة العالية في صباح يوم الخميس. نظرت إليه ليز في دهشة: «هل كنت تعلم هذا؟».

أكمل ناثان حديثه: «نعم، بدأت بالاعتقاد بأن شخصًا ما وضعها هناك عن قصد، وظننت كذلك أنني على وشك الإصابة بالجنون، ولكنني لم أكن متأكدًا من أي الأمرين أصح، في ذلك الوقت».

قالت ليز: «حسنًا لقد ارتكبت خطأ صغيرًا، لقد تركت السيارة بالقرب من المنزل».

ثم استدركت حديثها: «في صباح اليوم التالي أدركت أنها مسافة طويلة لا يمكن أن يقطعها سيرًا على الأقدام، وسوف يدرك الجميع أن شخصًا ما متورط في الأمر».

- لذلك نقلت السيارة إلى موضع آخر.

أومات برأسها: «نعم، خرجت بالحصان في صباح اليوم التالي كعادتي، ثم ربطته حيث أخفيت السيارة وقدت السيارة إلى موضع الصخرة العالية، شعرت بأنه أنسب مكان أتركها فيه، كما أن المسافة بين الصخرة وقبر مربي الماشية تبلغ عشرة كيلومترات ومن الممكن أن يقطعها شخص مثل كاميرون».

- إنها تسعة في الحقيقة.

لم تجادل ليز واستطردت في الحديث: «لم أكن أريد أن يُعثر على السيارة بسرعة كبيرة».

ظل ناثان صامتًا لبعض الوقت، لم يُرد أن يتخيل ما حدث.

- لم أعرف ما الذي يجب عليّ فعله بالأوراق الخاصة بالسي، كان من الصعب أن أسلمها لها بتلك السرعة، وكانت الفتاتان في المنزل طوال الوقت، تعبثان بكل شيء: غرفتي، حظائر الخيل، المطبخ. لم أستطع أن أفكر في مكان جيد لإخفائها، ثم ظهر زاندار وهو فضولي مثلك وشديد الذكاء بالإضافة إلى ذلك. (هزت ليز رأسها) لذلك استخدمت القاعدة الشهيرة في المنزل: لا يلمس أحد تلك اللوحة اللعينة.

نظر ناثان حوله في أرجاء المزرعة، ثم نظر إلى سيارة كاميرون الواقفة في الساحة أمامه بلا حراك، وقال: «شعرت منذ البداية أن هناك شيئًا غير طبيعي حيال وفاة كاميرون، ظننت أولاً أن جينا مور متورطة في الأمر بطريقة ما».

ظل ناثان صامتًا لبعض الوقت، بينما كانت الشمس تعلو في السماء واصله لذروتها، وكأن الأفق مخضبٌ بالدماء.

- كنت أتساءل عن الدافع وراء اتصالها به، في ذلك التوقيت بالذات.

ظلت ليز صامته ولم تبادر بالإجابة، فسألها: «هل تعرفين ما الدافع؟».

ظهر التردد لبعض الوقت على وجه ليز قبل أن تُخرج من جيبها شيئًا ما، تبين أنها رسالة مطوية، وقالت: «كارولين، فتاة مكتب البريد أحضرت هذا بالأمس، لقد ظننت أننا لن نستطيع أن نحضر للمدينة لتسلم الرسائل بأنفسنا لبعض الوقت».

سلمت ليز الرسالة إلى ناثان الذي أدارها بين أصابعه ثم فتحها، كانت الرسالة مجمدة. واسم كاميرون برايت مكتوب بوضوح على الظرف الخارجي ولكن اسم المرسل لم يكن مكتوبًا. وعلى الطرف العلوي كان هناك طابع بريدي يحمل ختم المملكة البريطانية المتحدة.

كان الظرف مفتوحًا بالفعل، فما كان من ناثان إلا أن أخرج محتوياته، كانت الرسالة مكونة من ورقة واحدة مطوية إلى ثلاثة أجزاء ومهلهلة بعض الشيء من أركانها العلوية، كما لو كان شخص ما فتحها وقرأ محتوياتها لمرات عديدة.

أخذ ناثان نفسًا عميقًا وبدأ بقراءة محتويات الرسالة.

بدأت الرسالة باسم: «كاميرون».

لم يستطع ناثان أن يتعرف على خط صاحب الرسالة، ولكنه كان خطأً صغيرًا ومنمقًا على الرغم من عدم وضوحه بشكل ملحوظ.

«أرجو أن تقرأ الرسالة إلى نهايتها، ربما لا تتذكرني يا كاميرون فقد مضى وقت طويل، كل ما أريد أن أقوله لك هو شيء واحد... لقد غفرت لك.

ربما كنت لا تسعى إلى الحصول مني على الغفران، وربما كنت لا تشعر بأنك في حاجة إليه وأنت لم تفعل ما يستحق أن تطلب الغفران من أجله. ولكنني أتمنى بصدق ألا تكون تلك هي الحقيقة، فبغض النظر عن وجهة نظرك فيما حدث وبغض النظر عما قاله الناس وعن التهديدات التي وجهها إليّ والدك من أجل حمايتك. وبغض النظر عن محاصرته لي للدرجة التي جعلتني أشعر بأنني وحيدة وضعيفة وقليلة الحيلة، بغض النظر عن كل ذلك، أنت تعلم حقيقة ما حدث في تلك الليلة وأنا كذلك أعلم الحقيقة.

كنت أتمنى في الماضي أن تظل حاملًا الشعور بالعار والخزي طوال حياتك كما كنت أحمله طوال حياتي الماضية ولكنني تجاوزت كل هذا ولم يعد مهمًا بالنسبة إليّ بعد الآن.

لقد أضعت سنوات طويلة من حياتي أشعر بالندم على خطأ لم أرتكبه في حق نفسي وأهبك سلطة على عقلي ومشاعري أنت لا تستحقها.

ولكن بفضل مساعدة طبيبي النفسي، ومحبة أسرتي الرائجة تجاوزت كل ذلك بطرق عديدة واستطعت أن أحصل لنفسي على حياة سعيدة وهادئة، أتمنى بصدق أن تحصل على حياة تماثلها.

أعرف يا كاميرون أن الأشخاص الذين يعانون من الألم الشديد في ماضي حياتهم يتسببون بدورهم بمعاناة شديدة لمن حولهم في المستقبل.

أرجو وأن تكون تجاوزت آلام الماضي من أجل مستقبلك ومستقبل أطفالك، أتمنى أن تجد بعض السلام والهدوء وتحظى بالسعادة في نهاية المطاف».

جين مور.

قرأ ناثان الرسالة لثلاث مرات متتالية، ثم طواها مجددًا وأعادها إلى ليز مرة أخرى. ثم سألها: «ماذا ستفعلين بتلك الرسالة؟».

- أعتقد أنني ينبغي أن أسلمها إلى جلين.

قال نااثان بصوتٍ قاسٍ لم يعتد أن يتكلم بمثله: «ولكن هذا لن يعفك من الذنب».

- أعلم ذلك.

- ذلك لن يبرر ما فعلته، لن يجعله تصرفًا صحيحًا.

ثم أضاف نااثان: «لقد رأيت ما أصبح عليه كامبيرون في النهاية، رأيت شكله في مؤخرة سيارة الإسعاف عندما وضعه ستيف هناك، وكيف تضرر جسده ضررًا بالغًا».

شعرت ليز بألم شديد يعتصر قلبها، ولكن ذلك لم يمنع نااثان من أن يكمل ما بدأ، فقد كانت في حاجة إلى أن تسمع ذلك.

- إن موته لم يكن سهلًا، يجب عليك أن تدركي ذلك، لقد تعذّب كثيرًا.

لم تُحب ليز، وظلت صامتة، ولاحظ نااثان أنها تبكي ولكنه لم يُبد أي رد فعل تجاه بكائها.

حتى قالت أخيرًا بعد فترة من الصمت: «أنا أعلم أنه تعذب، ولا أطلب منك أن تسامحني على ما فعلت».

- حسنًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ظلت صامتة لفترة أخرى من الوقت.

- نااثان، لقد كنت أبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا عندما تركت المنزل، كنت صغيرة وطائشة ولكنني وعدت نفسي أن أعيش حياة أفضل، وأن تتحسن الأحوال بالنسبة إليّ.

سافرت ليز إلى الشمال، ثم وسعت مجال رحلتها في اتجاه الغرب، كانت تشعر بالحرية للمرة الأولى في حياتها وكانت لديها القدرة على فعل كل ما يخطر بذهنها. توقفت في بالامارا، لمجرد أنها وجدت نفسها على حدود الصحراء ولم يعد هناك مكان آخر تستطيع أن تذهب إليه.

في خلال يومين استطاعت أن تجد لنفسها وظيفة في مكتب البريد، كانت وظيفة سهلة وماتعة واستطاعت أن تجني المال لنفسها للمرة الأولى أيضًا في حياتها، كما استمتعت بتكوين صداقات جديدة بين السكان المحليين.

كان سكان المدينة ودودين ولديهم الوقت -بين الحين والآخر- لمنح ابتسامة لعاملة مكتب البريد الجديدة.

عندما دعاها كارل برايت إلى تناول الشراب للمرة الأولى، لما رآها في مكتب البريد وهو يسأل عن خطاباته المتأخرة وافقت على الفور. كان وسيماً ومرحاً ولديه حس فكاهي ممتع، وهو ما لم تعد تستطيع أن تفهمه مع مرور الوقت، ثم بدأت حياتها تتغير إلى حد كبير.

ثم أظلم فجأة وجه ليز وهي تكمل قصتها: «ثم تزوجنا، وأدركت أن حياتي لم تتغير إلى هذا الحد، أخبرني والدك في البداية أنه لاقى العديد من المتاعب في طفولته، وأنه حزين من أجل ذلك وأخبرته أنني كذلك عشت طفولة صعبة واتفقنا على أن نتغير إلى الأفضل، لكن شيئاً لم يتغير إلى الأفضل. لقد تغيرت الأمور للأسوأ وأصبحت حياتي مع كارل نسخة رديئة من الحياة السابقة التي هربت منها، لم أدِرِ ما الذي عليّ فعله ولم يكن عندي قدرة على المقاومة، حتى حملت بك. عندها أصبحت الحياة أكثر صعوبة يا ناثنان، وعاهدت نفسي أن أتحمّل ما يفعله كارل بي ولكنني لن أسمح له أن يلمس أطفالي بسوء».

كانت ليز تهمس ولا قدرة لديها على النظر في عينيّ ابنها: «صدقني يا ناثنان، لقد بذلت أقصى ما بوسعي، لقد وضعت خطة للهرب، واستعددت إلى الرحيل، لكن ذلك لم يكن جيداً بالقدر الكافي، أنا أسفة، كنت خائفة للغاية، ولم تكن محاولاتي كافية، لم تكن كافية مطلقاً».

ظلت ليز صامته لبعض الوقت، ثم قالت: «ثم وقعت تلك الحادثة التي مات فيها أبوك، وأظن أن ذلك أنقذ حياتي وحياة بوب، هذا أمر مؤكد».

عادت الذاكرة بناثنان إلى الماضي، عادت إلى تلك الليلة المظلمة الحارة حيث استلقى كارل برايت محشوراً في السيارة المحطمة بين الزجاج الأمامي ومقعد السائق وعجلة القيادة والمعدن اللامع يخترق جسده. وتذكر وجه ليز المرتعب الدامي وهي تجلس في مؤخرة سيارة الإسعاف، تنظر إليه في خوف وتبكي. ثم تذكّر قول الممرض إن موته كان بطيئاً ومؤلماً.

مرت في عقل ناثنان في تلك اللحظة فكرة مظلمة، كانت مجرد فكرة ولكنها سيطرت على عقله تماماً، وأخذ يسأل نفسه هل هو محق فيما يفكر فيه، أم أن ما حدث في هذه الليلة أمر مختلف كل الاختلاف عما يدور في ذهنه حالياً؟

نظر إلى القبرين الممددين تحت قدميه مرة أخرى، كان أحدهما قديماً وموحلاً والآخر ما زال حديثاً وممهّداً. تخيل ناثن أن بعض الأشياء تصبح أكثر سهولة عندما يكرر الإنسان فعلها للمرة الثانية.

تردد ناثن لبعض الوقت ثم سألها: «لكم من الوقت...؟».

بدأ حديثه ثم توقف، ثم عادت الأفكار تندفع إلى رأسه مجدداً. لكم من الوقت فقدت الوعي بعد الحادثة؟ لكم من الوقت تركته ملقى بداخل السيارة قبل أن تستدعي المساعدة؟

كان السؤال يدور بخاطره ولكنه لم يقوَ على أن يطرحه عليها، فقد كان يعرف من التعبيرات الظاهرة على وجه أمه أنها لن تخبره بالحقيقة.

كانت ليز تنظر إليه بترقب ثم قالت: «أنا آسفة على الكثير من الأشياء، ولكنني لست آسفة على ما حدث له».

نظر إليها ناثن وهو لا يعرف من المقصود بعبارتها الأخيرة، ولم يجروْ على أن يسألها مثل هذا السؤال.

كانت أوراق شجرة الصمغ الأحمر العتيقة تتطاير، استطاع ناثن أن يشعر بطعم الشمس والرمال والرياح في فمه.

وقفا صامتين لعدة لحظات، قبل أن يسمعا صوت باب المنزل الأمامي فنظرا في اتجاه الصوت. كانت إلسي في طريقها عبر الشرفة متجهةً إليهما، ثم قالت: «اتصال هاتفي من أجلك يا ناثن».

- من أجلي أنا؟

بدت الدهشة على وجه ناثن، ثم سعل لعدة مرات حتى يُصْفِي حنجرته.

- نعم، إنه جلين، لقد قال إنك تركت له رسالة في قسم الشرطة.

- أوه.. نعم، لقد فعلت.

وقف في مكانه ولم يتحرك، فإذا بليز فجأة تتحرك من مكانها وتمد يدها وتجذبه إليها بقوة شديدة، ثم ضمته إليها فشعر برقة يدها وهي تحيط بظهره.

استطاع ناثن أن يشم رائحة شعرها المميزة ولمس جلدها الذي تركت عليه السنين آثارها ولاحظ آثار الدموع في عينيها وهي تقول في هدوء: «لم أرغب مطلقاً في أن أجعلك تواجه هذا الموقف يا صغيري، ولكنني فعلت ما

اعتقدت أنه الصواب وما دلني قلبي عليه، ولكنك رجل صالح يا ناثن، اتخذ قرارك بنفسك وافعل ما تعتقد أنه التصرف السليم»، ثم تراجعت وهي تنظر إليه، «في جميع الأحوال يجب أن تعود للعيش في المزرعة مرة أخرى، يجب أن تعود إلى منزلك».

ظلت ليز تمسك به لدقيقة أخرى، ثم استدارت في هدوء واتجهت إلى المنزل.

قالت إلسي موجهة حديثها إلى ليز: «بوب يريد أن يأتي الجميع إلى الناحية الأخرى من المنزل لمشاهدته وهو يلعب الكريكت».

ابتسمت ليز ابتسامة حزينة ومضت في طريقها وهي تقول: «أشكرك، سوف أذهب إلى هناك، وبالمناسبة لقد اقترب وقت الغداء».

راقبتها إلسي وهي تسير مبتعدة ثم نظرت إلى ناثن وتوجهت إليه، ولاحظت الحزن يملأ ملامح وجهه. فسألته: «هل كل شيء على ما يرام؟ جلين ما زال ينتظر على الهاتف».

- نعم، كل شيء بخير.

- هل أنت واثق من ذلك؟

أدار جسده حتى يتجنب النظر إلى القبرين اللذين كانا ممددين أمامه، فشعر على الفور بتحسن كبير.

- نعم، أنا واثق تمام الثقة.

- حسناً، هيا بنا.

وانتظرت إلسي حتى تأكدت أن ليز ابتعدت بالقدر الكافي داخل المنزل، ثم مدت كفها وأمسكت يده بنعومة وحنان. كانت راحة يدها جافة ودافئة وهي تحتضن كفه وتسير بجانبه.

- اسمع، لقد اقترح هاري أن يذهب معك بالسيارة إلى مزرعتك، حتى

يساعدك على أن تحزم أغراضك، وترتب كل شيء قبل أن تنتقل

للمعيشة هنا، لكنني أخبرته أن المزرعة هنا في حاجة إليه حتى تعود

إلى طبيعتها وتتنظم في العمل مرة أخرى، وكنت أفكر في أن آتي معك

لنقضي عدة أيام في مزرعتك حتى نرتب كل شيء، إن كنت توافق على

ذلك؟

توقف ناثان عن المشي، ثم نظر في عينيها وقال: «بالطبع، سوف أحب أن نفعل ذلك، سوف أحبه كثيرًا».

- هل أنت واثق من ذلك؟ ربما أنت في حاجة إلى مساعدة هاري، أو بوب؟

- لا... يا إلهي، بالطبع لا.

- هل هناك الكثير من الأشياء التي يجب أن نرتبها؟

- لا، لا داعي للقلق.

- حسنًا، هل أنت في حاجة إلى وجودي؟

- بالطبع، هذا أمر مؤكد.

- حسنًا. (ثم ابتسمت في مرح) يمكننا أن نفعل ذلك، يوم الخميس القادم أو الجمعة.

- في مطلع العام الجديد.

- نعم، في مطلع العام الجديد. (ثم ابتسمت) هذا أفضل توقيت.

عندما وصلا إلى الشرفة، كانت اللوحة الخاصة بلو الصغيرة ما زالت في مكانها والهواء يداعب أطرافها، وكانت اللوحة الزيتية الخاصة بكاميرون مستندة إلى الجدار بالضبط كما تركتها ليز.

صاحت إلسي: «يا إلهي، ما الذي أخرج تلك اللوحة إلى هنا؟»، واندفعت في اتجاهها.

- أنا فعلت.

التقطت إلسي اللوحة وقالت: «حسنًا، لا بأس».

وبعد تفكير لعقت أطراف أصابعها وبدأت بمسح العلامات التي تركها الشريط اللاصق الذي كان يثبت المظروف في خلفية اللوحة، حتى نظفتها تمامًا. اختفت آثار المظروف الذي كان مثبتًا في خلفية اللوحة، وحل محلها آثار أصابع إلسي التي تركتها بينما كانت تنظف خلفية البرواز.

اتجهت إلسي وناثان إلى المنزل وعلّقًا اللوحة في مكانها مرة أخرى. ثم قالت إلسي: «حسنًا، أراك في الخارج بعد أن تنهي المكالمات الهاتفية».

- إلسي؟

- نعم.

- أردت فقط أن...

ثم أمسك ناثان بيد إلسي ثم سألها: «هل أصبحت تشعرين بالسعادة؟ أقصد في الوقت الحاضر».

ظهر التجهم والارتباك على وجه إلسي. ثم أجابت في النهاية: «لا أعرف، لقد كان أسبوعًا سيئًا، هل تعرف، في الحقيقة لقد كان العام كله سيئًا لأقصى درجة ممكنة، ولكن لو كنت تقصد شعوري بتحسن عن الأسبوع الماضي، أو حتى العام الماضي، فالإجابة هي نعم، أنا أشعر بتحسن كبير».

نظرا إلى بعضهما بعضًا، ثم اقتربت منه إلسي بخطوة كبيرة ومدت يدها واحتضنته بحنان ثم قبلته، شعر ناثان بدفء شديد يسري بداخله، دفء ليس له علاقة بشمس الصحراء الحارقة فترك جسده يستشعر الدفء مستمتعًا، وابتسم.

قالت: «أصبحت أفكر في المستقبل مجددًا، هل تعرف لم أكن أظن أنني أستطيع أن أشعر بالسعادة مرة أخرى».

ثم افترقا، وهي تقول: «هل تعرف ما أقصده؟».

- نعم، أنا أعرفه حق المعرفة.

اتجهت إلسي إلى خارج المنزل وهي تشير إلى الهاتف: «أنه المكالمة سريعًا، سوف أكون في انتظارك».

انتظر ناثان حتى اطمأن أنها انصرفت تمامًا، وأغلقت باب المنزل من خلفها ثم اتجه إلى الهاتف وأمسك بالسماعة وقال: «مرحبًا».

كانت أصوات الصياح في الخارج عالية بينما انضمت البنتان إلى بوب وهو يلعب الكريكت، وبدأ هاري بإصدار التعليمات وكأنها منافسة ضمن مباراة حقيقية.

أخذت الفتاتان تتناوبان في إلقاء الكرة في اتجاه بوب.

- ناثان؟

ارتفع صوت جلين من الطرف الآخر من الهاتف.

- آسف يا صديقي، كنت بعيدًا عن الهاتف.

- لا عليك، اسمع لقد عدت إلى مركز الشرطة بالأمس في وقت متأخر وتسلمتُ رسالتك، بالنسبة إلى الفتاة المدعوة جينا، لقد تأكدت من أنها

كانت في بالي منذ ثلاثة أسابيع، لقد اطلعتُ على الأوراق الخاصة بذلك ومواعيد السفر والتذاكر، حتى إنني أجريت معها حديثًا قصيرًا. لقد أخبرتني أنها تشعر بالأسف لما أصاب كامبيرون وأنها لم تعد تحمل له ضغينة، وأنها سألت عن عنوانه حتى ترسل إليه رسالة ما، ولا شيء أكثر من ذلك.

أشار زاندار إلى ناثن في هذه اللحظة عبر النافذة أن يلحق بهم في الخارج ويشاركهم اللعب.

بينما نجحت لو بطريقةٍ ما أن تُسقط بوب أرضًا، شاهد ناثن بوب جاثيًا على ركبتيه وهو ينظر إلى الأرض في خضوع بينما الفتاة الصغيرة تقفز بمرح محتفلةً بانتصارها. لاحظ بوب ناثن ينظر إليه عبر النافذة فأشار إليه أن يأتي للانضمام إليهم وكأنه يطلب منه المساعدة.

جاء صوت جلين على الطرف الآخر من الهاتف: «ناثن يا صديقي، هل أنت هنا؟».

كان صوت جلين ضعيفًا وكأنه قادم من حفرة عميقة.

- آسف، كنت فقط...

كانت إلسي تدور مع الفتاتين في حلقات محتفلات بانتصارهن.

- هل هناك شيء آخر تريد أن تخبرني عنه؟

أخذ ناثن نفسًا عميقًا وهو يشاهد ما يحدث بالخارج.

- حسنًا، أنت تعلم يا صديقي، لا شيء آخر يمكن قوله فيما يخص تلك الحادثة.

- هل أنت واثق من ذلك؟ كانت رسائلك مُلحة إلى حد كبير؟

كانت لو في تلك اللحظة تكافح للتلويح بالمضرب الذي يبلغ تقريبًا نفس حجمها في محاولة لإصابة الكرة التي تطير باتجاهها. تعمد هاري أن يلقي بالكرة بسرعة بطيئة حتى تتمكن من صدها بالمضرب فرفعت يدها إلى الأعلى في إشارة إلى الانتصار وهتف الجميع مشجعًا.

قال ناثن: «أردت أن أخبرك...».

ثم صمت لعدة لحظات قبل أن يضيف: «حسنًا، أردت أن أخبرك أنني سوف أظهر في المدينة كثيرًا في الفترة القادمة، وسوف أعود لممارسة

حياتي الطبيعية، سواء رحب الجميع بذلك أم كان ضد رغبتهم، يمكنك أن تخبر الجميع بذلك. ولكن يجب أن تعلم أنني لن أثير المزيد من المشكلات في المستقبل».

قال جلين: «حسنًا، إن ما تقوله ليس أمرًا مُلِحًا بالنسبة إليّ، ولكنه بالتأكيد يمثل لك أهمية كبيرة، كما أنها فكرة جيدة على كل حال».

- أشكرك يا جلين.

- لا عليك.

سعل الشرطي بأدب كأنه يستعد إلى إنهاء المكالمة.

- هل هناك شيء آخر؟

نظر ناثن في هذه اللحظة إلى الخارج، فلاحظ أن ليز تقف في صمت وهي مستندة في الظل إلى السور القديم دون أن يعيرها أحد اهتمامًا، ولكن عيناها كانتا تراقبان الجميع وكأنها ترعاهم.

بينما هاري يعطي الفتاتين بعض النصائح عن كيفية إمساك المضرب، وبوب يقول شيئًا ما لزاندار هامسًا في أذنه فأخذًا يضحكان معًا بصوت عالٍ. والسلي كانت واقفة تبسم ووجهها يلمع تحت أشعة الشمس في رقة بالغة.

- هذا كل شيء، أشكرك.

- حسنًا، أتمنى لك عامًا سعيدًا.

- عامًا سعيدًا لك أيضًا، يا جلين.

وضع ناثن سماعة الهاتف واتجه إلى الخارج، فتح الباب فاستقبله ضوء النهار بحرارة وهو ينضم إلى عائلته.

مكتبة

t.me/soramnqraa



الرَّجُل المَفْقُود THE LOST MAN

"أحببت الرجل المفقود، حبًا كبيرًا،
هي أفضل رواياتها حتى الآن".
- ليان موربارتي، كاتبة أسترالية

جين هاربر

هي كاتبة لأكثر الروايات مبيعًا
حول العالم، رواية القحط هي أول
عمل لها وحاز عدة جوائز عالمية،
كما نشرت رواياتها في ٤٠ دولة
حول العالم وحصدت الكثير من
الجوائز العالمية.

ولدت جين في مانشستر، المملكة
المتحدة، ثم انتقلت وعائلتها في
عمر الثامنة إلى أستراليا وعاشت
ست سنوات في فيكتوريا
وحصلت خلال تلك الفترة على
الجنسية الأسترالية، ثم عادت مع
عائلتها في سن المراهقة إلى
المملكة المتحدة والتحق بجامعة
كينت لتدرس اللغة الإنجليزية
والتاريخ. وتعيش حاليًا في ملبورن
بأستراليا.

"تستطيع جين هاربر من خلال
روايتها أن تدفعك إلى عالم
الغموض، حيث كل شيء يختلف
في حقيقته عن الصورة التي
تراها أمامك، وكل شخص لديه
العديد من الأسرار الدفينة".

- Daily Mail

"استطاعت هاربر أن تؤمّن
مكانها كملكة على عرش روايات
الجريمة بقصة هذه العائلة
الملعونة".

- Sunday Times

الرَّجُلُ الْمَفْقُودُ THE LOST MAN

فوق قبر لرجلٍ غامضٍ في صحراء أستراليا مترامية الأطراف، ترقد جثة كاميرون تحت أقدام أخويه ناتان وبوب. ما الذي دفع كاميرون للخروج إلى الصحراء وترك سيارته في هذا الجو شديد الحرارة، هل تركها بإرادته أم أن في الأمر جريمة لا يسهل فك خيوطها.

الجميع مشتبه به، وربما يكمن حل اللغز في اللوحة التي رسمها كاميرون قبل سنوات من وفاته، كميراثه ورسالته للجميع. "الرجل المفقود" الرواية التي أعدها الكثيرون العمل الأبرز في مسيرة جين هاربر كاتبة الجريمة والإثارة المنتظر أن تتربع على عرش المملكة خلال السنوات القادمة.



telegram @soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb